

ربيع جابر

بيروت مدينة العالم

رواية

كتب أعلام وقادة الفكر العربي والعالمي

الكتب هي ثورة العالم المخزونة ، والارث المناسب للأجيال والأمم

اضغط هنا منتدى مكتبة الاسكندرية

صفحتي الشخصية على الفيسبوك

جديد الكتب على زاد المعرفة 1

صفحة زاد المعرفة 2

الأعمال الكاملة : من هنا

المسرح العربي والعالمي

لتحميل روائع الأدب العربي والعالمي : القصة والرواية من هنا

لتحميل كتب المنظمة العربية للترجمة من هنا

بيت الحكمة

كتب الفلسفة والدراسات السياسية

اجتماع تربية وعلم نفس

كتب السياسة ، اقتصاد وقانون

الصحافة والإعلام-الفنون السبعة

سلاسل كتب ، مجلات ودوريات

مكتبة نوبل

كتب مشروع كلمة

موسوعات قواميس ومعاجم

كتب العلوم والطبيعة

أضغط هنا مكتبتي على تويتر

ومن هنا عشرات آلاف الكتب زاد المعرفة جوجل

ربيع جابر

بيروت مدينة العالم

بيروت مدينة العالم

(رواية)

تأليف: ربيع جابر

الطبعة الأولى، 2003

الناشران

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب: 4006 سيدنا

هاتف: 212-2-2303339

فاكس: 2305726

e-mail: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت: ص. ب: 5158 ـ 113 الحمرا

هاتف: 352826 ـ 343701

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية الريم

ص. ب: 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633(01) ـ 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

إلى رينيه الحايك

هذه الرواية من نسج الخيال. وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومن الغرائب ومجرد عن أي قصد.

وضع الكونت كوب الماء من يده، وسألني متى أنتهي من تأليف الكتاب.

نور الثالثة بعد الظهر سطع على سطح الطاولة، على زجاج المطاعم، على برج ساعة العبد، على رصيف ساحة البرلمان. بعيداً، في أسفل شارع «عزيز الأحدب» المنحدر، بانت غيومٌ بيضٌ تعبر نوافذ «بلدية بيروت» وتلقي ظلالاً سابحة على شارع «ويغان» المرصوف بالحجر البركاني الأسود. خرير المياه في نوافير الحديقة المواجهة للبلدية كان يبلغنا خافتاً. الكونت، بأعوامه الـ 98، لم يثقلْ سمعه بعد. فكرت في معنى أن تستيقظ كل صباح وتغادر سريرك إلى الحمام مدركاً أنك وُلدت قبل 98 عاماً.

حين رجعت من شرودي انتبهت أن اللون الأزرق الذي يملأ النوافذ في هذا اليوم الربيعي ينعكس كحلياً قاتماً على خشب المناضد، وعلى اليد القديمة الملقاة أمام عينيّ. رأيتُ شعراً ناصعاً كالثلج يغطي المعصم، ظاهراً من تحت الكمّ الأنيق الخالي من أي تجعيدة، زاحفاً على الأصابع القديمة بعظامها المسنّنة.

سحب يده عن الطاولة وتنحنح مستقيماً في جلسته. خيّل إليّ أنني أسمع فقرات عموده الفقري تطقطق وترتب نفسها في صفٍ منضبط.

بذلة زرقاء سماوية. قميص أبيض بياقة منشاة عالية مزرّرة بقسوة على جوزة عنقه. وجاكيتة من الكشمير الرمادي. شعره الأبيض، ونظاراته بإطارها الفاحم السواد. كل ذلك يعود إليّ الآن.

لم أحدق إلى وجهه إلاّ نائماً. وهذا جعلني أحفظ ملامحه. كل تلك التجاعيد الغائرة في الجلد الذي تتجدد خلاياه منذ 98 عاماً، كل تلك التجاعيد لم تجعله عجوزاً. . . بدا، في ذلك الغروب الربيعي، خالداً. بدا رجلاً صقله الوقت فأخرجه إلى عالم التماثيل من دون أن يقتل الروح في جسمه، ومن دون أن يطفئ النور في عينيه.

كان، حين يحدثني في الهاتف، يقول ما يريد بإيجاز، ثم يلفظ «شكراً» صلبة خاطفة كرصاصة، ويقفل الخط. أبقى وحيداً في مكتبي في «الحياة»، انظر إلى السّماعة الباردة، أنظر إلى شاشة الكومبيوتر، أنظر إلى أوراق تزحف عليها الكلمات كالنمل، ولا أدري إلى أين يذهب هو في تلك اللحظة، لماذا يحتاج إلى إقفال الخط سريعاً هكذا، وهو في القصر القديم الفارغ الردهات، من الصباح إلى المساء، يوماً تلو يومٍ تلو يوم، لا يفعل شيئاً غير التحديق عبر زجاج النافذة، أو من خلال باب الشرفة المشغول المُطرق، إلى أشجار سوَّد جذوعَها الهرمة الفطرُ، وأيبس أغصانها اللبلابُ الشائك. لم أسأله مرة عن ذلك. ولن أسأله. كان ذلك اللقاء بيننا، في ساحة البرلمان في وسط بيروت التجاري، لقاءً أخيراً. وما كنت أعلم حينئذٍ أنه كذلك. ولو علمت لمَا سألته شيئاً. ماذا أسأله؟

أستطيع الآن أن أحدد الزمن بدقة: الأيام الأولى من نيسان (أبريل) 2003، ذلك أنه في كلامه أتى على ذكر الحرب الجارية في العراق، واقتراب قوات التحالف الأميركية ـ البريطانية الحثيث من حدود بغداد. تحدث عن حصار بيروت عام 1982، قال

شيئاً عن انقطاع الماء والكهرباء، وعن تكاثر الطيور غير المسبوق في الحديقة. ثم غابت عيناه الصغيرتان وراء زجاج النظارات السميك، وحين تكلم من جديد، أخبرني عن دمياط أثناء الحرب العالمية الثانية، عن حيفا بعد ثورة 1936، عن برلين عام 1945، وعن حريق وكالته في «اللعازارية» المجاورة خلال «حرب السنتين».

اعتدت ـ في البدء ـ أن أسجل حديثه، بعد كل لقاء، في دفاتري. أسجل أحاديثه لئلا تخونني الذاكرة، وأقول إن الوقت لم يحنْ بعد لترتيب كل ذلك في رواية. أجرب أحياناً أن أبدأ ثم أقرر أن هذا مستحيل. هناك شيء ناقص، محورٌ أفشل ـ مرة تلو الأخرى ـ في الوقوع عليه.

أمامي الآن حديثٌ قديمٌ، من زمنٍ يسبق 11 أيلول الذائع الصيت. الحديث الذي جرى على شرفة بيته المطلّة على البحر لا أستطيع استعادته هنا. أقرأ الكلمات وأنتبه أنني عاجزٌ عن التعبير. وقع صوته. أسلوبه في القص. حركة جسمه. الحنين في نظرته. وأثر كل ذلك فيّ. بينما يحكي كنت أحسّني خارجَ العالم. كأنني غادرت عصورنا السريعة الصاخبة ومضيت مستدلاً بصوته إلى تلك الأزمنة البائدة، إلى مدنٍ قديمة زالت ولن تعود. ذات أصيلٍ، في نهايات خريف 2001، تمشينا معاً في وسط بيروت، ودلّني ـ بينما يحكي عن أخوته وعن جدّه لأمه وعن أبيه ـ إلى موقع «باب السراي» القديم (جنب جامع منصور عساف، أو «جامع السراي»، القائم حتى اللحظة بين «بلدية بيروت» ومبنى «ڤيرجين ميغاستور»). قطعنا شارع «ويغان»، وانحدرنا في «فوش» صوب البحر. ارتفعت ذراعه اليسرى ورسم حدود «حارة البارودي» التي أُزيل سورها وهُدمت بوابتها أثناء أعمال توسيع دروب بيروت القديمة عام 1915. قرأت أسماء الشوارع الجديدة، تلك الصفائح الحديد المستطيلة

الزرقاء المطروقة إلى الحيطان المرممة، وأحسّست بالبرد. نسائم الخريف، البحر الذي يبعد رمية سهم، وظلال الحيطان الحجر الصفراء. كل ذلك أشعرني بالبرد. وصوت الكونت ده بسترس. كان يحكي إلى جانبي وكنت أشمّ رائحة جسم متعب قديم، وأسمع في الصوت المتموج ـ كما يتموج الهواء في عُشب الحقل ـ صدى بارداً يأتي من حيث لا أدري. حكى عن جدّه لأمه عبد الغني البارودي. حكى عن جدّه لأبيه ميشال بسترس. حكى عن خالاته وعن عمه إبراهيم وآل طرازي شركاء عمه إبراهيم. حكى عن بيروت طفولته، عن «حارة البارودي» قبل زوالها، عن جامع الدباغة والمخازن في أسفله (كنا نقف أمام «جامع الصدّيق» أسفل «فوش»، وقال لي: هذا كان جامع الدباغة قبل 1932، مئذنته كانت خشباً؛ إلى المعصرة في القبو تحته كنا نجيء مع أمي لشراء السمسم والطحينة). حكى عن ركوبه السفينة «علياء» إلى يافا مع الموسيقار محمد عبد الوهاب. قال كلمات لم أسمعها بينما نقطع شارع «سعد زغلول» بكل تلك المتاجر الفخمة والفارغة عن جانبيه. لم أسمع لأنني كنت غارقاً في رأسي. تكفي حكاية أحياناً، يكفي ظل جدار في غروب بارد مثل هذا الغروب، يكفي سكونٌ مقتطع في قلب ضجيج بيروت المزدحمة بمليون نسمة، يكفي إحساسٌ عابرٌ بالزمن القديم النائم في الحجارة، في الطحلب بين بلاطات الطريق، في العشب الذي ينمو في «التل الأثري» (أطلال الحصن البحري بالحائط المتداعي والدرج الذي يصعد إلى الفضاء)، يكفي نسيمٌ بحريٌ يحمل صوت سيارة عابرة الكورنيش يكفي شعاع شمس ذابل ينطرح بين بنايتين، تكفي ذكرى بعيدة غامضة من زمن الطفولة، لكي ينتابك الإحساس أنك عشت هنا قبل وقتٍ طويل. أنك كنت تعرف هذه الدروب قبل الحروب، وقبل أن تتغيّر المدينة وتصير إلى ما صارت عليه.

تحسّ أحياناً أنك عشت في بيروت القرن التاسع عشر.

أو بيروت الانتداب الفرنسي والنصف الأول من القرن العشرين.

لا تقول ذلك لأحد.

لكنك تفكر فيه.

«دفتر اليوميات. 12 حزيران (يونيو) 2000: زيارة طويلة ظهراً إلى بيت الكونت. الخدم، كالعادة، يستقبلونك بابتسامات مهذبة، بحركات مرتبة، بسكونٍ. كل شيء يعطيك الشعور ذاته: ليس الرهبة، ليس الوقار، بل الثقل. الأثاث الضخم، الدرج الداخلي برخامه العريض ودرابزينه المشغول، الثريات الكريستال، السجاد العجمي، الكراسي الخشب المذهبة، المرايا المؤطرة العالية، خشب الجوز المحفور المجدول، التماثيل البرونز، الأعمدة ذات التيجان، الموزاييك بين أحواض الزرع، الأبواب الثقيلة. كل شيء يوحي بركود الزمن بين هذه الحيطان العالية المزدانة بصور الأسلاف واللوحات الزيتية القاتمة. الستائر المخمل تضاعف ثقل الهواء في أرجاء القصر.

وجدته على الشرفة المطلّة على البحر يقرأ صحفاً فرنسية. كانت الصحف ملقاة على البلاط، وعلى الأرجوحة، وعلى الطاولة الاسطمبولية الواطئة. جلست على الكنبة المقابلة لكرسيه الهزّاز الإنكليزي. بينما يحكي وجدتني أتأمل صباطه اللامع الطلاء وأتذكر إحدى قصصه عن سليم سلام. حدّقت إلى عصاه الأبنوس المستقرة على الأرجوحة، بين الصحف، وفكرت في حياة إميلي فرعون. نظرت إلى سرب حمام يحلّق فوق شجرات السرو قبل أن يختفي وراء مباني الجامعة، وتذكرت رحلته مع فارس نمر إلى الخرطوم.

أحسست بالتعب. كل تلك الحكايات والأخبار! المادة تتراكم في هذه الدفاتر. وكل هذه الكتب والصور والوثائق والوصايا واليوميات والرسائل التي أغرق في تفاصيلها تأخذني، يوماً بعد يوم بعد يوم، إلى متاهة لا أعرف كيف سأتمكن من تنظيمها، لا أدري هل أستطيع!

بينما أغادر القصر غمرتني ظلال الشجر الأسود، وسمعت أزيز الحشرات في العشب.

عند المساء وقفت في «ويغان»، مواجهاً مبنى البلدية. فكرت في الكونت، وفكرت في حياتي. ربما لن أكتب هذا الكتاب أبداً، قلتُ في نفسي. مشيت في الشوارع المضاءة بالكهرباء، فوصلت إلى هنا عند العاشرة. الوقت يجاوز الآن منتصف الليل.»

منذ زمن بعيد أحاول تأليف هذه الرواية، وأفشل. قلت للكونت إنني أشرف على الانتهاء من الكتاب. كنت أكذب. ما قيمة رواية لا تحملك إلى عالمها؟ أردت دائماً أن أسحب القارئ إلى عالم الأسلاف: لكي يرى ما أراه، لكي يحسّ بما أحسّ. كأن ينظر إلى مبنى بلدية بيروت المرمّم، الجديد الآن، فيرى في باطن هذا المبنى الحديث النظيف الزجاج ذلك المبنى الآخر الحائل اللون، غير المرئي، والمطابق له في طرازه العثماني، كما أنشأه المهندس يوسف أفتيموس في زمن الانتداب الفرنسي، وكما حفظته لنا تلك الصورة الفوتوغرافية التي التقطها الأرمني أوزونيان عام 1928.

لكني أريد ما هو أصعب أيضاً: أريد من القارئ أن ينظر إلى مبنى البلدية الذي أحرقته حروب لبنان بين 1975 و1990 ثم رُمِّمَ، وأن يحفظ المبنى في خياله، ثم أن يزيله كاملاً بتلويحة يدٍ لكي يرى

في مكانه، خلفه تماماً، في زمنٍ غير مرئي لكنه موجود، أن يرى تلك الحارة القديمة، «حارة البارودي» البائدة.

في ذلك اللقاء الأخير في ساحة البرلمان في وسط بيروت، نظرت إلى اليد القديمة على الطاولة وسألت نفسي ماذا يعني حقاً أن تكون يدك مثل هذه اليد، أصابعك مثل هذه الأصابع. تخيلت الكونت ينظر في المرآة عند الصباح. الوجه الذي يحمل 98 عاماً في تجاعيده، العينان اللتان أبصرتا كل تلك المناظر، كل تلك المدن والعمارات، كل تلك الوجوه...

طيور الحمام على رصيف البرلمان تقافزت تنقر الحبّ. ظُلّ البرج يدور في الساحة. كأننا في لوحة من لوحات دي شيريكو. الغيوم تعبر قرص الشمس. كل هذا الوقت الذي يسيل في الشوارع، الذي يرتجف في الهواء وبين الجدران، أكاد أسمع طنينه النحاسي.

كل ما أقوله يتلاشى، لا يبقى.

وكذلك كل قصص الكونت.

يضمحل كل شيء، كل شيء يضمحل.

جد الكونت لأمه.

وجد الكونت لأبيه.

قصص آل البارودي وبسترس والبكري والسكاكيني وطرازي وفرعون.

بيروت ونيويورك ودمياط وحيفا وبوينس أيرس والبندقية والإسكندرية واسطنبول والقاهرة ونابولي.

أغمض عينيّ. أتخيل بيروت القديمة، البلدة المحاطة بسورٍ مستطيل سنة 1821 أو 1822، سكانها خمسة آلاف نسمة. أرى مطراً يهطل على «سهلات البرج» حيث مبنى «فيرجين» اليوم. أسمع

صوت المطر، النشيج المتواصل، وأرى نوراً يتلامع في أبراج الحراسة فوق السور القديم.

أفتح عينيّ. التلفزيون مطفأ في الزاوية. بعوضة تحوم حول المصباح. عبر زجاج الشرفة المظلم أرى، بعيداً بعيداً عند انتهاء صفحة البحر السوداء، نوراً دقيقاً يكبر ويقترب رويداً رويداً. كل الطائرات تجيء إلى بيروت من تلك النقطة الثابتة النائية في الأفق. النور يفتح درباً في سهل البحر المظلم. لكن السفينة CATHERINE التي حملت الكونت قبل زمنٍ بعيد إلى الإسكندرية لا يُرى لها أثرٌ. أما زالت راسية في خليج أبي قير تسكنها أسراب السمك وتنبت الزهور في أخشابها؟ أم أنها هبطت إلى قعر المياه مثل قارورة نحاس؟ كل شيء يضمحل. لم أذهب إلى جنازة الكونت. حين علمت بوفاته وضعت سماعة الهاتف من يدي ثم وقفت وغادرت المكتب. مشيت في شارع المعرض حتى ساحة البرلمان. وقفت في ظلّ الساعة وقتاً، أنظر إلى الحمام وإلى رجال الدرك وإلى العابرين وإلى السماء الزرقاء. ثم تابعت طريقي إلى حوض الماء أمام «مبنى البلدية». خرير المياه يحملك إلى أعماق غير مرئية. يأخذك خارج هذا العالم الزائل، خارج النبض السريع للكون. أو هكذا حدثت نفسي بينما انظر إلى جريان الماء.

الآن لا أدري ماذا أصنع. طنين الليل في أذنيّ والأوراق مبعثرة على الطاولة. ملاحظات؛ صور فوتوغرافية قديمة؛ صكوك؛ صورة طبق الأصل عن تذكرة عثمانية؛ نيشان مجيدي؛ دفاتر يوميات؛ أحكام صادرة منتصف القرن التاسع عشر عن المحكمة الشرعية في غزة؛ سجلات حسابات «شركة بسترس وطرازي للمانيفاتورة»؛ وصية عبد الغني البارودي؛ شجرة عائلة طرازي (من الجد بطرس المولود في حلب سنة 1597 والمتوفى سنة 1678، إلى الأحفاد

المقيمين في سوريا ولبنان وفرنسا واليونان ومصر والجزائر وأميركا والسودان والبرازيل عند مطلع القرن العشرين)؛ براءة قيصر النمسا يوسف الثاني يمنح بها شرف لقب كونت لأنطون قسيس فرعون ولذريته بتاريخ 30 حزيران 1783 (NOUS JOSEPH II..)؛ براءة لويس الثامن عشر ملك فرنسا يمنح بها شرف لقب فارس من فرسان قبر الخلاص لإلياس بسترس بتاريخ 16 أيلول 1820 أو 1830 (التاريخ غير واضح):

SOUS L'AUTORITÉ DE SA MAJESTÉ
LOUIS XVIII
ROI DE FRANCE ET DE NAVARRE
SOUVERAIN CHEF ET PROTECTEUR...

شهادة وفاة الكونتيسة مريم صابات بسترس؛ رسالة من الكونت بسترس إلى ابنته هيلانة بسترس فرعون مؤرخة في «15/ 7/ 1959ـ وينتر بالاس ـ فيينا»؛ قطعة فضة مدوّرة شبيهة بالليرة المعدنية لكنها أسمك بقليل احتفظ بها الكونت نحو ثمانين عاماً؛ رسائل بحبرٍ سائل بعضها غير مقروء متداخل السطور والحروف باللغات العربية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية والألمانية والأسبانية؛ تذكرة سفر بالبحر مقطوعة في كانون الثاني 1926 من نيويورك إلى مدينة سنتو دومينغو عاصمة جمهورية هايتي؛ 32 نسخة ـ مطوية معاً في مغلفٍ واحد ـ من شجرة عائلة سرسق؛ عدد من مجلة «أنيس الجليس» التي كانت تصدرها الأميرة ألكسندرا أفيرينوه في الإسكندرية؛ كوب زجاج محجّر ـ بطاسة فخار مثبتة على فوهته ـ باقٍ من «مكتب تلغراف حيفا» الذي احترق خلال ثورة 1936 ـ 1939؛ «مبادئ اللغة اللاتينية» طبعة دير قزحيا، مخطوط بحبرٍ بنفسجي على صفحته الأولى:

الأب فرنسيس لاروا
مدرسة الآباء اللعازريين ـ عينطورا ـ 1842

وفي الجانب الآخر من الصفحة، بحبرٍ أسود:

المطران كورتس أنطون دياربكرلي
مطرانية بيروت للسريان ـ 1829

وفي أسفل الصفحة ذاتها:

الكونت سليمان ده بسترس
الآباء اللعازريين ـ بيروت ـ 1917.

رسالة من هنرييت بسترس إلى أبيها الكونت وبطاقة بريد من روما برسم الفاتيكان؛ خنجر بقبضة مذهبة ورموز فرعونية؛ قِطع نقدية مختلفة؛ ألبوم طوابع بريدية؛ ايصالات وفواتير وبطاقات بالعربية والأجنبية؛ وسام القديس غريغوريوس الكبير من رتبة قومندور لا يمنحه إلاَّ الحبر الأعظم؛ شطية خشب انتزعتها خالة الكونت من الباب العالي في الآستانة؛ إلخ..

حياة الكونت مبعثرة أمامي. على الطاولة، على السجادة، وعلى الكنبة. طنين الليل في أذنيّ. الطائرة عبرت وتبدّد هديرها. أنظر إلى بقايا الحياة على الأرض وعلى الطاولة، ولا أعلم كيف أستخرج الروح من هذه المواد المتناثرة. حين أموت يموت صوت

الكونت كما سمعته. أذهب من هذا العالم ويذهب معي عالم الكونت سليمان ده بسترس. تتبدّد إلى الأبد «حارة البارودي» بالطريق البيضاء التي تقسمها نصفين، كما تبدّد هدير محركات الطائرة قبل لحظة. أنظر إلى الكلمات تسيل من رأس قلمي الأزرق هنا، وأنظر إلى الباسبور العثماني الأحمر بين كوب الشاي المتروك وبين المنفضة. أسأل نفسي ماذا تلاشى من هذا العالم مع رحيل الكونت إلى حيث لا يعلم أحد؟ غير «حارة البارودي»، غير وجوه أمه وخالاته، غير مكتب التلغراف في حيفا، وغير البيت الأول الذي سكنه في الإسكندرية، ماذا تلاشى أيضاً؟ كل تلك المناظر التي رآها من نافذة قطار يعبر أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. المتاجر التي امتلكها وراء الأوبرا قبل حريق القاهرة. كنبة اعتاد أن يأخذ عليها قيلولة العصر في وكالته في «اللعازارية» (المجمع التجاري الذي كان ديراً). ومشهد الأشجار السوداء في حديقة قصره حين يحدق إليها بعينين كلّتا من النظر، عينين تتذكران عالماً ليس يعرفه الآن أحد.

أذكر لقائي الأول مع الكونت. في ذلك الصباح البعيد من شتاء 1995 سمعت للمرة الأولى عن «حارة البارودي». في ذلك الوقت بدأت روايةٌ عن هذه العائلة تتضح في رأسي. كتبت نصفها ثم مزقت ما كتبت. استعنت بذكريات الكونت في روايات أخرى عن بيروت القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. لكنني لم أستخدم قصص الكونت نفسها أبداً. كنت أعلم أن هذه رواية أخرى. لا أقدر أن أحصي عدد المرّات التي بدأت فيها الكتاب ثم انتهيت إلى تمزيق ما كتبت (الآن أيضاً ثقتي غير كاملة أنني سأستمر). بدأت الكتاب مرة بوصوله إلى الإسكندرية. في مرة أخرى بدأت بقصة أمه سلطانة. وفي مرة ثالثة بدأت الرواية بغرق جده في البحر. لكنني، قبل أيام،

بينما أتصفح دفاتر يومياتي، عثرت على ذلك اللقاء الأول وعلى المرة الأَولى التي سمعت فيها اسم عبد الجواد أحمد البارودي.

الكونت ده بسترس المولود عام 1905 عرف «حارة البارودي» قبل زوالها. هناك قضى قسماً من طفولته. لم تكن حارة البارودي بيت أهله. بل بيت جده لأمه عبد الغني بن عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي. الحارة لم تكن بيتاً واحداً، فذلك البيت الكبير المكوّن من طبقتين والمسقوف بالقرميد الأحمر أعطى اسمه للحيّ المسوّر كلّه. الكونت سيظل يذكر باب الحيّ المنحوت من خشب السنديان والمرصع بقطع الحديد. يذكر السور الحجر شبه المربع الذي يحضن بيوت الحيّ المتلاصقة. ويذكر بيت جده الكبير، بالقرميد الأحمر العالي، يتصدر الحيّ، بنوافذه المستطيلة المشرفة على الخان والميناء والأرصفة، على مخزن البطيخ، وعلى البحر والمراكب. يذكر الحواكير المزروعة توتاً بين البيوت. بيوت بيضاء وبيوت من الحجر الرملي الأصفر، مثل حجارة سور الحارة، جزء ضئيل منها جاء مباشرة من مقالع وطى المصيطبة والجزء الأكبر انتُزع من سور بيروت بعد أن قصف الأسطول الإنكليزي المدينة عام 1840.

لم تُبنَ الحارة دفعة واحدة. جد الكونت ده بسترس لأمه الحاج عبد الغني البارودي روى له في ذلك الزمن البعيد الذي سبق نشوب الحرب العالمية الأولى وقدوم جمال باشا إلى بيروت، قصة الحارة وقصة الرجل صاحب الذراع الواحدة الذي بنى البيت الصغير الأول هنا، بين شجر التوت والجميز والسنط، بعد شتاءٍ عاصف مظلم حلّ على بلاد الشام بين عامي 1820 و1822، فرفع موج البحر على مدن الساحل، أغرق مرافئ وأرصفة وجوامع وأحياء، وأحرق ـ بصاعقةٍ ـ المئذنة الخشب لجامع الدباغة.

في ذلك الشتاء البعيد جاء الجد الأكبر لعائلة البارودي إلى بيروت. هذه العائلة انقرضت في العقد الثاني من القرن العشرين، ولم يبقَ منها أحد. آل بارودي الأحياء في بيروت لا يمتّون بصلة قربى إلى أسلاف الكونت. الفرعِ الباقي من هذه العائلة، والمقيم في دمشق، كان في دمشق أصلاً، ولم ينزح إليها من بيروت. بل العكس هو الصحيح. ذلك أن البارودي الأول الذي جاء إلى بيروت بين 1820 و1822، عبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع الواحدة، جاء إليها هارباً من الشام. ما نعرفه من قصته قليل. وهو ـ كما سيظهر في فصولٍ آتية ـ غير دقيق أيضاً. لنقلْ إنه غير ثابت، غير مؤكد. لكن هذه الملاحظة عليها الانتظار الآن. فقبلها لا بدَّ أن نسمع قصة الرجل المقطوع الذراع.

لم يكن عبد الجواد أحمد البارودي جاوز الخامسة والعشرين حين ظهر للمرة الأولى أمام أسوار بيروت بقميصٍ ملطخ بالدم، ونعلٍ سختيان مثقوب. سرواله الأسود الفضفاض كان ممزقاً أيضاً، عند الركبتين، وبين الساقين. كانت رأسه عارية. لا طربوش ولا كوفية ولا عمامة. والعباءة المشدودة على جسمه لا تحميه من المطر الغزير الذي يبلّله حتى النخاع. أحسّ المياه تنبع من جلده ومن عظامه. الحامية التركية، على الأبراج فوق «باب السراي»، رأته مقترباً عابراً «سهلات البرج» بجسمٍ حيواني قاتم يلوح بين قرمات التوت ويغيب، ثم يظهر من جديد. كان نور النهار يتلاشى وهو نور يستمر واهناً منذ الفجر، مع هذا الوابل المنهمر بلا توقف، بلا لحظة واحدة من الصحو، منذ سبعة أيام. الحراس أبصروه من الكوى الضيقة في حيطان الأبراج السميكة. كانوا يدخنون ويشربون الزهورات المغلية حلوةً كالقطر. رائحة التبغ والعسل التي تملأ البرج العالي امتزجت برائحة العاصفة: المطر والوحل والتوت المتعفن

والتبن والطحالب التي تنمو على الحيطان والأقدام والبطانيات وجلدة الرأس. كل دقيقة ينفجر البرق في السماء، ويرسم شجراً أزرق تحت القماشة القاتمة المنحدرة نحو البحر. لا سفن ظاهرة قبالة المرفأ الصغير. المراكب سُحِبت من المياه، إلى الأقبية تحت جامع الدباغة وتحت القلعة. الموج ارتفع وغمر السلسلة القائمة بين عمودي الحجر في مدخل المرفأ. القناطر الخمس بين القلعة البحرية واليابسة، قناطر الجسر الخطر شبه المتداعي، اختفت أيضاً تحت البحر. كلما انزرعت صاعقة في البحر نظروا من الكوى، هنا فوق بوابة السراي، إلى الكوى الأخرى المقابلة، في حائط القلعة البحرية. كوى تشبه عيوناً مظلمة. ينتظرون حتى تلوح لهم يدٌ، حتى تظهر جمرة لفافة تبغ، أو تخفق راية. في الشتاء الفائت سقطت الصواعق على الجانب الشرقي من القلعة وهدمت حائطاً على تسعة حراس، فقتلتهم جميعاً. مدافع القلعة الحديد تجذب إلى القلعة الصواعق.

عند الظهيرة سقطت صاعقة بين الجسر، حيث السلسلة ومدخل المرفأ الصغير، وبين «بوابة الدباغة». بعد وقتٍ قصير سقطت أخرى وسط السهلات فأحرقت شجرة. قصّت الصاعقة شجرة التوت الضخمة كما تقصّ سكينة قالباً من الجبن البلدي الأخضر. ثم اشتعلت الأغصان دفعة واحدة تشرقط كأنها مشبعة كبريتاً. بعد ذلك لم تسقط صاعقة واحدة. لكن، قبل قليل، اهتز البرج بسلسلة رعود، وحين أطلّت الرؤوس من فوق الأسوار متوقعة ناراً جديدة في «السهلات»، ظهر ذلك الشكل الحيواني، يتنقل كالضبع، بين الجذوع القاتمة، بحركة غامضة غريبة. إحدى الذراعين بدت أطول من الأخرى. ما هذه الذراع الغريبة؟ كانت تسبح طائرة في الفضاء، إلى جانبه، ثم خلفه، تتمدد ثم تنكمش مثل ثعبانٍ متصلٍ بجذعه.

من هذا الذي يأتي إلى المدينة في يوم مثل هذا؟ كانت الأسوار تذوب في المطر، وبساتين التوت تذوب، والصبير الجاف المتوحش الشائك يذوب، والتراب الأحمر يذوب، والرمال ـ التي تهدد البلدة بزحفها الصحراوي كل صيفٍ ـ تذوب، وحيطان البيوت المغطاة بالطحالب تذوب، والبواريد تذوب، والزرائب تذوب، والماشية الهاجعة تحت مزاريب السطوح المصدعة تذوب. كانت بيروت تذوب، والبحر يذوب، والسماء تذوب، ولا أحد يخرج من بيته منذ سبعة أيام، في هذا الشتاء الفظيع. حتى الكلاب ذاتها لا يصدر عنها نباح. هجعة كالموت تغطي البلدة المستطيلة المسوّرة، والأبواب الخمسة في السور تُفتح فجراً وتوصد عصراً ولا أحد يدخل منها طوال النهار، ولا أحد يخرج. من يغادر بيته في هذا الطوفان؟ ثم انفجرت سلسلة أخرى من الرعود، وبينما الحراس الأتراك يرفعون أجسامهم المهدودة المتعبة من الجلوس، يظهر ذلك الرجل قافزاً بين الأشجار، في «سهلات البرج»، هذه المساحة الفسيحة المزروعة توتاً وزلزلختاً وصبيراً، تحت وابل المطر المنهمر كالحبال، حبال تربط السماء بالأرض والبحر، تربط الغيوم القاتمة المثقلة ماءً بسطوح البيوت، بالمحادل على سطوح البيوت، وبرؤوس المآذن المتعالية فوق ركام البيوت المتلاصقة، وفوق الدهاليز والقبب.

هارباً من وجه القانون، والعساكر السلطانية، قافزاً تحت المطر يحاول الاختفاء والتلاشي بين أشجارٍ متباعدة تُظلم رويداً رويداً وتبدو كالأشباح تحت صفحات المطر المنحدر، لم يكن عبد الجواد أحمد البارودي قادراً على التفكير في المستقبل. حين ارتفعت الأسوار قبالته فجأة، حين باغتته تلك الأبراج والمآذن الثلاث المسننة كرؤوس شوكة الحراثة، أصابه الرعب. رأى ما يشبه نوراً يلمع في ظلمة المطر والغروب والعتمة المقبلة، فسقط قلبه بين أضلاعه. هل

يرمونه بالخردق والبارود من مركزهم العالي؟ هل انتهت حياته؟ كل هذا الفرار الطويل عبر جبالٍ وسهولٍ ومنحدرات وأنهارٍ وهضابٍ ينتهي الآن في لحظة، بفرقعة بارودة، وسط رعود هذه العاصفة؟

«الآن»، بالنسبة إلى عبد الجواد أحمد البارودي، يصعب أن نتخيلها «الآن»، في القرن الحادي والعشرين. كل يوم، في طريقي إلى العمل في مكاتب «الحياة» في وسط بيروت التجاري، أعبر ساحة البرج الفارغة (ساحة الشهداء) آتياً من «الصيفي» أو من «عبد الوهاب الإنكليزي» في الأشرفية. هذه الساحة باتت خالية هكذا بعد الحرب اللبنانية. قبل اندلاع الحرب عام 1975 كانت تحتشد بالمتاجر والأبنية والسيارات والبشر. في الحرب احترقت وصارت ملاذ مهجرين ومقاتلين. بعد 1990 نُسفت عماراتها الباقية بالديناميت وجُرِف الركام كلّه وأُلقي في البحر، فعادت الساحة خالية، تصفر فيها الرياح كما كانت في النصف الأول من القرن التاسع عشر. في ذلك الزمن البعيد، قبل أكثر من 150 سنة، كانوا يسمونها «السهلات»، أو «سهلات البرج».

في ذلك الزمن البعيد كانت الريح تصفر فيها وتهزّ شجر التوت الأخضر. الآن، لا ينبت التوت هنا. أقف في المساحة الخالية، السيارات تعبر الطريق المعبدة بالإسفلت عن الجانبين، والبحر يبدو أزرق مستوياً كصحن زجاج. البحر عن يميني، وجسر فؤاد شهاب عن يساري. أواجه أطلال سينما «سيتي - بالاس» بقبّتها البيضاوية الباقية المزروعة بشظايا الحرب (هنا كان يشتغل الأخ الأصغر للكونت ده بسترس، وهنا كاد الكونت أن يفقد حياته سنة استقلال لبنان في 1943). أتخيل السور القديم الذي كان قائماً هنا. أتخيل امتداده المظلم باتجاه البحر، وأتخيل مئذنة ترتفع فوق المدينة، وراء

السور وركام البيوت الواطئة. الآن، لا يمكن رؤية شوكة المآذن الثلاثة تلك، مآذن السراي والعُمَري الكبير والنوفرة. الجامع العُمري رُمِم بعد الحرب، وجامع النوفرة أيضاً، لكن مجمع اللعازارية الضخم يحجب المئذنتين معاً. ولو أزلت «اللعازارية» بتلويحة يدٍ فإن ذلك لن يكفي. تصاعدت بنايات كثيرة في زمن الانتداب الفرنسي. تغيّر المشهد. وحدها مئذنة جامع السراي تظهر من هنا. السيارات تُسرع، المحركات والأبواق ورائحة الوقود. أتخيل ذلك السور المظلم، أكاد أراه. أرى السور مظلماً رغم نور الصيف العارم. أراه مظلماً لأنني، مثل ذلك الرجل الغريب ـ العاجز عن رؤية المستقبل ـ الذي يرتجف خوفاً وبرداً بذراع واحدة وكم فارغٍ سابحٍ في الفراغ، لأنني مثل ذلك الرجل الهارب من وجه الموت، أقف الآن أمام أسوار بيروت غير المرئية ولا أعرف ماذا يخفي المستقبل لي. . . أين أذهب من هنا؟ أسأل نفسي. وحين أتذكر أين أنا، أقطع الطريق عابراً بين السيارات المسرعة، ثم أدخل شارع «الأمير بشير» مخترقاً الظلال بين «اللعازارية» وكاتدرائية مار جرجس المارونية، ماضياً إلى «الحياة»، كما أفعل في كل صباح منذ 3 أيلول (سبتمبر) 2000.

بيده الباقية أمسك الرجل اللاهث كمُ الذراع المقطوعة ثم دفعه تحت المنتيان. مقرفصاً تحت توتة تجوف جذعها اليابس، بدا ملتصقاً بالخشب المجدول، كأنه قسم من الشجرة. شمّ رائحة الخشب المبلول الحيّ، وشم رائحة جسمه. كان البخار يتصاعد من لحمه كما يتصاعد من لحم بغل أو لحم بقرة مبلولة.

وضع يده لحظة على رقبته المنتفضة، وفكّر أنها تنتفض منذ ضرب أخاه ذلك السكين في خصره. لم ينظر إلى بقع الدم التي تخلّلت نسيج قميصه. لم ينظر إلى أظافره المكسّرة المتسخة. رفع

رأسه وحدّق عبر الأغصان الكالحة السوداء إلى نار تتلامع عبر ثقوب السور ووراء البوابة الضخمة المواربة. لم تكن موصدة. لكن ماذا يفيده ذلك؟ هذه الأسوار التي اعترضت طريقه كالوحش لا تخفي له حياة بل موتاً! إذا عبرها التقطوه من الطريق كالعقرب وداسوه بالنعال مثل حشرة. عليه أن يدور حولها، أن يجد شجرة تخفيه بظلالٍ داكنة، وأن يمضي حول السور، ويتابع فراره، إلى الأمام، إلى الأمام، بعيداً، بعيداً، إلى آخر الأرض. كانت أنفاسه تتدافع في زلعومه كالحصى. النبض يدوي في دماغه، يتردد كأصداء الأودية، ويمتزج بطنين المطر المتواصل منذ زمن طويل. النور يتبدّد من الجو رويداً رويداً. عليه أن ينتظر الظلام وألا يخاطر بالركض الآن، خارجاً من أمان هذه الغابة. من السور العالي قد يراه أحد. وإذا رآه أحدٌ فتلك نهاية حياته.

من يشبه هذا الرجل؟ هنا تبدأ الرواية. رجل يخفي جسمه في تجويف توتة خارج أسوار بلدة غامضة، والمطر ينهمر رتيباً غزيراً لا نهائياً، واللون الرمادي القاتم يغمر العالم. ظلال السور السميك المرتفع عن الأرض نحو خمسة أمتار تتطاول وتزحف مثل موجة داكنة وتغطي السهل والشجر والوحل. الأقنية المتدفقة تسيل في هديرٍ خافت محملةً بالحصى والأتربة إلى البحر. مطر، مطر، مطر، مطر. والرجل يلف جسمه المبلول بذراع واحدة، ومع إقبال المساء يرى البوابة المواربة الضخمة تتحول من فم وحش إلى باب الدفء وباب النجاة من الليل والبرد والجوع والعاصفة. ثم يدرك أنها الحمى تُفسد دماغه، تذهب بعقله، تشوش حواسه، وتفقده القدرة على التفكير. يمسح رموشه التي تقطر ماء، يفرك عينيه، ويلمس رقبته. الحرارة تلسعه. رقبته النابضة مثل رقبة طير مذبوح، الحارة كأن الدم ينوفر من شريانها، تُضاعف الرعب في أعضائه.

صمد حتى الآن، لأن جسمه عصبيّ متين، لكنه لم يفكر لحظة أنه «صمد حتى الآن». منذ تدفق الغيظ إلى مخّه وأعمى بصيرته فزرع سكين الموز في خاصرة أخيه ثم فرَّ هارباً في البرّية، منذ قطع بردى خائضاً كالجاموس البريّ في التيار العظيم الجارف، ينخر ويلهث، ونفسٌ زنخٌ غريب يتصاعد من جوفه، منذ ذلك المساء الكثيف الظلال، فَقَد السيطرة على جسمه وعلى عقله. لا يفهم كيف بلغ هذا السهل المزروع شجراً أسود. لا يفهم كيف بلغ هذه الغابة، لا يفهم معنى هذا الجدار الصامت الهاجع بعيونه الصفراء المستطيلة العالية، لا يفهم شيئاً...

هرب من بيته ومدينته، من دمشق التي تعج بمئة ألف إنسان يعرفون وجهه، ويعرف وجوههم وجهاً وجهاً، أو هو في الأقل يعرف عيونهم. بلى، حتى النساء يعرفهن. لم يكن تاجراً فقط، ليس تاجراً فقط، لم يكن. غامت الدنيا أمام عينيه. المطر المنحدر في صفحات، مع رياح غربية تدفعه في سهام مائلة وتكسر حباله إلى قطرات متناثرة، كل هذا المطر، بهذا الصوت الرتيب، ينزل في الأرض وفي شقوق الجلد ويتسرب إلى مادة العظم ذاتها. الفطر ينمو تحت إبطيه، بين ساقيه، أسفل قدميه، وبين الأصابع. السختيان المنيع، جلد الماعز المدبوغ، تمزق واخترقته الثقوب. نظر إلى قدمه تظهر من النعل وهي تختفي وتذوب في الظلمة الآتية.

هل يتركه هذا الليل حيّاً؟ رأى النور يتلامع أعلى البرج، ثم انتهى إلى نور آخر في البناء القائم خارج السور، جنب البوابة الموارِبة. بدا البناء شبحي الحدود، شبه متداع، ينتأ كورمٍ شنيع من جسم السور ذاته. وسمع همهمة حيوانات. ثِيران، أحصِنَة، بغال؟ كان صوتاً مكتوماً، مُختنقاً تحت نشيج المطر الموتور. حشر جسمه أعمق فأعمق في تجويف الشجرة. يخاف أن تراه تلك العيون

الصفراء المستطيلة أعلى البرج فوق البوابة. يخاف أن يلتقطوه كالعقرب وأن. . . لكن كيف بلغ هذه النقطة؟ هرب من بيته ومدينته، من دمشق التي تعج بمئة ألف إنسان يعرفون وجهه ويعرف وجوههم وجهاً وجهاً، هرب من دمشق التي يعرف حاراتها وأسواقها وأزقتها كما يعرف خطوط يده، كما يعرف الندبات على جسمه، هرب ضارباً في البراري، دم أخيه يطارده، صارخاً فيه من الأرض، مرتفعاً إلى سماء ترى كل شيء وتعلم كل شيء، أين تفرّ من ربّك يا رجل؟ كان يركض لاهياً عن الكون. قوّة لا يدري كنهها انفجرت في أعماقه، وضعت سكينة الموز في يده، دفعت صناديق الخضر والفواكه من أمامه، ورمته على أخيه. تدفقت الطاقة من نقطة غير محددة أسفل رأسه، أحسّ بها مثل خبطة ساخنة في عنقه، ثم تدفقت من عنقه إلى كتفه إلى كامل ذراعه. ذراعه الوحيدة الباقية. كانت لحظة خاطفة، مثل رمشة عين. السكينة تحولت جزءاً من ذراعه، امتداداً للعظم واللحم الحيّ. حين انغرز الحدّ في الخاصرة، أحسّ رؤوس أصابعه تلمس الكلية الحارة. حرارة الجسم المطعون ارتدت كموجة معاكسة وأسكتت (وطمرت) تلك الطاقة الأخرى المتدفقة في ذراعه. رمى السكين وفرّ من الدكان، من السوق كلّه. لا يذكر كيف حدث ذلك. آخر ما يذكره الشفرة البارقة بين أصابعه، وملمس الجلد الملفوف على قبضة النصل، ثم تلك الدفقة الحارة تنزل تحت أظافره وتنوفر في رذاذٍ بلون الخوخ الأسود وتنتشر على عباءته وتبقع قميصه. التعب أسقط جفنيه. فتح عينيه فرأى بقع الظلام والرطوبة تنتشر كالدم على الحائط الأخرس، تنتشر فوق سواقي الماء، تنتشر في الفسحة الموحلة أمام البوابة المواربة.

من جاء به إلى هذا المكان الموحش؟ إلى هذا الحائط الكئيب؟ إلى هذه البلدة الغامضة؟ إلى هذا الليل الماطر؟ من بعيد جاءت

أصوات أخرى. عواء ذئاب وبنات أوى. مع الظلمة تضاعفت الأصداء، وتضاعف البرد. امتدت البرية حول تجويف التوتة، تتشعب في غابات ووديان وجبال، تمضي إلى أطراف العالم، بلا لحظة صحو واحدة. ترك رأسه يسقط إلى خلف.

لا يذكر خروجه من الدكان. بلى، يذكر. يذكر صناديق تسقط أرضاً. ويذكر سلالاً تقع عن بلاطة تبن محزومة عند العتبة، ويذكر الحمار يلتفت بعنق كسولة، وسحابة ذباب أخضر تطنّ على بوزه وعينيه. يذكر نظرة الحمار إليه. ثم وجد نفسه في السوق وراء الجامع الأموي، راكضاً والوجوه تلتفت إليه. ألقى السكين على أرض الدكان، بين أكوام البصل والثوم وباقات النعناع والفجل والبقدونس والجرجير، ترك السكين هناك، والدم هناك، والرائحة الزنخة هناك، فلماذا ينظرون إليه؟

ركض عابراً أزقة تكتظ بالناس (ما بالهم يتكاثرون هكذا في دربه؟)، قافزاً فوق حفرِ قذرة المياه، متجاوزاً أقنية يتضاعف عددها أمام عينيه، كأنها تكرر نفسها من زقاقٍ إلى آخر. أسواق مسقوفة، وأسواق غير مسقوفة. أسواق يُنيرها شعاع ما بعد الظهيرة، وأسواق تتمازج فيها ظلال القِبب. كان يزلق على الوحول، على الطين، ويرى مشاهد خاطفة اعتاد رؤيتها لكنه لم يرَها أبداً كما يراها الآن. البخار تصاعد من الأقنية القذرة التي تعبر الدروب، وهو رأى عبر البخار أبواباً تُوارب فيظهر وراء الأبواب ذلك النور الذي يألفه: نور البيوت، نور الحوش السماوي غير المسقوف، المحاط بالغرف. نور الحوش المزروع ورداً وحبقاً، بالنافورة التي تتوسطه، وخرير الماء الذي يملأ الفضاء. كل هذا بات غريباً برمشة عين. لن يملكه بعد اليوم أبداً. هل فكرَ في كل ذلك؟ عبد الجواد أحمد البارودي لم يفكر في شيء. تلك أحاسيس عبرته كما تعبر الأنف رائحة نفاذة.

عابراً سوق اللحامين خنقته الرائحة: الدم المطروح على البلاط، وبقايا التنباك ومياه النراجيل التي تنظف عند السبيل، وأحشاء الذبائح المكومة في الجورة بعد السبيل.

انعطف في زقاقٍ آخر، وكاد يصطدم بعجوزٍ تحمل سلاًّ من الخبز الساخن على رأسها، وفي يدها سلّ آخر مملوء جبناً فوّاح الرائحة. رائحة حليب الماعز المتخثر ضاعفت هيجان أمعائه. موجة من اللبن الحامض ارتفعت في زلعومه، لم تخرج من فمه، ارتفعت أيضاً كالبخار، ملأت أنفه وملأت عينيه. أمام باب الجامع رأى مداسات وصرامي ونعالاً لا تُعد. ورأى شيخاً ضريراً طالما رآه من قبل ينحني ويغسل قدميه بمياه القناة، لكنه ـ للمرة الأولى ـ رأى البقع الداكنة على يديه. كأنه ينظر إلى مخالب حيوانٍ مفترس، كأنه ينظر إلى حوافر بهيمة. عَبَر سوق الفول، وحين رأى زحمة في نهايته انعطف في طريقٍ إلى يمينه، وذهب بين حيطان تتقوس حتى تكاد تتلامس، وخرج إلى فسحة بساتين آل العظم، واتجه إلى النهر. رأى الأشجار كما لم يرَها من قبل. كانت جذوعها معوجة، وورق الأغصان مشوهاً بالفطر، بالدود، بكل تلك الحشرات الساكنة أو ذات الأزيز. قفير النحل المتدلي من أغصان شجرة تفاح اهتز بينما يحدّق إليه. رأى النحلات نحلةً نحلة. الجسم الأصفر السمين والحلقات السوداء. كأنه يلمس تلك الحلقات. كأنه يلمس وبراً على فلو، كأنه يلمس شعراً على شامة. ملأ التقزز جسمه. ركض بين شجر برتقالٍ وليمون وأكي دنيا، وداس في الأقنية الموحلة، وقفز فوق أسوار الخشب والشوك. كل الأشجار تصخب بطنين النحل. وخلف السحابات الصفر تتمدد تلك السماء. رأى السماء كما لم يرَها من قبل. كانت تتقوس بعيداً في الأفق بلون أزرقٍ ضاربٍ إلى البنفسجي. لكن هذا اللون ليس لون البنفسج، لا يشبه زهرة

الحقول. يشبه خوخاً فاسداً معطوباً. عادت الرائحة الزنخة إلى رأسه. ومنظر ذلك الرذاذ على النصل على الهواء على عباءته على أصابعه على باقات النعناع على ربطات الفجل. نزل في التيار العارم، وغرق تحت الماء وامتلأت كل فتحات وجهه بالسلسبيل. لم يكن سلسبيلاً. هذا الذي استحم به طوال سنين لم يعد سلسبيلاً. هذه المياه ليست تلك المياه. الرجل الذي يخوض في لجج بردى، بالمياه تتخبط بين أعضائه، أيقن أنه فَقَد كل شيء. هل أيقن الرجل حقاً أنه فَقَد كل شيء؟ عبد الجواد أحمد البارودي كان عاجزاً عن التفكير، في ذلك الغروب البرتقالي اللانهائي. كان هارباً من البشر، من عساكر السلطان، من وجوه الجيران، من وجوه التجار، من وجوه الأقارب ومن كل دمشق. حين باتت دمشق بعيدة خلفه وأبصر جبل الشيخ يرتفع أمامه في عتمة أول المساء، لم يعرف الجبل الذي طالما رآه. طنين النحل استمر هادراً في طبلتي أذنيه. كان بعيداً عن البساتين، في أرضٍ تتباعد فيها الصخور والأشواك، ولم يعرف أين هو بالضبط، لكنه فكّر في طنين النحل، ولم يفهم لماذا يستمر هذا الطنين. مبلولاً بماء النهر الذي لم يجف عن ثيابه بعد، رغم حرارة جسمه التي تبخره رويداً رويداً، مرتجفاً ببردٍ بدأ يتغلغل في عروقه منذ أرسل تلك السكينة في لحم أخيه (برد لن ينساه أبداً، لأنه برد لن يغادر جسمه)، محاطاً برائحة البرية ورائحة عرقه، وقف عبد الجواد أحمد البارودي لاهثاً، ينظر إلى الجبل الغامض غير المفهوم. ماذا يفعل هذا الجبل في طريقه؟ ولماذا يستمر طنين النحل؟

رفع رأسه إلى السماء التي شوّهها لون الخوخ الفاسد فرأى إبراً مضيئة تسقط في عينيه. عندئذٍ فقط أيقن أنه لا يسمع طنين النحل بل نشيج المطر. كانت تمطر. ورأى أن هذا المطر لا يشبه المطر. رأى

أنه لم يرَ مطراً كهذا من قبل. استطاع أن يتبين القطرات قطرةً قطرة. كانت القطرات تكبر، تتضاعف حجماً، تتضخم وتتورم أمام عينيه. حبّات كبيرة تسقط على التراب، على الصخر، على مداسه السختيان. حبّات كبيرة تُبقع قميصه، تبقع سرواله، تسيل من شعره الأسود الجعد وتنحدر على جبهته، على عينيه وأنفه وفمه، وعلى أذنيه. انتبه أنه فَقَد كوفيته. سقطت منه، أين؟ في الدكان، في الأسواق، في البساتين، بينما يخوض في النهر؟ تلاطم الموج فوق جسمه، دخل نبات الماء في فمه، التفّت الأعشاب على ساقيه. ولم يغرق. كان يهمدر كجاموس البرّ في النهر، والذباب يطنّ على رأسه، والخزّ يلج فتحات وجهه، والتيار البارد يصفع بطنه ويصفع كليتيه. ولم يغرق. كان تحت التيار، وأراد أن يموت، لأن تلك الرائحة، لأن ذلك الرذاذ، لأن النهر... لم يمسح البقع عن ثيابه، نظر إلى صباطه، نظر إلى الصخور المتباعدة كالقنافذ، نظر إلى جبل الشيخ. «بعد هذا الجبل سهل، ثم تتسلق جبلاً آخر، وتهبط إلى سهول تمتد إلى البحر». من أخبره هذا؟ من دلّه مرة تلو الأخرى إلى تلك الطريق؟ وأين تذهب تلك الطريق؟

كانت الذكريات تتمازج في رأسه مثل خيطان صوف تتشابك، وعلم أنه لا يتذكر، انه لن يتذكر. لعل ذلك الصوت المجهول كان صوت جده، صوت أبيه، صوت أخيه الملقى نازفاً الآن في الدكان، أو في السوق، أو البيت. لا يعلم. ولماذا يتسلق هذا الجبل المعوج الرأس الغريب الشكل؟ كانت بقعة الظلام تتمدد، تعلو مثل مياه في سطل، مثل بئرٍ تملأه قطرات المطر. هذه القطرات التي تكبر أمام عينيه. وقف لاهثاً كأنه زُرِع في الأرض، كأنه حال تمثالاً قُدَّ من عظم ولحم وعصبٍ، وقف مرتجفاً أمام شبح الجبل لا يدري ماذا يفعل لا يدري أين يذهب. يعرف فقط من أين يأتي. يأتي من

دمشق. من دكان كان دكانه. من بين صناديق ورفوف وسلال وأصناف خضر وفاكهة قضى بينها سنوات حياته كلّها. سنوات حياته كلّها. . . حتى اليوم. وفي رمشة عين انتهى كل ذلك. العالم كلّه انتهى. وهذا عالمٌ آخر. بعد الجبل سهل يسمونه سهل الحولة. بعد السهل جبال الجليل، إذا قطعها يبلغ مروج فلسطين، سهل عكا ومرج ابن عامر، كل تلك البلاد التي لم يرَها أبداً لكنه يعرف عنها أشياء لا تُعد. وبعد المروج البحر الأزرق الكبير. وإذا مضى على الشاطئ بمحاذاة البحر، إذا عبر كل تلك البلدات والموانئ والحقول يبلغ الصحراء. ماذا يسمّونها؟ سيناء. وبعد سيناء، بعد الصحراء، برّ مصر. هناك لن تعثر عليه عساكر السلطان. هناك لا تذهب عساكر السلطان. هناك لن يعثر عليه أحد. لا أهله ولا أخوته ولا أبناء أخيه. هناك يضيع في القاهرة، في مدينة تموج موج البحر بسكانها. ألوف مؤلفة، وكل حارة فيها مدينةٌ أكبر من دمشق. إلى هناك يمضي إذاً.

هل أراد عبد الجواد أحمد البارودي الهرب إلى القاهرة فوجد نفسه خطأً في بيروت؟ أمام أسوار بيروت؟

ما نعرفه عن الرجل قليل. بيننا وبينه نحو قرنين من الزمن. الخريطة تقترح مسالك من هذا الصنف: يمكن أن نتخيل الرجل راكضاً في خوفه لا يعرف شرقاً من غربٍ، لا يعرف شمالاً من جنوب. يتسلق الجبل الذي يعترض طريقه بدل أن يلتف حوله لأن أحدهم قصّ عليه حكاية تسلق هذا الجبل. ويقول سأهبط في الجانب الآخر ثم أقطع سهل الحولة فأرى جبال الجليل. لا يعرف الرجل هذه السهول والجبال. لم يغادر دمشق إلاّ في «سيران»، في نزهة إلى البساتين المجاورة، يبسط الحصر القش مع أهله أو أصحابه، يشوون اللحم ويشربون ويضحكون وينقرون العود

ويرفعون الصوت بالغناء. لم يغادر دمشق إلاّ في نزهة إلى الغوطة، وهذه دمشق، أو إلى دوما، وهذه حدود دمشق. وقبل سنوات ابتعد عن دمشق في «سيران» آخرِ ونزل مع أخيه وبعض الخلاَّن في مزرعة قبل رياق (لن يبلغ رياق أبداً) مزرعة خارج بلدة الزبداني. بعكس أخيه الذي بلغ القدس، وجاوزها إلى غزة والإسكندرية والقاهرة وتونس، لم يكن عبد الجواد أحمد البارودي يعرف أياً من هذه البلاد. رحلته الأبعد عن دمشق كانت إلى الزبداني، على بعد ساعات. يذكر أشجار الحور والصفصاف والتين. يذكر تربة بيضاء ناصعة كالثلج تبهر النظر وتعكس أشعة الشمس وتضاعف درجة الحرارة. يذكر سهلاً فسيحاً مزروعاً بالقمح. يذكر بساتين مسيجة بالورد الأبيض. يذكر أسراب حمام فوق المزرعة. يذكر الطريق من دمشق إلى الزبداني، ساعات من الغناء والشمس والضحك على صهوات الجياد، ويذكر أخاه يُسمّي القرى قريةً قرية، ويشير إلى بيوتٍ ومزارع ويذكر أصحابها. وفي «سيران» آخر نزلوا في بستان فستق وجوز في داريا، وأخبره أخوه عن هذا الجبل: جبل الشيخ.

لنتخيلْ الرجل الخائف يهبط الجبل المكلّل بالثلوج ويتدحرج ويقف ويتابع طريقه. ساعات من الركض والعرق واللهاث لا تكفي. كيف لم يقتله ثلج الجبل؟ وبدل أن ينزل باتجاه بانياس جنوباً، ينزل غرباً باتجاه حاصبيا. يطلع ضوء الفجر عليه وهو جائع ومقرورٌ عند مشارف بلدة يتصاعد الدخان من نوافذ بيوتها، من شقوق السقوف والحيطان. لكن الرجل لا يقرب البيوت. لا يريد أن يراه أحدٌ. ليس هذا فقط: لا يريد أن يرى وجهاً بشرياً واحداً. يخاف أن يرى الوجوه مشوهة بالبقع الداكنة، كما يرى كل شيء منذ تلك الطعنة. السماء ملطخة بلون الخوخ الفاسد، وكذلك أطراف ذلك الشيخ الضرير، وكذلك نبات الأرض وصخور التلال وورق الشجر! لكنه

جائع. يأكل الرجل جذوراً، يسطو على بستان لوز (لنفترض أنه فصل الربيع، ففي الشتاء يبدو تسلق الجبال مستحيلاً). ربما يقبض على طائر أو على دجاجة. المهم أنه يبقى حيّاً. ثم يرى سهلاً يمتد أمامه فيحسب أنه سهل الحولة ولا يدرك أنه سهل البقاع. يقطع السهل في نهارٍ طويل ويرى جبلاً. لا يعرف أنه جبل الباروك ويحسب أنه الجليل. هذا جبلٌ آخر ثم ينحدر ويتخبط بين أودية وتلال، وينحدر مع نهرٍ إلى حيث ينحدر النهر. المطر ينهمر بلا توقف، والرجل ينظر ولا يرى سهلاً، ويتابع طريقه. إلى أن يبلغ «سهلات البرج»، وترتفع أمام عينيه تلك البلدة الغامضة.

علينا أن ننسى الخريطة. ربما قطع الرجل جبلين قبل أن يصل «سهلات البرج»، ربما قطع جبلاً واحداً، ربما لم يقطع أي جبل. قد يكون وصل إلى هنا عابراً المضائق بين الجبال، لا نعلم. هل كان حقاً يسعى إلى القاهرة البعيدة، إلى الضياع في أمواج حشودها المتلاطمة؟ ربما. أما المؤكد فهو أنه بلغ هذه البلدة الغامضة بسورها السميك العالي، عند الغروب، تحت وابل مطرٍ لا يعرف تعباً أو انقطاعاً.

«البلدة الغامضة»؟ تماماً. ذلك أن عبد الجواد أحمد البارودي لم يكن يعلم أين هو. فالرجل لم يغادر دمشق إلاّ نادراً. كانت دمشق تكفيه. لم يفهم أبداً حاجة أخيه إلى كل ذلك الترحال، كل ذلك الجَوّلان، كل تلك السياحة. في جوف التوتة، مرتجفاً بالبرد والحمى، بينما المساء يقبل، والنور يرتجف وراء شقوق البوّابة العملاقة، نظر عبد الجواد أحمد البارودي إلى سورٍ مظلم يمتد حتى الشاطئ، حتى صفحة البحر المظلمة، ورأى أن السماء تهبط رويداً رويداً، تنخفض ومعها ينخفض المطر. انخفضت السماء مظلمةً حتى لامست رؤوس المآذن الثلاث. لم يكن متأكداً أنها ثلاث مآذن. من

مكانه بدت المآذن متعالية في خطٍ واحد مستقيم، مئذنةً تلو الأخرى. لعلها مئذنة واحدة، والأمطار تخدع بصره، فتنقسم المئذنة إلى مئذنتين، كما تنقسم خيوط المطر. ارتفع عواء الذئاب. هبطت السماء أيضاً. رؤوس المآذن غابت. استقرت بطون الغيوم على السور الأخرس القاتم، والتصقت بشبح العمارة شبه المتساقطة والملتصقة كالورم بالسور، جنب البوابة المواربة. في لحظة ما سكت العواء. تلاشى نباحٌ متقطع أيضاً، نباح بدا قادماً من وراء السور، من قلب البلدة الغامضة.

فكّر أنها بلدة، لأنه ابن مدينة، ولأنه بنظرة واحدة إلى السور، وإلى امتداد السور القصير حتى البحر، أدرك أنها ليست مدينة كبيرة. أدرك أيضاً أنها بلدة لأنها بدت صامتة مثل قرية أو مزرعة أو بيتٍ مهجور. في صمت الليل الهائل لم يسمع إلاّ نشيج المطر المتواصل. لم يرَ إلاّ السور الممتد حتى البحر، وتلك العيون الصفراء الوامضة. ثم تدفقت حياةٌ جديدة في المشهد. سمع ضجةً، ورأى أشكالاً بشرية تظهر من قلب السور، من وراء البوابة. بعد الأشباح رأى قناديل ترتفع ونوراً يتدفق على الأرض ويجري كالماء. وسمع الأصوات. كانوا يندهون له. يشيرون إلى حيث هو. ويرفعون الصوت. سمع كلمات تركية. وسمع كلمات عربية. لكن الأصوات بَلَغَته غامضة كأنه يسمعها في منام. هل كان مستيقظاً؟ أيكون نائماً؟ هل تكون هذه الرحلة الطويلة كلّها منام! ألم يضرب أخاه سكيناً؟ ألم يهرب من دمشق؟ ألم يفقد حياته وعالمه وأهله وكل ما يحبّ في هذا العالم؟ أيكون كل هذا الذي حدث له، كابوساً، ليس أكثر؟

قبل صفحات قليلة، فكّر عبد الجواد أحمد البارودي ناظراً إلى أسوار البلدة الغامضة، ان هذه الأسوار التي اعترضت طريقه

كالوحش لا تُخفي له حياةً بل موتاً. بعد ذلك قرر انتظار الظلام، كي يخرج من غابة التوت، وكي يدور حول السور ويتابع طريقه. المقطع المذكور ينتهي هكذا: «من السور العالي قد يراه أحدٌ. وإذا رآه أحدٌ فتلك نهاية حياته.».

بعد أن كتبت ذلك المقطع رفعت رأسي ونظرت عبر النافذة إلى المطر يهطل على بيروت القرن الحادي والعشرين، على مدينةٍ يجاوز عدد سكانها المليون نسمة ويُبقع المطر حيطانها بالرطوبة. أجراس الكنائس تُقرع في حيّ الأشرفية، وصوت تراتيل (لحن لاتيني) يبلغ أذنيّ. كانت أصابعي تؤلمني. توقفت عن الكتابة وتأملت انهمار المطر وإقبال المساء. في الليل نمتُ نوماً مضطرباً. ظلَّ المطر يتساقط. ذلك الصوت الرتيب على الخشب، على الباطون، على لوح توتياء متروكٍ في العراء. فتحت عينيّ في الظلام ولمست رقبتي. كانت ساخنة نابضة. أشعلت القداحة. نظرت إلى الساعة على الكومودينة. الثالثة والنصف ليلاً. أردت أن أتذكر المنام الذي كنت غارقاً فيه للتو. عجزت عن ذلك. شربت ماء ثم رجعت إلى النوم. المطر ينهمر. بقع الرطوبة تكبر على حيطان المدينة وكلابٌ تنبح في البعيد. النوم يأتي رويداً رويداً. كأنك تغرق في مياهٍ دافئة. بين الحلم واليقظة رأيت ذلك السور المظلم يمتد حتى البحر المظلم ورأيت أشجار التوت والشبح المقرفص في العتمة. ينتظر، ينتظر، ينتظر...

وجدوا صعوبة في إخراجه من جوف الشجرة. كان جسمه المحشور في القرمة قد انتفخ بالمطر وتداخل باللحاء. هو في المقابل لم يقاومهم. ذهبت منه كل قوّته في رحلته الطويلة. وذهبت

منه كل قوّته حين رأى وجوههم في نور القناديل الأصفر. كان نوراً بلون الليمون الحامض يشع في دوائرٍ تخترق الظلام، فيلمع الضوء عبر قطرات المطر ويصنع هالات وأقواس قزح حول الرؤوس والكوفيات والعمائم. ذهبت قوّته حين رأى الوجوه أليفةً كما يعرفها، أليفة كما هي وجوه البشر. لم تكن وجوهاً مشوهة! لم تكن مبقّعة بلون الخوخ، بلون الدم، بلون التراب، أو بلون العسل. كانت وجوهاً عادية. تركهم يجرّونه إلى خارج الشجرة، إلى خارج الغابة، نحو البوابة.

تركهم يجرّونه عبر الباحة الموحلة، ثم عبر الباب في السور، إلى داخل السور. عبد الجواد أحمد البارودي الهارب من دمشق بقميصٍ يلطخها دم أخيه لم يكن يعلم عندئذٍ أن هذا الباب اسمه «باب السراي» وأنه أكبر أبواب بيروت الخمسة، وأنه بابها الوحيد الذي يبقى مفتوحاً بعد صلاة المغرب ـ بينما توصد أبواب يعقوب والدركاه والسنطية والدباغة ـ فلا يُقفل إلاّ عقب صلاة العشاء. أي حظٍّ أعطاه أن يبلغ هذه البلدة من هذه الجهة في سورها، الجهة الشرقية المتاخمة لسهلات البرج! لو أنه أتاها من الجهة الجنوبية كما يُفترض أن يأتيها كل قادم من الداخل السوري (من دمشق أو حوران أو البقاع أو جبل لبنان) لوجد نفسه بعد الغروب أمام أحد بابين: الدركاه أو يعقوب، ولوجد البابين موصدين في وجهه، ولواصل دربه بعيداً عن السور، وعن بيروت، متابعاً رحلته إلى حيث لا نعلم. لكن ذلك ليس ما حدث. الخوف الذي أعمى بصره أخذه يميناً ويساراً، تلاعب بالدروب أمام عينيه، نقله بين هضاب، عبر أحراج صنوبر وكروم زيتون وغابات نخل، ثم رماه أمام هذا الباب المفتوح (الموارب) وحده من بين جميع الأبواب. وها هم يجرّونه إلى قلب البلدة الغامضة.

كانت خطته أن يقضي ساعة أو ساعتين مخفياً في جوف قرمة التوت، يرتاح من عناء السفر ليلاً نهاراً تحت المطر المنهمر، يرتاح وينتظر تكاثف الظلام ليتاح له العبور دون أن يراه أحد من فوق الأسوار القاتمة. كان ينتظر تكاثف الظلام، وكان الظلام يتكاثف أمام عينيه، وتلك الثقوب الصفراء الوامضة في الأعالي تحدق إليه. ثم أخذ ينعس. فاجأه النعاس. مثل ضبابٍ كثيف يتدحرج في وديان دماغه. لم يفهم كيف غاب لحظة عن الإدراك. لكن تلك اللحظة الوجيزة كانت كافية. حين سمع الضجة فتح عينيه. فرأى تلك الوجوه. ورأى القناديل المرفوعة. جرّوه إلى خارج التوتة. ما كان يعلم عندئذٍ أن أهل بيروت يسمونها «توتة شاكر» لأن سائس خيلٍ هارباً من أمير الجبل بشير الثاني الشهابي الكبير أقام فيها قبل سنوات ومات فيها. ولا كان يعلم أن هؤلاء الجنود ـ الإنكشارية الذين يجرّونه إلى داخل السور ـ قد أنقذوا حياته من موتٍ ناري محققٍ. بعد لحظات وجيزة، وقد أُقفلت «بوابة السراي» وخلد نصف الحراس إلى نوم عميق يهدهده نشيج مطرٍ رتيبٍ، انفجر رعدٌ هائلٌ وانزرعت صاعقةٌ فظيعة في «توتة شاكر» فقصَّتها نصفين متساويين وأحالتها فحماً مفتتاً.

من «باب السراي»، في ليلٍ عاصفٍ نهايته موتٌ لم يكتمل، دخل عبد الجواد أحمد البارودي إلى بيروت التي لا يعرفها. قارئ هذه الكلمات (بلى، أنت) يشبه عبد الجواد أحمد البارودي. الاثنان لا يعرفان بيروت القديمة: بلدة سكانها خمسة آلاف نسمة، يحاصرها سورٌ، وتطلّ على بحرٍ من جهة، وعلى بساتينٍ وتلال وسهول من الجهات الثلاث الباقية. كيف كانت حياة بيروت في ذلك الزمن البعيد؟ كيف عاش أهلها، ومن كانوا؟

لا يحتاج القارئ إلى التفتيش في الكتب ليعثر على أجوبة.

لائحة الكتب (وحفنة المخطوطات) المثبتة هنا يمكن الاستغناء عنها، يمكن تجاوزها، ولن يبدل تجاوزها شيئاً في حياة عبد الجواد أحمد البارودي البائدة:

1 ـ مذكرات المرسل الأميركي كرنيليوس فاندايك (1818 ـ 1895) المنشورة بعد موته، في مجلة «الهلال» المصرية، سنة 1906.

2 ـ «تاريخ بيروت». لصالح بن يحيى (المطبعة الكاثوليكية، بيروت، سنة 1898).

3 ـ «مجمع المسرات». لشاكر الخوري (1908).

4 ـ «ذخائر لبنان». لإبراهيم بك الأسود (المطبعة العثمانية، بعبدا، 1896).

5 ـ «تاريخ ولاية سليمان باشا». للمعلم إبراهيم العورة (مطبعة دير المخلص، صيدا، 1936).

6 ـ «نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية». للخوري منصور طنوس الماروني الحتوني، ثلاثة أقسام مع مقدمة، بيروت، 1884).

7 ـ «أبواب بيروت»، رسالة مجهولة المؤلف. (المطبعة الميمنية، القاهرة، 1872).

8 ـ «تاريخ سوريا»، للمطران يوسف الدبس (المطبعة العمومية، بيروت، 1905).

9 ـ «مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان». لميخائيل مشاقة. (مصر، 1908).

10 ـ «كتاب الروض الغناء في دمشق الفيحاء». لنعمان أفندي قساطلي، (بيروت، 1879).

11 ـ «طريقي إلى أميركا». نعمة سركيس. (نيويورك، 1900).

12 ـ «تاريخ الصحافة العربية». للفيكونت فيليب دي طرازي. (المطبعة الأدبية، بيروت، 1913).

13 ـ «كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في بر مصر وإقليم الشام». مخطوط لنوفل نعمة اللّه نوفل الطرابلسي، محفوظ في «دائرة المحفوظات» في مكتبة نعمة يافث في الجامعة الأميركية في بيروت تحت رقم (6077).

14 ـ «مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان». من سنة 1840 إلى 1910. تعريب فيليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز. (طبع في مطبعة الصبر في جونية، سنة 1910).

15 ـ «الأصول العربية لتاريخ بلاد الشام في عهد محمد علي باشا» (تحرير أسد رستم، المطبعة الأميركية في بيروت، 1943).

16 ـ «مباحث علمية واجتماعية»، نشرته لجنة من الأدباء بهمة متصرف جبل لبنان إسماعيل حقي (1918).

17 ـ «يوميات بيروتي غريب عن دياره»، لأبكاريوس الصليبي. (سان باولو، البرازيل، 1896).

18 ـ «معجم المطبوعات العربية والمعربة»، لإلياس سركيس. (مطبعة سركيس، مصر، سنة 1928).

19 ـ «The Reminiscences of Daniel Bliss» (1920).

20 ـ «Mount Lebanon», by Charles Churchill (3 volumes, London, 1852).

21 ـ «Surie, Liban et Palestine», Vital Cuinet (Paris, 1896).

22 ـ «Levant», by Rev. W. Danton M.A. (London: Bell and Baldy, 186, Fleet Street, Year 1862).

23 ـ «Domestic Life in Bible's Land», by Anne Baenan (Dublin, 1870).

24 ـ «Authentic Memoirs of the Christain Church in Jerusalem», By John Laurence de Mosheim, Chancellor of the University of Gottingen. Translated from the German (London, 1853).

25 ـ «بيروت: تاريخها وآثارها»، للأب لويس شيخو اليسوعي (1927).

26 ـ «الجامعة أو دليل بيروت لعام 1889»، لأمين الخوري (بيروت، 1889).

27 ـ «أوراق لبنانية» (3 مجلدات، تحرير يوسف إبراهيم يزبك، بيروت، 1955).

28 ـ «دليل بيروت ـ تقويم الإقبال سنة 1327هـ.»، لعبد الباسط الأنسي (بيروت، 1911).

29 ـ مذكرات سليم أبو علي سلام (والد صائب سلام؛ جد تمام سلام).

30 ـ مذكرات ميخائيل نعيمة.

31 ـ مذكرات محمود سلام.

32 ـ مذكرات علي جابر. (مخطوط).

33 ـ مذكرات محمد عزت دروزة (6 أجزاء).

34 ـ مذكرات رستم باز، بالعامية اللبنانية، وهو الرجل الذي رافق الأمير بشير الثاني الشهابي (1767 ـ 1850) إلى منفاه في مالطة

ووصف موته هناك، وجلس على مقعد مع جثة الأمير ممسكاً بالجثة لئلا تسقط، لكي يصور المصورون ـ بقلم الفحم ثم باللون الزيتي ـ منظر الأمير الميت الوقور بلحيته الكثيفة البيضاء.

35 ـ «رسالة الشيخ سليمان العيد في الزمن السعيد»، مخطوط، وهي رسالة في سبع صفحات تحوي وصفاً لتجارة الخضر وشرانق الحرير بين بلاد الشوف (جبل لبنان) وبين بيروت، وفيها أيضاً كلام عن جر مياه الشرب إلى بعقلين (الشوف)، وهذا جرى ـ كما يخبرنا يوسف إبراهيم يزبك ـ في أيام الزعيم نسيب بك جنبلاط (1861 ـ 1922) ابن سعيد بك جنبلاط ابن الشيخ بشير جنبلاط «عمود السماء» صديق الأمير بشير ـ المذكور أعلاه ـ ثم عدوه اللدود. ونهاية الرسالة فاسدة الحبر، والعثّ ثقب أطرافها، ويمكن قراءة الآتي في ختامها: «. . . ووصلتنا شتلات الباذنجان. . .».

36 ـ مذكرات البرنس دي مترنيخ (9 مجلدات).

37 ـ «Fifty - three years in Syria», By Henry H. Jessup (New York, 1910).

38 ـ «رحلة إلى القدس»، جون لويس. الطبعة الإنكليزية لم أعثر عليها، والترجمة العربية صادرة في بيروت بلا ذكر لدار نشرٍ على نفقة المترجم إلياس البستاني سنة 1922. والبستاني يذكر في مقدمة قصيرة أن النص نُشر في إنكلترة عام 1833، وأن المؤلف توفي في بلفاست إيرلندة سنة 1847. لم أجد ذكراً للرجل المدعو جون لويس لا في «الموسوعة البريطانية» ولا في غيرها.

39 ـ «A voice from Lebanon, with the Life and Travels of Asaad Y. Kayat»; by Asaad Y. Kayat (London, 1844).

هذا الكتاب أيضاً مترجم إلى العربية وصادر في لبنان أواسط القرن العشرين. وُلِد أسعد خياط في بيروت. عمل حمّالاً ودليلاً وتاجراً، وسافر إلى بريطانيا حيث أقام فترة، ثم عُين قنصلاً للإنكليز في يافا، المرفأ المزدهر على ساحل فلسطين. هرمان ملفل صاحب «موبي ديك» (1850) يذكر القنصل أسعد خياط في رسالة من رسائله كُتبت أثناء عبوره الأراضي المقدسة حاجّاً إليها من نيويورك البعيدة. (انظر مقال كمال الصليبي في الكتاب الذي حرّره برنارد لويس وبنجامين برود عن «اليهود والمسيحيين في البلاد العثمانية»).

40 ـ «القول الحق في بيروت ودمشق»، عبد الرحمن بك سامي. (مطبعة بولاق بالقاهرة، 1890).

41 ـ «دائرة المعارف». للمعلم بطرس البستاني المولود سنة 1819 في قرية الدبّية (جبل لبنان) والمتوفى سنة 1883 في بيروت.

42 ـ مذكرات عزيز بك، قائد المخابرات العثمانية في بيروت والشام في زمن الحرب العالمية الأولى. (الترجمة العربية للكتاب، عن التركية، نُشرت في إحدى صحف بيروت مسلسلة في النصف الأول من القرن العشرين وأثارت اعتراض الأمير شكيب أرسلان).

43 ـ رسائل المستشرق الروسي كريمسكي الذي أقام في بلادنا عند أواخر القرن التاسع عشر.

44 ـ رسائل غوستاف فلوبير. (ويذكر في إحداها الرسام الفرنساوي كامي روجييه المقيم في بيروت والذي ذاع صيته في اسطنبول

بسبب حجم عضوه الجنسي).

45 ـ «حياتي مع ريتشارد بيرتون»، ترجمة عربية غير موقعة صادرة في دمشق عن «دار الوحدة» سنة انفكاك الوحدة بين سوريا ومصر (1961)، وهي تختلف في ترتيب فصولها وفي عنوانها عن النص الإنكليزي الأصلي المنشور في لندن سنة 1896:

«The true life of Captain Sir Richard F. Burton», by his niece G.M. Stisted.

والكتاب عرض لحياة ريتشارد بيرتون (1821 ـ 1890) الإنكليزي الذي ترجم «ألف ليلة وليلة» إلى لغة شكسبير في 16 مجلداً، وحجّ إلى مكّة متنكراً، واكتشف بحيرتين في أعماق أفريقيا المظلمة. الفصل السابع في الترجمة العربية مخصص لإقامة بيرتون في دمشق، وفي هذا الفصل هوامش مبتكرة أضافها المترجم فنراه يقارن مثلاً بين المذكور عن حياة بيرتون في هذه السيرة وما ذكره بيرتون نفسه في كتابه: «Unexplored Syria».

أو نراه ـ في هامشٍ آخر ـ يقارن بين ذكريات بيرتون وزوجته وبين ما يذكره «معمرون من أهالي دمشق عن ترتيب الدكاكين داخل باب توما». وفي هامشٍ آخر إشارة إلى مذكرات الشاعر فخري البارودي الذي نظم فيه معروف الرصافي مديحاً. (وهذه مذكرات ستعاود الظهور في فصلٍ آتٍ من روايتنا).

46 ـ «Across Rivers»; M. Bateson (Edinburgh, 1904).

هذا حاجٌ اسكوتلندي زار القدس وعرج على صور وصيدا وبيروت وطرابلس. نزل ضيفاً على المرسلين الأميركيين في جامعتهم في رأس بيروت وتناول طعام العشاء على مائدة

الرئيس دانيال بلس. استقبله أيضاً، في خان الملاحة في بيروت، على مائدة الطعام، بعض أعيان المدينة، وبين هؤلاء رجال من عائلات:

Bayhum بيهم، Bustrus بسترس، Mudawar مدوّر، Fatal فتّال، Baroudi باروديي، Sursock سرسق، Dabbas دبّاس...

والمؤلف يُعلمنا أنهم كانوا:

«... both Muslimes and Christians».

أي: «مسلمين ومسيحيين».

وكان مرور باتيسون في بلادنا سنة 1902. ما يعني أنه يتحدث في الغالب عن عبد الغني البارودي جد الكونت بسترس لأمه، والذكر الأخير الباقي على قيد الحياة من سلالة عبد الجواد أحمد البارودي آنذاك. فبموت عبد الغني البارودي أثناء الحرب الكبرى سوف تنقرض عائلته. ذلك أن هذا الرجل الذي رُزِق، من زوجتين، تسع بناتٍ بديعات الجمال، لن تمنحه السماء ابناً واحداً ذكراً يحفظ اسم العائلة والسلالة. وثمة بالتأكيد احتمال ألا يكون البارودي المذكور في كتاب باتيسون هو عبد الغني البارودي. فباتيسون يكتب: بارودي (Baroudi) من دون أي تفصيل، وهذا اسم شائع، وآل بارودي الطرابلسيون أصحاب تجارة قديمة واسعة ولعلهم أقاموا في بيروت أيضاً آنذاك، هم أو غيرهم من حملة هذا الاسم.

47 ـ «الشجرة النَسَبِيَّة لأسرة البارودي البيروتية»: مخطوط، وهو صفحة كبيرة مطوية مع ثلاث صفحات ونصف أصغر حجماً. والصفحة الكبيرة عليها رسم شجرة مكتوب أسفل جذعها

(حيث تظهر جذور تضرب في التراب):

جدّنا عبد الجواد أحمد البارودي

وُلِد في دمشق

وتوفي سنة 1256هـ ببيروت

والجذع ينمو على الصفحة صعوداً بلا أسماء إلى أن نبلغ نقطة تفرعه إلى ثلاثة أغصان، وفي أصل كل منها اسم، فأولاد عبد الجواد أحمد البارودي الذكور هم: شاهين بن عبد الجواد، وعبد الرحيم بن عبد الجواد، وعمر بن عبد الجواد. تواريخ ولادة ووفاة كل من هؤلاء نجدها في صفحات المخطوط الباقية مع بعض التفاصيل عن أعمالهم وعائلاتهم. وعبد الغني البارودي، جد الكونت بسترس لأمه، مذكور في السطر ما قبل الآخير، ومن بعده آية قرآنية.

48 ـ «تاريخ أسرة آل فرعون بأصولها وفروعها» بقلم الفقير إليه تعالى الخوري قسطنطين الباشا المخلصي (مطبعة القديس بولس في حريصا، 1932). النسخة الموجودة في مكتبة الكونت ده بسترس ذات غلاف ثمين من جلد الغزال، وتحمل على الصفحة الأولى إهداء من ابنته كاترينا. اسم الكونت منقوش على حافة الكتاب بماء الذهب.

49 ـ «مغامرات الفيكونت فيكتور دي طرازي»، للفيكونت فيكتور دي طرازي (مطبعة الإسكندرية، بلا تاريخ نشر). الفيكونت المذكور كان شريكاً لإبراهيم بسترس (عم الكونت) في «شركة بسترس وطرازي للمانيفاتورة». وقد حاولت استخدام سيرته سابقاً في رواية «الفراشة الزرقاء». وللكتاب مجموعة ملاحق، أحدها رسالة بقلم المقدسي نصر الله بن إلياس الطرازي الحلبي

(1751 ـ 1808) إلى ابنيه يوسف وانطون؛ وانطون هذا توفي في بيروت سنة 1855 بالطاعون الأسود.

50 ـ «الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، وهي شهادة درزية صريحة في مخطوطة تلم بحوادث لبنان وأحواله يُدلي بها من رواة الدروز شاهد عيان (يوسف غضبان أبو شقرا) ويساهم بها واحد منهم (يوسف خطار أبو شقرا) لأول مرة في تاريخ لبنان»؛ حرّرها عارف أبو شقرا؛ قدَّم لها عمر فروخ وأسد رستم. (طُبع هذا الكتاب في 11 آذار سنة 1952م ـ 15 جمادى الثانية سنة 1371هـ)..

51 ـ إبراهيم باشا في سوريا (المطبعة العلمية، بيروت، 1957).

52 ـ «Memoirs of Joseph Bustrus»; translated by his daughter Lady De Quincey (Toronto, 1949).

دخل عبد الجواد أحمد البارودي ذو الذراع الواحدة إلى بيروت في شتاءٍ عاصفٍ من عام 1820، 1821، أو 1822. لا نعرف تاريخ دخوله الدقيق. لكننا نعرف أنه كان في بيروت حين باغتها زلزال 1822، ذلك أن البيت الصغير الذي بناه في جلول التوت إلى الشمال من جامع السراي (في جوار مبنى بلدية بيروت اليوم) تهدم في الزلزال المذكور. هذه المعلومة ليست يتيمة. فثمة أخرى أهم منها: وُلد شاهين البارودي الابن البكر لعبد الجواد أحمد البارودي سنة 1240 هجرية (1824 ميلادية) في بيروت.

ماذا حدث لعبد الجواد أحمد البارودي بعد دخوله من باب السراي وجنود الإنكشارية يحيطون به؟

كيف قضى ليلته الأولى في بيروت؟ مرمياً في السجن؟ مطروحاً

في زريبة؟ ساهراً يتلقى الأسئلة والضربات ولا يعرف ماذا يقول؟ لا نعرف جواباً على هذه الأسئلة. المهم أن حياة جديدة كُتِبت للرجل. لم تقتله الصاعقة التي أحرقت «توتة شاكر». ولم يقتله الجنود. الرجل احتفظ باسمه في بيروت وهذا يعني أنه لم يجرب إخفاء قصته عن الناس. مما يدفعنا إلى إفتراض الآتي: الأخ الذي تلقى سكيناً في دمشق لم تقتله السكين. هرب عبد الجواد أحمد البارودي من دكانه وبيته وأهله معتقداً أنه قتل أخاه. لكنه، في بيروت، بعد أيام، عرف الخبر: لم يمت أخوه، نَزَفَ دماً كثيراً، لكنه بقي على قيد الحياة. عبد الجواد أحمد البارودي سجد عندئذٍ وحمد ربّه واستغفره. تاجر القماش أو الزيت أو الحبوب الذي جاء من دمشق بالخبر تناول عشاءه مع الرجل صاحب الذراع الواحدة بعد أيام وسأله لماذا لا يعود معه إلى الشام ما دام الآخر المطعون ـ ولنحمد اللّه ونستغفره ـ قد ظلّ حياً يُرزق. عبد الجواد أحمد البارودي فتح أصابعه، رفع يده متباعدة الأصابع في الفضاء، وقال: «خلص» أو: «الشام خلص». قال شيئاً لا نعرفه، ولا حاجة بنا إلى اختراعه. المهم أن الرجل حسم أمره: لن يضع رِجله في الشام بعد اليوم. لا يريد أن يرى أخاً، ولا أهلاً. بَسمَلَ عبد الجواد أحمد البارودي، ذكر ربّه، قرأ الفاتحة، كرّر تلاوة الشهادتين مرة وأخرى، وقال جالساً على حصيرٍ في بيتٍ فقيرٍ يجاور الجامع العمري الكبير: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، بسم اللّه الرحمن الرحيم، أشهد أن لا إله إلاّ اللّه أشهد أن محمداً رسول اللّه... كنت ضائعاً في البريّة، وسبحان مَن حملني إلى هذا المكان، ولا أبرح بعد الآن هذا المكان.».

قال عبد الجواد أحمد البارودي إنه لا يترك بيروت بعد اليوم إلاّ إلى دار الفناء. قال إنه «لا يغادر البلد أبداً»، وحين يموت لا يريد إلاّ «أن يُدفن في تربتها».

قال له التاجر الشامي:

ـ لكنك بلا مال.

أجابه عبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع الواحدة الذي بذراعٍ واحدة فتح تجارة خضارٍ رابحة في الشام التي تعجّ ببائعي الخضّار:

ـ بعون اللّه يصير عندي مال.

أردف التاجر الشامي:

ـ وبلا أهل.

ابتسم عبد الجواد أحمد البارودي. بدت ابتسامته حزينة في شتاء بيروت المحتضر، والربيع الذي يبدأ.

ـ قلْ هو اللّه أحد. إن شاء اللّه يصير عندي أهل.

عبد الجواد أحمد البارودي امتلأ بالأمل حين سمع أن أخاه لم يمت. أحسّ أن اللّه يعطيه فرصة أخرى وقال في سرّه إنها ليست المرة الأولى.

بعد خروجه من السجن عاش فترة في بيتٍ يتبع أوقاف الجامع العمري. مولانا الشيخ عبد العزيز الحوت، إمام الجامع، عطف على الرجل المقطوع الذراع بعد أن توسط له أحد تجار دمشق. جلسا في مدخل الجامع، تحت القناطر الحجر العالية الباقية إلى اليوم، وتكلما بينما يشرفان على زحمة «سوق العطارين» الذي اندثر الآن ولم يبقَ منه أثرٌ.

طلب الشيخ الإمام من الرجل الذي لم يجاوز الخامسة والعشرين أن يروي قصته. حكى عبد الجواد أحمد البارودي عن تلك اللحظة ـ لحظة غَرَزَ سكين الموز في خاصرة أخيه. الشيخ

الإمام قال إنه الغضب، والغضب من الشيطان، يعمي بصيرة المؤمن، يبعده عن الصراط المستقيم.

عبد الجواد أحمد البارودي ترك كلمات الشيخ تستقر في أعماقه. أحسّ بها تلامس شغاف قلبه. كانت هذه بالضبط قصة حياته. كيف استطاع الإمام إيجازها في حفنة كلمات؟ هذه قصته: الغضب دائماً يعمي بصيرته. طوال حياته يقاتل ضد الغضب. الغضب يُفقد الواحد عقله، لا يعود يعرف خطأً من صوابٍ. ليست المرة الأولى. الغضب أفقده ذراعاً قبل زمنٍ بعيد. الغضب كاد يُحوله قاتلاً هذه المرة. كاد يقتل أخاه! يا ربّ! وها هو ـ من جديد ـ يُعطى فرصة جديدة. هل يستحق حقاً كل هذه الفرص؟ بكى عبد الجواد أحمد البارودي أمام الشيخ الإمام عبد العزيز الحوت.

لم يكن من قبل مواظباً على الصلاة إلى هذا الحد. صحبة الإمام الحوت ملأته تقوى. حين زاره ذلك التاجر الدمشقي وتناول معه الخبز والزيت والزعتر ودبس العنب استغرب الحديث الذي خرج منه. سأله التاجر كيف يحيا هنا بلا مال وبلا أهل. وجد عبد الجواد أحمد البارودي الجواب يخرج من جوفه من دون أن ينتبه. بينما يمشي في دروب البلدة متفرجاً على الدكاكين سأل نفسه ماذا يفعل الآن. لكنه لم يشعر باليأس. كان يتحرك كأنه راكبٌ على موجة، على مطيةٍ غير مرئية. كان خفيفاً، لا أثر لدمٍ على أصابعه أو أظافره، ولا عساكر تطارد خطواته.

قطع عبد الجواد أحمد البارودي سوق الفشخة الملاصق للجامع عدداً لا يحصى من المرات، جيئةً ذهاباً. كان ينظر ويفكر في حياته وفي ما سوف يفعله. هل يفتح دكاناً ويبيع خضاراً كما كان يفعل في دمشق؟ الإمام الحوت اقترح عليه أن يعمل في دكان رجل من آل بيهُم في سوق القطن. قال الإمام إنه مستعد للكلام مع الحاج

يوسف بيهُم فالحاج من خلاّنه. مشى عبد الجواد أحمد البارودي في سوق الفشخة إلى أن بلغ الجميزة عند باب السراي. وقف في ظلال الجميزة الوارفة، بين باعة الجلاب والسوس والبيض المسلوق، ونظر إلى سرب سنونو يعبر سماء زرقاء تمتد إلى ما لا نهاية.

الطيور السود عبرت السماء خطفاً. بعد غيابها بانت قماشة السماء زرقاء صافية، خالية من أي بقعة، خالية من أي تجعيدة، خالية من أي حركة. نظر عبد الجواد أحمد البارودي إلى اللون الأزرق الذي يملأ الفضاء ويملأ أغصان الجميزة ويملأ الهواء ويملأ الفراغات بين الأبراج والبيوت ويملأ عينيه وسأل نفسه ماذا يصنع بحياته، كيف يعيش؟

ظلال الجميزة تشعبت كالسواقي على التراب. داخل باب السراي، في بقعة من الشمس، تمدد كلب أسود يلعق أطرافه. مرّ رجل يجرّ خلفه بغلاً محملاً بالصناديق. خرجت قطّة من وراء زاوية بيت ثم اختفت تحت عربة خشب مهجورة، مكسرة العجلات. كان الشوك ينبت في الخشب القديم. ورأى عبد الجواد أحمد البارودي قشور بيض تبرق فوق الشوك وبين ألواح الخشب المحطمة وعلى الوحل الذي أخذ يجف ويتشقق.

رأى كل ذلك بعينين متعبتين. الألم بدأ خفيفاً ثم أخذ يثقل رويداً رويداً، في جبهته، في جفنيه. رفع رأسه ونظر إلى السماء وإلى الشمس. كان الوهج حارقاً. كأن النار تنزل من السماء. لكن الوقت ما زال ربيعاً، والصيف لم يبدأ بعد!

توسطت الشمس كبد السماء. انحسرت ظلال الجميزة وشكّلت حول الجذع القوي دائرة معتمة. بدت البلدة بيضاء وسوداء. بيضاء حيث الشمس. سوداء حيث الظلال. الشعاع الشمسي بهر عينيّ

عبد الجواد أحمد البارودي. ألقى ذراعه الوحيدة على الجذع ثم جلس على التراب. على خطوتين منه جلس رجل في سروال أسود وجبّة سوداء وقد مدّ قدمين حافيتين إلى الشمس وبسط أمامه، على التراب المبلول، بضاعته: أرغفة خبز في سلٍ، حلاوة طحينية تبرق بزيت السمسم على قطعة من القماش القطن الأبيض، وطاسة دبس خروب مفتوحة يصعد من وجهها العسلي الداكن بخار. تبادلا التحية، وحين اقترب رجلٌ من البائع، نظر عبد الجواد أحمد البارودي إلى الجانب الآخر وتأمل حال السوق.

كان زقاقاً ضيقاً يمتد بين صفيّ البيوت. من مكانه، تحت الجميزة، رأى حميراً تخطو بليدة في القناة وسط الزقاق ثم تخرج من القناة وترجع إليها. رأى ذباباً يتطاير فوق البهائم، وعصا رفيعة تلسع كالأفعى الهواء. انتبه أنه يتعب مرة أخرى. جاء الأمل إليه حين سمع أن أخاه لم يمت. لكن الأمل يتضاءل الآن، كأن في أعماقه حيواناً يلتهم هذا الأمل. رأى عجوزاً محنية الظهر تعبر تحت الحبال الممدودة في فضاء السوق. كانت حبالاً تربط الدكاكين في الجانبين، مرفوعة على أعمدة ثُبتت في رؤوسها عجلات حديد صغيرة. من الحبال تدلت سلال. انحنت العجوز حتى كاد وجهها يلامس التراب، يلامس قناة البهائم القذرة. كانت امرأة ملطخة الثياب، فقيرة، جاوزت السبعين، ولا تحمل عصا. خيل إليه أنها ستتساقط عظاماً، على الأرض، أمام عينيه.

رأى خضراً وفاكهة تكاد أن تسيل في الشمس. رأى أقمشة تُفرد وتطوى. رأى سلاً يُملأ تيناً مجففاً ومشمشاً مجففاً وزبيباً. تمايلت السلال الفارغة المعلقة في فضاء السوق. شمّ رائحة البحر القريب، رائحة تتسلق الأزقة الضيقة، الدهاليز والممرات والقبب، إلى أن تبلغ سوق الفشخة. حين تبلغ هذا السوق تنتشر الرائحة، مصطدمةً بجامع

السراي والجامع العمري الكبير. عبد الجواد أحمد البارودي كان عليه أن ينهض ويذهب إلى مولانا الإمام الحوت في هذه اللحظة ويقول له إنه سيعمل عند الحاج يوسف بيهُم إلى أن يجمع مالاً كافياً ليفتح دكان خضر. ألقى كفّه على التراب واستعد للقيام لكنه لم يتحرك. رائحة البحر تكاثفت حوله، مالحة مشبعة باليود ولكن زنخة أيضاً. كانت نسائم الشمال تأتي من البحر القريب مثقلةً بروائح سوق الدباغة. بدل أن تُنفره، بدل أن تدفعه إلى الهرب، جذبت الرائحة صاحب الذراع الواحدة عبد الجواد أحمد البارودي إليها.

كان متعباً، قانطاً، وروحه تسقط في ظلمات لا يُسبر غورها، ظلمات يعجز عن فهمها، وجذبته الرائحة الزنخة الفتاكة إلى سوق الدباغة. قبل أن ينهض رأى تلك العجوز السوداء تختفي في مدخل «سوق العطارين»، وفكر أنها في لحظتين تبلغ قناطر الجامع العمري العالية: المدخل الغربي للجامع، أكبر مداخله، يطلّ على «العطارين»، ويطلّ على جامع النوفرة. هنا، في مركز بيروت، في مركز المستطيل المسور بالحجر الرملي الأصفر القاتم، قضى عبد الجواد أحمد البارودي أيامه الأولى في بيروت، يكتشف البلدة رويداً رويداً، وبينما يمشي في أسواقها المزدحمة يحاول أن يكتشف ماذا سيفعل بنفسه.

اختفت العجوز السوداء عن نظره. حجبتها زاوية الجامع العمري. من باب الجامع الشمالي المفتوح على سوق الفشخة، باب خشب بلا قناطر حجر عالية، خرج شيخان باسمان، يتحدثان ويتضاحكان. المسافة منعته من تبين ملامح الوجهين، لكنه عرف أنهما يضحكان من حركة الجسم. ثم رأى، على بعد خطوات، امرأة في ملاءة خضراء وحمراء وزرقاء، تخطو بردفين ضخمين، وتجذب إليها العيون.

كانت طويلة، وشعرها ملفوف بمنديل حريرٍ بلون العشب في عزّ الربيع. رأى العيون ترصدها. ورأى لحماً يلمع عند رسغها حين رفعت الملاءة قليلاً وأحكمت لفّها.

بَرَقَ اللحم الأبيض في عينيه وزاده تعباً. انعطفت المرأة يميناً، متوغلةً في سوق القطن، منحدرةً نحو جامع الدباغة وسوق الدباغة. نهض عبد الجواد أحمد البارودي وتبع المرأة مجذوباً إليها وإلى الرائحة الفظيعة في آنٍ معاً. بينما يخطو بين الناس وبين الحمير المحملة بأقفاص الدجاج وأكياس الطحين والحبوب، فاجأته ذكرى أضافت إلى روحه ثقلاً جديداً: تذكر وجه أمه بعد مرض طويلٍ ألَمَّ بها. الشعر تساقط في مقدم رأسها، وظهرت بقعتان بلون البنّ المحروق عن جانبي جبهتها. بدت الجبهة عريضة بتساقط شعر الرأس وبدت مشوهة أيضاً ـ بالبقعتين المنحدرتين حتى الخدين وعظام الخدين النائتة. حاول إبعاد الصورة ـ ذلك الوجه المريض ـ من أمام عينيه. لا يريد أن يفكر في أمه الآن. لا يريد. لكنه عجز عن إبعاد الصورة. وجه أمه يطارده دائماً، حتى إلى مناماته. لا يفكر في المرحوم أبيه. منذ زمن بعيد لا يفكر فيه. لكن أمه. . . وعبرت في باله سريعاً وجوه الأخوات الكثيرات، ورأى أخاً مطعوناً في الخاصرة يسبح في بركة دم أسود بين البقدونس والخس والفجل والنعناع والبصل.

أخرجه من الكابوس رجلٌ ينادي عليه أن يقترب ويتناول رغيفاً من الشواء. كان بلغ منتصف «سوق القطن»، واللون الأبيض يزدهر عن يمينه ويساره ومع كل خطوة يخطوها في الدرب المنحدر. الندّافون، القطن الذي يتطاير في الفضاء، أوتار الأقواس، مداخل الدكاكين العميقة، ورائحة قهوة وهال. ثم وجد نفسه أمام صفٍ من الشوائين، وللحظةٍ خاطفة نسي أين هو وحسب نفسه في الشام.

شكر البائع على دعوته بغمغمة غامضة وتابع طريقه بذراع تتدلى كقصبة مكسورة إلى جانبه. حدّق أمام قدميه. شعر بألم في رأسه وفي عينيه. هذه اللحظات ستبقى في بال عبد الجواد أحمدَ البارودي إلى أن يقضي ويموت بعد سنوات طويلة. سوف يتذكر دائماً تلك الظهيرة، من ذلك الربيع، أول نزوله في بيروت.

كان الشتاء ينتهي، وكان الربيع يبدأ. في البساتين حول السور انفجر اللون الأخضر، تدفق في السهل وفي التلال. القادمون إلى بيروت من جهتها الجنوبية، جهة حرج الصنوبر والرمال، جهة بابي يعقوب والدركاه، كانوا يرون اللون الأخضر ينفجر متدفقاً في البلدة القاتمة أيضاً وتحت شوكة المآذن الثلاث. كل سطوح البيوت نبت عليها العشب، وأزهر في عشبها الريان زهر البابونج والإقحوان.

بين ليلة وضحاها اختلفت رائحة الجو. هبّ الهواء الساخن من الشرق (من رأس بيروت) ومن الجنوب معاً (بادية الشام) وجلب معه غباراً خفيفاً وجلب الخضرة إلى الأرض وإلى بساتين التوت وإلى الكروم. الشمس ملأت الفضاء شعاعاً أصفر كالعسل. طنّ النحل بين النبت ونشفت برك الوحل وتصاعد البخار من الحيطان المشبعة بالماء. الرعاة أخرجوا الماشية من الزرائب، غادروا البلدة من بوابة السنطية، انطلقوا إلى بريّة رأس بيروت. الخراف تثغو، والأبقار تتحرك بليدة في الشمس بالفطر الظاهر على جلدها وكذلك التقرحات. كان الشتاء طويلاً قاتلاً. كل تلك الرطوبة، كل ذلك المطر. في الشمس تحركت البهائم ملتذة بالعشب، ملتذة بالدفء، وملتذة بالهواء النظيف. الأرض تستيقظ من السبات، ودورة الحياة تتجدد. الأمل يغزل خيوطاً في الهواء، فما بال عبد الجواد أحمد البارودي (وقد علم أن أخاه لم يمت، وقد أعطي فرصة جديدة)، ما باله يتخبط الآن في الظلمات؟

اعتمت الدنيا في عينيه، هكذا، بغتةً، بينما يتحرك في الأسواق. ما الذي حدث له؟ كان ينظر إلى السماء، والسماء حلوة، ورأى سرب السنونو، ثم بدأت روحه تهوي، تهوي، تهوي. . . والآن أين يمضي مطارداً هذه المرأة العالية الردفين، هذه المرأة التي ترصدها العيون، أين يتبعها؟ سمع طنين أساور، سمع ضحكات خفية، وسمع كلمات.

في أبواب حوانيت صغيرة وقف رجال وصبيان يشوون اللحم قُطعاً في أسياخ مسودة من الدهن المحروق. أمام الحوانيت، على الأرض أو على كرسي قش واطئة جلس زبائن يلتهمون اللحمة، أو الكفتة المجبولة مع بقدونس وبصل وسماق، بقطع كبيرة من الخبز. رأى الطحين على الأصابع، ورأى الدهن اللامع، ورأى الأظافر تنغرز في أبيض البصل الطازج وأسود البصل المشوي. مناقل نار، مفارم خشب، سواطير، أسياخ، إناء معدن مملوء بمعاليق مقطعة، ولون الرئة الزهري يملأ كامل الإناء. الكبدة المشوية متبلة بملح وقرفة وزعفران، وسماط ممدود بين حانوتين توزعت عليه صحون الفخار طافحةً بالحمص المتبّل بالحامض والطحينة، والباباغنوج، والباذنجان المشوي والمهروس بلا طحينة متبّلاً بالثوم وزيت الزيتون ومزيناً بأخضر البقدونس أو النعناع.

رأى مخلّلات خيار ولفت وجزر وبصل ومقتي وباذنجان. رأى صبياً يخطو وسط الزحمة حاملاً على رأسه صينية عليها صحن فول مدمس وطاسة حمص بالطحينة يغطيها اللحم المفروم المقلي مع حبّات الصنوبر في زيت الزيتون. كانت الروائح تتصاعد حوله، ورأى كواكب قطن بلون الثلج، تتطاير فوق الصحون وحلل النحاس والقدور، وشمّ رائحة حليب قوية، حليب ماعز يفور على النار، وسمع قرعاً بعيداً، أجراس كنائس، أو رنين أجراس القطعان في

الحقول. كل هذه الحياة التي تزدهر حوله، كل هذه القلوب التي تخفق (رأى مرة أباه يذبح ثوراً، رأى قلب الثور خافقاً بينما يحطمون أضلاعه السوداء بالبلطة ويقطعونها بالسواطير)، كل هذه البلدة الخافقة في أذنيه، بطنين الدم وبالروح التي لا تُرى، تخفق في أذنيه، في عينيّ عبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع الواحدة، هذا الشامي الهارب من بيته وأهله وتجارته، الملعون بالغضب الذي يعمي البصيرة، الملعون بالشيطان الذي يوسوس له وهو لا يدري لماذا يوسوس له، يوسوس له ويأخذه إلى حيث لا يعلم، وسط هذه الأسواق... لكن الوسواس ليس وسواساً. لا. لا شياطين في جسمه الآن. فقط هذا الظلام، هذا اليأس، هذا القنوط. لماذا يصيبه القنوط وسط هذا القلب النابض بالحياة، وسط هذه الأسواق المزدحمة بالباعة والتجارة والروائح والأصوات؟

وجد نفسه أمام «جامع الدباغة». رأى المئذنة الخشب المحطمة، ورأى سرباً من الحمام يحوم حول الحطام، ورأى قافلة بغالٍ تدخل إلى البلدة من الباب الكبير. من هذا الباب، باب الدباغة، تدخل إلى البلدة معظم القوافل. تمضي نهارات أحياناً ولا تدخل قافلة واحدة. هذه ليست الشام. بيروت حيّ صغير من أحياء الشام. هذه الزحمة يحسّها زحمة لأن البشر حُصروا في سورٍ من حجارة في مساحة ضيقة. يقطع البلدة من هنا، من حدّها الشمالي عند البحر، إلى طرفها البعيد الجنوبي، إلى باب الدركاه، قبل أن تنطفئ لفافة تبغ مشتعلة. لا تدخل قوافل كثيرة إلى بيروت، ولا تغادرها قوافل.

المراكب التي ترسو في المرفأ ليست كثيرة. الأرصفة (هل هذه أرصفة؟) لا تزدحم بالبحارة والتجار والحمالين. سمع أخباراً عن عكا، سمع أخباراً عن الإسكندرية. تلك مدن بحار ومرافئ تموج

بالمراكب والسفن والناس. بيروت ليست كذلك. بيروت هي هذا المستطيل الصغير، هذه المئذنة الخشب، وهذه الرائحة الفظيعة. لماذا قال للرجل إنه لا يريد أن يغادر هذا البلد أبداً؟ لماذا اعتقد أن اللّه حمله إلى هذا المكان لكي يبقى في هذا المكان؟ من أين جاءت كل تلك الأفكار والخطط؟ من عظات مولانا الإمام! أم من أمل زُرع في صدره، كالنور، ما إن سمع بنجاة أخيه من الموت، بنجاته هو أيضاً من المشنقة! وأين ذهب كل ذلك الأمل، هكذا، في لحظة؟

واقفاً أمام جامع الدباغة، فكّر عبد الجواد أحمد البارودي أنه ملعون، وأنه لو تابع سيره بضع خطوات فقط، وجاوز هذا السلسول الحجر الذي ترسو عنده قوارب الصيادين، ونزل في البحر، تنتهي حياته كلّها من دون أن يسأل عنه أحد. من يسأل عنه؟ غريبٌ في بلد غريب. لن يسأل عنه أحد. أين تلك المرأة، بالملاءة الصاخبة الألوان، بالغوايش الذهب، برنين الأساور، باللحم الثريّ البهيّ، بجانب وجهها المدوّر الذي رآه خطفاً، ثم غاب عنه؟ أين هي وما عساه يريد منها وما عساها تريد منه! بلا مال وبلا أهل لن يقدر على فعل شيء. ولكن ماذا يريد أن يفعل، هل يعلم ماذا يريد؟

نظر عبد الجواد أحمد البارودي إلى الذبائح المعلقة في مدخل سوق الدباغة، نظر إلى السقوف الخشب وأحواض الحجر المملوءة بالماء، رأى السائل الأسود يجري في أقنية تتعرج كالثعابين، وقال إنه يعرف ماذا يريد. الرائحة الفظيعة بدت أخف هنا. كأن نسيم البحر يحمل كل عطنها، كل الزنخ، إلى أعلى، صاعداً في سوق القطن إلى الفشخة، ليرمي الرائحة الفظيعة هناك، في «الفشخة» أو ما بعد «الفشخة»، حيث تستمر الأزقة في صعودها جنوباً إلى الدركاه.

وقف عبد الجواد أحمد البارودي يتفرج على خراف تُنحر، على

جلودٍ تُسلخ وتفرك بالملح وتنقع في الأحواض، على سطول حديد تُملأ بأحشاء مدماة ساخنة يرتفع منها البخار، وفكّر أنه يعرف ماذا يريد. أعطى ظهره لجامع الدباغة، للمئذنة الخشب التي أحرقتها صاعقة وحولتها برجاً لطيور الحمام، أعطى ظهره لسوق الدباغة كلّه، ولباب الدباغة، وأعطى ظهره للبحر. كان ينظر عبر سوق القطن، بعيداً وعالياً، إلى حيث يتقاطع هذا السوق مع «الفشخة». ظهرت له هناك، في الأعلى، مئذنة جامع السراي. سرب سنونو عَبَر فوق المئذنة يطير شرقاً، محمولاً على النسيم. تابعه عبد الجواد أحمد البارودي والروح تتمدد في جسمه، وتملأ ثيابه من جديد. بسرب سنونو حلّ عليه القنوط. وبسربٍ آخر يزول هذا القنوط. يعرف ماذا يريد.

اختفت الطيور بأجنحتها السوداء المخططة بالأبيض وتركّزت نظرة عبد الجواد أحمد البارودي على بساتين التوت والسنط حيث اختفت الطيور. وراء صف الدكاكين حيث تربع ندافو القطن امتدت قطعة أرض ينمو فيها التوت مع السنط والجميز والصبير والشوك والنبات البرّي. عينا عبد الجواد أحمد البارودي الثابتتان هناك التمعتا بالنور.

مشى صعوداً، بجسم مستقيم، قاطعاً سوق القطن، عائداً إلى الفشخة. حين بلغ الفشّخة انعطف يميناً، ناظراً إلى الدكاكين، والبيوت فوقها، وإلى رؤوس الأشجار وراء البيوت. كانت بيوتاً قليلة، نصفها يتداعى، ثم ظهرت زريبة، ورأى فتية يلعبون داخل الزريبة المشلّعة الأبواب. كان على بعد خطوات من الجامع العمري الكبير الآن، ومن البيت الصغير حيث يقيم. رفع يده أمام وجهه. نظر إلى أصابعه. يعرف ماذا يريد. يعرف لماذا سقط إلى قعر ذلك الظلام، ويعرف كيف يخرج منه.

أعطى عبد الجواد أحمد البارودي ظهره للبحر مرة أخرى، وقطع سوق الفشخة ودخل سوق العطارين وانعطف يساراً، وعَبَر تحت القناطر الحجر العالية ودخل صحن الجامع العمري الكبير.

واجه الإمام الحوت، في مجلسه إلى يمين المحراب، تحت النافذة المستطيلة في الحائط العقد السميك. واجه الإمام الحوت، واجه عينين غائرتين، ولحية بيضاء خفيفة، وحمرة تتخلل الوجه الطويل. كان الهواء يلعب في أنحاء المسجد. ورائحة عرق تخرج من السجاجيد والحصر والحجارة، وتمتزج برائحة صمغ في خشب المحراب، وبرائحة زيت زيتونٍ في السراج المطفأ القريب. أحسّ عبد الجواد أحمد البارودي حواسه تتفتح كالنوافذ، وشعر بالعالم يتسرب إليه كاملاً، ويملأ جسمه العطشان (وروحه العطشى) بالماء السلسبيل. كل ضجيج السوق بات هدوءاً في أعماقه.

هذا ليس ضجيجاً. من لم يمشِ في الشام لم يمشِ في ضجيج. هذه بلدة صغيرة هادئة وهنا سوف يعيش. ستكون له تجارة. وستكبر تجارته. سيبني بيتاً هنا، بهذه الأصابع الخمسة سيبني بيتاً هنا، في الجانب الآخر من «الفشخة»، ووراء تلك المتاجر والبيوت. سيبدأ ببيت صغيرٍ، وبدكان صغيرٍ. ثم يكبر. يعرف ماذا يريد. سيكون له المال، ثم ستكون له عائلة. لن يقنط. أُعطي فرصة جديدة ولن يهرب من هذه الفرصة الجديدة. يريد كل شيء. الرزق والمرأة والبنون.

الإمام الحوت المستلقي إلى خلف، ظهره مسنود إلى حافة النافذة ووسطه محزوم بزنار صوف أزرق عريض، استقام في مجلسه. بعد صلاة الظهر، بعد لقمة الخبز التي يأكلها ساخنةً مع عدس أحمر مسلوقٍ أو فاصوليا حمّانية مطبوخة بالسمن والبندورة، ينتابه نعاسٌ. يقرأ في المصحف الكريم، ثم يخلد إلى هذه الدقائق

من الراحة الكاملة. لا يعود يشعر بجسمه. يتابع العابرين، في الخارج، هناك حيث يقوى الضوء، يردّ تحيات الداخلين والخارجين، ويستسلم لغلالة النعاس الرقيقة الشفافة التي تهبط على عينيه. تبتعد الأصوات. ينحدر إلى أعماق منيرة. ينعس هكذا في ظلال العقد والعواميد والقبب، وعلى ساقيه بطانية صوف. إلى أن يأتي سائلٌ أو مريد.

استقام الإمام الحوت في مجلسه وواجه الشامي صاحب الذراع الواحدة المقيم في وقف الجامع منذ أيام والذي ترك بيته وأهله بعد أن تعارك مع أخيه. واجه الإمام الحوت الرجل صاحب الذراع الواحدة وابتسم له من أعماق نعاسه الهانئ السعيد. يجد هذا الشامي الذي لم يجاوز الخامسة والعشرين قريباً من القلب، يجده شبيهاً بطفل كبير. في المغرب يراه أحياناً يساعد خادم المسجد على إنارة السرج المعلقة من العواميد. يدور وعلى كتفه السلم الخشب بركائزه الثلاث، والصبي يتبعه وفي يده مشعل، يتسلق السلم، يتأكد أن زيتاً كافياً يطفو على المياه في الطاسة الفخار، يتأكد أن الفتيل القطن لم يتفتت بعد، ثم يشعل الفتيل. ينزل عن السلم، والشامي ذو الذراع الواحدة يحمل السلم من جديد، ويمضي إلى عمود جديد وسراج مطفأ جديد. ويراه أحياناً بعد صلاة العشاء، بعد خروج المصلين وتفرقهم، يسبق صبي المسجد إلى العصا المنقورة الماكثة في الزاوية حيث خزانة المصاحف الخشب المرصعة بالصدف البحري، هذا الشامي يقفز إلى العصا المنقورة بخفّة الغزال، يخطفها خطفاً من الزاوية ويدور على السرج، ينفخ في العصا المنقورة على الشعلات الزرقاء الدقيقة، يطفئها سراجاً سراجاً. قبيل الفجر أيضاً يراه، أمس واليوم الذي قبله، بينما هو يفتح عينيه بصعوبة، خارجاً من نوم الليل العميق، يراه استيقظ واغتسل وأشعل المشعل وبدأ دورته على

السرج المطفأة، ينير المسجد قبةً بعد قبة، حصيراً بعد حصير، بينما البلدة ما زالت نائمة، والمؤذن نفسه (لطف اللّه قدورة) شخيره مسموع.

الشامي الهارب من مدينته عبد الجواد أحمد البارودي يواجه إمام الجامع العمري الكبير الشيخ عبد العزيز يحيى الحوت في تلك الظهيرة البعيدة في بيروت الربع الأول من القرن التاسع عشر. ماذا يقول له؟ كيف يتخاطبان؟ المشهد يشبه لوحة قديمة مطبوعة بالأبيض والأسود، بالحبر الصيني، بقالب خشب، على قرطاس أصفر سميك، في كتابِ لإدوارد لاين مطبوعٍ في أوروبا قبل أكثر من مئة سنة. هل نستطيع اليوم أن نتخيل ذلكَ الزمن الخُرافي؟ هل نستطيع أن نتخيل حياة أسلافنا في ذلك الزمن الخيالي البعيد؟

بعد 180 سنة على تلك الظهيرة الربيعية البعيدة، وعند ظهيرة مماثلة، أنزل مع وليد نويهض وإبراهيم العريس من مكاتب جريدة «الحياة»، بالمصعد، ثم ندفع باباً حديداً عالياً أسود ثقيلاً، ونخرج إلى شارع «المعرض» المغمور بنور الشمس. هنا، حيث البنايات الفرنسية المتطابقة (كل بناية بأربع طبقات وبقناطر عالية في أسفلها ترمي ظلالاً باردة على الرصيف)، هنا قرب مطعم SCOOZI وُجدت بوابة الدركاه. البوابة هُدمت أثناء توسيع بيروت القديمة قُبيل الحرب العالمية الأولى ثم خلال الحرب. بعد 180 عاماً على نزول عبد الجواد أحمد البارودي في بيروت أُشعل سيجارة في أول شارع «المعرض» وأنحدر مع وليد نويهض وإبراهيم العريس، بين صفَّين من المطاعم والكراسي ـ المنتشرة على الرصيف ووسط الشارع العريض المرصوف بالحجر البركاني ـ باتجاه «ساحة البرلمان». نعبر جنب «ساعة العبد». بينما يتحدثان عن الحال في أفغانستان أو الحال

في العراق أو الحال في فلسطين، انظر إلى الكتابة المنقوشة في البلاطة الرخام أسفل البرج مقابل البرلمان:

تقدمه ميشال عبد لمدينة بيروت سنة 1933 OFFERT A LA VILLET DE BEYROUTH Par MICHEL E ABED 1933

نقطع ساحة البرلمان. أُسرع هارباً من بقع الشمس إلى ظلال قناطر البنايات المنحدرة في الشارع النازل إلى مطعم «بارلمنتو» الإيطالي. أقرأ الكتابة على قطعة الحديد المستطيلة المثبتة في الجدار:

شارع 58 شارع الجامع العمري RUE 58 de la Mosquée EL- OMARI منطقة النجمة 11 SECTEUR NAJMEH 11

أسمع إبراهيم العريس يقول شيئاً عن أم كلثوم، وأسمع وليد نويهض يقول شيئاً عن جوزف سماحة، وأرى فتاة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة تميل على كتف فتى في سنها، ويتغازلان في

ظلال قناطر المبنى الأصفر، أمام الواجهة الزجاج لـ:

BANCA DI ROMA

نقف أمام «بارلمانتو». وليد يقول إنه لا يريد أن يأكل طعاماً إيطالياً، وإبراهيم يقول ضجرنا من الحمص والفول كل يوم. انظر إلى سيجارتي ثم إلى لافتة المطعم، إلى الحروف الخشب الأنيقة في الحجر الأنيق:

IL PARLAMENTO
RISTORANTE ITALIANO

أتركهما واقفين في الشمس وأدخل زقاقاً قريباً بين بنايتين مرممتين فخمتين وفارغتين. أقرأ:

ASTRAL 1929

وفي مدخل البناية الأخرى، على قطعة من الرخام تعلو المدخل الرخامي:

OPAL 1931

ألقي نظرة على الحديقة الخلفية لجامع النوفرة. أرى في ظلال شجرة صغيرة شاباً وشابة ينظران إلى عصافير الدوري على حافة حوض مزروع بالزهور، يشيران بالأصابع ويطلقان ضحكات قصيرة، ثم يتعانقان.

من وراء الجامع أسمع ضجة السيارات العابرة في شارع المصارف. أستدير عائداً إلى بقعة الشمس، وأراهما واقفين حيث كانا. إبراهيم يقول شيئاً عن جورج سمعان، ووليد يقول شيئاً عن الطعام الياباني. أنظر إلى سيجارتي ثم أمضي إلى زقاق في الجانب الآخر، وأقرأ الكلمات في المستطيل المعدن العالي:

شارع 53 شارع جورج عاقوري George Acouri RUE 53 منطقة النجمة SECTEUR NAJMEH 11

أرجع متلمساً الحائط القديم بيدي: هذا حائط الجامع العمري، حائط يزيد عمره عن ألف سنة. أجدهما وسط الشارع يتأملان أسماء المطاعم والمقاهي، ويشيران إلى:

SEATTLE'S BEST COFFE

أرى إبراهيم يدور حول نفسه، وأسمع هاتفه الخلوي يرنّ. يبتعد قليلاً، منحدراً نحو «ويغان»، إلى أن يقف أمام القناطر العالية للجامع العمري المغطى بالشبك الأخضر والمحاصر بسقالات خشب وكوم بحصٍ ورمل. لا نكاد نرى تلك القناطر. كلها تحتجب وراء الشبك الأخضر لورشة الترميم.

وليد يسألني ما الأمر، ماذا أفكر، هل هناك مشكلة؟

أضحك وأنظر إلى سيجارتي والجمرة بلغت العقب الإسفنج وأوشكت أن تنطفئ.

أقول:

- هذا الشارع كان يُسمى، في القرن التاسع عشر، سوق العطّارين. الشارع جنب بارلمانتو كان مدخل البازركان. والزقاق الذي جنب الجامع المكتوب عليه الآن جورج عاقوري، هذا كان سوق الصرامي. تعرف من يكون جورج عاقوري؟

يعود إبراهيم ضاحكاً، يُلوح بالهاتف الخلوي، يقول شيئاً عن الكونسرفتوار الوطني، عن الموسيقى اللبنانية، عن فيروز التي لا يحب مطربة كما يحبها، وأسمع وليد يقول إننا تأخرنا وعلينا أن نجد مكاناً. أقترح عليهما أن نقطع «ويغان» (هذا كان سوق الفشخة في القرن التاسع عشر) وننزل في شارع عبد الملك (هنا كانت «طريق عبد الجواد») بجوار مبنى البلدية ونتابع طريقنا إلى المطاعم في الحي التحتاني من سوليدير.

السيجارة انطفأت، لكنني أستطيع إشعال أخرى لكي أقيس المسافة من «ويغان» إلى الحد السفلي للمدينة القديمة، إلى البحر. لكن وليد ينظر إلى ساعته ويقول إن الوقت لا يتسع، والأفضل أن نعود إلى الإيتوال.

إبراهيم يذكر أباه في تلك اللحظة، ويذكر الستينات حين عمل مع أبيه في نقش الخطوط ورسوم الآيات الشريفة في قبّة الجامع العمري. لا يذكر الكلمات، لكنني أرجع وحدي عند العصر إلى ذلك المكان، وأُبعد الشبك الأخضر وأدخل إلى الظلال حيث روائح الرمل والرطوبة والزمن المكدس في طبقات.

أقرأ في الأعلى:

«وأن المسجد للّه فلا تد. . . مع اللّه أحداً».

الكتابة تحتاج إلى ترميم وإلى طلاء أصفر وأخضر جديد. بعد شهور سأرجع إلى النقطة ذاتها، أُبعد الشبك الأخضر الذي تمزق في مواضع عدة، وأدخل إلى ساحة أقل اضطراباً. معظم أكوام الرمل والحجارة والأخشاب أُزيلت. أقرأ في الأعلى:

«وأن المسجد للّه فلا تدعوا مع اللّه أحداً».

في الخارج عُلقت لوحة من الحديد، طُليت بالأخضر، وعليها كلمات أجد صعوبة في حفظها. أقول سأرجع مع ورقة وقلم. أقطع ما بقي من «سوق العطّارين» إلى أن أبلغ «الفشخة» بعد ثلاث خطوات. أقف ناظراً إلى السيارات المسرعة، بعجلاتها المطاط، على الحجر البركاني الأسود. شارع «اللنبي» يواجهني منحدراً نحو البحر. لا أقطع سوق «الفشخة» (ويغان) ولا أنزل في «اللنبي» إلى البحر.

أذهب يميناً، ناظراً إلى مبنى البلدية عن يساري طوال الوقت. أبواق سيارات، رائحة بنزين ومازوت، شمس. عشرون خطوة واسعة وأجدني قبالة جامع منصور عساف (السراي). أشعل سيجارة ثم أقطع «الفشخة» وأنحدر في سوق القطن (فوش). شارع ينحدر بين بنايات حجر متطابقة. الأناقة ذاتها، كل هذه العمارات ظهرت هنا في زمن الانتداب الفرنسي. كلّها احترقت في الحرب بين 1975 و1990. وكلّها رُمِمت ورجعت جديدة بعد انتهاء الحرب. أنحدر بين متاجر لبيع الألبسة. أقرأ: Timber Land. لا أرى سوق القطن التي كانت هنا قبل قرن. لا أرى إلاّ الواجهات الزجاج الجديد اللامعة، بالمانوكانات الأنيقة، والمداخل النظيفة البلاط.

أبلغ «جامع الصدّيق» (هذا كان جامع الدباغة). أنظر إلى

السيجارة لم تبلغ نصفها بعد. تحت الجامع يمتد شارع بارد الظلال. أتوغل فيه إلى أن أبلغ «التل الأثري». أتسلق درجاً حجراً متداعياً كُتب على لافتة أسفله: «خطر». أتذكر اللافتات الحديد التي تعلق على «غرف الكهرباء» أسفل عواميد التوتر العالي: «خطر الموت»، مع الجمجمة والعظمتين.

أتسلق الدرج المغطى بالعشب والنبت البري إلى أعلى «التّل». هذا كان حصناً قبل زمن بعيد. ثم تحول جامعاً. ثم تهدم. من أعلى الدرج أرى حائطاً مهدماً ما زال محتفظاً بتلك الكوى المطلّة على البحر. أدعس السيجارة ثم أضع يدي على الحائط القديم. لا مدافع حديداً هنا تجذب الصواعق إليّ.

على الأرض، بين الأتربة والورق اليابس، أرى فطراً أبيض كالثلج. أجلس في ظلّ قبّة عقد باقية. أجلس في الدهليز القصير الباقي وأتأمل بقع الرطوبة على الحيطان. أبواق السيارات تبلغ أذنّي. أحشر أصبعين في ثقبي أذنيّ، وأحدّق إلى الحيطان المقشرة المفتتة، بالخزّ الأخضر الذي يغطي أطرافها. رائحة العطن ورائحة الأرض ورائحة الوقت. لا أسمع صوت بيروت القرن الحادي والعشرين. أحاول أن أضيع في متاهة الوقت، أن أسلك تلك الدروب غير المرئية التي تردّنا إلى الزمن البائد الذي لم نعرفه، ولكنه حاضر موجود في أعماق الحجارة الباقية، في مادة الخيال، في طبقات الطلاء المتركمة على هذا الحائط، في المجلدات القديمة، وفي الصكوك والحكايات. أغمض عينيّ وأستعيد صوت الكونت ده بسترس.

أتعب من جلوسي غير المريح. أغادر «التلّ الأثري». أصعد «فوش» إلى «ويغان». أقطع «ويغان» وأدخل «حسين الأحدب». أتأمل نوافير الحديقة مقابل البلدية ثم أدخل «مطعم البلد» وأستعير

ورقة وقلماً وأمضي في شارعٍ متفرّع إلى الجامع العمري. كل المطاعم تزدحم بالزبائن. فيّ «بيت السلمون» أرى وجوهاً أليفة فأنظر أرضاً وأسرّع خطواتي، إلى أن انتبه بعد لحظات أنهم ليسوا من معارفي، بل هم وجوه أراها في التلفزيون. وزراء أو فنانون أو نواب. أمشي على مهل. إلى أن أبلغ الهدف.

المشروع: الجامع العمري الكبير
المالك: المديرية العامة للأوقاف
الإسلامية. بيروت ـ لبنان
المتبرع: الشيّخة سعاد حمد الحميضي
عن الحاج حمد صالح الحميضي
وزوجته شيخة محمد سديراوي
الإستشاري:
المهندس يوسف حيدر
Tel: 01 - 566151 E-mail: youhai@inco.net.lb
المقاول: BINADAR
المهندس محمد سليمان منيمنة
المهندس محمود أحمد منيمنة
Tel: 01 - 311620 P.O.Box: 14 - 5575
Beirut - Lebanon

هنا، عند زاوية الجامع الشمالية الغربية، حيث يلتقي شارع الجامع العمري بشارع ويغان، أقام عبد الجواد أحمد البارودي، أول نزوله في بيروت.

هنا، في قلب جامعٍ بشبكٍ أخضر يغطي جدران العقد القديمة، جلس عبد الجواد أحمدَ البارودي والإمام عبد العزيز يحيى الحوت ذات أصيلٍ بعيدٍ، وتحدثا. ماذا قال أحدهما للآخر؟ نستطيع أن نتخيل الكلمات، لكن هل نستطيع أن نتخيل نبرة الصوت مثلاً، وكل تلك الأصوات الأخرى التي كانت تبلغهما عبر الأبواب المشرعة، أصوات «الفشخة» و«العطّارين»، وتلك الضجة المكتومة التي تعبر الحيطان السميكة، ضجة سوق الصرامي؟ طرقات الشاكوش على المسامير الرفيعة، نداءات الباعة، صراخ الفتيان... كل ذلك العالم، هل نقدر أن نتخيله؟ أم أن أصوات ذلك الكون المتلاشي ضاعت في السديم (في الفراغ الكبير اللامتناهي) ضاعت إلى الأبد؟

رُزِق عبد الغني البارودي تسع بنات بارعات الجمال. نساء آل البارودي اشتهرن في بيروت القرن التاسع عشر بفتنتهن. صيتهن بلغ الإسكندرية، ثم جاوزها إلى أوروبا. صغرى البنات سلطانة اكتشفت في سنٍ مبكرة آلة البيانو اللامعة الضخمة في الصالون الغربي في قصر جدّها لأبيها الذي يتصدر «حارة البارودي». الآلة ـ التي لم يُرَ مثلها في بيروت من قبل ـ قُدمت هديةً إلى الحاج عبد الرحيم البارودي بعد زواجه الثاني. التاجر المقدسي بهجت السكاكيني الذي أقام في الآستانة زمناً حصل على البيانو الطلياني من ورثة أسعد خياط، قنصل الإنكليز في يافا الذي ذكره هرمان ملفل في إحدى رسائله. البنت سلطانة فتحت البيانو ولمست المفاتيح بأصابع طويلة قوية. راهبات المحبة الفرنسيات كنَّ في سوق القطن عندئذٍ، يساومن أحد المعلمين على أجرة تنجيد الفرش في «دير المحبة». حين سمعن الموسيقى أصابهن الذهول. المعلم عبد الهادي الشلفون روى في وقتٍ لاحق أنه رأى هالات بلون السكر تخفق كأجنحة الحمام حول رؤوس الراهبات. كانت موسيقى لم يُسمع مثلها في

بيروت من قبل (في «فيلا شاسود» المجاورة لميناء بيروت ارتفعت موسيقى بيانو عام 1840 ونالت إعجاب المرسل الأميركاني عالي سميث. لكنها لم تدهشه. لم تصنع هالة بلون السكر حول رأسه.) عبد الهادي الشلفون قال إن الراهبات طلبن منه السكوت، أوقفن المساومة، وقبلن السعر الذي حدّده، لئلا يقطع النقاش استمتاعهن بالموسيقى التي باغتت الجميع. عبد الهادي الشلفون أسعده ذلك لأنه كان على وشك القبول بالسعر المنخفض (كم هن بخيلات ومقبوضات الأيدي؟) الذي اقترحته الريّسة، فقط لكي يتاح له سماع تلك الموسيقى! يا لها من موسيقى! ليست تغريد طيور، ليست غرغرة أطفال، بل هي كل هذه الأصوات الجميلة معاً. . . وصوت إضافي أيضاً، لم يسمع مثله أبداً، لم يعرف قبل الآن أنه موجود.

سلطانة عبد الغني البارودي، بينما تعزف البيانو، وترتفع كالفراشة مع الموسيقى، كأنها تغادر عبر النافذة المفتوحة، كأنها تطير فوق الخان، فوق ركام البيوت، فوق المراكب، فوق البحر. . . سلطانة لم تكن تعلم عندئذٍ ماذا يعني هذا الصوت الملائكي، هذه الموسيقى. موسيقى البيانو ستأخذ سلطانة من بيروت إلى مرسيليا إلى بروكسيل إلى باريس. الحاج عبد الغني البارودي سيبكي ليالي طويلة بعد أن تصله رسالة عطرة من بلاد الفرنسيس تخبره فيها ابنته الصغيرة عن الرجل البيروتي الذي التقته هناك. . . الرجل النصراني ابن عائلة بسترس.

راهبات المحبة الفرنسيات سيستقبلن غضب الحاج البارودي ببرودة أعصاب وبإيمان مسيحي عميقٍ لا يعرف خوفاً أو غضباً. المتصرف نعوم باشا ذاته سيتدخل في وساطة تمنع فتنة طائفية. تلك أمور كانت تحدث في ذلك الزمان البعيد. بعد سنينٍ طويلة سيعرف الكونت سليمان ده بسترس (في رسالةٍ من روما مشابهةٍ لتلك التي

تلقاها جده لأمه عبد الغني) أن ابنته هنرييت تعزم الزواج بطبيب سوريٍ مسلم من أسرة البكري الأرستقراطية.

الكونت سيقضي ليالي عدة باكياً حانقاً. سيغضب، ثم يسكت غضبه بعد حين. هذه أمورٌ تحدث. لا أحد يعلم ماذا تخفي الأيام. لا أحد يعلم ماذا تخفي الصفحات الآتية. في ربيع 1821، أو 1822، لم يكن عبد الجواد أحمد البارودي يتخيل ما سيحدث لأحفاده وحفيداته بعد أكثر من نصف قرن. لم يكن تزوج بعد. لكننا نعلم أنه في ذلك الأصيل البعيد، بينما يُعلِم الإمام الحوت بقراره (سوف يفتح دكاناً هنا، في سوق الفشخة، وكل ما يطلب من الشيخ مبلغ من المال سوف يردّه في الربيع المقبل)، بينما الكلمات تخرج رصينة محسوبة من فمه، نعلم أنه كان في تلك اللحظة يخطو الخطوة الأولى في دروب المتاهة التي ترسم قدر سلالته.

أمامي الآن رسم شجرة آل البارودي. أنظر إلى الشجرة وأكاد أسمع صوت الرجل ذي الذراع الواحدة يُكلم الشيخ الحوت في سَكِينَة الجامع العمري الكبير، قبل 182 عاماً. لا يهمّنا ماذا قال له بالضبط. لا يهمنا ماذا أجابه الشيخ الحوت. لكننا، عبر الأزمنة والأمكنة، نرى يداً بيضاء الشعر تفكّ زناراً صوفاً أزرق عريضاً ثم تُخرج من الزنار ليرات الذهب العثملية الباهرة.

تزوج عبد الجواد أحمد البارودي أربع مرات. رُزِق من ثلاث زوجات سبع بنات، ومن زوجة رابعة ثلاثة أبناء ذكور. سمّى بكرهم شاهين، وثانيهم عبد الرحيم، وثالثهم عمر. وُلِد شاهين سنة 1824. لكنه قُتل قبل بلوغه السابعة عشرة. قضى شاهين بلا عقبٍ. ترك أرملةً شابة لم تبلث أن تزوجت خيّاطاً من آل قرنفل وغادرت هذا الكتاب. الابن الثاني لعبد الجواد أحمد البارودي قصته طويلة، لا يمكن إيجازها هنا. يبقى الابن الأصغر: عمر. وما نعرفه عنه قليل، أما الأكيد الثابت فهو تاريخ وفاته. ذلك أنه مرض ومات بالكوليرا التي أفرغت بيروت من سكانها سنة 1865.

تزوج عبد الجواد أحمد البارودي أربع مرّات إذاً. ومات في عام 1840، بعد بكره شاهين بوقت قصير. لكن هذا الشامي صاحب الذراع الواحدة، الذي عاش 18 عاماً في بيروت ودُفن فيها، لم يكتفِ بأربع زوجات بل اقتنى جارية شركسية أيضاً قضت نحبها بينما تلد له توأمين لم تُكتب لهما الحياة. ما نعرفه عن هذا الرجل مصدره «الشجرة النسَّبية لأسرة البارودي البيروتية»، وبعض الحكايات المتفرقة التي بلغت أذن الكونت سليمان ده بسترس عبر جده لأمّه عبد الغني بن عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي، وعبر والدته سلطانة البارودي وعبر خالاته الكثيرات. لا حاجة للقول إن

عدداً من التفاصيل الخيالية قد أُضيف إلى القصة. تفاصيل أضافها الرواة، وهذه طبيعة التناقل الشفاهي. وتفاصيل أضيفت أثناء تدوين الكتاب، وهذه طبيعة الكتابة.

يمكن اختصار الفصل السابق إلى مشهدين:

1 ـ عبد الجواد أحمد البارودي يرتجف مبلّلاً بالمطر ذات مساءٍ عاصف من شتاء 1820 أو 1821 تحت أسوار بلدةٍ غامضة وقاتمة.

2 ـ عبد الجواد أحمد البارودي في الجامع العمري الكبير يطلب قرضاً من الإمام عبد العزيز يحيى الحوت، ليفتح دكان خضرٍ في «سوق الفشخة».

علينا أيضاً إضافة مشهد ثالث: الكونت سليمان ده بسترس ابن الـ 98 عاماً جالساً في ربيع عام 2003 في مقهى في «ساحة البرلمان» يسأل عن هذا الكتاب.

الدكان الأولى التي فتحها عبد الجواد أحمد البارودي في بيروت لم تكن في سوق «الفشخة». فشل في العثور على دكان هناك؛ لكنه وقع سريعاً على دكانٍ آخر في زقاق الحدادين، وراء الجامع العمري الكبير، وعلى مسافة سبعين خطوة تقريباً جنوب جامع السراي.

سوق الفشخة في ذلك الزمن لم يكن محتشداً بالدكاكين كما ستكون عليه الحال في سنوات آتية. لو أراد البارودي ذو الذراع الواحدة أن يفتح دكانه الأولى هناك، لكان أفلح في ذلك. ما أخذه إلى سوق الحدادين وراء الجامع العمري (شارع «حسين الأحدب» اليوم) كان سلسلة من الصدف الغريبة. تتابعت الصدف فقررت مصيره. إليكم كيف حدث الأمر:

في ذلك العصر الربيعي البعيد خرج عبد الجواد أحمد البارودي (لا يريد إضاعة لحظة واحدة) من الجامع العمري الكبير ومشى في سوق العطّارين. عَبَر الخطوات القليلة التي تفصله عن «الفشخة» ثم وقف عند الزاوية، حيث مدخل القبو (بيته ومقره منذ أيام) وواجه كل تلك السلال التي تتدلى في فراغ السوق. كان لون الغروب يُشبع الحجارة بسائلٍ برتقالي كثيف، ورأى البارودي أن السائل الأحمر كان يتدفق من الحجارة. حين انتبه إلى الخزّ الأخضر الذي يغطي درجات الحجر الخمس المنحدرة إلى وكره أحسّ بالقرف. تذكر البيت في الشام. الحوش الفسيح، وبركة الماء وسط الحوش، وأحواض الزرع، الحبق والمردكوش والمنتور وتم السمكة والورد الجوري، وفي الزاوية البعيدة شتلة عطر كبيرة بحجم شجرة وفوقها تماماً علقت أقفاص الطيور من أغصان شجرة ليمون حامض تتوهج الثمرات الصفر فيها. تلك الذكرى كانت الصدفة الأولى.

مشى ذو الذراع الواحدة عبد الجواد أحمد البارودي في سوق الفشخة متجهاً إلى باب السراي. لم يذهب في الاتجاه المعاكس الذي ينتهي بحارة إدريس لأنه كان يجد ذلك الجزء من السوق (الجزء الغربي) غريباً وأجنبياً. والسبب أنه طوال إقامته القصيرة هنا لم يذهب إلى تلك الجهة إلاّ مرة واحدة، وفي كل المرات الأخرى كانت سياحته محددة بالجامعين: العمري والسراي، والأسواق ما بينهما. أن يكون الرجل مشى باتجاه باب السراي، وفتش في تلك الساعة البرتقالية الحزينة عن دكان في الجانب الشرقي الضيق من السوق، ولم يذهب إلى الجانب الآخر حيث يسهل بناء دكاكين أو ضمان أي قبو أو زاوية، فتلك صدفة أخرى.

سار يسأل أصحابَ المتاجر عن متجرٍ فارغ، أو متجر يمكن أن يضمنه من صاحبه. دخل في كلامٍ كان يكرر ذاته من متجر إلى

آخر، من بسطة إلى أخرى، حتى أرهقه التعب وأحسّ نفسه ضائعاً لا يعرف أين يذهب. في تلك اللحظة رأى نفسه أمام جامع منصور عساف (جامع السراي) يراقب تلك المرأة ذاتها، بالملاءة الملونة ومنديل الحرير الأخضر والردفين العاليين. كانت قطعت سوق الفشخة للتو، قادمة من سوق القطن ربما. ورآها تخطو، تلك الخطوة الراقصة الواثقة، وتعبر أمام حائط جامع السراي، وفي ظلال نخلتين، ثم تواصل دربها صعوداً باتجاه زقاق الحدادين. النور البرتقالي غمر الأرض والسماء. في بحر النور البرتقالي تَبِع عبد الجواد أحمد البارودي المتعب ذو الذراع الواحدة ظلّ المرأة الغزالة ذات الملاءة الملونة. أن تكون خطاه التقت خطاها ثانية، في ذلك العصر البيروتي البعيد، فتلك صدفة ثالثة.

ثم حلّت صدفة رابعة: بعد خطوات معدودة، عند الزاوية حيث يتفرع من «الحدادين» سوق يذهب يميناً هو «سوق الصرامي» المفضي إلى «العطارين»، رأى عبد الجواد أحمد البارودي المرأة التي ترصدها العيون تتوقف أمام دكان عميق مظلم في نهايته، وتكلم عجوزاً قاعداً على طراحة في المدخل بين يديه قضيب حديد مفلطح محمر الرأس كأنه خرج من فرنٍ لاهب للتو. كان عجوزاً بشع المنظر، بأسنان صفر ثقبها السوس، وشفتين بلون الفحم وكان يضحك، ومع كل ضحكة تتضاعف قباحته. وجد عبد الجواد أحمد البارودي المنظر لا يطاق. هذا القبيح يتحدث، على هذا النحو، بكل هذا السرور الشنيع الصاخب، مع المرأة الجميلة التي يطاردها! تعب البارودي من المنظر، وقرر أن يتخلى عن المطاردة. حين تحرك مسرعاً، ولكن في الاتجاه ذاته، من دون أن يستدير ويعود من حيث أتى، اكتملت الصدفة. منظر الحداد العجوز البشع لم يدفعه إلى مغادرة «الحدّادين» بل إلى التوغل فيه صعوداً. عبر دهليزاً مظلماً

فوجد نفسه في ساحة مملوءة بأقفاص الطيور. إلى يساره رأى بناء بقبّة حجر ضخمة، وبأبواب خشب حفرت عليها نجوم مسدسة يعرفها جيداً. قد رأى مثلها في حيّ اليهود في دمشق. كانت هذه الصدفة الخامسة: في لحظة واحدة، بينما الغروب يُعدُّ البلدة للّيل والراحة والنوم، رأى عبد الجواد أحمد البارودي مشهدين ذكّراه بالوطن، بالأهل، وبالطفولة: تلك الطيور (يذكر رجوعه إلى البيت بعد نهارٍ طويل في الدكان؛ يذكر أخواته جالسات في الحوش بصنانير الصوف في أيديهن، وبأصواتهن التي تمتزج بتغريد الحساسين في الأقفاص الخشب)؛ وتلك الأبواب الخشب بالنجمات المسدسة (بيت جدته لأمه، العجوز التي طالما قلت له بيض القرّي بالسمن الحموي الشهيّ، بيت جدّته أم ياسين كان يواجه كنيس اليهود الكبير).

بقيت صدفة سادسة: التفت عبد الجواد أحمد البارودي حين سمع صوتاً يلقي عليه السلام، فرأى رجلاً جالساً على مصطبة حجر إلى يمين دكان فارغة من البضاعة، تتوسطها كومة من روث البقر. طنَّ الذباب والبعوض في سحابات كثيفة فوق هرم الروث وسط الدكان المستطيلة، وخرجت الحشرات إلى أمام الدكان وحامت على بعد خطوة من رأس الرجل الخمسيني ذي الوجه الثلجي المدوّر الكبير المشرّب بخمرة كأنها حمرة الغروب نفسه.

قال الرجل بصوت حزين:

ـ هل أنت ضائع يا بني؟

ارتبك عبد الجواد أحمد البارودي. الرجل الخمسيني كان يحدّق إلى الكمّ الفارغ المطوي والمثبت بدبوس. انتبه ذو الذراع الواحدة عندئذ أن الصبية الذين يجمعون الأقفاص من أطراف الساحة

ويغطونها بقطع القماش القاتمة غير الشفافة كانوا يراقبون هم أيضاً، يرمقون الكمّ المطوي بنظرات غامضة. دعاه الرجل إلى الجلوس لحظة على المصطبة، ثم رفع إليه إبريقاً مرتجفاً فخاراً ينشّ الماء البارد من مسامه. شرب ذو الذراع الواحدة ماء طيباً حلو المذاق وجلس على المصطبة بعد أن شكر الرجل. حين رفع رأسه رأى أن الصبية غادروا الساحة، أن أقفاص الطيور اختفت، وأن خورياً في ثوب أبيض كان يغادر الكنيسة التي لم ينتبه لها في الجانب البعيد من الساحة.

قال الرجل الخمسيني مشيراً بأصابع رفيعة دائمة الارتجاف إلى بقعٍ سود على قدميه الحافيتين:

ـ صحتي لم تعد جيدة.

نظر عبد الجواد أحمد البارودي إلى البقع على قدمي العجوز (بان له فجأة عجوزاً، بصوته المتعب، بارتعاشة يديه، وبتلك القاذورات التي كُوِمت في دكانه). نظر إلى البقع وظل صامتاً. كان المساء يهبط على البلدة. الرجال يرجعون إلى بيوتهم، النساء يُدخلن أغطية منشورة خارج النوافذ وعلى السطوح، والفتيان يركضون بوجوه عرقانة. وسمع ثغاء خراف، وجرس الكرّاز (قائد القطيع) يرنّ في البعيد. خلال دقائق تقفل أبواب بيروت ويعلو عواء الذئاب في البرّية.

قال عبد الجواد أحمد البارودي:

ـ أبحث عن دكان، تعرف دكاناً؟

أشار الخمسيني بحركة من رأسه إلى كومة الروث:

ـ خذْ دكاني.

قال البارودي:

ـ كم تريد؟

الرجل الخمسيني أجاب بصوتٍ يراوح بين التهدج والحماسة:

ـ خذه! خذه!

في أيامٍ آتية سيعرف عبد الجواد أحمد البارودي القصة الكاملة لهذا الرجلٍ. لن يخبره أحد القصة. الرجل الخمسيني نفسه (موسى يعقوب مزراحي) سوف يصير صديقاً للرجل صاحب الذراع الواحدة ويلازمه النهارات الطويلة جالساً على الطراحة ذاتها على المصطبة الحجر ذاتها كما جلس سنوات طويلة من قبل، حين كانت الدكان مزدهرة، والناس يقصدونها من مدنٍ بعيدة. لكن قصة موسى يعقوب مزراحي تستطيع الانتظار الآن فقبل ذلك علينا أن نرى ماذا صنع عبد الجواد أحمد البارودي بالدكان القذرة في تلك الليلة.

الرجل الذي هرب من الشام عابراً الجبال والأودية والسهول تحت وابل مطر منهمر لم يستطع انتظار نور الصباح. في تلك الليلة ذاتها أشعل سرجاً استعارها من الجامع العمري. وبدأ إخراج كومة الروث من قلب الدكان. جلب رفشاً حديداً من «الحدادين»، وجراباً جلداً ضخماً من «الدباغة»، وبدأ العمل. في نور زيت الزيتون المشتعل في السرج الفخار عمل طوال الليل، يجرّ الجراب المثقل تلو الجراب المثقل من قلب الدكان، عابراً ساحة العصافير الصامتة المظلمة، صاعداً في الطريق المتربة المملوءة حفراً باتجاه بورة بين البيوت قبل خطوات قليلة من باب الدركاه.

كان يسقط وينهض ماشياً في الظلام ورائحة الروث تملأ خياشيمه والذباب يطنّ على وجهه وفوق رأسه وفي أذنيه. لم يحمل السراج لئلا يوقفه حراس الدركاه. بعد سقطة رابعة (أو خامسة) قطعت سرواله وهشمت ركبته اليمنى قرر أن يحمل سراجاً لأن باب

الدركاه مظلم تماماً، قطعة سوداء أخرى من قطع هذا الليل البهيم، ولا حراس ساهرين هناك، ولا أحد مستيقظ.

كل بيروت نائمة، ووحدها الكلاب تنبح، بعيداً، في أسفل البلدة، قرب سوق الدباغة. قرر أن يحمل سراجاً في رحلته الثانية، وبينما يعود بجراب فارغ إلى الدكان، بينما ينحدر في الطريق المظلمة نحو ساحة العصافير وكنيسة مار جرجس الأرثوذكسية وحارة اليهود، أعاد حساب ما فكّر فيه، وقرر ألا يحمل سراجاً لأنه لا يريد بأي حال من الأحوال أن يتعطل عمله هذه الليلة، لأنه لا يريد أن يطلع نور الصباح على دكانه وهي ما زالت قذرة. قبيل الفجر جرّ الجراب الثقيل الأخير إلى تلك البورة ذاتها. بينما يرفع ظهره ويتنفس الصعداء نظر إلى نجمة يتيمة تشع في السماء بيضاء واهنة، بيضاء تشوبها زرقة كزرقة حجر النيل الذي تصبغ به الثياب. بيضاء عليلة، تشبه ثقباً في قماشة السماء الحالكة. انحدر عبد الجواد أحمد البارودي في درب الدركاه المظلم إلى ساحة العصافير، وعيناه معلقتان بنور السرج المتلامع في فوهة الدكان الجديد. عليه الآن أن يمضي إلى جامع السراي، إلى سبيل السراي. وأن يغسل الجراب جيداً ثم يملأه بالماء. عنده ساعة قبل طلوع الفجر، في ساعة يستطيع أن يشطف أرض الدكان. ومع خيوط الشمس الأولى يقصد «العطّارين» ويشتري كلساً.

لم يفكر البارودي عندئذٍ في الألم الذي يمزق عضلات ذراعه. بذراع واحدة عبّأ الرفش تلو الرفش بالروث الرطب الثقيل. بذراع واحدة جرّ الجراب تلو الجراب صاعداً في طريق الدركاه المظلم الوعر إلى البورة قبل الحمام المظلم الماكث كالشبح في جوف الظلام. بذراع واحدة أفرغ الجراب تلو الجراب من الروث، وبذراع واحدة تلقى سقطاته على الأرض مرة تلو المرة. كان الألم يحرق

كتفه وكل عضلات ذراعه. أصابعه خرج الدم من تحت أظافرها وتمزق جلدها. لم يهتم. عليه أن ينهي عمله. قال هذا في نفسه ورمى الجراب في مدخل الدكان الذي فرغ من الروث أخيراً وجلس على المصطبة الحجر القريبة لحظة ليرتاح.

كان العرق يتصبب منه، وانتبه أن ثيابه التصقت بجسمه. قاس في رأسه المسافة من سبيل الدركاه (مقابل الحمام) إلى هنا، وقرر مرة أخرى أنها أطول من المسافة بين هنا وسبيل السراي. عزم على النهوض، ونظر إلى نور السرج المتلامع الأصفر، قبل أن ينهض. يحتاج أن يرتاح لحظة واحدة بعد، أن يمتع جسمه بهذه النسمات الباردة. لم يرَ نوراً واحداً في حارة اليهود المقابلة. كل البيوت مظلمة. كل بيروت نائمة. وخيل إليه أنه يسمع شخيراً منتظماً موقعاً يصعد من كل النوافذ الموصدة، من كل الكوى المفتوحة في أعالي الجدران، شخير يتعالى موقعاً في فضاء البلدة الهاجعة.

سمع مرة أخرى نباح الكلاب يرفعه إليه من جهة الدباغة هواء البحر. نباح كلاب داخل البلدة يجيبه عواء الذئاب وبنات آوى من وراء الأسوار. ولقد كان هناك! قبل ليالٍ فقط كان هناك! خارج الأسوار! ذئباً بين الذئاب! وها هو في قلب البلدة، ينعس مبللاً بالعرق، ملطخاً برائحة الروث وأثره، ينعس ناظراً إلى السرج. تمايل اللهب الصغير الدقيق أمام عينيه. أحسّ الألم كالإبر في ذراعه التي بدأت تبرد. عليه أن ينهض ويمضي في «الحدادين» إلى سبيل السراي وينظف الجراب ويملأه بالماء ويرجع. عليه أن ينهض. عبد الجواد أحمد البارودي رأى الوطاويط تتطاير في الفضاء المظلم، بينما خيوط الضوء الأولى تتخلل السماء، رأى الوطاويط المجنونة تتدافع مطاردة الحشرات التي لا يراها لكنه يعرف من الطنين ـ ومن الحبوب التي تنمو على جلده ـ أنها كثيرة هنا. البارودي ذو الذراع

الواحدة رأى الوطاويط تتطاير في فضاء الساحة وبين البيوت وفوق كنيسة مار إلياس الملكية وحول برجٍ يحمل جرساً فوق سطح كنيسة مار جرجس للروم الأرثوذكس وفوق بيوت حارة اليهود المجاورة. كان متعباً، وكل جسمه يؤلمه ألماً شديداً، وفكّر مرة أخرى أن عليه النهوض وحمل الجراب إلى سبيل السراي. ثم فكّر أنه ليس معه مكنسة ولا ممسحة وأن عليه المرور بالجامع العمري أولاً. ثم فكّر أن عليه النهوض. ثم فكّر أن هذه الوطاويط كثيرة. ثم فكّر أن الهواء باردٌ حلو منعش. ثم فكّر أن الفجر أوشك على.. ثم فكّر أن عليّ القيام الآن. قرر أن ينهض وبدأ ينهض. وفي تلك اللحظة سقط جفناه الثقيلان على عينيه الحمراوين وهوى إلى نوم عميق. (لو أننا نقرأ الآن حكاية خُرافية لقرأنا أن عبد الجواد أحمد البارودي رأى في ذلك الفجر الربيعي الهادئ من عام 1821 أو 1822 مناماً خارقاً لن يتاح له الوقت الكافي ـ السنوات والعقود الكافية ـ لكي يفهمه. مات عبد الجواد أحمد البارودي قبل عقدٍ كاملٍ من انتصاف القرن التاسع عشر، وقبل قرنٍ تقريباً من تحقق ذلك المنام الغريب. كان مناماً من مشهدٍ واحدٍ فقط. مشهد بلا ناس. بلا حركة، بلا وجوه، بلا أصوات، وبلا معنى. رأى عبد الجواد أحمد البارودي برجاً يرتفع في قلب ساحة العصافير، ورأى في قمة البرج وجهاً أبيض مدوّراً يشبه بدراً كاملاً. لم يفهم معنى البرج بالوجه الأبيض وتلك الأرقام السود في صفحة الوجه المدوّر. هل عرف أنها كانت أرقاماً؟ كان يرى، عندئذٍ، برج «ساعة العبد» الذي نُصب سنة 1933 في تلك النقطة بالذات، وسط ساحة العصافير التي اتسعت بمرور قرنٍ فتحولت إلى ساحة البرلمان).

لكننا لا نقرأ حكايات خيالية الآن، بل القصة الحقيقية الكاملة لحياة الشامي صاحب الذراع الواحدة عبد الجواد أحمد البارودي

الذي ـ مثل كثرٍ غيره ـ صار بيروتياً حين قرر أن يحيا في بيروت وأن يموت فيها. بعد أن اتخذ قراره اكترى دكاناً. نظف الدكان وجلس لحظة يرتاح أمام مدخله فأنعسه التعب وأنعسه العرق على جسمه. نام مطوياً على المصطبة الحجر، ولم يرَ في نومه إلاّ الظُلام واستيقظ مذعوراً حين سمع أذان الفجر يتعالى في اللحظة ذاتها من جامعين مجاورين معاً.

قفز واقفاً وأقفل الدكان على البقعة السوداء الباقية وعلى الجراب الفارغ وعلى الرفش المتسخ وعلى السرج المطفأة، ثم أسرع منحدراً في «الحدادين»، وانعطف يساراً، واخترق «سوق الصرامي»، وخرج إلى «العطارين» وعَبَر أمام قناطر الجامع العمري الكبير وأمام رجالٍ جاؤوا للصلاة وتركوا المداسات في صناديق الخشب في المدخل الواسع. تابع طريقه مطرق الرأس، ونزل الدرجات الخمس إلى وكره. أخرج منشفتين كبيرتين ولوح صابون وأسرع مغادراً المكان ومضى في خطٍ متعرج يتسلق دهاليز وأزقة تُنيرها سماءٌ باهتة الضوء إلى أن بلغ حمام الدركاه. اغتسل طويلاً بمياهٍ ساخنة وبمياه باردة وفرك جسمه بالكيس الجنفيص الخشن حتى احمر جلده وحتى احمرت كل مسامه وحتى أحسّ بالشعر يحترق على بشرته. كان جسمه يتفتح، وفتات الوسخ يسقط عنه، يزول وينزل في الأقنية الحجر. رمى الطاسة تلو الطاسة على جسمه، وترك الماء يغسل قذارة الروث وقذارة العرق وقذارة النوم على الأرض في هنيهات الفجر القصيرة. تنشق البخار، ورائحة عطرية، تنشق المسك، ورائحة تشبه البنّ المحروق والقرفة والهال معاً، ولفّ جسمه بالمنشفة الأولى، ونشّف شعره الأسود الجعد بالمنشفة الثانية ثم نشّف جذعه ونشّف ذراعيه ونشّف ساقيه. حين انتهى رأى فتائل داكنة على جلده. رمى المنشفة جانباً واغتسل مرة ثانية ثم جلس

على الأرض وترك الهواء ينشّفه.

جاء صبي من صبية الحمام يحمل إبريقاً نحاسياً أصفر ويطقطق بفناجين القهوة المرّة. دعّاه عبد الجواد أحمد البارودي إليه. بعد القهوة الساخنة دبّ النشاط في جسمه. حين خرج من الحمام، مع الخارجين، رأى أن البلدة قد استيقظت، أن البوابة المجاورة قد فُتحت، وأن الزقاق امتلأ بالناس. كان نظيفاً، منتعشاً، ورائحة الصابون تفوح من ثيابه التي غسلها طويلاً في الحمام. بحث عن بقعة شمس ليجلس فيها قليلاً وتنشف ثيابه الرطبة. وجد بقعة صالحة عند «زاوية الدركاه»، مقابل الحمام. جلس يتفرج على البشر ويفكّر أن عليه الآن، بالذهبيات الباقية معه، أن يحصل على أرض صغيرة وأن يبني ـ بذراعه الواحدة، بأصابعه الخمسة ـ بيتاً صغيراً. لا يريد البقاء في ذلك القبو تحت الجامع. ليس جرذاً. كان يقول في سرّه إنه ليس جرذاً، ليس فأراً من فئران الحقول، وفي تلك اللحظة انتبه إلى الجوع الذي يوجع صدره. دخل فرناً قريباً، ابتاع رغيفاً ساخناً فُقِست عليه بيضة، ورجع إلى بقعة الشمس يأكل رغيف البيض الحار ويتأمل البشر.

بعد سنوات طويلة خرج السيد عبد الجواد أحمد أبو شاهين البارودي الجوهرجي من حمام الدركاه، في عباءةٍ من الجوخ الإنكليزي الثمين المزركش بخيوط القصب، محاطاً بأبنائه الثلاثة، ومتبوعاً بعبدين حبشيين عملاقين لا يغادر بيته ـ أو متجره في قيسارية الصاغة ـ من دونهما. في هذا الصباح الصافي من ربيع 1838 رأى السيد عبد الجواد أحمد البارودي الجوهرجي، صبياً جالساً على حجرٍ قبالة الحمام يأكل رغيفاً ساخناً، فتذكر زمناً قديماً وتذكر شاباً فقيراً وتذكر رغيفاً مسقى بزيت الزيتون الساخن وتذكر طعم البيض الحار. الصفار الدسم على سقف الحلق، واللقمة المالحة

الطيبة. . . مضت السنون. نظر عبد الجواد أحمد البارودي الجوهرجي إلى ابنه البكر العائد شاهين، نظر إلى ابنه الثاني عبد الرحيم، نظر إلى أصغر أولاده عمر ذي العينين الخضراوين المتسعتين، وشعر بالفخر. فعل ما أراد أن يفعل. بلى، استطاع ذلك. أحبّ في تلك اللحظة أن يدخل ذلك الفرن نفسه (حيث مطعم SCOOZI اليوم، مقابل مبنى جريدة «الحياة») وأن يبتاع بعض الأرغفة الساخنة بالبيض الطازج المفقوس مع زيت أو سمنٍ أو «قورمة» (لحمة مطبوخة بالدهن ومملحة تُحفظ مونةً طوال الشتاء). ودّ أن يدخل ذلك الفرن نفسه ويمنح العجوز ـ المحروق الصدر وشعر الصدر من الوقوف أمام لهب التنور ـ ليرة كاملة. ودّ أن يأكل رغيفاً، واقفاً وسط السوق، وأن ينظر إلى أولاده يأكلون معه، وأن ينظر إلى العبدين أيضاً يأكلان وينظران إلى الناس من علٍ. ودّ ذلك لكن الفرن كان قد هُدم قبل سنوات، تداعت حيطانه وسقط بلا هبّة هواء، وفي مكانه صعد عقدٌ بطبقتين يعجّ بالعساكر المصرية.

كم تغيّرت حياتك يا عبد الجواد البارودي بين 1822 و1838؟ كأنك صرت رجلاً آخر. لم تحفظ من ذلك الرجل القديم غير ذراعه الواحدة، وغير الشعر الجعد القاسي كنشارة الحديد (لم يعد أسود، ملأه بياض السنين، التعب والهموم). تغيّرت يا عبد الجواد، وحين تستيقظ في فراشك الوثير في بيتك الحجر جنب سوق القطن هذه الأيام وتنظر إلى المرأة التي نهضت قبلك، قادمةً وفي يدها إبريق المياه، تُحسُّ أن الوقت عَبَر أسرع من سرب حمام!

لنتركْ عبد الجواد أحمد البارودي الجوهرجي، بعباءته الجوخ الثمينة المنسوجة في مصانع مانشستر، واقفاً تحت سماء الصباح الصافية في الأيام الأولى من ربيع 1838، محاطاً بأبناءٍ وعبدين

أسودين، ولنتبعْ عبد الجواد أحمد البارودي بأسماله الرطبة، والسروال المقطوع عند الركبة، في طريقه إلى دكانه الجديد الذي لم يشطف أرضه بالماء والكلس المذاب بعد، في ذلك الصباح البعيد من ربيع 1821 أو 1822. ثم لنتركْ هذا الرجل أيضاً، بذراعه الواحدة المتعبة من عمل الليل المنهك الطويل، ولننظرْ إلى عبد الجواد أحمد البارودي بعد شهرٍ واحد أو شهرين، يقف بين صناديق الخضر والفاكهة في دكانه المطلّة على حارة اليهود، عند نهاية سوق الحدادين، يزن البندورة الحمراء والخيار الأزرق في الميزان، ويقدم لزبائنه المداومين هدايا صغيرة: ربطة من النعناع الفوّاح الرائحة، ربطة من البقدونس طري الورق، ربطة من الفجل أحمر سكري الطعم، أو ضمّة فرفحين تُفرم وتمزج مع البصل والسماق وزيت الزيتون فتصير أطيب حشوة لأطيب فطيرة ساخنة.

ها هو عبد الجواد أحمد البارودي قد تحول تاجر خضرٍ بيروتياً. البيت الحجر الصغير الذي بناه غرب سوق القطن بناه بحجارة حُمِلت إلى هنا على البغال من مقالع وطى المصيطبة. بيتٌ متين مربع، يدخله الهواء من ثلاث جهات. ليس قبواً. ليس وكر جرذ. بيتٌ متين يلذ العيش فيه، وتنقصه امرأة تمسح أرضه، تزرع ورداً في البورة أمامه، وتملأه برائحة طيبة. بيتٌ متين، لم يكلفه إلاّ أجرة البغل والبغّال، بناه بيدٍ واحدة. أهل بيروت كانوا يأتون للفرجة عليه. كيف يرتفع جدارٌ بيدٍ واحدة؟ كيف تُلقى جسور الصنوبر فوق الحيطان بيدٍ واحدة، ثم تُغطى بالطين وتحدل فتصير سقفاً، بيدٍ واحدة؟

عبد الجواد أحمد البارودي رفع، بمعونة سبحانه وتعالى، بيتاً مربعاً صغيراً متيناً وراء سوق القطن. أقام في بيته الجديد شهراً أو شهرين. في الشهر الثالث ذهب يزور الإمام عبد العزيز الحوت

وأخبره أن الدكان ليس كما يريد. يجني منه لقمة العيش الكريم لكن التجارة هنا ليست كالتجارة في الشام. تلك بلد بمئة ألف فم، وهذه بلد بخمسة آلاف فم. الشيخ الحوت أجابه أنه يعلم هذا، وأنه لا يحتاج إلى المبلغ الذي أقرضه إياه الآن. عبد الجواد أحمد البارودي صعد الدم إلى وجهه، إلى خدّيه وأذنيه، قبّل يد الشيخ واستغفر اللّه العظيم. قال إنه لم يأتِ من أجل هذا، وإن دين الإمام في عنقه، وإن دين الإمام ليس هذه الليرات الذهب، بل كل العطف والإحسان وكل العاطفة التي أغدقها عليه، منذ رآه غريباً في هذا البلد. الإمام أسكتته العاطفة الصادقة المتدفقة من الشامي الذي صار بيروتياً، شعر بالحرج لأنه أتى على سيرة الذهب، وسارع إلى التربيت على كتف الرجل، وسأله ماذا يستطيع أن يصنع له. عبد الجواد أحمد البارودي أخبره عندئذٍ أنه يفكّر في أن يكمل دِينه، يفكر في الزواج. أنهى جملته، شرب ما بقي من قهوة مرّة في الفنجان، سمع كلام الإمام، قبّل يده مرة أخرى، وخرج.

في الطريق لمس زناره. كان الزنار ثقيلاً بليرات الذهب. أتى وفي نيّته أن يسدّد دينه اليوم قبل غدٍ، لكن حديث الإمام سبّب له الحرج. خاف إذا دفع الذهبيات الآن أن يجرح كرامة شيخه ومولاه عبد العزيز يحيى الحوت. في الطريق، عابراً سوق الصرامي (60 خطوة ليس أكثر من «العطارين» إلى «الحدادين»)، أنّب عبد الجواد أحمد البارودي نفسه: كان عليه إخراج الليرات من زناره فور دخوله على الإمام، لماذا تأخر في ذلك، لماذا دخل في كلام أحمق عن تجارته. تجارته حسنة والحمد للّه، ليست مزدهرة كمّا كانت في الشام، لكنها حسنة والحمد للّه. يكفيه أنه جمع كل ما دفعه في الدكان، وكل ما دفعه للوقف مقابل قطعة الأرض الصغيرة، وكل ما دفعه للبغّال، وكل ما دفعه في سوق النجارين وفي سوق الندّافين

وفي سوق الخياطين. ألا يكفيه ذلك؟ في الأمس فقط، قبل شهور، كان مبللاً بالماء هارباً من العسكر طريداً في البراري! ألا يكفيه أنه ينام على فراشٍ، أنه يتغطى ببطانية، أنه يأكل لقمته بعرق الجبين ويلبس القطن وينتعل الجلد ويُدخن ـ من حينٍ إلى حين ـ أرجيلة بالتنباك اللاذقاني تردّه في الزمن إلى أيام الشام! أنّب عبد الجواد أحمد البارودي نفسه في الطريق. قال إنه أخطأ وأخذ يفكر في وسيلة يُصحح فيها الخطأ فلا يحرج مولاه عبد العزيز الحوت. مشى في «الحدادين» عشرين خطوة فبلغ دكانه. كان الصبي يرشّ الخضر برذاذ المياه لئلا تذبل في الشمس. جلس عبد الجواد أحمد البارودي على الطراحة على المصطبة الحجر، ينتظر قدوم صاحبه الخمسيني موسى يعقوب مزراحي اليهودي، كعادته بعد ظهر كل يوم.

بينما البارودي ذو الذراع الواحدة ينتظر صديقه اليهودي موسى مزراحي، لنُنه الحديث في مسألة الدَيْن (ليرات الذهب العثملية) والسرعة التي أنجز بها الرجل جمع المبلغ (ثمن الأرض، ثمن الدكان، أجرة البغّال، إلخ. . .)؛ لننه الحديث في كل هذه المسألة بمقطع واحدٍ: من الصعب أن نعرف ماذا حدث مع الرجل في ذلك الزمن البعيد. حاولنا أن نعقد صلّة بينه وبين الجامع العمري الكبير وإمام الجامع العمري الكبير. سبب ذلك سيتضح في صفحات آتية. لكن علّة هذه الصلة ذاتها ـ القرض ـ غير مهمة، ليست ثابتة، وإنما هي من نسج الخيال ليس أكثر. يمكن الاستغناء عنها.

ما يهمنا معرفته هو الآتي: استطاع عبد الجواد أحمد البارودي بعد زمنٍ قصير من نزوله في بيروت أن يفتح ـ بذراعٍ واحدة ـ تجارة خضرٍ رابحة مقابل حارة اليهود. استطاع أيضاً أن يبني بيتاً مربعاً صغيراً قريباً من سوق القطن. بعد وقتٍ غير طويل ضرب زلزالٌ بيروت فهدم بيته المتين (يبدو أنه لم يكن متيناً بما فيه الكفاية.

الرجل ـ في النهاية ـ عمَّره بذراعٍ واحدة). هدم الزلزال أيضاً حارة إدريس الملاصقة للسور في نهاية سوق الفشخة. سكان بيروت استغلوا تداعي الحارة المذكورة وظهور ثغرة في السور، وفتحوا باباً جديداً للبلدة، باباً يفتح سوق الفشخة وبيروت كلّها على رأس بيروت وبساتين رأس بيروت. باب السنطية وحده لم يكن كافياً. ثم أن دربه متدرجة وعرة ومسكونة بالجنّ. أمام الباب الجديد، الذي سُمي باب إدريس، ظهرت دكاكين عدّة بعد الزلزال. عبد الجواد أحمد البارودي تجول في الجوار، وبدأ يفكّر في نقل تجارته إلى هنا أو إلى البازركان. لكن ذلك لن يحدث قبل سنين. أثناء ذلك سينشغل في أمور أخرى: ترميم بيته مثلاً؛ الزواج أيضاً.

بيروت كلّها انشغلت بترميم ما تهدم بعد ذلك الزلزال. الجدار الشرقي للجامع العمري الكبير تصدع. وكما حدث مع سور بيروت حدث مع جدار الجامع: فُتحت في الجدار المتصدع بوابة جديدة، بوابة شرقية تفضي إلى «الحدادين»، وتواجه جامع السراي بقبّبه الأربع الصغيرة حول القبّة المركزية الكبيرة. بات الجامع العمري منذئذٍ جامعاً بثلاث بوابات.

في سوق البازركان سقط بيتٌ على سكانه. لم يمتْ أحد. تكوم الركام مثل هرم على عائلة مكوّنة من أبٍ وأم وخمسة أطفال. أُنقذوا جميعاً. أحد الأطفال أصيب بخدشٍ في كاحله الأيمن. طفل آخر بكى خوفاً. في جامع النوفرة المجاور تصدعت البركة المرمر وسالت المياه في الباحة. انشقت أيضاً لوحة الرخام فوق العتبة فغاب حرف «ما» المنقوش في وسطها. وراء جامع النوفرة، في سوق المنجدين، سقط حائطٌ على رجل كان يحتمي به من رجفة الأرض، فكسَّر جمجمته. مشى الرجل بجمجمة مكسورة، ودماغ أزرق يسيل خارج القبّة العظم المحطمة، قاطعاً سوق المنجدين إلى باب

يعقوب. قطع الزقاق الصاعد، زقاق طوله ثمانون خطوة، من دون أن يجد أحداً يساعده. أبو علي حسن حلاّق، القاضي الشرعي الذي جاوز الثمانين، رآه من فوق بوابة يعقوب ماشياً كالسكران، يد على الحيطان التي تتصدع كأن لمسته تُصدِّعها، ويد على جبهته التي غطّاها سائلٌ أحمر. من مكانه العالي رأى القاضي الشرعي مزيجاً أبيض كاللبن في الجمجمة التي زال سقفها، ورأى فقاعات بلون عصير الجلاب تبقبق في السائل الأبيض. بعد ذلك هوى الرجل المسكين على التراب. عُرف عند المساء أنه يُدعى أنطون خضر، وأنه من طرابلس. جاء إلى بيروت بحثاً عن أخٍ ضائعٍ. لم يجد أخاه، وقضى نحبه. بعد فترة جاء أحد أخوته يبحث عنه. لكن هذه قصة أخرى، ولا تمت بصلّة إلى سيرة آل البارودي.

المهم أن بيروت كلّها تأذت في ذلك الزلزال. ثم انشغلت بأعمال الترميم بعد أن استقرت قشرة الأرض وكفّت العمارات عن التمايل والارتجاج.

عام 1996، بعد سنةٍ تقريباً من لقائي الأول بالكونت سليمان بسترس، ضربت سلسلة من الهزّات الأرضية، مدينة بيروت. المرأة التي ستصير زوجتي كانت قاعدةً وحدها في بيت أختها الكبرى في ساعة متأخرة من الليل تشاهد فيلماً صينياً، حين انشق الحائط أمامها، فبان الظلام، وبانت النجوم. بعد سنوات، بينما أسمع الكونت يصف الزلزال الذي ضرب بيروت في الخمسينات، أو بينما أقرأ عن الزلزال الذي ضرب حلب في 1822 فأدى إلى هجرة فرعٍ كامل من آل طرازي إلى الساحل اللبناني، كانت صورة واحدة تظهر أمام عينيّ: ينشق جدارٌ فتبين في الليل حفنة نجوم.

في ربيع عام 2003، أخبرني غسان شربل، في قاعة الاجتماعات في «الحياة» (كان يوم أحد، والمكاتب شبه فارغة)،

قصةً. لم تكن قصة عن زلزال، بل قصة رواها أحمد جبريل. غير أن المخيلة ـ التي لا يفهم أحد قوانين حركتها ـ حوّلت القصة كاملةً إلى تفصيل دموي في زلزالٍ قديم. أحمد جبريل كان يحكي عن «معركة الفنادق» وعن مقاتلٍ كتائبي برأسٍ محطمة يصعد درجاً، وسط دوي الإنفجارات، غير مبالٍ (غير عالم؟) بدماغه الذي يوشك على السقوط من جمجمته. هذه الحكاية من بيروت الحرب الأهلية لا تعثر على نهايتها هنا، بل بعد تسعة فصول.

تركنا عبد الجواد أحمد البارودي (قبل حديث الدَيْن والذهب؛ قبل حديث الزلزال) جالساً على مصطبة حجرٍ أمام دكانه ينتظر صديقه موسى يعقوب مزراحي. انتظر الرجل طويلاً ولم يظهر الصديق اليهودي. كان سقط مريضاً بالحمى في الليلة الفائتة بعد أن تناول صحناً من «المهلبية». ربما كان الحليب الذي طُبخ فيه الأرز الدمياطي الأحمر فاسداً.

الحمّى رفعت درجة حرارته. أخذ يهذي. أخته العجوز وضعت فوطاً مبلّلة بالماء على وجهه وصدره. لم ينفعه ذلك. زاد ارتفاع الحرارة حتى بخّر مياه الفوط كلّها. أخذ الرجل الخمسيني يهذي. كان يحكي عن أوتار يقصّها ويُثبتها في ثقوب الخشب. الأخت العجوز عرفت أنه يتذكر «المصلحة»: مهنته. كان صانع أعوادٍ. وضارب وتر لا يُجارى. ثم كفّ عن العزف وكفّ عن تنجير آلات العود. الأوتار التي تُصنع من أحشاء البقر كانت تتحول بين يديه إلى خيوطٍ من حرير. ينقعها في ماء الجوز حتى تطرى، ويداريها لئلا تطرى كثيراً فتنقطع. موسى يعقوب مزراحي ضاع في الحمى سبعة أيام، يصنع آلات عود خيالية، ويعزف موسيقى لا يسمعها أحد.

عبد الجواد أحمد البارودي ذو الذراع الواحدة، الغريب الزائغ النظرة الذي ابتاع منه دكانه (معمله الذي صار زريبة، بل أسوأ: صار

قبواً تكوم فيه قاذورات الماشية، صار مخزناً للروث)، جاء وزاره في بيته. موسى يعقوب مزراحي عَرِف الوجه الأليف ولم يعرفه. منذ أيام، منذ أسابيع، منذ شهور، يجالسه كل عصر أمام الدكان التي امتلأت خضرةً وحياة. هذه الدكان التي كانت حياته ومعمله وسعادته.

في متاهة الحمّى غابت عنه إلى الأبد تلك الموسيقى، غابت وجوه العائلة، غاب غناء راحيل، غابت الموسيقى وغابت حدائق خضر وغاب وجه ابنه وغاب وجه ابنته وغابت نافورة ماء في خان الفرنسيين في صيدا وغابت جنائن ملونة خارج خان البنادقة في حلب وغاب بهوٌ من رخام مُعرق في بيت المقدس وغابت سماء زرقاء وغابت الضفة الغربية للبحر الميت... غاب نهر الأردن، وغابت حقول ورمال وهضاب تفوح برائحة الزعتر البرّي ورائحة الخزامى ورائحة الزيتون ورائحة العنب الناضج الشهيّ... كل تلك الرحلات على الحمير والبغال. ذات خريفٍ سافر في قافلة إبلٍ إلى دمشق وحلّ ضيفاً على قصور؛ أنشد نشيد النبي سليمان في كنيسها القديم؛ غنّى للطائفة ليالي؛ وسهر ليلة أولى لا تنسى مع الأخت الصغرى للحاخام حاسقيل. غابت حياته الرغيدة بعد سبعة أيام من التوغل في دروب المتاهة التي كرّرت سنوات حياته كاملةً حتى بلوغه الثانية والخمسين. فجأة، في منتصف ليل، حجبت الغيوم وجه القمر وأظلمت المتاهة. تصاعد بخارٌ من أقنية قذرة، ووجد الحيطان تنطبق عليه.

أين أنا؟ صرخ في ظلام حارة اليهود في باطن بيروت. أين أنا؟ صرخ موسى يعقوب مزراحي من قلب المرض الذي كان يجذبه بألف ذراع وذراع إلى جوف الأرض. أين أنا؟ صرخ عازف العود اليهودي الذي جاوز الخامسة والخمسين، والذي ما كان يعلم عندئذٍ

أنه لن يجاوز أبداً التاسعة والخمسين. صرخته في الليل الصامت الحزين لم توقظ أخته شبه الطرشاء. صرخته كانت أشبه بهمسةٍ. الحرارة العالية أسالت أوتاره الصوتية وذهبت بصوته. تقلب في الحمى، على فراشٍ يثقل بالعرق المتسرب من جسمه العجوز، ورأى ـ بين أخيلة ووجوه يعلم أنه يعرفها، لكنه لا يعلم متى عرفها، أين عرفها، أو كيف ـ رأى موسى يعقوب مزراحي صاحب الأصابع الذهب والحلق الذهب أنه يحيا من جديد الكابوس الذي صار حياته منذ تلك الليلة الباردة التي دمَّرت كل ما فيه، تلك الليلة الباردة التي مرَّت على جسده قبل ثلاثة أعوام، فتركته كالميت ـ الحيّ، كتلك الجثة الناطقة في التلمود: رجل مصنوع من الطين، يتكلم بقوّة السحر الشيطاني، لكن جسمه لا يحوي روحاً، لا يحوي نفساً آدمية، يشبه إنساناً وليس هو بإنسان.

مكتوب في التلمود أن الحاخام حنينة والحاخام أشعيا استخرجا من «سفر التكوين» بعد 99 سبتاً من القراءة والتنقيب، كلمات السحر التي تنفخ الحياة في الطين. عندئذٍ، انتظرا حتى انتهاء ذلك السبت الأخير، ومع إشراقة فجر الأحد، جمعا كتلة طين على الطاولة، ونطقا في اللحظة نفسها «الكلمات السبع»، فتحولت الكتلة الداكنة الرطبة إلى عجلٍ عمره سنتان، لم يشرب ويأكل غير الحليب. تلك الليلة ذبحا العجل، شوياه على نار الصنوبر، وأكلاه. بهذه الأساليب استطاعا العيش في زمن المجاعات والحروب. في متاهة الحمّى رأى موسى يعقوب مزراحي مخلوقات السحر تحيط به، ورأى «الغوليم»، الرجل المسخ الذي يشبه الرجال والذي يتحول إلى حفنة غبار بكلمة واحدة ينطقها الحاخام يهوذا لوي بن بزابيل في لحظة الغروب. الحاخام بن بزابيل صنع غوليماً آخر ليخدمه في الكنيس وليبتاع له اللحم والخبز والخضر والزيت من السوق. كل صباح كان الحاخام

يدخل إلى غرفة الغوليم ـ الذي يشبهه شكلاً كأنه هو ـ ويدفع في أذنه قرصاً صغيراً من الطيون الأخضر المعجون باللعاب. عندئذٍ ينهض الغوليم من النوم. عند المساء، بعد نهارٍ طويل من العمل وقطع الحطب وتنظيف الكنيس وغسل الثياب وإعداد الطعام، كان الغوليم يجلس إلى الطاولة وعيناه ثابتتان على صحن الطبيخ أمام الحاخام. قبل أن يلمس طعامه كان الحاخام ينهض، يدور حول الطاولة، ويطلب من الغوليم (الذي يشبهه كأنه هو، كأنه انعكاسه في المرآة، رغم أن حركته الثقيلة ونظراته الشاردة وعضلات حنكه المتراخية تظهره ممسوخاً بعض الشيء، طينياً إلى حدٍ ما)، ويطلب من الغوليم أن يتبعه دقيقة فقط إلى الغرفة المجاورة. حين يصبح الغوليم جنب الفراش يقترب الحاخام خطوة وينزع قطعة الطيون الجافة من أذنه، فيهوي الغوليم نائماً. بهذا الأسلوب استطاع الحاخام الحكيم أن يحتفظ بخادم لا يكلف قرشاً واحداً. ذات مساء نسي أن ينزع قطعة الطيّون من أذنه فخرج الغوليم إلى شوارع مدريد النائمة، ركض صارخاً في الظلام، قتل امرأة صادف مرورها في طريقه، ثم تعثر بشباك صيدٍ ووقع في بحيرة أو نهر. ذاب في المياه وضاع إلى الأبد كما يضيع كل شيء.

موسى يعقوب مزراحي المحموم رأى جسماً يتحلل ويذوب في جرن ماء يشبه جرن الماء الحجر عند سبيل الدركاه. اقترب من الجرن، أراد أن ينتشل الجسم قبل أن يذوب تماماً. . . لعله ينقذه من الضياع. كان الجسم يتقلب في المياه الخضراء، مفتوح العينين يتنفس تحت الماء مثل سمكة أو ضفدعة، وينظر إلى موسى يعقوب مزراحي من تحت الماء، كأنه يريد أن يخبره شيئاً، كأنه يريد أن يكشف له السرّ. السرّ؟ أي سرّ؟ سرّ الرجفة التي أصابت أصابعه فلم يعد قادراً على العمل. سرّ الرجفة التي حطّمته تحطيماً. هذه

الارتعاشة البسيطة ـ لكن الدائمة ـ في الأنامل، هذه اللعنة التي يعرف جيداً لماذا أصابته. لم تكن لعنة. كانت عقاباً. موسى يعقوب مزراحي قال في سره إنه العقاب، العقاب الذي لا بدَّ منه. كان الربّ يذلّه. الربّ يذلّه. لم يسمح للنبيّ موسى أن يطأ بقدمه أرض الميعاد. تراها ولا تدخلها، قال الربّ. تراها ولا تدخلها. العقاب، العقاب، العقاب. موسى يعقوب مزراحي أراد أن يلمس الجسم الذي يذوب في سبيل الدركاه. لم يستطع. متاهة الحمّى دفعته دفعاً، بريحٍ غادرة مباغتة، إلى زريبة يغطيها زبل البقر. ثم انتبه أنها ليست زريبة. أدرك أنها ليست زريبة حين رأى أخته تجمع آخر الأعواد، آخر الآلات الدقيقة، وتخرجها إلى المصطبة. لم تكن زريبة. كانت دكانه، كما ستصير دكانه بعد أن تفرغ من كل ما كان يصنعه هنا من قبل. حتى الكرسي الخشب أخرجته الأخت إلى المصطبة. أفرغوا الدكان من كل ما فيها، ثم أجّرتها أخته إلى الجار صاحب الأبقار. الدكان لم تعد معمله، لكنه ظلّ ينزل إليها حاملاً طراحته. يجلس على المصطبة الحجر وينظر إلى الناس. إلى المشهد الذي أبصره طوال العمر. لماذا يقعد في الرائحة القذرة ولماذا يعذب نفسه؟ قال موسى يعقوب مزراحي أن ذلك كلّه جزء من العقاب. العقاب الربّاني الذي لا يعرف نهايته، لا يعرف هل ينتهي، ولا يعرف كيف ينتهي.

انحدرت المتاهة الحجرية به نحو بحرٍ لا يُرى، ولكن صوت موجه مسموع في ليل البلدة الهاجعة. اكتشف موسى يعقوب مزراحي عندئذٍ أن المتاهة هي بيروت. كان عند سبيل الدركاه ثم تدرجت الأزقة منحدرة إلى أن بلغ المرفأ والبحر. شمّ رائحة سوق الدباغة وشمّ رائحة البحر. ثم سمع ذلك الصوت الجميل ـ يا ربّ! أحقاً يسمعه بعد هذه الأعوام! ـ سمع صوت راحيل. قبل أن يبلغ

هذا الجزء القاتم من المتاهة، حين كان لا يزال أسير تلك الأيام السبعة الحلوة التي كرّرت حياته كاملة من سنّ السابعة عشرة إلى سنّ الثانية والخمسين، تمتّع بكل ما تمنحه الأرض لإنسانٍ غير عادي مثله، تمتّع بكل ما تمتّع به في حياته، ولكن بشيء واحد ناقص: تلك قطعة ظلّت مفقودة، فلم تكتمل آلة العود ـ التي هي حلمه الكامل ـ لم تكتمل الآلة بين يديه. ماذا نقص أيامه السبعة تلك؟ صوت راحيل. بلى، سمعها تغني، كما سمعها تغني منذ التقى بها للمرة الأولى في ذلك الخريف الدمشقي المحفور حتى الموت في الذاكرة. لم يكن بلغ الثالثة والثلاثين بعد. ورآها. وسمع صوتها. وجلس معها على مصطبة قصرٍ وتأملا غروب الشمس في البساتين. طوال سبعة أيام من الحمّى سمعها تغني من جديد، لكن صوتها لم يكن صوتها. كان صوتاً يشبه صوتها لكنه ليس هو. كأنها مريضة، كأنها أصيبت ببّحة، بنزلة برد. موسى يعقوب مزراحي الذي بلغ الجزء البشع من متاهة الحمّى (الجزء الأبشع) استدار حين سمع الصوت الذي لم يتخيّل أبداً أنه سيسمعه مرة أخرى. كانت تلفظ اسمه. قالت: «موسى». لم تقل «معلمي». هي التي لم تلفظ اسمه أبداً بلا «معلمي»، تلفظ اسمه فقط الآن. رفع يده يريد أن يلمس الوجه. أصابعه لم ترتجف. كأنه رجع إلى ما كان عليه قبل تلك الليلة الباردة. أراد أن يلمس الوجه المدوّر، الرموش السود الطويلة، الخدين السمينين. لم يستطع. سال الهواء أمام عينيه، رأى موجاً دقيقاً ـ كصفحة مطر ـ يفصله عن الوجه الحبيب. كانت تغرق واقفةً أمامه، وسمعها تنده اسمه: «موسى». مدّ يديه عبر الماء. عليه أن ينقذها. أن يخرجها من هذا المطر، من هذا البحر، من هذا الليل، من هذا البرد.

راحيل حاسقيل ـ الأخت الصغرى لحاخام دمشق الشهير ـ

غرقت حين انكسرت السفينة الشراعية التي كانت تحملها مع معلمها موسى يعقوب مزراحي من عكا إلى بيروت. موج البحر رمى حطاماً وبشراً يراوحون بين موتٍ وحياة على شطآن صور. على الرمل الأصفر الكثير ضمّ موسى يعقوب مزراحي الجسم البارد بين ذراعيه. كان ليلاً بهيماً، وحمل الجسم الحبيب الذي لم يلمسه لمس المحبين من قبل. حمل موسى يعقوب مزراحي جسم راحيل حاسقيل الأبيض السمين ومشى فيه على طول الشط. كان الجسم يبرد بين يديه، يزرق ثم تزول الزرقة ويشتد البياض حتى يبرق ويؤلم حدقة العين. ركض موسى يعقوب مزراحي على الشط. كان ليلاً بهيماً، ولم يعد يسمع تلك الأصوات المستغيثة، ولم يعد يسمع الأصوات الباكية، ولم يعد يسمع إلاّ موج البحر.

حين هدأت العاصفة قبيل الفجر سمع زقزقة عصافير. ممدّداً إلى جانب حبيبته (التي لم تعرف أبداً حبّه لها)، في بستان برتقالٍ أخضر الأغصان والورق، ناجى الرجل الخمسيني المرأة التي أحبّها أكثر من زوجته. كانت الآن ميتة، مثل زوجته. زوجته أعطته ابناً وبنتاً ثم ماتت بينما تلد بنتاً أخرى لن تعيش. الابن ساسون مات في صيدا بالحمى الصفراء قبل عشر سنوات، وترك عائلة تأتي وتزوره في الأعياد. البنت سارة ما زالت على قيد الحياة، تحيا مع زوجها وأولادها في دير القمر. زوجها يملك مصبنة وأولادها يعملون هناك. ليسوا صغاراً. كبروا. زوجته الميتة أعطته أن يرى كل هؤلاء الأولاد... راحيل ماذا أعطته؟

ممدّداً إلى جانبها في نور صباح ما بعد العاصفة غمرته رائحة الوحل ورائحة العشب ورائحة لحمها الأبيض، رائحة الزَبَد والملح على جسمها ورائحة ريش العصافير ورائحة البرتقال. طوال الليل يحضنها، والآن فقط، في نور الصبح الخجول، يرى العلامات التي

خلّفتها أصابعه على كل ذلك البياض. لم يرَ ناراً تشتعل في جبّ. لم تشق صاعقة وجه السماء. لكن موسى يعقوب مزراحي سمع الصوت الغاضب عندئذٍ: «ماذا صنعت؟». نظر إلى الجسد الأبيض المبقع بعلامات أصابعه، نظر إلى أصابعه، ثم أغمض عينيه. نزل صقيعٌ في ظهره. نزل صقيعٌ في عموده الفقري. نزل صقيعٌ في كل مفاصله. لم يعرف ماذا يفعل. حفر في الحقل حفرة. دفن راحيل حاسقيل. بينما يبتعد عن الحقل، عن أشجار البرتقال التي ترسل موسيقى الحفيف في نسيم الصباح، انتبه إلى أصابعه. كانت ترتجف بلا توقف. تذكر عندئذٍ أنها بدأت بالارتجاف في الليل. وان الليل كان صاعق البرودة. لم يفكّر عندئذٍ في أيامٍ آتية. ودّ أن يتبخر، أن يتلاشى كقطرة ماء في الشمس، بينما يخطو في طريق صور، في ذلك الصباح البعيد. لكنه لم يتبخر.

بعد عام كامل على تلك الليلة صعد من بيروت إلى دير القمر يزور ابنته. في زقاقٍ مزدحم بالناس والبضائع رأى فتاة بيضاء تشبه راحيل. أحسّ تنملاً في ذراعه اليمنى، وحريقاً تحت أضلاع صدره. هوى على الأرض، عند زاوية كنيسة مار مارون، ولم ينتبه إليه ـ من سكان دير القمر الخمسة آلاف ـ أحدٌ. هوى على الأرض وبقي منطرحاً على جنبه ساعة، وحين فتح عينيه من جديد كانت الشمس غابت والسوق فارغة. نهض وتسلق الدرب المتعرج بين بساتين التوت إلى بيت ابنته. طوال الطريق ظلّ يحدق إلى أصابعه: تلك الرجفة لا تتوقف. تلك الرجفة لا تسمح له أن ينسى. عقاب الربّ لا يرحم.

في متاهة الحمّى رأى العوّاد موسى يعقوب مزراحي المغنية راحيل حاسقيل تغرق للمرة الثانية. حين حاول أن يلمسها لمسة أخيرة وجد نفسه قاعداً مع صديقه الجديد ذي الذراع الواحدة

عبد الجواد أحمد البارودي في ظلال شجر السنط، إلى جوار المقبرة، خارج بوابة السنطية. كانا يأكلان الحمص الأخضر المشوي ويتفرجان على المثلثات البيض لسفينة شراعية كبيرة تعبر البحر، ويرتفع فوق صاريتها العلم الإنكليزي، خافقاً في الريح. المشهد دام لحظة، ساكناً. ثم عصفت الريح بالأشرعة البيضاء المثلثة، كسّرت الصواري، ورفعت السفينة الإنكليزية الضخمة في الهواء. من السفينة العالية تساقطت صخور، تساقطت حبّات برتقال متعفنة، تساقطت براميل، تساقطت أعواد بلا أوتار، تساقطت هياكل عظمية، تساقط أطفال موتى، تساقطت أبقار مملوءة الضروع بالحليب وتساقطت أباريق من النحاس الأصفر. التقط موسى يعقوب مزراحي إبريقاً، ورفعه إلى فمه مغمض العينين. حين فتح عينيه رأى أخته تسقيه ماء، تجفّف وجهه من العرق بكمّها، وتبتسم ابتسامتها الحزينة. بعد أسبوعين في الحمّى عاد الرجل إلى عالم الأحياء.

عبد الجواد أحمد البارودي ابتسم من قلبه حين رأى صديقه العجوز آتياً صوب دكانه ـ عابراً كالشبح نور الأصيل البرتقالي ـ بعد انقطاعٍ طويل. بدا العجوز أشد نحولاً من قبلٍ، والارتجافة في أصابعهِ قد تسلقت ذراعيه إلى كتفيه، وبلغت عنقهُ. كانت رأسه تهتز في الفضاء، كما تهتز تلك السلال المعلقة من حبال سوق الفشخة، كما يهتز ثوب منشور على غصن شجرة. تغيّر لون بشرته أيضاً. صار طينياً قاتماً. فَقَدَ تلك الحمرة التي كان الجلد يتشرب بها. عبد الجواد أحمد البارودي أحسّ بالحزن ـ بعد الفرحة ـ وهو يعاون صديقه العجوز على الجلوس. بينما يشربان قهوة خضراء مرّة، ويتأملان إقبال المساء وانتشار الظلال في دهليز الحدّادين، تحدّث العجوز عن ابنه المرحوم ساسون، عن ابنته المقيمة في دير القمر سارة، وعن أحفادٍ كثرٍ كرمل البحر. بينما يحكي استعاد صوته

القديم، صوته الرقيق الجميل. بينما يذكر أسماء أحفاده اسماً اسماً، نسي كوابيس الحمّى، وسكنت ارتجافة رأسه. تماسك العجوز بينما يحكي عن ابنٍ وبنتٍ وأحفادٍ. عبد الجواد أحمد البارودي أخبره عندئذٍ أن إمام الجامع العمري مولاه الشيخ الحوت وجد له بنتاً طيبة من عائلةٍ كريمة وأنه سيكتب عليها كتابه بعد ليلتين.

لم يكتب عبد الجواد أحمد البارودي كتابه على البنت المذكورة بعد ليلتين. ضرب زلزال المنطقة قبل زواج البارودي صاحب الذراع الواحدة. قد نقول إن زلزالاً كان السبب في تأخير زواجه. وربما افترضنا سبباً آخر لتأجيل قراءة الفاتحة. هذا كلّه لا يبدّل في قصة حياته شيئاً: عبد الجواد أحمد البارودي ذو الذراع الواحدة رَمَّم بيته بعد الزلزال؛ تزوج كريمة السيد مصطفى غندور الفاخوري البنت صفية مصطفى غندور الفاخوري؛ رُزِق بكره شاهين قبل انتهاء سنة 1824؛ ثم قرّر أن يحجَّ إلى مكّة المكرمة ويزور قبر الرسول الأعظم صحبة عمّه مصطفى وثلاثة من أولاد عمّه: خالد، عمر، ومحي الدين.

لم يُوَفق في ذلك. مَرِض قبل أن يغادر موكب الحجّ بيروت. وسوف يتكرر مرضه بعد سنة، ثم بعد سنتين، وفي كل سنة يقرر فيها الحجّ إلى مكّة. أولاد عمّه جميعاً سيحجّون: بعد محي الدين وخالد وعمر، سافر حسن ومصطفى. وبعد حسن ومصطفى، حجّ خليل. وبعد خليل، حجّ سليم يصحبه أبوه الحاج مصطفى. وبعدهما، في سنة الفتح المصري لبلاد الشام، حجّ الابن الأصغر للحاج مصطفى السيد عبد القادر الفاخوري يصحبه الشيخ علي الفاخوري أبو عبد الباسط (عبد الباسط وُلِد مثل صاحبه شاهين البارودي سنة 1824، وهو الذي صار بعد ذلك مفتي بيروت الشيخ عبد الباسط الفاخوري، ثم توفي في 1905، سنة ميلاد سليمان

بسترس). كل أولاد الشيخ مصطفى غندور الفاخوري حجّوا، وصهرهم عبد الجواد أحمد البارودي يقرر كل عام أداء فريضة الحجّ، ثم يقعده مرضٌ شديد مباغت عن ذلك. في سنة 1826 أو 1827 أوشك المرض أن يقضي عليه. لكنه لم يمت. زوجته أم شاهين قالت لأبيها إن أبا شاهين يمرض لخشيته من المرور على طريق الحجّ في بلده الأولى دمشق.

لم يحجّ عبد الجواد أحمد أبو شاهين البارودي (بعد 1836 عُرِف بالجوهرجي أيضاً، لكن هذا اللقب سقط عن اسمه بموته). لم يُقبِّل تراب مكّة المكرمة. لم يرَ يوماً المدينة المنوّرة، ولا وقعت عينه على الكعبة الشريفة، ولا جاور بجسمه ـ بذراعه الواحدة ـ قبر الرسول الأعظم. عجزه عن الحجّ كان دائماً غصّة في حلقه، غصّة في نفسه. لم يحجّ يوماً، لكنه عاش حياة تقوى وصلاح. لم يدع الغضب يعمي بصيرته، إلاّ نادراً، منذ ذلك اليوم البعيد الذي أنهى حياته الأولى في دمشق.

زوجته صفية لم تلفظ كلمة واحدة حين أعلمها أنه سيجلب زوجة ثانية إلى البيت. فقط تركت الدموع تلمع في عينيها. رأى أبو شاهين الماء يلمع في عينيّ زوجته فأشاح بوجهه بعيداً وغادر البيت. شدّ قبضتيه ولم يلطم البوابة. تعلم في السنين الماضية أن يحبس غضبه، أن يداريه مثل حيوان مفترس. من البيت مضى إلى الجامع. جلس على حصير تحت النافذة وترك السكينة تعود إلى أعماقه. لا يريد أن يغضب من أم شاهين، أم شاهين الحبيب الذي يتدوَّر وجهه. لا يريد أن يغضب. الغضب يعمي البصيرة. ينسي الواحد ربّه. ينسيه عقله.

بعد أن وُلد شاهين لم يقرب عبد الجواد أحمد البارودي زوجته مدة ثلاث سنوات. نزفت صفية بينما تلد ابنها. نزفت، فقدت

وعيها، كادت تقضي نحبها. لكنها عاشت. وامتلأ صدرها بالحليب. كل يوم، بعد صلاة العصر، كان زوجها يعود إلى البيت محمّلاً بالجوز واللوز والفستق وأصناف الطعام. يشتري لها الشواء من السوق ويرسل لها العنب والتفاح والكمثرى والبطيخ والشمام مع صبي الدكان. أختها أم عصام التي أقامت عندها تخدمها بعد ولادة شاهين قالت إنها لا تعرف زوجاً حنوناً في بيروت كلّها مثل زوجها الكريم هذا عبد الجواد.

سمنت صفية الفاخوري البارودي بعد ولادة بكرها. لم تسمن وحدها. أختها ـ زهية أم عصام الفاخوري عيتاني ـ أيضاً، اكتست بطبقات شحم فوق طبقات شحم. يقول زبونٌ في دكان الخضر عند آخر سوق الحدّادين: «كيلو ليمون حامض، أبا شاهين!»، فيضحك أبو شاهين، يرسم ابتسامة كبيرة على وجهه، سعيداً بالكنية الجديدة، يمنح الزبون طلبه، ثم يرسل صبي الدكان مباشرة إلى «معصرة دندن» وراء ساحة العصافير، أو إلى «فرن شهاب» في جانب البازركان، ليبتاع قالباً من الحلاوة الطحينية، أو ليخبز بعض «اللحم بعجين» أو الصفيحة البعلبكية... فأم شاهين تحتاج إلى مثل هذا الطعام، وأختها التي تتعب في البيت يلزمها الطعام أيضاً.

صبي الدكان ـ ليكنْ اسمه يوسف منيمنة ـ سمن على الطريق هو أيضاً. قضمة من هنا، لقمة من هناك... ومعلمه كريم، غريب الأطوار، أقرب أصحابه يهودي عجوز (راجف اليدين يتعطر بالمسك ويربط شعره الطويل ملفوفاً كالكعكة تحت طاقية قطن سوداء). يقولون إن معلمه بذراعٍ واحدة لأن الله عاقبه بقطع الأخرى بعد فعلة شنيعة ارتكبها في صباه. غريب الأطوار بلى، وأحياناً يشرد ساعة محدِّقاً في البرج والجرس فوق الكنيسة، أو في الوطاويط ساعة الغروب. يشرد هكذا ساعة، لا يسمع ولا يرى. غريب الأطوار

بلى، لكنه كريم والله يحبّه، والناس يأتون من باب يعقوب إلى هنا لشراء بضاعته النظيفة التي لا يوجد بضاعة مثلها إلاّ في سوق الخضر خارج الأسوار، خارج باب الدباغة. غريب الأطوار لكنه صادق كريم يمضي إلى الصّلاة في مواقيتها. إمام الجامع العمري يحبّه، وكل الناس يحبّونه، وعمّه يحبّه، وأولاد عمّه يحبّونه، وزوجته تحبّه وأخت زوجته تحبّه، هو يوسف يعرف الناس من وجوههم ويعرفهم من كلماتهم ويعرفهم من نظراتهم.

من السنطية البعيدة يأتون إلى هنا لشراء الخضر. لا يشترون من طرف الدباغة، ولا يشترون من الفشخة. يقطعون الأزقة الطويلة المتعرجة إليه. من السنطية إلى هنا الطريق صعبة، تصعد كأنك تتسلق جلول الحمرا وشوران في برّية الرأس (رأس بيروت)، لكنهم يأتون. يمشون في الشمس كل هذه الدرب من أجل «خمس حبّات قرع جبلي»! من أجل سلّة أكي دنيا! سلّة عنب وتين! ومعلمه عبد الجواد الذي صاروا يسمّونه «بوشاهين»، يبتسم للكل حين يكون هنا، حين لا يكون سارحاً ـ وهو لا يكون سارحاً إلاّ في أوقاتٍ معلومة، وليس في جميع الأيام. ويوسف يحاول أن يفهم أطواره، أن يحدّد جدولاً لساعات شروده، لكنه لا يستطيع. معلمه عبد الجواد يعرف كيف تؤكل الكتف، يعرف في أي صنف يربح ويعرف في أي صنفٍ يخسر، والذكاء أنه لا يشتري بضاعته من سوق الخضر، ولا يبتاعها من سوق المينا، ولا يبتاعها من أي تاجر، بل يذهب كل فجر إلى مزرعة المصيطبة، إلى برّية الرأس، وإلى بساتين الأشرفية، بحسب المواسم وبحسب الطقس يشتري كل بضاعته مباشرة من الفلاحين هناك.

معلمه يفهم في الخضر ويفهم في البشر. عنده ميزان وليس الكل عندهم موازين. ورغم ذلك لا يستخدم الميزان في كل مرة،

أو مع كل زبون. في سوق الخضر ميزان واحد كبير وثلاثة موازين عادية. في سوق الفشخة كلّها لن تجد ميزاناً. الكلّ يبيع بالحبّة، بالربطة، أو بالسلّ. عبد الجواد أحمد البارودي يبيع بالميزان. عنده أوزان حديد ابتاعها من تجار المرفأ، وكلما مرّ يومان ينظف مفاصل الميزان ويطرّيها بزيت الزيتون. ليس مثله تاجرٌ بين تجار بيروت. ولا يقبل إلاّ أن يزيد هدية إلى سلّ الزبون. تعتدل كفّتا الميزان فيضيف حبّة بندورة هائلة الحجم من بندورة كفربُرك، أو برتقالة يافاوية، وذات مرة رآه يضيف قرط موز! قرط موز كاملاً، هو رآه بعينيه الاثنتين! الزبون بعد ذلك لا يقصد دكاناً غير دكانه أبداً. يصير خاتماً في إصبعه. وإذا قال له خذْ هذا الصندوق من الخيار الصغير، أو خذْ هذه السلّة من التين رأس البغل الأحمر، يأخذها على الفور ولا يفحصها ولا ينظر قعرها ولا يهتم بالثمن.

معلمه كريم، والكريم يحبّه اللّه ويحبّه خلق اللّه. صبي الدكان يوسف منيمنة سمن بعد ولادة شاهين، وأكل للمرة الأولى في حياته كفتةً مشوية وكبدة مشوية ودجاجاً مشوياً وعصافير مشوية وحماماً مشوياً إلى أن أنعسه الشبع وكوّر أمامه كرشاً منتفخاً كقربة ماء. لكن كرشه لم يذهب بعقله، لم يذهب بنباهته. ما إن لاحظ يوسف تكور كرشه حتى بدأ يُخفّف من أكله على الطريق. إذا أكل فخذ دجاج مشوياً في حوانيت الشوائين أسفل سوق القطن وأول سوق الدباغة تعمّد أن ينزع الجلدة الغنية بالشحم أولاً. ثم إنه أشبع شهوته سريعاً وقال في نفسه إن هذا لا يصلح له: إذا كان معلمه كريماً فهل يسمح لنفسه أن يكون صاحب عينٍ فارغة؟ من دون أن ينتبه وجد يوسف منيمنة نفسه مريضاً بأمراض معلمه، كأن انضباط معلمه قد انتقل إليه بالعدوى.

عبد الجواد أحمد البارودي اعتاد أن يغادر بيته مع أذان الفجر

فلا يعود إليه إلاّ بعد صلاة العشاء. أحياناً يخطف قدمه إلى البيت لحظة (ليس بعيداً، كلّها ثلاث دقائق من الدكان إلى البيت في الليل، ولكن في نور النهار، مع الأسواق المفتوحة، عليه أن يُسلم على هذا وذاك، أن يقف ويرشف فنجان قهوة عند أولاد عمه في الفشخة، عند بعض أصحابه في سوق القطن، وعند المعلم حمادة أمام جامع السراي، هكذا تتمدد الدقائق الثلاث إلى ساعة ويضيع نصف النهار)، لكنه لا يفعل ذلك إلاّ قليلاً. كل وقته يعطيه للدكان، لتجارته؛ من الرحلة اليومية قبيل شروق الشمس إلى خارج الأسوار لشراء الخضر من الحقول، وحتى يهبط الظلام ويساعد الصبي على حمل السلال والمقاطف والصناديق إلى داخل الدكان. تعلم أن يتأخر في إقفال دكانه إلى بعد ميعاد إقفال السوق، لأن ربّات البيوت يتذكرن أحياناً أشياء في اللحظة الأخيرة من النهار (هنّ أو أزواجهن العائدون من نهار عمل طويل). ثم إنه يحبّ أن يتأمل السوق - وإلى جانبه صديقه موسى - في لحظة الإقفال. تلك الحركة، ذلك الحبور والانتعاش الأخير، تلك الأصوات. وفي هذا الوقت من النهار يرتاح. يُسعده أن يرى امرأةً آتية بوجهٍ باسم إذ رأت أنه لم يقفل الدكان بعد. تُسعده الابتسامة الآتية نحوه ويسعده أن يُفرغ الدكان من ثمارٍ ناضجة فيه، ثمار أوشك الحرّ أن يفسدها، وبدأت رائحتها تصعد في الفضاء. يتأمل الناس ويرى بين حينٍ وآخر عبداً أسود محملاً بالخشب أو بالصناديق أو بالمقاطف يسعى خلف سيدٍ خفيف الخطوات. يقول عبد الجواد أحمد البارودي في نفسه عندئذٍ إن اللّه المنّان الرحيم الكريم يفتحها في وجهه مرة تلو أخرى. هذا الصبي يوسف نشيط يركض ولا يتعب طوال النهار. يقوم بالدكان وحده. يرسله في مهمات لا تنتهي، ولا يشكو ولا يراه متعباً. حتى إنه في بعض الأحيان يرسله محمّلاً بالسلال إلى حيّ الإفرنج الجديد بين

إدريس والسنطية فيراه ذهب ورجع قبل أن ينهي هو تعمير الأرجيلة! اللّه المنّان الكريم يفتحها في وجهه. في الجامع العمري الكبير قال له مولاه الإمام الشيخ عبد العزيز يحيى الحوت إنه فرحٌ به، أنه لا يسمع عنه إلاّ الأخبار الحسنة. عبد الجواد أحمد البارودي أحسّ دم الخجل يصعد إلى أذنيه. ليس صغيراً. الدنيا خطّت رأسه بالشيب لكنه يستحي أمام المديح والثناء. هذا أقل ما يستطيع فعله، أن يكون حسناً مع أهل البلد، كما كانوا هم معه. هل ينسى كيف جاء بيروت؟ في أي ليل ماطرٍ؟ في أي قميص ممزقٍ وأي نعلٍ مثقوب؟ اعتاد عبد الجواد أحمد البارودي بعد أن وُلِد شاهين، ألا يكتفي بدفع الزكاة. اعتاد (كلّما وجد ذلك في طاقته) أن يوزع هدايا على الجوامع والمشايخ، وأن يرسل طعاماً وثياباً إلى أرامل ويتامى ومحتاجين. لم يجد في الأمر تبذيراً. وسرعان ما أدرك غرابة ما يحدث في حياته: كلّما ضاعف إحسانه فتحها اللّه المنّان الكريم في وجهه. الزبائن باتوا يأتون إليه من أنحاء بيروت. صيته ذاع. وصيت بضاعته ذاع. وصيت كرمه ذاع. إمام جامع النوفرة صلاح الدين حسن المغربي قال إنه صاحب نخوة، إنه رجل ذو أريحية. الشمّاس إلياس دبّاس المقيم في غرفة داخل كنيسة مار جرجس الأرثوذكسية في طرف «ساحة العصافير» اعتاد أن يخرج من الكنيسة كل مساء، ويقطع الساحة في ثوبه النظيف الطويل، وهو يشدّ حزامه حول خصره، ويبتسم من مكانه العالي (كان رجلاً عملاقاً، بلحية هائلة، ووجه مدوّر ضخم). يبتسم ابتسامة تتسع وتكبر كلما قصرت المسافة بين جزمته الضخمة وبين حافة المصطبة الحجر حيث يجلس صاحبه ذو الذراع اليتيمة، وحيداً أحياناً ومع مزراحي في أحيانٍ، ومع بعض أقاربه من آل الفاخوري في أحيانٍ أخرى. الشمّاس إلياس دبّاس ـ هو أيضاً ـ أحبّ هذا الشامي الغريب الذي (بأريحيته، بصدق

النوايا، وبمخافة الربّ) بات من أهل البلد، بات أقرب إلى القلب من حبل الوريد. كل أحد يرسل إليه ـ إلى الكنيسة ـ شيئاً. وكل العنب الذي يبقى في دكانه يرفعه صبي الدكان في مقطف ويحمله إلى خدم الربّ، في كنيسة مار جرجس، وراء «ساحة العصافير». يعملونه زبيباً. يخلّلونه. ومرات يحوّلونه إلى نبيذ.

صداقة عبد الجواد أحمد البارودي بزبائنه نبعت من طبعه الأليف. الرجل الحاضر البسمة، الفرح بحياته الجديدة وبانفتاح الدروب أمام قدميه، وجد في حسّه الإنساني طاقةً تفور كالحليب، طاقة تريد أن تغمر بيوت بيروت كلّها. كان طريداً، نصف قاتلٍ، ثم صار تاجراً محترماً، عنده دكان وبيت وامرأة وطفل وجهه مدوّر كالقمر، وعنده أقارب علماء ذِكرهم على كل لسان، وعنده خلاّن أوفياء يعزّونه ويطلبون مجالسته في كل ساعة من ساعات النهار. ماذا يطلب أكثر؟ أحبّ عبدِ الجواد أحمد البارودي حياته، أحسّ نفسه سعيداً منشرحاً كما لم يحسّ منذ زمن بعيد. نسي دمشق وناس دمشق وزمن دمشق. بيروت وطنه الجديد. أحبّ عبد الجواد أحمد البارودي هذه البلدة التي حمله اللّه إليها، أحبّها ولم يعد يجدها غامضة أو غريبة. غادر البرد جسمه. صارت أليفة، يعرفها جيداً، وبمرور الأيام يزداد معرفة بها. حين ذهب ذات مساء ليشتري بعض اللحمة المقطعة المشوية بنفسه، انتبه إلى كثرة الزبائن أمام حوانيت الشوائين. أحصى الحوانيت فوجدها لا تزيد عن خمسٍ. هزّ رأسه وتجول قليلاً بين الدكاكين. رأى سفينة ترسو قبالة المرفأ، عاجزة عن دخوله بسبب الصخور (كل السفن الكبيرة ترسو هناك، والبضائع تنقل من السفن إلى الشاطئ بالمراكب الصغيرة، وكذلك البحارة والركاب).

بعد أيام رجع إلى المكان ذاته. مرة أخرى لاحظ الزحمة أمام

حوانيت الشوائين، وفي مدخل سوق الدباغة، ووراء السوق، عند السلسلول الحجر وفي المرفأ الصغير. رأى وجوهاً لم يرَها من قبل. في الصباح ذهب إلى الجامع العمري الكبير تاركاً الدكان في عهدة الصبي يوسف يساعده صبيٌ آخر جلبه إليه عمّه الشيخ مصطفى. في الجامع جلس نصف ساعة مع الإمام الحوت. أخبره أنه يريد أن يفتح حانوتاً للشواء أسفل سوق القطن أو في مدخل المرفأ. الإمام الحوت هزّ رأسه وهو يعدّ حبات العنبر في مسبحته الطويلة (هذه المسبحة هدية من ابنه الحبيب عبد الجواد القاعد معه، والذي لا يصنع شيئاً بلا مشورته، بلا بركته). قال الإمام الحوت لصاحب الذراع الواحدة عبد الجواد أحمد أبو شاهين البارودي إن ما يفكّر فيه هو عين الصواب و«نعمَ التفكير»؛ ربَّت على ركبته المطوية على السجادة، وسأله عن بكره شاهين.

في ساعة المساء، بينما ينتعل مداسه ويخرج إلى المصطبة المغسولة بالماء، بعينين ناعستين من القيلولة القصيرة في أعماق الدكان، تذكر عبد الجواد أحمد البارودي حديث الصباح مع مولاه. فكّر أنه كان يستعيد نتفاً من الحديث أثناء قيلولته. نائماً وراء الميزان، وظهره مسنود إلى الحائط، والسوق تفرغ من الناس، وأبواب بيروت تقفل (الدركاه ويعقوب وإدريس والسنطية والدباغة، وبعد لحظات يوصد باب السراي أيضاً)، والبلدة تهدأ وتسكن حركتها رويداً رويداً، سمع عبد الجواد أحمد البارودي بين اليقظة والنوم صوت يوسف في الخارج وصوت الصبي الآخر علي، وطرطقة صناديق تقلب وتفرغ ويُعاد توضيب ما فيها. سمع هذه الأصوات القريبة، وسمع نداءات أخرى بعيدة. وحين تقدم خطوة أخرى في أراضي النوم سمع نتفاً من حديث الصباح: «اعملْ لدنياك كأنك تعيش أبداً. . .»، أو: «ربّنا اهدنا الصراط المستقيم، صراط

الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين». وسمع صوتاً يشبه صوت صفية، وصوتاً آخر لم يتبينه، ثم انتبه أنه يشبه صوت أختٍ من أخواته. بعد هذا الصوت سمع الداية أم حسين تقول له: «مبروك»، ثم تحذره: «صفية زمطت من خروم الشبك». استيقظ منزعجاً، انتعل مداسه، وخرج إلى المصطبة أمام الدكان. كان المساء يزحف بليداً على بيروت، يجري كمياهٍ معتمة منحدراً من الدركاه. ورأى «ساحة العصافير» تغرق في ظلامٍ خفيف وتبدو مثل بحيرة داكنة. أدرك أنه تعبان. هذه الأيام لا ينام جيداً.

الصبي يوسف رأى معلمه عبد الجواد أحمد البارودي يخرج من الدكان متثائباً على غير عادته، بعينين حمراوين وشارب متهدلٍ. في الشهور الأولى التي أعقبت ميلاد بِكره شاهين كان المعلم عبد الجواد مملوءاً عافية وضحكاً. يجلس مع صاحبه اليهودي أو مع ابن عمّه محي الدين الفاخوري، أو مع الخيّاط حمادة أو مع الشمّاس العملاق، يتبادلون أخباراً وحكايات، يشربون القهوة والزهورات، يزدردون حبّات عنب من عناقيد ناضجة يغسلها يوسف في الجرن جنب البئر أول سوق الصرامي (يسمونها «بئر زبيبة» ويوسف لا يعرف من أين جاء هذا الاسم)، يدخنون الأراجيل بالتنباك اللاذقاني المعطر الفوّاح الرائحة، أو التنباك الطرابلسي الخالي من الدبس، يلفّون لفّافات التبغ، يتكلمون عن سفينة فرنساوية رست مقابل الشط، عن تاجرٍ إيطالي وصل قبل أيام واكترى منزلاً جنب بيت القنصل الفرنساوي غيز في حيّ الإفرنج الجديد (يحبّ القنصلاتو التفاح الكفرسلواني، زوجته تفضل الإجاص والخوخ والدراق)، يذكرون الدكاكين المتلاصقة التي فتحها الحاج عزت بيهُم داخل باب إدريس أخيراً، يقول الخيّاط حمادة إن الحال اليوم أحسن من حال الأمس، ويذكر اسم أحمد باشا الجزّار. يبتسم الشمّاس

إلياس دبّاس الذي عرف تلك الأيام ولا يغضب لأن المعلم حمادة يقصده بالإشارة.

تلك حادثة مضى عليها نحو عشرين عاماً، ربما أكثر، لكن الشمّاس لا ينساها: الحراس التقوا به ذات ليلة في سوق النذّافين (لم يكن يسمى هكذا آنذاك، كان زقاقاً مهجوراً) وهو يغني، مبرطماً في الظلام، نصف سكران. اعترضوا دربه وسألوه من أين يأتي. كان في عزّ فتوته، لم يكتشف قدراته في الفراش إلاّ قبل أيام، وكل عضلاته تتحفز عند أدنى استفزاز. ثم إنه كان شارباً بطحة عرق زحلاوي، ومعدته تهضم كبّة الغنم النيئة وتتعثر بعض الشيء في إكمال عملية الهضم. وقف إلياس دبّاس في الظلام، بين شجر صبيرٍ ومقسيس، يتعرض للإهانة من جنودٍ عابثين يسألونه عن اسمه. حين علموا أنه نصراني ضاعفوا إهاناتهم. إلياس دبّاس التقط أقربهم إليه من عنقه ورماه في الجلّ القريب. انقض عليه الأربعة الباقون فصارعهم في الليل. كانت الغيوم تنكشف عن بعض النجوم ثم تتكاثف من جديد. ارتفع الصياح في ليل بيروت النائمة. الحراس قدِموا راكضين من باب يعقوب. وجدوا الدم سائحاً على الأرض، ورفاقهم راكبين على عملاق يلطمونه في وجهه وفي بطنه وفي صدره وفي ذراعيه وفي كل مكان تطاله قبضاتهم. الحراس الذين جاؤوا ركضاً لم تهدأ حماستهم إلاّ بعد أن أشبعوا العملاق الملقى على التراب ركلاً. بعد ذلك حلّ سكونٌ. حين ابتعد الحراس الأربعة عن الرجل ظهر أن له وجه صبي. تكاثفت الغيوم مرة أخرى. وحين تباعدت من جديد بان وجه الصبي مكشوفاً في نور النجوم. كان الدم يسيل من أنفه وعينيه وأذنيه، ويمتزج بالمخاط ويدمع غزير. خرج الحارس الخامس من الجلّ يتمغط كأنه استيقظ من النوم للتو، وحين رأى حال الصبي الملقى على الأرض، قال:

ـ حرام عليكم!

يوسف منيمنة سمع القصة من فم الخيّاط حمادة المشهور في البلد بحكاياته. الحكواتي الذي يقعد في قهوة البازركان أول المساء ويروي سيرة عنترة لا يعرف أن يروي القصص مثل الخيّاط حمادة. حين يحكي المعلم حمادة يسكت الكلّ. ويوسف ينتظره من يوم إلى يوم، وأفضل الحكايات عنده تلك التي يسخر فيها من صاحبه الشمّاس. الاثنان يتبادلان الغمز واللمز طوال الوقت. من يَرهما للمرة الأولى يحسبهما على وشك التعارك وتبادل الضربات. معلمه عبد الجواد أحمد البارودي ينزعج أحياناً، ويبتعد إلى داخل الدكان مستئذناً لانشغاله بترتيب بعض الصناديق أو السلال، حين يرتفع صوتهما. مزاحهما الصاخب لا يُفيد الدكان، ليس دائماً. لكن ضحكاتهما تجذب البعض أحياناً، وهؤلاء يدخلون في الحديث، وينتهون بعد الضحك أمام الميزان. يوسف عينه يقظة ويتعلم. معلمه، بعد أن وُلِد شاهين، امتلأ عافية وضحكاً. بات يذهب إلى البيت بعد صلاة الظهر ويقضي ساعة هناك. يلاعب الطفل، يحمله، يُحدث أم شاهين وأختها أم عصام، ثم يرجع إلى الدكان قبل صلاة العصر. لكن هذا تغيّر الآن. معلمه ليس على بعضه. اختلفت حاله، وظهرت علامات زرق تحت عينيه. ما زال يأتي كل فجر بشعرٍ ممشط ولحية مرتبة وثوب مكويٍ نظيف، رائحته مزيج من المسك والجلد والتبغ والصابون، لكنه ليس كسابق عهده. يبدو مشغولاً بأشياء في أماكن بعيدة. يبدو كمن قضى الليل ساهراً لا ينام. يوسف انشغل باله على طفل معلمه، هل يكون مريضاً؟ لكنه كلّما ذهب إلى البيت وراء سوق القطن وجد الطفل بين ذراعي أمه أو خالته، يكبر ووجهه يتدوّر، الشعر ينمو على رأسه، وأطرافه تطول. لا يبدو مريضاً، يبكي بصخب حين يبكي، وأحياناً يشرق

بلعابه، وفي مرات يبتسم ليوسف. يوسف يجد هذا الطفل ظريفاً، بعينيه المشروحتين واللون البنفسجي الحلو حول البؤبؤين الفاحمي السواد. يجد الطفل ظريفاً وأحياناً يمدّ إصبعه إلى فمه فيأخذ الطفل إصبع يوسف بين شفتيه ويعضّ الإصبع عضّات قوية تخيف يوسف وتضحكه. يجد هذا الطفل ظريفاً ويجد أمه (زوجة معلمه عبد الجواد) طيبة، طيبة حلوة بنت ناس أوادم وتعرف قيمة المعلم عبد الجواد. لا، شاهين ليس مريضاً، فما بال سيده عبد الجواد؟

عبد الجواد أحمد البارودي القاعد بين أصحابه على مصطبة الحجر بدا على غير عادته فعلاً. الشمّاس إلياس دبّاس كان يقول إن حال البلد إلى تحسنٍ، وكل أسبوع تظهر سفينة في الميناء. قوافل الإبل إلى حوران والشام باتت تتحرك مرةً ومرتين كل بضعة أيام، والحيّ الجديد بين بابي إدريس والسنطية صار يقطن فيه تسعة من التجار الإفرنج. المعلم حمادة الذي جال في البلاد وعرف عكا ويافا وغزة وبلغ بحر الرمال، قال إن المشكلة في بيروت هي الميناء، كل هذه الصخور تمنع السفن من بلوغ الشطّ، ليس هذا فقط، ولكن عليها البقاء بعيداً مسافة غير قصيرة أبداً، وليس عندنا رصيف على البحر، وما يزيد الحال سوءاً أن الرياح لا تدفع السفن في هذا الاتجاه، ومثل الرياح يصنع البحر، ولهذا تذهب سفن الإنكليز إلى عكا، ولا تجيء إلينا إلاّ مرّةً كل شهر، كل قمح حوران يأخذونه من هناك، وكذلك الصوف، ومن هنا لا يأخذون إلاّ القليل، انظروا السفن التي تأتي، معظمها فرنساوية. الشمّاس إلياس دبّاس قال إن السفن الروسية تأتي أيضاً. الخيّاط حمادة ضحك وقال إنها الكنيسة الأرثوذكسية تتكلم الآن وليس عبدنا الفقير إلياس دبّاس. العجوز اليهودي موسى يعقوب مزراحي لا يدخل هذه الأحاديث إلاّ فيما ندر. قليل الكلام هذا الرجل، لا يحكي، لكنه يسمع. ومرّات يبدو

كأنه لا يسمع أيضاً. يأتي عند الأصيل ويرتمي على الطراحة في الظلّ، يتبادل كلاماً قليلاً مع المعلم عبد الجواد ثم يخلد إلى السكون. يراقب العصافير في الأقفاص الخشب، يراقب الحمائم تطير وتخفق بأجنحتها كأنها تودع النهار، يراقب الطيور تحط على سطوح البيوت، تحطّ على الكنيسة، وتزقزق كأنها تردّ على الحساسين في الأقفاص. يبقى ساكناً هكذا، يُدخن الأرجيلة والنبريش يرتجف بين يديه. المياه تقرقر في الأرجيلة وهو ينعس ولونه يصير برتقالياً في الغروب وعيناه تنظران إلى حيث لا يعلم أحد.

المعلم عبد الجواد مثل صاحبه اليهودي هذه الأيام، مشغول البال بأشياء غير مرئية، ولا يسمع ما يقوله الآخرون. حين يسأله أحدهم شيئاً يلتفت ويسأله ماذا يقول، كأنه وصل إلى هنا للتو. ماذا يحدث للمعلم عبد الجواد؟ يوسف لم يعثر على جواب، ثم أن حيرته تضاعفت حين جاء الشيخ مصطفى غندور الفاخوري يزور صهره في الدكان، وهذا ما لا يحدث عادة. أولاده محي الدين وخالد وعمر يأتون. يجيئون بعد صلاة الظهر أو بعد صلاة العصر ويجالسون قريبهم عبد الجواد. لكن الأب لا يحبّ الجلوس هنا، ويميل عن تبادل الكلام مع أجناس الناس الذين يعبرون في هذا المكان. فماذا جاء يفعل الشيخ مصطفى في هذا العصر، ولماذا يبدو وجهه قاتماً هكذا، ولماذا يخبط العصا على الأرض؟

المعلم عبد الجواد استقبل عمه في أعماق الدكان حيث طراحات القش، وحين رأى غضبته نهر الصبي يوسف: أمره أن يخرج ويرتب الصناديق وأمره أن يردّ باب الدكان. قفز يوسف إلى الخارج وردّ الباب كما أمره معلمه، تركه موارباً. لم يرَ معلمه محتقن الوجه قبل الآن، لا ولا سمعه يرفع صوته. واقفاً في الخارج

التقط يوسف جملةً من هنا، وجملةً من هناك. سمع اسم صفية يتكرر، ماذا صنعت أم شاهين، هل اعترضتك في قرار، كان ذلك صوت الشيخ مصطفى، كان صوتاً غاضباً متهدجاً بعض الشيء، يبدو على حافة الانهيار. . . تداخلت الكلمات، سمع معلمه يرفع صوته أيضاً، اسمعْ يا عمي، اسمعْ يا عمي ولا ترفع صوتك، قال معلمه عبد الجواد شيئاً كهذا، يوسف ليس متأكداً، في الليل سيقلب الكلمات في ذهنه مرة أخرى، وفي آخر الليل ستزوره الكوابيس ويرى معلمه يخبط الميزان على الأرض، لكن ذلك لم يحدث. يوسف سمع الشيخ مصطفى يقول بصوتٍ قارب حافة البكاء، يقول إن بنته صفية، يقول إن بنته أم شاهين خاطرها مكسور وإنه لم يرها أبداً هكذا من قبل، ذليلة وهي ما زالت ترضع بكرها ولم تفطمه بعد، ذليلة ولا تعرف أين تضع عينها و. . . انقطعت كلمات الشيخ مصطفى، لم يفهم يوسف ماذا حدث، وقرر أن يخاطر. اقترب برأسه من الفراغ بين الباب والحائط الأسود، يريد السماع. عندئذٍ بلغه صوت معلمه يرتعش منفعلاً، لكنه متماسك صلب رغم كل شيء. قال معلمه:

- اسمعْ يا عمي، صفية بنتك ولهذا لا أزعل. لكن أم شاهين زوجتي الآن. زوجتي وفي عينيّ الاثنتين. لا يذلها أحدٌ. ولا أقبل أن يُقال أنها ذليلة. شرفها مصان وبيتها مصان. هذا عرضي وأنت تعرف أخلاقي ولولا أنك تعرف أخلاقي ما أعطيتني بنتك. لكن الشرع إلى جانبي وأنت أدرى بالشرع. وإذا كانت أم شاهين لا تقبل ضرّة تحت سقف بيتها فهذا حقّها وهي عزيزة وما تطلبه يصير. من الغد أشتري أرضاً وأبني بيتاً ثانياً وينتهي الموضوع.

الصبي يوسف فهم ولم يفهم. في البدء تضاعفت حيرته وأحسّ أن العالم اهتز كلّه دفعة واحدة كما حدث في ذلك الزلزال. وقف ذاهلاً لا يفهم ماذا يفعل، لا يفهم ماذا يسمع، لا يعرف لماذا يقف هكذا كالتمثال. ثم سمع ـ بعد وقتٍ ـ صوتاً ينده باسمه. كان ذلك صوت معلمه ـ عاد إلى سابق عهده ـ يناديه من جوف الدكان. فتح يوسف الباب فرأى الرجلين ينهضان، ويتبادلان القبل على الكتفين. من الذي أخطأ في حق الآخر، ومن الذي تراجع، ومن الذي ندم على غضبته، ومن الذي اعتذر؟ يوسف لم يكن واثقاً من أي شيء. كل ما يعرفه أن معلمه لم يعتذر. لو أنه تراجع لكان الآن يقبل يد عمّه ولا يُقبل كتفه كما يفعل الشيخ. أم أن ذلك حدث وهو خارج الدكان؟ انقطع حبل أفكار يوسف. ارتفع صوت معلمه قليلاً وهو يأمره أن يملأ المقطف الكبير خضراً وفاكهة وأن يلحق الحاج مصطفى ثم يعود سريعاً لأنه سيقفل الدكان باكراً هذا المساء.

عبد الجواد أحمد البارودي وقف جامداً كالعمود وهو يراقب عمّه مبتعداً والصبي يتبعه محمّلاً بالمقطف الثقيل. ثم استدار ودخل الدكان وردّ الباب. وقف في العتمة الشفافة وكل جسمه يرتجف من الغيظ. كان الدم يغلي، يفور في شرايينه، كما يغلي الدبس في قدرٍ على نار. هكذا تفعل به أم شاهين هكذا تفعل به صفية التي يضعها في عينيه! خاف عبد الجواد أحمد البارودي من نفسه في ذلك المساء، وفكّر ألا يمضي إلى البيت. استند بذراعه الواحدة إلى الحائط، وأحسّ بكل عضلات جسمه تتخشّب، تتمدد وتتقلص كأنها ستنفجر، كأن جوفه قد دُكَّ بالبارود... يخاف أن يفعل شيئاً يندم عليه. يخاف أن يرى أحداً وهو على هذه الحال. بسم اللّه الرحمن الرحيم، بسم اللّه الرحمن الرحيم، أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، أشهد أن محمداً رسول اللّه... ذهب عبد الجواد أحمد البارودي إلى

زاوية الدكان. وقف في الزاوية ووجهه إلى الحائط وصلّى واقفاً كالفزاعة في عتمة الدكان المردود الباب. بعد فترة سوف يهدأ غضبه رويداً رويداً. حين يهدأ بعد وقتٍ، حين يعود الهدوء إلى نفسه، سيندم على شيء واحدٍ فقط: أهان عمّه حين طلب من الصبي يوسف أن يملأ هو المقطف بالخضر والفاكهة. الكريم الخلوق لا يفعل مثل هذا أبداً، ليس مع شخص مثل عمّه مصطفى. كان عليه أن ينتقي الخضر بنفسه، بيديه، وأن يحمل المقطف بنفسه ويرافق عمّه المكسور الخاطر إلى البيت. لعنّ اللّه الشيطان، لعن الوسواس الخنّاس، يوسوس في صدور الناس. كيف فعل هكذا مع عمّه أبي محي الدين؟

قبل أن يحفر أساسات بيته الثاني أخذ عبد الجواد أحمد البارودي زوجته صفية وبكره شاهين محملين بالهدايا إلى بيت عمّه. الحاج مصطفى رحّب بصهره. تناولا طعام الغداء معاً، ثم انحدرا وحيدين إلى الجامع العمري للصلاة. أبناء الحاج مصطفى صلّوا في جامع النوفرة على عادتهم، ثم التقوا الأب والصهر في سوق البازركان ودخّنوا الأراجيل وهم يستمعون إلى الحكواتي يروي سيرة أبي زيد الهلالي.

البيت الثاني لعبد الجواد أحمد البارودي بُني بعيداً عن بيته الأول مسافة ثلاثين خطوة. بين البيتين انتشر المقسيس والصبير والتوت. في زمنٍ آتٍ سيظهر خلف هذين البيتين السور الشرقي للحيّ الذي صار اسمه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: «حارة البارودي». لكن في ذلك الزمن الأول البعيد لم يكن هناك حيّ ولا كان هناك سور. البيتان المفصولان بالشجر واجها حقولاً من التوت والسنط والجميز. النوافذ الخلفية وحدها أطلّت على

سوق القطن، وعلى جانب جامع الدباغة، وعلى المئذنة الخشب التي رُمِمت بعد احتراقها بصاعقة. السيد عبد الجواد أحمد البارودي لم يشق طريقاً جديدة للبيت الجديد. طريق البيت الأول كانت درباً ضيقة شُقَت وسط الشجر من بين قبوين في جانب «الفشخة»، وصولاً إلى الجميزة أمام باب البيت. طريق البيت الثاني استغرق شقّها وقتاً قصيراً لأنها شكلت تتمةً للطريق الأولى. درب ضيقة أيضاً، تبدأ حيث انتهت الدرب الأولى عند شجرة الجميز، وتعبر حقلاً من الصبير والشوك، حتى تبلغ شجرة التوت التي تواجه مدخل البيت الثاني بالقنطرة الحجر. هذه الطريق بات اسمها سريعاً «طريق عبد الجواد». من أعلى المئذنة المستطيلة للجامع العمري الكبير يراها المؤذن لطف اللّه قدورة في ظلمات الفجر الشتائي أشبه ما تكون بلسانٍ ممدود من «الفشخة» أو بثعبانٍ أبيض يتمدد في العتمة بموازاة سوق القطن الشبحي الملامح. لطف اللّه قدورة لا يشكو عيباً في نظره. «طريق عبد الجواد» بيضاء حقاً، لأنها كلسية التربة. في الليل توجُّ.

عبد الجواد أحمد البارودي سيعمد في السنوات الآتية إلى توسيع ملكيته. وكلّما ضرب معولاً في هذه الحقول سقط المعول على صخرٍ كلسي. اللّه يفتحها في وجهه أينما ولى وجهه. الدباغون يأتون لشراء الحجر الكلسي. وكذلك البناؤون. وجميع تجار السوق. لكن نعمة الكلس الحقيقية هي غياب الأفاعي والعقارب والحشرات من هذا الجزء من بيروت. «طريق عبد الجواد» البيضاء ـ التي كانت تُرى من أعلى مئذنة الجامع العمري الكبير منحدرةً بين خضرة الشجر انحداراً خفيفاً باتجاه صفحة البحر الزرقاء من دون أن تبلغ البحر ـ غابت في الحرب العالمية الأولى ولم يعد يظهر منها أثرٌ. لكنها محفوظة ـ اسماً على الأقل ـ في أوراق أسرة البارودي،

في ذكريات الكونت سليمان بسترس، في رسائل ابنته جوزفين، وفي سجلات المحكمة الشرعية لمدينة بيروت.

جوزفين بسترس زهّار (في وقتٍ لاحق: جوزفين بسترس رزق الله؛ وفي الختام: جوزفين بسترس برباري)، الابنة الصغرى للكونت سليمان ده بسترس من امرأته الأولى، تظهر من جديد في فصول آتية، في الجزء الثالث. يكفي هنا أن نقتبس مقطعاً من رسالة خطّتها بالإنكليزية في نيومكسيكو (جنوب الولايات المتحدة الأميركية) عام 1959 أثناء رحلة قامت بها آنذاك مع أبيها الكونت ومع صديقها الأميركي الذي ما لبثت أن تخلّت عنه:

... and the houses all covered in white wash so they all look the same; these law, squat little Indian houses built with mud bricks that the Navajoes learnt to bake from the Spanish... all look like one white house which repeats itself as you go down a white road... and DAD'S EYES ARE FILLED WITH TEARS! Can you believe it? He finds, in Santa Fe, this one «white road», with these «white houses», and he starts telling me these stories of his childhood - how come I've never heard these before? - about the place where Grandma Sultana used to live...

درست جوزفين بسترس الأدب الإنكليزي في كامبريدج ثم انتقلت إلى جَنْوا (إيطاليا) لتدرس الأدب اللاتيني. قالت لأبيها على الهاتف إن دراسة شكسبير لا قيمة لها إذا لم يبدأ الباحث من الأصول اللاتينية. لم تكمل دراستها الأولى، ولم تكمل دراستها الثانية. لم يكن ذلك كسلاً. كتبت لأختها كوليت التي تدرس الأدب أيضاً (لكن العربي) في جامعة الإسكندرية أنها لا تريد نيل الدكتوراه لأن الشهادة قيدٌ ثقيلٌ ولأنها تريد لروحها «أن تظلّ حرّة مثل عندليب كيتس الذي

ينشد قصيدته الخالدة على مرّ الأزمنة». كوليت ردّت برسالة مملوءة بالوعظ والغضب والمرارة. كانت تتعذب في حرّ الإسكندرية ورطوبة الإسكندرية وروائح الإسكندرية محاولة إنجاز أطروحتها المثبّطة للعزيمة: «أثر الثورة الفرنسية في نهضة الأدب الشامي أثناء القرن التاسع عشر». جوزفين بسترس مزقت معظم رسائل أختها كوليت.

بعد نصف قرن تقريباً، في السنة الرابعة من القرن الحادي والعشرين، حاولتُ الاتصال بابنة أخرى من بنات الكونت: مريم بسترس داغر المقيمة في لندن. أردت أن أسمع صوتها في الهاتف، وأن أعلم كيف تذكر أباها. لم أُوفق. أجابني ابنها المهندس بصوت رفيعٍ انثوي وأعلمني أنها مريضة. حاولت أن أشرح له من أكون. قالَ إنه يعلم. انتقلنا إلى الإنكليزية في حديثنا وكرّر عبارة: «Grandpa always speaks of you» أي: «جدّي دائماً يتحدث عنك». كرّر العبارة مستخدماً الفعل المضارع، وكأن الكونت ما زال على قيد الحياة. بدا ذلك غريباً جداً، حتى أنني نسيت أنني على الهاتف وسكتُّ تماماً. تهدج صوته في الجانب الآخر (بعيداً هناك، على ضفة التيمز) ثم أنهى المكالمة بكلمتين شرحتا سرّ اضطرابه:

ـ she's dying! ...

بعد يومين أخبروني أنها ماتت. مثل أمّها هِلدا، زوجة الكونت الأولى، ماتت مريم بسترس داغر بسرطان الحنجرة.

جوزفين بسترس التي سمعت أباها الكونت يحكي عن «الطريق البيضاء» وعن «البيوت البيضاء» في «حارة البارودي» ذكرت هذه البيوت في قصيدة عن جدّتها لأبيها سلطانة البارودي بسترس. «البيوت البيضاء» تُذكَر بصفتها بيوتاً لعبيدٍ خدموا أسلاف عائلة البارودي:

... Recalling the white houses
Where her ancestors' slaves
Once upon a time lived...

جوزفين بسترس التي تخلّت عن دراسة الأدب الإنكليزي أولاً، ثم الأدب اللاتيني ثانياً، تخلّت سريعاً عن تأليف الشعر أيضاً. عام 1982، أثناء الاجتياح الإسرئيلي للبنان، كانت في رحلة سياحية إلى الأردن. اتصلت من عمان بأحد معارفها في صحيفة «نيويورك تايمز» واقترحت عليه أن تسافر إلى بيروت فوراً لتغطية أخبار الحرب الجديدة في الشرق الأوسط «خاتمة الحروب الكبرى في القرن العشرين». جاء الصوت من وراء الأطلسي يخبرها أن اتصالها يأتي متأخراً لأن الجريدة عندها أكثر من مراسل في بيروت الآن. جوزفين كرّرت اقتراحها مذكرةً الشخص «الذي يعرفها جيداً» بعلاقاتها الواسعة في لبنان وبإتقانها العربية. من وراء الأطلسي أتى الصوت مرة أخرى محبطاً للعزائم. ذُكِر اسم توماس فريدمان أكثر من مرة. حين وضعت جوزفين السمّاعة من يدها ونظرت إلى الشمس خارج نافذة الفندق تغمر عمان بالموت الأصفر، أحسّت بكآبة قديمة تعاودها. في تلك اللحظة تذكرت أباها وتلك الرحلة الجميلة إلى نيومكسيكو. خطر لها ـ جالسةً على حافة السرير في غرفة الفندق الحزينة ـ أن تكتب قصيدة أخرى عن الكونت بشعره الأبيض وعن تلك «الطريق البيضاء». لم تفعل.

«طريق عبد الجواد» (سُميت أيضاً: «زاروب عبد الجواد») مذكورة في سجلات المحكمة الشرعية الباقية من العهد العثماني في بيروت. أسد رستم كتب عام 1933 أنه سأل مفتي بيروت المغفور له

السيد محمد أفندي الكستي عن سجلات المحكمة الشرعية البيروتية فأجابه أن أقدمها المحفوظ لا يرجع إلى ما قبل سنة 1270 هجرية، وأن السجلات الأقدم فُقدت في أحداث الحرب العالمية الأولى.

لكن المفقود من مراكز الحكومة قد يكون موجوداً في البيوت. عام 1953 نشر شفيق طبارة سجلات للمحكمة الشرعية في بيروت تعود إلى سنة 1231 هجرية «أسعفه الزمان» بالوقوع عليها «في خزائن أبناء أسرتي». عام 1987 نشر يوسف حلاق مجموعة سجلات المحكمة الشرعية في بيروت العائدة إلى سنة 1259 هجرية (1843 ميلادية). ذكر في مقدمة كتابه أن سجلات أقدم منها قد تكون موجودة في بيوت العائلات في بيروت. حين أعرتُ الكتاب المذكور للكونت سليمان ده بسترس، مع علامات بقلم الرصاص في أكثر من موضع، ابتسم قائلاً:

- Mets les dans ton livre.

لأنه يقيم في الأشرفية منذ عقودٍ ينسى أنني أجهل الفرنسية. حين تذكر ذلك ترجم جملته:

- ضعْها في كتابك.

هنا مقاطعٌ من عملية بيع عقار صادرة عن المحكمة الشرعية في بيروت سنة 1254 هجرية (1838 ميلادية):

حضر الذمي النصراني الخواجة فرنسيس بن عطا اللّه سعادة وباع في صحة منه وطواعية واختيار من غير إكراه ولا إجبار ما هو له وفي يده وجار في ملكه وتحت مطلق تصرفه النافذ الشرعي إلى حين صدور هذا البيع ومنتقل إليه بطريق الإرث الشرعي (. . .) إلى رافع هذا الصك الشرعي السيد

خليل الفاخوري ابن الشيخ مصطفى الفاخوري وهو اشترى بماله لنفسه دون مال غيره وذلك المبيع هو جميع الحصة الشايعة وقدرها ثلاثة عشر قيراطاً وخمس من قيراط من أصل أربعة وعشرين قيراطاً في ربيعات الصبير غرب زاروب عبد الجواد تجاه فرن علي وهبي عند سوق الفشخة بباطن مدينة بيروت المشتملة على بير ناشفة مهدومة وأودة بلا سقف و (. . .) بثمن قدره ثلاثة آلاف قرش (. . .) مقبوضة من يد المشتري المذكور بيد البايع المحرر القبض النافي للجهالة شرعاً وذلك بعد سبق النظر والخبرة (. . .) وإسقاط الغبن الفاحش (. . .) غب اعتبار ما وجب اعتباره شرعاً تحريراً في اليوم السابع عشر خلت من شهر ربيع الأول الأنور الجاري من سنة أربع وخمسين ومايتين وألف 1254 وقد ثبت ذلك لدى مولانا (. . .)

شهود الحال

السيد محي الدين الفاخوري	**السيد عبد القادر ابن الحاج محمد موسى**	**السيد حمادة الأبيض الخيري ابن السيد إبراهيم المصري**
السيد درويش ابن السيد ناصر القضماني	**السيد علي زين الحاج شاهين الطرابلسي**	**السيد محمد ابن خليل الحداد**

الزوجة الثانية لعبد الجواد أحمد البارودي سهيلة حسن النابلسي أنجبت له بعد عشرة أشهر من نزولها في البيت الأبيض ذي القنطرة الحجر بنتاً بيضاء مدوّرة كالبدر سمّاها زهرة. منذ تلك اللحظة، ومن دون أن يدري بذلك أحد، تأسّس صيتٌ أسطوري باهرٌ سيستمر عبر

القرن التاسع عشر وحتى إنقراض العائلة بموت آخر ذكورها مختنقاً بالمياه المالحة في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين: لم يُرزق رجلٌ من آل البارودي بنتاً إلاً وشهق الناس أمام جمالها.

سُرَّ عبد الجواد أحمد البارودي بالبنت ولم يُسَرّ. أراد قبيلة من الأبناء الشباب تحيط به. لكنه صلّى وحمد ربّه وقال إن بنتاً كهذه البنت تزين عنقود الشباب. بعد عشرة أشهر أخرى أنجبت له سهيلة حسن النابلسي البارودي بنتاً ثانية. سمّاها سوسن. ولم يزعل. البنت الأولى بعينيها الكبيرتين تنعش قلبه بعد حرّ أيام بيروت الصيفية الطويلة. فكيف يزعل من بنت أخرى تشبهها؟ ثم أن عيني سوسن أوسع من عينيّ زهرة. لم يزعل عبد الجواد أحمد البارودي من زوجته سهيلة. هي، في المقابل، وضعت عينيها في الأرض وأمسكت نفسها لئلا تبكي أمامه. في ليالٍ آتية ستبكي طويلاً بكاءً مخنوقاً حين يتأخر في الرجوع إلى البيت عند المساء. كان يأتي بعد صلاة العشاء. بات يأتي حين يكون النعاس (والانتظار) قد هدّ جسمها هدّاً وتركها مطروحة على الفراش نائمة، أو نصف نائمة. في ليالي الانتظار هذه ازداد وزنها. كما فعل مع صفية فعل السيد عبد الجواد أحمد البارودي مع زوجته الثانية سهيلة: دلّلها بالطعام حتى بدّل الأكل شكلها.

صفية بمعدتها الصغيرة امتلأت بعض الشيء. تكور الشحم عند ردفيها وفي ذراعيها. لكنها لم تلبث أن فقدت الشهية بابتعاد زوجها إلى البيت الثاني في طرف الطريق الأبيض. لم تزهد الطعام نهائياً لأنها وجدت في ابنها الطفل العزاء والسلوى. وكلّما راقبت أطرافه تطول، وأصابع يديه تطول، وبشرة قدميه تفقد حمرتها الأولى وتكتسب سمرة لامعة محببة، كلّما ازدادت رغبة في إرضاعه حليبها ساخناً متدفقاً طيباً حلو المذاق. تأكل الكثير من الفاكهة. تشرب

لبناً. تقطع اللبن لبنة، تلف اللبنة في أرغفة من خبز الصاج وتُغرق الرغيف بزيت الزيتون. تقضم قضمات صغيرة، مع ورق نعناع أخضر مغسول، مع حبّة خيار، وزيتونٍ مكبوسٍ في الزيت ومعطرٍ بالغار والليمون «بوصفير».

حين يمرّ عليها الولد يوسف، أو الولد علي، حاملاً اللحمة، أو الخضر من الدكان، لا تفرح. لا تفرح لأنها تراه يترك مقطفاً آخر في الخارج. ثم تراقبه بعد خروجه من عندها يتابع دربه بالمقطف الثقيل إلى البيت الثاني الذي يلوح ببياضه بعيداً وقريباً وراء أشجار التوت ذات الخضرة البارقة. بعد المطر يلمع هذا الورق لمعاناً شديداً. وحين تظهر الشمس ينعكس الشعاع الأصفر حارقاً في عينيها. تنهمر الدموع على ثوبها الأزرق السماوي، وترى دمعة تتدحرج على رأس شاهين الصغير. تمسح الدمعة بإصبعها وتُقبّل طفلها.

سهيلة حسن النابلسي البارودي لم تسمن كثيراً بعد البنت الأولى زهرة. لكن ولادة بنت ثانية (سمّاها سوسن) أرهقت أعصابها. حين علمت أن أحد أبناء نابلس حلَّ أخيراً في بيروت وفتح فرناً يصنع فيه الكنافة النابلسية (كنافة الطفولة البعيدة النائية) امتلأ فمها باللعاب. ذات ليلة جاء زوجها يحمل صدراً أمامه بذراعه الواحدة القاسية. تعرف قسوة هذه الذراع لأنها طالما تلمستها في نومه. العضل المفتول والعصب البارز. كل جلد هذا الرجل مشدود على جسمه، على عظامه، كأنه جلد طبل. جلد أسمر يبرق في الظلام كأنه مُسح بالزيت، ولا يظهر شحمٌ عليه أبداً.

عبد الجواد أحمد البارودي ظل هكذا طوال حياته. لم يكن نحيلاً. لم يكن سقيم الجسد، مريضاً. بل العكس: كان صحيحاً، بالغ النشاط، ليناً كثعبان، قوياً كثور. لكنه، رغم شهيته وإقباله على أصناف الطعام والحلوى، لم يسمن أبداً. كانت في أعماقه طاقة

تحرق كل ما يدخل جوفه. في هذه السّمة تميز عن تجار بيروت جميعاً. لم يُربِ كرشاً يوماً. ولم يطلب من خيّاط أن يوسّع له قمصانه. سهيلة حسن النابلسي البارودي التي راقبته يشاركها صدر الكنافة استغربت كيف يظل نحيلاً رفيعاً كالعصا هكذا. ثم تذكرته في بعض الأصائل يضرب الحطب بالفأس خارج البيت (كيف يقدر أن يمسكها هكذا بذراعٍ واحدة؟) ونظرت إلى يديها، إلى أصابع بدينة تكاد أن تتلاصق. حين قال لها إن هذه الكنافة التي يتحدثون عنها كثيراً ليست قليلة أبداً، وأنها بالفعل طيبة وتُحلّي الضرس، لا تُحلّي مثل مربى اللقطين، ولا تُحلّي مثل التين المعقود بالسكر والعطر والسمسم لكنها تُحلّي بالتأكيد، خصوصاً إذا زاد الصانع القطر غزيراً، حين قال زوجها ذلك أعلمته أنها من الغد ستُعد له صينية كنافة لم يذقْ مثلها في حياته. قالت إن هذا الفرّان يصنع للناس ولا يصنع لأهل بيته. يعرف كيف يعمل كنافته، لا تستطيع أن تظلمه، لكنه لا يضع فيها جبناً كفاية ولا كنافة كفاية ولا سمناً كفاية. السمن سرّ الكنافة. والكنافة أيضاً. والجبن. والقطر أيضاً. فقط ليرسل إليها الصبي يوسف وهي تخبره ماذا يشتري، من أين يشتري، وكم يشتري، إذا كان أبو شاهين يريد أن يأكل كنافة نابلسية نابلسية. عبد الجواد أحمد البارودي ابتسم لزوجته وقال إنه سيرسل لها الصبي في الصباح الباكر. قالت إنها فقط تحتاج إلى صدرين نحاس كهذا الصدر. ضحك قائلاً:

ـ نتركه هنا؛ وغداً أرسل إليك صدراً آخر مع الصبي.

في الصباح مرَّ على الفرّان ودفع له ثمن صدرين. بعد ذلك قرّر أن يزور أحد أصحابه التجار في البازركان. بينما يمشي في «سوق البوابجية» فكّر أن زوجته سهيلة هذه طيبة القلب. لم يسمعها مرة تتناول بالسوء أحداً. تحبّ الناس وتخاف ربّها. يعرف أنها لم تحبّ

كنافة الفرّان. لكنها استحت أن تقول. استحت أن تبدو ناكرة جميل، غير عالمة بالنعمة. واستحت أن تلفظ كلاماً عاطلاً في حق الفرّان ابن بلدتها.

هو في المقابل لم يجد الكنافة عاطلة. لكنه أحسّ طعم ملح فيها. أو ما يشبه الملح. سهيلة قالت إن الفرّان لم ينقع الجبن وقتاً كافياً في الماء. ثم أعلمته أن المرأة الشاطرة لا تستخدم الجبن المملح أبداً. جبنة الكنافة يجب أن تُقطع خصيصاً للكنافة وألا يدخلها الملح أبداً. لكن هذا ليس الأساس الأساس: أهم شيء كيف تُفرك خيوط الكنافة فوق الصواني المدهونة بالسمن، كيف يُفرش الفتات ويفتت معجوناً بالسمن على نار خفيفة، ثم كيف يُمد الحشو (سأعملها لك بالجبن هذه المرة، في بلدنا يعملونها بالقشطة، باللوز، وبجوز الهند أيضاً)، وكيف تُدار الصينية على النار حتى تستوي أطرافها، وكيف تُزرق أثناء تدويرها بالسمن، كلّما زاد السمن كلّما طلعت أطيب، تقلى بالسمن فتكتسب لونها الشهي البنيّ ـ الأحمر، ثم المهارة كيف تقلب كاملة على الصينية الأخرى لتُحمص من الجانب الآخر أيضاً. . . بعد ذلك تسقيها القطر. القطر أيضاً قصة. السكر المعقود بلا ماء الزهر غير السكر المعقود مع ماء الزهر. وأهم شيء في الكنافة أن تؤكل ساخنة فور خروجها من الفرن، جديدة، السمن ما زال نصفه في العجين المخبوز ونصفه خارج الكنافة. نظرت إلى أصابعها وقالت إنها ستوقّت كل الشغل بحيث تنتهي من خبز الكنافة مع صلاة العشاء. عبد الجواد أحمد البارودي هزّ رأسه عندئذٍ ولم يقلْ شيئاً. تريده أن يأتي إلى البيت باكراً. وتُشهيه بالكنافة النابلسية.

في الفراش ابتسم في سرّه. هذه المرأة تشبه طفلة. لها روح بنت صغيرة. روح بنت في جسمٍ يزداد ضخامة يوماً بعد يوم. حين

أتى بها من بيت أبيها الضرير، من قبو أبيها الضرير المجاور لزاوية الأوزاعي، كانت تميل إلى النحول. لم تكن نحيلة، لم تكن جلداً على عظم، لكنها لم تكن ممتلئة أيضاً. عظام حوضه كانت تصطدم بعظام حوضها في الليل، وها هي الآن سمينة، وتزداد سمنة. تزداد سمنة وطيبة معاً. لكنه يعلم بأحزانها. رغم أنه لا يُظهر إلاّ الفرح بالبنتين. يحبّ زهرة، ويحبّ سوسن. الصغيرتان غاليتان على قلبه. لكنها تعلم جيداً معزة الابن عند أبيه. وحين تناديه «أبا شاهين» يسمع رجفة في صوتها، ودمعة.

يريد أن يعدل بين زوجتيه. سبحانه أوصى بهذا. وهو يحاول أن يعدل. صفية أيضاً طيبة. لكنها ليست بنتاً صغيرة. تعرف أشياء وتفهم أشياء ونظرتها تخفي المعاني. لا تُظهر له ما في باطنها. تبدو أحياناً بعيدة كنجمة المساء، أو نجمة الصباح. حين يربت على ذراعها تقترب منه سريعاً. حين يُبعد يده تبدو كغصن انكسر بين يدين جلفتين. شاهين بدأ يقف على ساقيه. تأخر قليلاً. ظلّ يحبو زمناً وأمه ترفعه عن الأرض إلى صدرها، كأنها تريده أن يظل طفلاً، وألا يتعلم المشي، وألا يكبر. لكنه صار يبكي كلّما رفعته عن الأرض. هكذا علّم نفسه أن يمشي. هذا الصبي يشبهه في عناده. وهو يريد صبياً ثانياً، ويريد صبياً ثالثاً، ويريد صبياً رابعاً، يريد عدداً كبيراً من الصبيان، يريد أن تكثر السلالة، أن ينجب ذكوراً يملأون عليه هذا البلد كلّه.

بعد عشرة أشهر أخرى على ولادة سوسن وضعت سهيلة حسن النابلسي البارودي بنتاً ثالثة. سمّى عبد الجواد أحمد البارودي بنته الثالثة ياسمينة، وكفّ عن النوم في البيت الثاني آخر «الطريق البيضاء»، وعاد إلى بيته الأول. (بعد سنوات طويلة، في النصف

الثاني من القرن العشرين، أسقطت جوزفين بسترس بنتاً في عيادة طبية في ليفربول. عملية الإجهاض هذه لن تنساها أبداً. تذكرتها وبكت في أكثر من مدينة على خريطة العالم. ودّت لو تستطيع الرجوع في الزمن لإنجاب تلك البنت في ذلك الوقت البعيد الذي تبدّد ولن يرجع. خلال زيارة إلى مدفنٍ في ناغازاكي اليابانية عَبَرَت جوزفين بسترس، الابنة الصغرى للكونت من امرأته الأولى، طريقاً من الرخام الأبيض المعرق بأزرق الكوبالت يخترق غابة من الأرز الياباني النحيل الشاهق العلو، إلى مدفنٍ حزينٍ وخالٍ من أي نصبٍ تذكاري لضحايا القنبلة الذرية. بينما تعبر الطريق البيضاء تذكرت نيومكسيكو وتذكرت حياةً تهرب من بين الأصابع بلا توقف. في تلك الرحلة الأميركية مع أبيها ركبت باصاً من Santa Fe إلى Taos وعبرت قطعةً من الصحراء مسورةً بشبكٍ حديد. الدليل أخبرها بصوتٍ لاتيني جنائزي أن التجارب الذرية التي أدّت إلى بناء القنبلة الأولى قد جرت هنا، تحت الأرض، في مختبرات سرّية، وراء هذا الشبك المكهرب).

بعد ثلاث بنات من الزوجة الثانية رجع عبد الجواد البارودي إلى بيته الأول وزوجته الأولى رجوعاً كاملاً. هذا الرجوع الكامل دام حتى موسم الأمطار. حين هطل المطر وهبّت هبّات البرد الأولى، افتقد عبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع الواحدة، الجسد السمين الساخن لزوجته الثانية سهيلة النابلسي البارودي. اعتاد أن يمرّ عليها في الصباحات منذ رجع إلى النوم في بيته الأول. ثم توقف عن ذلك لأنه وجد أن أيامه تصير صعبة ثقيلة بعد هذه الجلسات الصباحية. صار يمرّ عليها في الأصائل أو في الأماسي بحسب وقت رجوعه من الأسواق (باتت نهاراته كثيرة الأشغال: عنده دكانان الآن، الأول نعرفه في آخر «الحدادين»؛ الآخر فتحه قبل

عامين ـ بعد ولادة زهرة بأيام ـ في أسفل سوق القطن). يمرّ عليها في الأصائل أو الأماسي، يجدها دائماً أعدّت طعام العشاء. يغضب قليلاً ويقول قلت لكِ في الأمس إني سأجيء للقهوة والأرجيلة فقط. تكذب كالطفلة وتقول إنها نسيت، إنها لخبطت ولم تنتبه، فحسبت أنه الليلة يريد أن يأكل هنا. تكون قَلت له أقراص الكبّة المحشوة باللحمة والصنوبر والسمن والجوز، قلّتها في زيت عميقٍ، وعملت معها اللبن بالثوم أو التبولة التي يحبّها، وتقول له من أجل زهرة، من أجل سوسن، من أجل ياسمينة تأكل قرص الكبّة هذا. مع الطفلة في حضنه، وأختي الطفلة تحيطان به، يبتسم ويأخذ قرص الكبّة من يدها. لكنه لا يأخذ قرصاً ثانياً ولا يلمس صحن التبولة. لا يبلغ هذا البيت من دون العبور أمام البيت الأول. صفية تنتظر عودته الآن، واقفة في البرد تحت الجميزة. يُنبّه عليها دائماً ألا تقف خارجاً في برد الليل. يقول لها إن الرشح ضاربٌ في السوق وكل الزبائن يدخلون الدكان عاطسين ويخرجون عاطسين. ثم إن هناك موجة من الإسهال، وهذا مرض خطر، وعليها الانتباه. صفية تقابل ذلك بابتسامة حلوة لكنها لا تلبث أن تفسد مزاجه بجملة مثل: «أبقى في البرد لأنك تتأخر... وشاهين يصير يبكي و...».

مع هطول الأمطار حدث ما كانت صفية تخاف منه. ذات مساء قال لها أبو شاهين إنه سينام عند بناته في الليلة التالية. لم يقل عندها. عند النابلسية السمينة كبقرة. قال عند بناته. تابع تناول الملوخية بالدجاج وقال إن زهرة تحبّها وتسمّيها «عتو أم شاهين». صفية لم تخدعها كلماته. أحسّت غيظاً فظيعاً ينمو في أحشائها. هل ربحته شهراً لكي تخسره من جديد؟

بعيداً بعيداً من «الطريق البيضاء»، ومن البيتين المفصولين

بالشجر الأخضر، كان الصبي يوسف منيمنة (الذي كبر جسمه في السنوات الثلاث الماضية وكبرت مهامه بحيث لم يعد يعتبر نفسه صبياً) يحيا مآساته الخاصة المستجدة بعد أن تمرد الصبي علي الناكر للجميل على سلطته، فعقد تحالفًا ضدّه مع حميد أبو فحمة القائم على أعمال الشواء في دكان معلمه عبد الجواد جنب جامع الدباغة. مآساة يوسف منيمنة ستكتسب بعداً إضافياً بعد وقتٍ قصير بانضمام صبي جديد اسمه علي أيضاً إلى الدكانين. هذا الصبي الذي يُدعى علي سلامة لن يجلب السلامة معه. بل العكس: الفتى لن يجلب إلاّ الحظ السيئ. لكن المعلم عبد الجواد لا ينتبه للأمر. صديقه اليهودي العجوز موسى يعقوب مزراحي يموت بعد يومين فقط من دخول هذا الفتى سلامة في خدمته، ورغم ذلك فإن المعلم عبد الجواد أحمد البارودي لا ينتبه للأمر.

موسى يعقوب مزراحي لم يقتله حظٌ سيئ اعتقد يوسف منيمنة أنه يخرج كالرائحة الكريهة من ثياب الفتى سلامة. موسى يعقوب مزراحي قتله الحزن. كل هذه السنوات التي مرّت لم تأخذ من جسمه ذكرى تلك الليلة الباردة. من حين إلى آخر جرّب نسيان نفسه في السفر بعيداً من حارة اليهود، وبعيداً من المصطبة الحجر أمام مشغله القديم الذي صار دكان صاحبه الشامي ذي الذراع الواحدة، وبعيداً من بيروت كلّها. كان يحمل جسمه الراجف ويركب بغلة ويخرج من باب الدركاه ويمضي في البريّة. يقطع رمالاً ويقطع حرج صنوبر ويقطع وادياً صغيراً ثم المزيد من الرمال. رمال وأراضٍ قفراء وصخور متباعدة وسهول شوك. ثم يدخل صحراء زيتونٍ وبعد الزيتون تظهر التلال. تقترب التلال، وتبتعد الطريق عن البحر، وحين يلتفت للمرة الأخيرة يرى النوارس البيضاء والرمادية تخفق فوق الصفحة الزرقاء ثم تختفي على الشاطئ، حيث لا يراها.

يصعد في طرقات البغال الضيقة. يعبر جسراً خشباً على نهرٍ صافي المياه في قعره حجارة عملاقة تشبه بيوض الطيور. يرتاح لحظة في ظلال الصفصاف. يأكل خبزاً وزيتوناً وبيضاً مسلوقاً، زوّادة يحملها في الخُرج أعدّتها أخته عند الفجر. يشرب قليلاً من الماء، يشرب من النهر البارد الحلو المياه، ثم يركب البغلة. على رأسه قماشة بيضاء تحميه من ضربة شمس، يربط طرفيها أسفل ذقنه. يتسلى ببزر اللقطين المحمّص، أو ببعض الفستق الحلبي. (هذا الفستق من صاحبه. أراده أن يأتي معه في هذا المشوار. لكنه لا يقدر أن يترك تجارته). تصعد الدرب بين غابات صنوبرٍ وسنديان وبطم. زهور صفراء بلون الشمام تملأ الأرض. رائحة الهواء قوية، طيبة، تجرح الصدر. يتنفس هواء الجبل الأخضر السُكري الثقيل كأنه يشرب مياه النهر. يحسّ لوهلةٍ خاطفة أن الرجفة ذهبت عن يديه. يُخيل إليه أنه شفي. ينظر إلى يده التي تمسك الحبلة فيرى الأصابع التي ترتجف. تعصف به بغتةً ريحٌ لا تُحرك أغصان الأشجار، لا تُسقط ورق الصنوبر الأبري على كتفيه، لا تلوي سيقان السرخس عند ضفة النهر. تعصف به رِيحٌ تهبُ في أعماقه وتهدر في أعماقه حتى تكاد أن تقلبه عن البغلة وتسقطه في الهاوية من دون أن يدري به أحدٌ. ريحُ بحرٍ هدمته قبل سنين. ما زالت تهدمه.

حين يبلغ مشارف دير القمر، حين يرى نور الشمس الغاربة يسطع على القرميد الأحمر، ويبصر خيم اللوبياء تتدرج خضراء قاتمة بكل الورق الكثيف على القصب، نزولاً إلى قعر الوادي، في جلولٍ ضيقة وعريضة، ترويها أقنية حُفرِت في التراب وحفرت في الحجر، حين يرى القرميد والحمائم فوق القرميد، حين يرى البيوت والأولاد الراكضين في الساحة، يُخرج منديلاً من سترته، ويمسح عينيه. يمسح عينيه ويتمخط. لا يريد أن تراه سارة دامع العينين. ولا أن

يراه الأولاد دامع العينين. ولا أن تراه الحمائم (هذه غير حمائم بيروت، أكبر وأغزر ألواناً) دامع العينين. ولا أن يرى نفسه ـ في ماء الحوض المرمر تحت قصر فخر الدين ـ دامع العينين. لتدمع عينه حين يكون وحده. ولينكسر قلبه حين يكون وحده. وحده، في وحدته، وحيداً مع راحيل.

يسافر إلى دير القمر ويقضي هناك ليلة أو ليلتين. لا يحبّ البقاء طويلاً في بيت ليس بيته. رغم أن زوج ابنته داوود ليفي، وأولاد ابنته، يحبّونه كأنه يعيش بينهم. بل أكثر. يحبّونه كأنه يزورهم مرة كل سنة، أو مرتين. يودّعهم ويركب بغلةً أثقلوا خرجها بمكعبات الصابون الفوّاح الرائحة. الفكرة الأولى التي تخطر على باله بينما يركب البغلة هو أنه نسي بعد قعوده في بيت ابنته ليلتين الألم في دبره.

بعد كل رحلة طويلة يؤلمه دبره، تؤلمه كل مؤخرته، وتؤلمه جميع عضلات ظهره وفخذيه. الركوب يُتعب. بات، مع التقدم في العمر، يتعبه أكثر. لكنه يقبل هذا الألم. على الأقل، بينما يسافر في البريّة، ينام. تهدهده المطيّة فينام نوماً عميقاً. لا ينام هكذا في بيته في بيروت.

أحياناً يزوره نومٌ عميق مماثل جالساً على المصطبة الحجر أمام دكان صاحبه عبد الجواد، يتأمل العصافير في الأقفاص، ويسمع، أصواتاً ضاحكة، وقصصاً وأخباراً وهمسات. وفي وقت الشتاء أيضاً، حين يسحب طراحته متراجعاً إلى مدخل الدكان، ويبقى مستوراً بشناشيل البيت الذي فوق الدكان. ينظر إلى حبّات المطر تتقافز على البرك المتجمعة في الساحة وفي الزقاق. يبدو الماء كأنه يغلي مبقبقاً على التراب، وعلى وجه البرك الراكدة المتباعدة.

يأتي الهواء ويطوي صفحة المطر ويرسل خيوطاً رفيعة على

وجهه وعلى سلال الخضر وعلى الطراحة وعلى الحائط وعلى الباب الخشب. ينعس وصوت الشتاء يهدهده، وطرقات بعيدة (حديد على حديد)، طرقات تبدو بعيدة بسبب المطر المنهمر، كأن المطر يبني حائطاً بينه وبين الحدادين في الدهليز القريب... ينعس ورأسه يثقل كأنه سيقع عن كتفيه. ينعس ويُرتب البطانية على الجزء الأسفل من جسمه ويرفع يديه تحت البطانية وينسى ارتجافة أصابعه.

عبد الجواد، وراء الصناديق، يولع فحمة للأرجيلة، ينفخ على جمرة، أو ينده على الصبي ليجلب له منقلاً من حانوت الشواء. رائحة زهورات تغلي على نار الحطب، رائحة فاكهة ناضجة، ورائحة تبغ. الجو يُعتم في هذا المطر. ويرى أحد خدم الكنيسة يصعد من القبو حاملاً سراجاً فخاراً ترتجف شعلته، ثم يختفي خادم الربّ (كلّهم خدمٌ عند الربّ) في جوف الكنيسة المظلم، وتختفي الشعلة، تبتلعها ظلال القبب العالية.

الضوء لم يتبدد بعد. المطر ينهمر رذاذاً الآن. قوّته تضعف والسماء تتلون بالبرتقالي الداكن. لا بدَّ أن الشمس ظهرت بين الغيوم، في الأفق، وفوق البحر. تمطر هنا. لكن السماء صافية، بعيداً، هناك. وهو ينعس. موسى يعقوب مزراحي ينعس ناظراً إلى دهليز الحدادين وهو يُظلم وفوهته البيضاء تصير رمادية، ثم رمادية داكنة تشوبها صفرة، ثم تشتد دكنتها، تفقد تلك الصفرة، تصير سوداء. الليل يأتي إلى البلد. عما قليل عليه أن ينهض ويقطع خطوات يحفظها عن ظهر قلب إلى بيته. عما قليل عليه أن ينهض. لكنه الآن يستطيع أن ينعس. عبد الجواد بات يتأخر هذه الأماسي في الرجوع إلى زوجتيه. يبقى هنا، مع صديقه العجوز الراجف اليدين، يشربان الزهورات أو القهوة، يدخنان، ويتأملان المطر المنهمر على برك الماء. في ليلٍ مثل هذا الليل فَقَدَ مزراحي راحيل. في ليلٍ مثل

هذا الليل بلغ البارودي أسوار بيروت القاتمة.

مات العجوز مزراحي في يوم جمعة. كانت السوق فارغة. المسلمون الذين خرجوا من الجوامع بعد الخطبة، تفرقوا إلى بيوتهم وبيوت أقاربهم. متاجر المسيحيين في بيروت هي أيضاً تُقفل في أيام الجمعة. وكذلك متاجر اليهود القليلة. لن يعيش العجوز مزراحي إلى زمن إبراهيم باشا المصري ليبصر دكاكين مفتوحةً أيام الجمعة. لن يحيا ليسمع أجراس الكنائس تُقرع. ولن يندم. ولن يخسر بكل ذلك شيئاً لأنه أحبّ الأسواق فارغة ولأن الضجة لا تساعده على النوم. لا تساعده على النسيان. بل العكس: تضاعف هدير الرياح في رأسه وصدره. أحياناً يحسّ صدره يتفلع. يحسّ الأضلاع تطقطق، واللحم ينشق. ويرى ريحاً بلون الرمل تخرج كالعاصفة من جوفه وتهدم البيوت ـ كل هذه البيوت بالطبقتين، في الطبقة العليا المنازل حيث يحيا البشر، وفي الطبقة السفلى المخازن والدكاكين ـ كل هذه البيوت السوداء بالرطوبة التي تُفتت الحجر الرملي وتنفخه بالمياه وتحوّله إلى إسفنج حيّ، يتنفس عند الفجر، يتنفس عند الغروب... نَفَسُ الفجر يصدر مع صياح الديوك. هو العجوز الذي لا ينام (الشيوخ ينساهم النوم)، هو مزراحي الراجف اليدين، يتأمل البيوت تتمغط في الصباح، تتنفس رائحة الليل والبابونج على السطوح. عند الغروب تتنفس مرة أخرى، بينما الحمائم تخفق في السماء، والوطاويط تتأهب للخروج من حيطان الكنيس وفوهات البرج فوق كنيسة مار إلياس.... تتنفس البيوت عند الغروب فتخرج من أعماقها روائح طبيخ النهار، ما بقي من دخان البصل والثوم واللحم المقلي في زيت الزيتون أو المشوي على الجمر... يرى كل ذلك بعينيه. كأن الروائح خيوط، كأن الروائح أمواج، تأتي كلّها وتدخل في عينيه.

مات العجوز مزراحي في يوم جمعة، قاعداً وحده في مكانه المعتاد، على الطراحة التي رقّت وتمزقت أطرافها، على المصطبة الحجر أمام مشغله القديم الذي صار دكاناً للخضار. مات قبل أن يأتي النعاس في ساعة الغروب، ومات ناظراً إلى زقاق موحلٍ خالٍ من الحركة، ومات ناظراً إلى دهليز الحدادين أبيض يضرب إلى صفرة ما بعد الظهيرة في هذا اليوم الشتائي. بعيداً، وراء الفوهة الأخرى في الطرف الآخر من الدهليز، رأى الأشباح قبل وقتٍ، وزحمة المصلين الذين يغادرون جامع السراي. في ساعة أخرى رأى رجالاً يقطعون الزقاق ثم يختفون وراء الزاوية، حيث يمضي سوق الإسكافية (قبل أعوام كانوا يسمونه سوق الصرامي). أغمض عينيه وحاول أن ينام عارفاً أن ذلك غير ممكن لأن النوم لا يأتي قبل أن يضعف الضوء في الجو، وقبل أن تخرج الحمائم في وقتها عند المغيب. صفعته هبّات هواء باردة. شدّ البطانية على جسمه وفكّر بالنهوض والمضي إلى البيت والجلوس مع أخته ملكة أمام منقل الجمر. لم ينهض. هذا البرد محمول. رأى قطةً بلون الذهب تعبر أمام عينيه، تقفز إلى المصطبة، ترمقه بنظرة قاسية، ثم تقطع المسافة أمام الدكان المقفل ببوابته الخشب المنتفخة بالماء، وتتسلق السلم الحجر الصاعد لصق حائط الدكان. من مكانه لا يرى السلم الحجر. أصاغ السمع لكنه لم يسمع صوتاً في البيت العالي. لتذهبْ القطة إلى حيث تذهب، بتلك العين الخضراء المخيفة. يكره القطط ويكره الكلاب ويكره البقر. لم يكن كارهاً للبقر. صار يكره البقر منذ أجّرت أخته الدكان لذلك الرجل. الربّ رحمه حين أرسل إليه هذا الباروردي عبد الجواد. من دونه كان سابحاً حتى اليوم في رائحة الزبل، والذباب الأزرق الكبير يطنّ في شعره الطويل المربوط تحت الطاقية.

مات العجوز مزراحي في يوم جمعة رمادي معتدل البرد. كان السابع عشر من آذار (مارس). والشمس منذ أيام لا تظهر إلاّ بيضاء عليلة. مات العجوز مزراحي ناظراً إلى زقاقٍ موحل، مفكراً أن عليه حين يدفأ الجو قليلاً أن يركب بغلة ويمضي إلى صيدا لزيارة أحفاده. هؤلاء الأحفاد ـ مثل أقاربهم آل ليفي في دير القمر ـ سيحملون ذكرى الجد الراجف اليدين زمناً طويلاً في ذاكرتهم، وينقلون الذكرى إلى أولادهم وراثياً، كما ينتقل لون العينين، كما تنتقل الإيماءات والنظرات من جيلٍ إلى جيل.

أبناء ساسون مزراحي ابن موسى يعقوب مزراحي، وأحفاد هؤلاء، والسلالة المتشعبة، بقوا في صيدا أثناء الحكم المصري. بقوا في صيدا بعد زوال الحكم المصري سنة 1840. وبقوا في صيدا بعد حوادث 1860. الحرب الكبرى بين 1914 و1919 لم تخرجهم من صيدا. سقوط البلاد في قبضة حكومة فيشي المتعاونة مع الألمان (بين صيف 1940 وصيف 1941) لم يدفعهم إلى الفرار. أقاموا في المعتقلات فترة، أو اختفوا في حاصبيا والجبال، ثم عادوا إلى صيدا. قنابل 1947 التي أُلقيت على متاجرهم ردّاً على قرار تقسيم فلسطين لم تخرجهم من صيدا ولا حرب 1948 أخرجتهم. أحفاد غولدا ليفي ابنة ساسون مزراحي ابن موسى يعقوب مزراحي ظلّوا في حارتهم المواجهة لقلعة صيدا. على البحر، في حيّ الحِسبة، غرقوا في رائحة سوق السمك والشواء وهتافات الباعة. صمدوا جيلاً بعد جيل، يعيشون الحياة التي كُتبت لهم ولجميع أهل هذي البلاد. يرتاحون السبت في بيوتٍ نظيفة. ويأكلون في الفصح خبزاً مقدساً يصلهم عبر ميناء بيروت من أفران أمستردام.

بعد 1948 خرج جزءٌ من يهود لبنان إلى نيويورك (ساحل أميركا الشرقي)، إلى كولورادو (وسط أميركا)، وإلى كاليفورنيا (ساحل

أميركا الغربي). قسم من سلالة موسى يعقوب مزراحي انتهى في مونتريال (كندا)، في سان باولو (البرازيل)، وفي كوردوبا (الأرجنتين). لكن أحفاد غولدا ليفي ظلّوا في صيدا. كان البقاء هنا قدرهم لأنهم وُلدوا هنا ولأن بيوتهم هنا ولأن أعمالهم هنا. بقوا بعد حوادث 1952. بقوا بعد أزمة السويس سنة 1956. وبقوا بعد حرب 1967.

في 1968 خرج واحدٌ منهم إلى اسطنبول، ومنها إلى بروكسيل، ثم لشبونة. من البرتغال عَبَر سهل المياه اللانهائي إلى أقاربه وراء الأطلسي. في مساء السبت 16 أيلول (سبتمبر) 1972 رجع إلى صيدا فوجد البلاد في فوضى بعد نهار طويلٍ من الغارات الإسرائيلية. في ذلك اليوم شنّ سلاح الجو الإسرائيلي أولى غاراته الكبرى على جنوب لبنان. الرجل عاد في أسوأ لحظة ممكنة. رغم ذلك قرر البقاء. فتح متجراً للمجوهرات ومكتباً للإقراض بالفائدة. بعد حرب 1973 اعترض طريقه رجلان وهدّداه بالقتل. أنزل لافتة القوميسيونجي عن دكانه، حزم أغراضه، ودّع الأهل، وسافر إلى بيروت. اكترى دكاناً في شارع الحمرا، جنب أقارب لزوجته من آل عطية، وعلّق اللافتة. هذا الرجل، مثل جدٍ كبيرٍ عاش في النصف الأول من القرن التاسع عشر، يُدعى موسى يعقوب. لكنه من آل ليفي وليس من آل مزراحي.

أثناء الحصار الإسرائيلي لبيروت عام 1982 أصيب متجره في الحمرا بقذيفة حطّمته شرّ تحطيم. في تلك الظهيرة نفسها سقطت قنابل إسرائيلية على الكنيس الكبير في وادي أبو جميل (حيّ اليهود قرب باب إدريس) فدمرت سقفه وأحرقت القرميد وبعثرت زجاج النوفذ ونثرت كريستال الثريات الإيطالية في أنحاء المكان. موسى يعقوب ليفي وقف وسط حطام متجره في شارع الحمرا شبه المهجور

وأحسّ أن الزمن يمضي في دورات تتكرر إلى ما لا نهاية.

لم تكن هذه المرة الأولى. أثناء حرب السنتين (1975 ـ 1976) أُلقيت قنابل يدوية على متجره. آنذاك، والآن أيضاً، لن يرحل موسى يعقوب ليفي عن لبنان. كان هذا بلده. في الأحد الأول من آذار (مارس) 1983 مات بالسكتة القلبية نائماً في فراشه.

لا نعرف ماذا رأى في منامه في ذلك السبت الأخير. لعله استعاد رحلة من زمن الطفولة إلى أطلال الكنيس الأثري (الذي حاول البارون روتشيلد ترميمه) خارج حاصبيا، عند سفح جبل الشيخ. أو رحلة إلى الشاطئ الرملي لمدينة صيدا. أو ذلك الشاطئ الصخري البعيد، الشاطئ البرتغالي على الأطلسي. لعله كان يستعيد زمن إقامته على ساحل الهادي في الجانب الآخر من أميركا. كَرِه ذلك الساحل الرمادي وكَرِه الضباب على وجه المحيط وكَرِه الشمس الفاترة. كَرِه الأعشاب المائية الطويلة التي تعلق بأصابع القدمين وتلتصق بالبطن والظهر وكَرِه الهواء المثقل بالرطوبة الزنخة. لم يتنفس هواءً طيباً إلاّ في أزقة صيدا القديمة. وربما في بحمدون، وفي عاليه أيضاً. كل صيف كانوا يصعدون إلى الجبل. لعله رأى في ليلته الأخيرة، بينما يتقلب في الفراش الكبير، تلك الصورة العجيبة التي تتناقلها السلالة وراثياً. كل سلالة موسى يعقوب مزراحي من ولديه سارة وساسون، كلّهم يتناقلون وراثياً تلك الصورة. تولد معهم حين يولدون. خصوصاً هؤلاء الذين نزحوا من دير القمر بعد حوادث 1841. تركوا الجبل بعد رحيل الأمير بشير عنه. تركوا المصابن والمعاصر والمتاجر والحقول. باعوا كل شيء ونزلوا إلى بيروت. نزلوا على البغلات والحمير والجمال. ونزلوا مشياً. القليل منهم نزل إلى صيدا. بعضهم استقر في طرابلس وقسم ظلّ في دير القمر ولم يغادرها إلاّ بعد حرب 1860. وكل هؤلاء حملوا تلك

الصورة القديمة ذاتها: جميع أبناء سارة ليفي بنت موسى يعقوب مزراحي حملوا صورة عجوز راجف اليدين يأتي من بعيد ببسمة حزينة، رائحته تبغٌ وصابون وعرق.

أحد أحفاد سارة سُمّي موسى يعقوب عطيّة. كان واحداً من ثلاثة رجال مثّلوا الطائفة اليهودية في بيروت خلال الاجتماعات التاريخية التي عقدت عام 1942 مع بشارة الخوري ورياض الصلح وحبيب أبو شهلا تمهيداً لإعلان استقلال لبنان. هذا الرجل بشعره الأسود الطويل المربوط كالكعكة تحت البرنيطة اليهودية، وبالرجفة الخفيفة في أصابعه التي ستقوى مع تقدمه في العمر إلى أن يعجز عن شرب الحساء من دون تلطيخ زيّه الديني، هذا الرجل الذي درس في الأليانس العلمانية ولم يدرس في مدرسة سليم طراب الدينية جنب الكنيس، والذي سافر إلى باريس وبرلين وموسكو وحجّ في شبابه إلى صفد وأورشليم، هذا الرجل كان يجهل جهلاً كاملاً أن ملامحه تتطابق تطابقاً تامّاً مع جدٍ كبيرٍ يحمل اسمه مات في بيروت القديمة، بيروت ما قبل الفتح المصري عام 1831، بيروت البلدة الغامضة بستة آلاف نسمة يحاصرهم سورٌ مستطيل. الجد الكبير موسى يعقوب مزراحي مات قاعداً قبالة حارة اليهود والكنيس القديم الذي سيظل مفتوحاً إلى أن يُهدم عام 1922. مات قاعداً على طرّاحة رثّة على مصطبة حجرٍ أمام دكان خضرٍ اشتراه منه رجلٌ غريبٌ هاربٌ من دمشق يريد أن تتكاثر سلالته حتى تملأ عليه ـ على غربته ـ بيروت كلّها.

مات موسى يعقوب مزراحي من دون أن يترك صورة تظهر لنا وجهه أو رسماً يدل إلى ملامحه. موسى يعقوب ليفي الذي قضى بالسكتة القلبية عام 1983 في بيتٍ في حيّ القنطاري في بيروت لم يكن شبهه في ملامح الوجه، وإن بدا شبيهاً به في الكآبة. موسى

يعقوب عطيّة الذي عاش في زمن الانتداب الفرنسي ثم في عهد الاستقلال والذي زارته الشيخوخة باكراً وجهه محفوظ في صورٍ فوتغرافية كثيرة. إحدى صوره منشورة في جريدة «النهار» اللبنانية مع مقالٍ له يؤكد فيه انتماء اليهود اللبنانيين إلى لبنان أولاً وأخيراً. يكفي أن ننظر إلى هذه الصورة، وأن نحذف حداثة الثوب جانباً، لنعرف وجه الجد الكبير موسى يعقوب مزراحي صديق عبد الجواد أحمد البارودي ذي الذراع الواحدة.

هل مات موسى يعقوب مزراحي بالسكتة القلبية؟ لا نعلم. لكننا نعلم أن عدداً من أحفاده قتلهم مرض القلب. آخر عائلة يهودية ظلّت في صيدا بعد 1975، عائلة يوسف وجميلة ليفي، شاهد على هذا. ثلاثة من أخوة يوسف ليفي قتلهم تصلبٌ في الشرايين. الأخت الكبرى لجميلة ليفي ماتت بالسكتة بينما تشتري سمكاً من السوق القريب. أولاد يوسف وجميلة ليفي، ميخائيل وملكة وإسحاق وغولدا وجوستين، لم يرحلوا عن عالمنا بعد، ولا نستطيع أن نعلم في أي أرض يقضون، ولا بأي داء أو حادث. بقوا في صيدا عبر الحروب الأهلية، وحين دخل جيش الدفاع الإسرائيلي المدينة في صيف 1982 كانوا هناك. الضباط الإسرائيليون لم يصدقوا آذانهم حين سمعوا امرأة تعترض دربهم في الزقاق صارخة بهم إنها يهودية، وطالبةً أن يتركوا لها ابنها. كانوا يجمعون رجال المدينة عندئذٍ على شاطئ البحر.

كل رجل، كل شاب، كل فتى، أُخذ إلى البحر. جميلة ليفي كلّمتهم بالعبرية والعربية معاً. إسحاق، الذي يعرفه أهل صيدا باسم زكي، ساعد أصحابه في تلك الأيام العصيبة. كان يتوسط للمعتقلين عند الحاكم العسكري الإسرائيلي. ويبدو حزيناً مرتبكاً طوال الوقت. حين قرّر الإسرائيليون الانسحاب في ربيع 1985 نصحوه

بمغادرة المدينة مع عائلته. وقف صامتاً وبلع ريقه. قبل فترة جرف الجيش الإسرائيلي بساتين البرتقال التي تملكها عائلته في مدخل صيدا، عند جسر الأولي. جُرفت البساتين لئلا يحمي الشجر «المخربين». والآن ينصحونه بالمغادرة. وقف الشاب البدين القصير، بأسنانه البارزة، وشعره الضارب إلى الشقرة، لا يدري ماذا يفعل. ملكة ـ أخته ـ تزوجت وهاجرت إلى البرازيل. أبوه مات. وعمه مات. عنده أخوة صغار وعنده أمه العجوز. أين يذهب وماذا يفعل؟ أراد الشاب أن يبكي. لم يفعل. مشى على كورنيش صيدا للمرة الأخيرة ونظر إلى نورٍ كاشف يضرب القلعة. زارته في تلك اللحظة صورة لا يعرف مصدرها. صورة تأتي إليه في لحظات الصفاء منذ زمن الطفولة: رجل عجوز بيدين مرتجفتين يبتسم ابتسامة حزينة، ابتسامة تحوي كل أحزان هذا العالم.

برحيل إسحاق ليفي وأمه وأخوته عن صيدا فرغت المدينة من اليهود. انقرضت الطائفة. أخذوا معهم مفاتيح الكنيس المتهدم وأخذوا مفاتيح غرفٍ لن تسكنها بعد اليوم سلالة موسى يعقوب مزراحي. سيرة هؤلاء غير مسجلة في هذه الكتب؛ غير أن الكتب المذكورة هنا تفيد في تخيل بعض أجزاء هذه السيرة:

1 - «The Vanished Worlds of Jewry». Raphael Patai (London, 1981).

2 - «Acht Jahre in Asien und Africa von 1846 bis 1855.» J.J. Benjamin (Hannorer, 1859).

3 - «The Jews of the Middle East, 1860 - 1972». Hayyim J. Cohen (Jernsalem, 1973).

وهو كتاب يجمع القليل من المعلومات إلى الكثير من الدعاية لـ «وطن اليهود القومي».

4 - «Seven Untold Stories». Heskel Habas. (London, 1933).

5 ـ «الحياة في وادي أبو جميل». نسيم سرور. (مطبعة دير المخلص، 1936).

6 ـ «رسالة تاريخية في أحوال لبنان في عهده الإقطاعي»، منسوبة للشيخ ناصيف اليازجي (1800 ـ 1871). يرد فيها ذكر الدرزي شاهين منذر الذي قُتل على يد الأمير منصور اللمعي. وهذا الرجل ترك ابناً يُدعى سليمان منذر سيظهر بعد فصلين ويقاتل جنباً إلى جنب شاهين البارودي (الذي يحمل صدفة الاسم الأول للمرحوم المغدور) في حوران، وفي اللجاه، وفي وادي التيم، وفي جبل عامل أيضاً.

نقتبس ما كُتب عن الرجل هنا لتجنب العودة إلى المرجع نفسه مرة أخرى: «... والباقي دروز وهم جمرة العداوات والفتن في البلاد. ولهم عادة أن يخرجوا على ولاة أمورهم يتعبون معهم تعباً شديداً. وفي أكثر الأمر لا يقدرون على أخذهم إلاّ بالحيلة كما فعل الأمير منصور اللمعي ببني منذر فإنه خادعهم حتى دعاهم إلى وليمة فجلسوا يأكلون وكان قد أعدّ لهم جانباً عظيماً من البارود فألقى عليه النار وإذا هم يتطايرون ويقال عن أحدهم شاهين منذر أنه بينما كان طائراً في الهواء استل خنجره وهو يتهدد الأمير منصور وما زال حتى وقع ميتاً على الأرض». لكن القارئ يستطيع إغفال هذا المقطع كاملاً.

7 - «A Jew from Lebanon». J.M. Mizrahi (Random House, New York, 1948).

8 - «Jews and Arabs: Their contacts through Ages». Shlomo Goitein (New York, 1955).

هل مات موسى يعقوب مزراحي بالسكتة القلبية؟ لا نعلم. هذا هو المشهد الأخير في حياته: الغروب لا يأتي، صاحبه البارودي ليس هنا، النعاس لا يأتي، والزقاق يمتد موحلاً أمام عينيه. ساحة العصافير تبدو سوداء من الوحل، والفضاء ذاته موحل. الوحل يقطر من الحيطان. بيروت كلّها تصير بحيرة من الوحل حين يحلّ موسم الأمطار. كل هذه الأزقة التراب. كل هذه الحيطان المبنية بالحجر الرملي والطين. وهذا السور القاتم الذي يمنع الهواء. وهذه البيوت المتلاصقة. الزقاق موحل، والفضاء موحل، والسماء موحلة.

هبّت ريح البحر، هبّت باردة، وغرق موسى يعقوب مزراحي في رائحة ليلة قديمة. أحسّ جسم راحيل ثقيلاً بين ذراعيه من جديد. أغمض عينيه ثم فتحهما قليلاً. نورٌ باردٌ انعكس في بؤبؤيه. ثم كفّت أصابعه عن الإرتجاف.

لم يحزن عبد الجواد أحمد البارودي لموت صاحبه العجوز موسى يعقوب مزراحي. حَزِن ولم يحزن. لم يحزن كثيراً لأن باله في تلك الأيام الماطرة الموحلة كان مشغولاً بأمورٍ أخرى: أم شاهين حامل من جديد؛ البنت زهرة مريضة تتقلب محمومة بين الحياة والموت لا ينفع معها دواء؛ السيول اجتاحت أسفل سوق القطن وخرّبت الحانوت وأغرقته في الوحل؛ الإمام الحوت الذي ذهب يحجّ إلى بيت اللّه الحرام للمرة الثالثة لم يرجع مع الحجّاج ويبدو أنه لن يرجع؛ الصبيان العاملون في خدمته يتناقرون طوال الوقت وقبل يومين تشابكوا بالأيدي؛ بطنه تؤلمه ويمضي عليه أحياناً صباحان من دون أن يُخرج ما فيه من قاذورات؛ وكأن كل هذا لا يكفي، يموت صاحبه مزراحي اليوم، ثم تظهر له مرة أخرى تلك المرأة القديمة ذات الملاءة الصاخبة الألوان عابرةً الزقاق في لحظة صحوٍ، والعيون ترصدها كما رصدتها دائماً.

لكنه في هذه المرة يسأل أحد الزبائن من تكون. والزبون يخبره أنها الأخت الصغرى لزوجة الأمير بشير حُسن جهان، وأنها ـ مثل أختها الكبيرة ـ حُملت إلى حاكم الجبل من الآستانة مع خمس جوارٍ أخريات من النبيلات الشركسيات. الأمير الشهابي الكبير أبقاهن عنده في بيت الدين ثلاثة أسابيع، ثم اختار حُسن جهان زوجة وصرف

الباقيات. هذه التي استقرت فتنةً في بيروت اشتراها أحد أنسباء الأمير بشير، الأمير جمال الدين صاحب القيسارية وراء البازركان.

لم يحزن عبد الجواد أحمد البارودي كثيراً لموت صاحبه العجوز موسى يعقوب مزراحي. قضى نهاية ذلك الشتاء ماشياً بعينين فارغتين كمن يمشي في منام. منذ رأى بطن أم شاهين ينتفخ من جديد تغيّر لون العالم في عينيه. تذكّر الداية تقول: «زمطتْ من خروم الشبك». ورأى مرة أخرى كل تلك الفوط الملطخة بالدم، ورأى إناء الماء الذي صار لونه وردياً قاتماً، ورأى الخوف على وجوه النساء... يخاف أن يحدث شيء لأم شاهين. يخاف فقدانها.

سائراً كالنائم في أزقة بيروت الموحلة رأى برك ماء لا تحصى تملأ الحفر والأقنية والأخاديد. فكّر أنه يحيا في عالم بشع، وفي كل شتاء تتضاعف شناعته. حين سمع صوتاً مرتفعاً شجيّاً تذكر أنه الظهر. ميّز صوت المؤذن لطف اللّه قدّورة، بتلك البحّة، ووقف لحظة عند مفرق سوق الإسكافية يفكّر في المضي إلى الجامع العمري الكبير. ثم انتبه أن قلبه يوجعه كلّما دخل الجامع ولم يرَ الإمام الحوت عند المحراب، فبدّل رأيه وتابع طريقه عابراً دهليز الحدادين باتجاه دكانه. في الدهليز سقطت عليه قطرات بلون الفحم من القبّة، ولطخت قميصه، ولطخت عمامته.

بعد أيام تباعدت الغيوم وعجّت الساحة بأقفاص العصافير. بدت الطيور مبتهجةً بالشمس. تغريدها بدّل جوّ البلدة الكالح. في لحظة انتهى الشتاء وخرج عشب الربيع من شقوق الأرض، ومن شقوق الحيطان. اكتست السطوح الترابية بالعشب، وفاحت رائحة البابونج وزهر الربيع والإقحوان. أشجار اللوز تحولت إلى كواكب بيضاء. التمع الورق الأخضر على شجر التوت، ونشفت الوحول في

الأزقة، وارتفع البخار متموجاً من الحيطان. عبد الجواد أحمد البارودي سمع هدير الطيور فخرج من دكانه. كان يبتسم للمرة الأولى منذ زمنٍ بعيد. رأى الأولاد راكضين في الساحة. رأى أغصان دبق ورأى الشحارير. رأى نسوة ملفعات بأزرٍ بلون الثلج يعبرن الساحة ماضيات باتجاه المعصرة. رأى شاباً مفتول العضل يدحرج محدلة على سطح البيت المجاور لكنيسة مار إلياس. رأى حرّاساً يهبطون من جهة الدركاه حاملين البواريد يتبادلون المزاح، يتدافعون بالأيدي، ويطلقون الضحكات. رأى شيخاً يسرع إلى بيته أو إلى أصحابه حاملاً سلاً من الخبز الساخن على رأسه. رأى الناس والعصافير والسماء وشعاع الشمس وخضرة السطوح، سمع أصوات الربيع المبهجة، وشمّ رائحة مناقيش ساخنة خارجة من فرن ورائحة زعتر وكشكٍ مجبولٍ بالزيت وبصلٍ يحترق على النار. رأى كل ذلك وابتسم ودار برأسه إلى زاوية المصطبة الحجر فرأى صاحبه اليهودي العجوز يبادله الابتسامة. لم يتغيّر كثيراً بعد الغياب الذي طال. قصّ شعره، ووضع طاقيته السوداء على الطراحة جنبه. بان وجهه كبيراً بلا الطاقية وبلا كعكة الشعر الأسود. بدا قليل الحزن، كأن الموت أراحه من هموم وأثقال. دامت الرؤيا لحظة ثم تبدّد الرجل متلاشياً في الهواء. الطاقيّة القماش تبدّدت أيضاً. وكذلك طرّاحته. عندئذٍ فقط تذكر عبد الجواد أحمد البارودي أن عليه أن يزور أخت المرحوم: العجوز ملكة.

دخل حارة اليهود من بوابتها الصغيرة الواطئة. انحنى لكي يدخل. عَبَر الدهليز المظلم القصير ثم خرج إلى باحة تحاصرها البيوت. نادراً ما يدخل هذه الحارة. 16 عائلة في 16 بيتاً، كلّهم أقارب، يقضون الأعياد اليهودية معاً، وفي يوم السبت لا يتحركون من بيوتهم. وحده موسى يعقوب مزراحي كان يغادر الحارة في

السبت المقدس. مفاصل البوابة تطقطق وهو يفتحها خارجاً. ثم تطقطق مرة ثانية حين يفتحها عند رجوعه. أهل الحارة يضحكون ويقولون إن العجوز مزراحي يعيش منذ جاءته الرجفة سبتاً واحداً طويلاً بلا نهاية، هناك على المصطبة الحجر حيث كان ينجّر الأعواد ويغني.

عبد الجواد أحمد البارودي عَبَر الباحة التي تشبه ممراً ثم تسلق حائطاً مهدماً وقطع جلاً من الصبير. بعد الصبيرات ظهر بيت مزراحي، أمامه تعريشة عنب يابسة. عند أسفل الدرج الحجر الذي يصعد إلى الطبقة العلوية بانت العجوز ملكة في ثوب كحلي داكن تنحني على الأرض وتقلع جذوراً من شقوق الدرج، ومن التراب أسفل الدرج. حين رأته مسحت العرق عن عينيها بطرف كمّها ورفعت ظهرها. قالت:

ـ تقضي الحياة وأنت تتعارك مع العشب. وفي النهاية ماذا يصير؟ أنت تموت والأعشاب تنمو.

عند الأصيل أخرج طرّاحة إلى جانب المصطبة أمام دكانه، حيث بقعة الشمس الباقية. الأولاد الذين عثروا على صاحبه ميتاً هنا قالوا إنه كان مستنداً إلى الحائط بظهره، وعيناه مفتوحتان.

عرفوا أنه ميت لأن البياض كان يغطي عينيه. لو مات مغمض العينين لما اقترب منه الأولاد ولما عرفوا أنه ميت ولظل تلك الليلة في العراء. بياض العينين جذب الأولاد إليه. لكزه أشجعهم بطرف عصا طويلة. لم يتحرك العجوز. لم يفتح فمه. لم يحرك يديه الساكنتين في حضنه. تشجع الولد. هذه المرة لم يلكزه في جنبه. لكزه في عنقه. مالت رأس العجوز عندئذٍ وسقطت الطاقية عن شعره. هتف أصغر الأولاد:

ـ أمي!

كان ينادي على أمه. أو لعله وجد شعر العجوز طويلاً مثل شعر أمه.

عبد الجواد أحمد البارودي دخّن لفافة تبغ ناظراً إلى الحمائم تخفق بأجنحتها في السماء البرتقالية. تابع دوائر طيرانها ورأى قصبة ترتفع، وفي رأس القصبة قماشة حمراء، قصبة ترتفع فوق سطح بيت وراء الساحة، حيث تصعد طريق الدركاه. سرب الحمام تبع إشارات القماشة الحمراء في طيرانه. ثم ظهر سربٌ آخر. أقبلت هذه الحمائم من حيث لا يراها، من الخلف، من جهة البازركان. اختلط السربان. حاول تمييز الحمائم وهو ينفخ الدخان من فمه وأنفه ويحسّ ألماً خفيفاً في الكتف حيث كانت ـ قبل زمن بعيدٍ ـ ذراعه. عادت إليه ذكرى نادراً ما تعود: كانوا يغسلون الذراع المقطوعة بالصابون والماء، ورأى دموعاً على وجوه أخواته. أمه فردت الكفن الأبيض على الفراش. إحدى أخواته حملت الذراع المقطوعة التي لم تنشف تماماً بعد، ومدّدتها في قلب الكفن، ثم لفَّتها أمه. لم يحمل ذراعه إلى المقبرة. أخوه حملها. حملها تحت إبطه ومشى بخطوات واسعة. يذكر جارة من الجارات تنده عن سطحٍ قريب:

ـ احفرْ وعمّقْ لئلا ينبشها الكلب!

يذكر صوت الجارة (بدا له صوتاً فرحاً، كأنها سعيدة بما يحدث). ويذكر الشمس تلمع على حديد المجرفة التي حملها أخوه باليد الأخرى.

عبد الجواد أحمد البارودي ظلّ زمناً طويلاً ينسى أنه بات بذراع واحدة. ينحني مرّات كي يحمل مقطفاً ثقيلاً، فيرى يداً تلتقط أذنَ المقطف، ولا يرى يداً أخرى تلتقط الأذن الأخرى. يبقى منحنياً هكذا على المقطف المملوء بحبات المشمش السكرية الرائحة،

مصعوقاً بالمفاجأة غير فاهمٍ ما يجري، إلى أن يسقط عليه الوحي، فيتذكر. في الليل كان يستّيقظ ويتلمس جسمه لكي يتأكد، لكن بمرور الوقت، تراجع كل ذلك. ذراعه الباقية صارت بقوة ذراعين. وعقله فهم ما لم يفهمه في البداية. لماذا ترجع إليه تلك الذكرى الآن: ذراعه بالشعر الخفيف المبلّل تمدّدها أخته في الكفن الأبيض الذي حاكته أمه على المغزل. لماذا يتذكر ذلك الزمن البعيد بعد كل هذا الوقت، بعد كل هذه المسافة؟

افترق سربا الحمام ثم تشابكا مرة أخرى. القماشة الحمراء في رأس القصبة خفقت مرتين بحماسة ثم اختفت عن نظره. تبعها سرب الحمام ففرغت السماء تماماً. لم يرَ سماءً بهذا الصفاء منذ عام. لا تُرى غيمة واحدة. صفحة مستوية من اللون الأزرق ـ البرتقالي. حين سمع صوت صاحبه العجوز موسى يعقوب مزراحي استدار ونظر إلى حيث اعتاد أن يراه جالساً.

لم يرَ أحداً. لكنه تذكر تلك الليلة التي قضاها يجرف الزبل من الدكان ويحمله إلى البورة في رأس الطلعة. لماذا فعل ذلك؟ كان يستطيع الانتظار إلى الصباح ثم يطلب من الرجل ـ صاحب الزبل والأبقار ـ أن يأخذ بضاعته. لكنه لم يستطع الانتظار. أراد دكانه نظيفاً. الرجل (حسين طه الجبيلي) جاء في النهار ورأى أنهم رموا بضاعته في بورة وغضب وطلب حقه. العجوز مزراحي جاءته النكتة وقال إن الخرا خرا، في دكانٍ كان، أو في بورة. حسين طه الجبيلي وضع سطل الحليب من يده وقال إن هذا لا يجوز وإن نصف الزبل ضاع الآن في الطريق، وإن الخواجه سليمان طراد صاحب البساتين في الرميل موعود منذ أيام بهذا الزبل، والآن نصف الزبل ضاع على درب الدركاه فماذا يقول للخواجه طراد؟ عبد الجواد أحمد البارودي سيّطر على أعصابه وقال إنه يدفع من جيبه ثمن خسارة الشيخ

الجبيلي. قال كلماته بصوت باردٍ يطفح إيماناً. صوت بارد وحار في اللحظة نفسها. حسين طه الجبيلي صمت كأن طيراً حطّ على رأسه. لم ينادِه أحد بشيخ قبل اليوم. ولا حتى على سبيل الدعابة. عنده ثلاث بقرات. يحلب البقرات. ويرعى البقرات. يبيع الزبل بالكيس. ويبيع الحليب بالرطل للبيوت. هذه كل حياته. البقرات الثلاث. ثم يأتي هذا المخلوق الكريم الطيب ويسميه شيخاً! حسين طه الجبيلي وضع رأسه في الأرض صاغراً كأنه يقف أمام سيده. منذ تلك اللحظة بدأ عبد الجواد أحمد البارودي يكتشف قيمة الكلمة الحلوة وقيمة اليد المفتوحة وقيمة الصوت الهادئ.

الآن، في هذا الأصيل، بينما يلفّ لفافة تبغ ثالثة، فكّر أنه سبحانه وتعالى جعله يُنظف الدكان تلك الليلة كي يأتي ذلك الرجل صاحب البقر غاضباً في النهار وكي يجري ما جرى وكي يدرك البارودي قيمة أن تحبس غضبتك وتكسر الشرّ. ماذا يقول الشماس دبّاس؟ مخافة الربّ تاج الحكمة.

استدار وأمر الصبي علي سلامة أن يبدأ بإدخال البضاعة إلى الدكان. كان ضوء النهار يتلاشى. والمساء يُقبل. خرجت الوطاويط من الثقوب في حائط الكنيس، ومن برج الجرس فوق كنيسة مار إلياس. تدافعت خوتاء في الفضاء. تطير يمنةً ويسرة، صعوداً ونزولاً، عمياء لا ترى شيئاً. أحسّ بالانزعاج. داخلته الوساوس. مرة أخرى فكّر في أم شاهين. يخاف أن يصيبها أذى. وفكّر في زهرة وفي وجهها المبلول بالعرق، يصفرّ، والعظام تظهر في الوجنتين، وسهيلة تدمع عينها. نهض نافضاً الوسواس عن جسمه كأنه ينفض غباراً عن ثوبه. وارتفع الأذان.

بعد صلاة العشاء، في الجامع العمري الكبير، مضى عبد الجواد أحمد البارودي بخطى ثقيلة إلى بيته. ما سمعه في

الجامع زاد وساوسه. الصلاة لم تذهب بتعبه ولا ذهبت بهمومه. تضاعف الهمّ وتضاعف التعب. كان في مصيبة. صار في مصيبتين. ماذا يجري لهذه الحياة؟ منذ هطلت الأمطار بهذه الغزارة وكل شيء يمضي إلى أسفل. حَسِب أن الربيع (هذه الرائحة الجديدة في الجو) سيضع حدّاً للسقوط. لكن هذا لا يحدث. ما سمعه في الجامع لا يُبشر بالخير. المصائب تسقط على رأسه بغتة. حانوته يغرق في الوحول. ليس يكفي أن التجارة سيئة (هذه بلدة صغيرة وثلثا أهلها يزرعون ما يأكلون، هذه ليست دمشق، لماذا اختار أن يحطّ الرحال هنا، لماذا لم يتابع دربه إلى عكا، إلى الإسكندرية، إلى القاهرة؟). ليس يكفي أن ما يجنيه من متاليك بالكاد يُطعم زوجتيه وأولاده، ليس يكفي إنه لا يُعطى إلاّ البنات، ولا يُعطى مع شاهين صبي آخر، كأن هذا كلّه ليس يكفي، والآن تأتي هذه الحمّى الطليانية إلى البلد. اكتشف في الجامع أن زهرة ليست وحدها المريضة. اكتشف أن عدداً كبيراً من الأطفال أُصيب بهذه الحمّى.

كيف بلغت الحمى البلد؟ مع بضائع السفن الإيطالية. عبد الجواد أحمد البارودي الذي سمع في دكانه امرأة تحكي عن ابنها المريض فكّر أنه الرشح اللعين. بعد أن سمع خبر الحمى المنتشرة استعاد أخباراً متفرقة. وكلما تذكر شكوى أو كلمة زاد ثقل قلبه. غادر الجامع من بابه الشمالي المفتوح على «الفشخة». قطع السوق شبه المقفل وهو يُلقي السلام على التجار والمصلين الذين يتبعثرون كل باتجاه بيته.

بعض المتاجر ما زال مفتوحاً. رأى سرجاً مشتعلة ورأى رجالاً يرتبون أغراضاً ويردّون بوابات ويُخرجون مفاتيح سوداء طويلة. سمع تكّات المفاتيح في الأقفال. متاجر فياض وربيز ودبّاغ وأرقش وبرباري وبسول ومطر وفرعون ومجدلاني تُقفل الآن، كلّها في

لحظة واحدة. هذه متاجر المسيحيين تتباعد بينها متاجر أُقفلت قبل الصلاة بقليل، متاجر بيضون وبيهُم وشاتيلا وعلايلي وجلول وشبارو وسنو والصيداني وفانوس والفحل ومخزومي والعوجا والكوسا. قطع السوق إلى الجانب الآخر. خطوات معدودة ليس أكثر. لكنه في هذه المسافة القصيرة (يسمّون السوق «الفشخة» على سبيل المبالغة لأنها ضيقة مثل «فشخة») في مسافة لا تزيد عن سبع خطوات، رأى وجوهاً لا تُعد تنظر إليه من فوق العتبات العالية أمام المتاجر المفتوحة والموصدة. لماذا ينظرون إليه؟ المساء هبط على بيروت. عواء بنات آوى ارتفع وراء الأسوار يجيبه نباح الكلاب من سوق الدباغة. نجمة المساء شعَّت عالياً، بيضاء، وعلى مسافة منها ظهر الهلال شبه مطفأ. الهواء بارد. كأن الربيع غادر المكان كما أتى. في الليل يبرد الهواء. ونسيم البحر يأتي ساماً رطباً. لماذا ينظرون إليه واقفين في الأبواب المضاءة بزيت الزيتون، بسرج المعدن والفخار المعلقة من المسامير، من الحيطان، من العتبات الحجر فوق الأبواب، ومن الأبواب الخشب ذات الدرفتين! لماذا ينظرون إليه؟ لأنه بذراعٍ واحدة؟ انتابت عبد الجواد أحمد البارودي في تلك اللحظات سويداء فظيعة. غلبت الملانخوليا على دماغه، ورأى السوق التي أُقفل نصفها وبدأ نصفها الآخر يُقفل، رأى السوق التي يعرفها دكاناً دكاناً من باب السراي حيث الدكاكين الأقدم إلى باب إدريس حيث الدكاكين الأحدث، رآها غريبة غير مألوفة، أجنبية، كأنه لم يرَها من قبل. بعد أيام سوف يمشي هنا في مزاجٍ رائق ويلاحظ أنها غير مزدحمة بالدكاكين كثيراً. هناك حواكيرُ مزروعة توتاً وتيناً وزيتوناً بين الدكاكين. هناك مساحات من الوزال والشوك والصبير. هناكَ قطعٌ من الأرض فارغةٌ حتى من الشوك، تتوزعها الحجارة وعظام الحيوانات المصقولة بالوقت والشمس، أو

المنخورة بالهواء والرطوبة. سوق الفشخة لا تعجّ بالدكاكين لكنها بدت له كذلك في تلك اللحظات من ذلك المساء الربيعي البارد، بعد سماعه خبر الحمى الطليانية، راكعاً في الجامع العمري الكبير الخالي من مولاه الإمام الحوت (لن يرجع الإمام من مكّة المكرمة. وسوف يعرف عبد الجواد أحمد البارودي بعد عامين أن مولاه الحوت تُوفي في المدينة المنورة ودُفن في مقبرة الحُجّاج).

خرج عبد الجواد أحمد البارودي من الجامع مضروباً على رأسه. سمع أن هذه الحمى قاتلة فتّاكة وسمع أنها سريعة الانتشار تصيب بالعدوى كل من جاورها. ليس زهرة فقط! زهرة وسوسن وياسمينة! وتصيب الكبار أيضاً. يتأخر ظهورها لأن أجسام الكبار أقوى، ولأن الصغار لا يملكون المناعة. لكنها حمّى ملعونة لا تُميز بين كبيرٍ وصغير، وحين تضرب بلداً تفتك به فتكاً. يسمّونها أيضاً «حمى مالطية». ليس زهرة فقط! سوسن وياسمينة أيضاً! وزوجته سهيلة كذلك! لا يحسّ بمعدته مقلوبة، وشهيته للطعام كما هي، ولم ترتفع حرارته في الليالي الماضية. لكن هذا قد يحدث غداً. المرض يتأخر كي يضرب في أجسام الكبار. يتأخر، فيحسب الواحد أنه نجا. أن العدوى اللعينة زاحت عنه ولم تصبه في بدنه. يحسب أنه فرّ بجلده، وعندئذٍ تضربه المالطية الملعونة. عائلة عساف رباح المحمصاني المقيمة داخل باب السنطية، في جوار حيّ الإفرنج، وقع نصفها في المرض. الأطفال مرضى، والأم مريضة، والعبدة الحبشية مريضة. وحده السيد عساف رباح المحمصاني لم يمرض، هو وابنه الكبير غضبان. غضبان لم يمرض لأنه لا ينام في البيت بل في السقيفة الخشب فوق دكان الحبوب في خان الملاحة. الأب لم يمرض لأنه أصيب بهذه الحمى قبل زمن بعيد ولم يمت بها آنذاك. إذا نجْا الواحد منها مرة ينجو. هذا إذا نجا مرةً.

عبد الجواد أحمد البارودي وقف في أول الزاروب المعتم ولم يلج ما بين البيتين العقد بالحيطان التي سوّدها المطر والزمن والتراب وقشور النبات. وجّ الكلس في الظلام يقوده ـ إذا تقدم ـ في «طريق عبد الجواد»، إلى جميزةٍ جنبها بيت، ثم إلى توتةٍ جنبها بيتٌ ثانٍ. بذراعه الواحدة، بأصابعه الخمسة، عمّر حيطان هذين البيتين. كل بيت غرفة كبيرة واسعة، ووراء الغرفة المطبخ، وفي العراء بيت الخلاء. كل بيت غرفة كبيرة واسعة، مع سقيفة خشب وسلم خشب. وللمطبخ أيضاً سقيفة. البيت الثاني جعل له قنطرة حجراً في بابه ثم أقام إلى جانب جداره الجنوبي درجاً حجراً، وفوق السطح رفع غرفة من الحجر الأبيض المقصب لأيام الصيف الحارة. سهيلة مذ صارت بدينة باتت تتعب في الحرّ الشديد. تتعب حتى تلهث الأنفاس في صدرها وهي قاعدة أمام النافذة المطلّة على جلول التوت والمقسيس والسنط المتدرجة نزولاً حتى شاطئ البحر. بنى لسهيلة (لأم زهرة) هذه الغرفة البيضاء الحجر، وصار يقضي فيها ليالي الخماسين. وقال لأم شاهين إنه هذا الصيف سوف يبني لها غرفة أكبر على السطح. قال: «هذا الصيف». وقال: «إن شاء اللّه». فهل يشاء اللّه؟

عبد الجواد أحمد البارودي الواقف في الليل أمام «طريق عبد الجواد» البيضاء لا يجرؤ على التقدم خطوة واحدة، بحلقة المفاتيح الثقيلة في جيب سرواله الفضفاض، وبعينين تحرقانه، نسي ربّه في تلك اللحظة. وضع يده في سرواله وتلمس المفاتيح الخمسة: مفتاحان للبيت في نهاية الطريق؛ مفتاح لبيت الزوجية الأول؛ مفتاح لدكان الخضر؛ ومفتاح لحانوت الشواء. أين يذهب؟

في البيت الأخير زهرة مريضة بالحمى المالطية. في البيت القريب أم شاهين تشكو بطنها الثقيلة غير قادرة على القيام عن

الفرشة، أختها أم عصام تطبخ لها كما فعلت قبل ثلاث سنوات وتنتبه للولد شاهين. دكان الخضر ينام فيه الولد علي. وحانوت الشواء تغطي أرضه الوحول، وحيطانه مصدعة. أين يذهب؟ استدار ورأى آخر الدكاكين تقفل. رأى شعلة قنديل ترتجف وراء الزجاجة الممشوقة ثم تغيب في الظلام. هذه الزجاجات نادرة في بيروت. وهذه القناديل أيضاً. في الشام كان يرى مثلها. ما الذي حمله إلى أرض الفقر والمرض والضنى هذه! نظر عبد الجواد أحمد البارودي إلى وجوهٍ تبتعد في الظلام فرآها مثلثة ولم يرَها مدوّرة كما تكون وجوه البشر. رأى القامات طويلة جداً كالسرو والنخل، أو قصيرة تكاد تلامس الأرض ببطونها. كل العالم تشوه في عينيه. لم يذكر أن هذا حدث معه من قبل، قبل سنين. لم يكن قادراً على تذكر أي شيء. وقع في هوة مظلمة واقفاً في الظلام أمام زاروبٍ أبيضٍ يمتد أمامه إلى حيث لا يعلم. سمع نعيق بوم، ورأى عينين صفراوين تومضان في العتمة. لم يتذكر بومةً تنام على بيضها طوال الشتاء في سقيفة كنيسة مار جرجس الأرثوذكسية فيخبره عنها الشمّاس دبّاس ضاحكاً. تذكر كلمات شؤم أخرى سمعها قبل لحظات، في صحن الجامع: هذه الحمّى تُعمي، تطفئ نور العينين. وأحياناً تُصيب المريض بالصمم. مفتي طرابلس القاضي الشيخ حمد غالب فضل اللّه ذهبت الحمى ببصره وبنطقه أيضاً. صار أعمى وأخرس. ما زال حيّاً. مَرِض سنة مات الجزّار. حُمَّ بالمالطية ولكنه ظلَّ حياً. جاوز المئة، ويحيا في بيتٍ مملوء بالسلاحف.

نسي عبد الجواد أحمد البارودي ربّه في ذلك الليل. ضاع في الظلام ماشياً إلى حيث لا يعلم. واقفاً داخل باب إدريس الموصد، ينظر إلى الفراغ فوق السور المظلم، أحسّ بغتة بألم حارقٍ في رقبته. كأن نحلة لسعته. فرك رقبته بأصابعه فأحسّ ببردٍ في عموده

الفقري. أهي الحمّى؟ رفع رأسه ونظر إلى غيوم تتراكض في السماء. اختفت النجمة واختفى الهلال. رائحة الجو تبدلت. وسمع عواء الذئاب يتقطع ثم يرتفع من جديد، طويلاً، متواصلاً حزيناً، متوحشاً، إلى ما لا نهاية. فقد في تلك اللحظة حسّه بالواقع فلم يعد يعلم أين هو ولا عاد يعلم من يكون ولا ماذا يفعل ولا من أين يجيء ولا إلى أين يمضي. رأى نوراً في الظلام فمشى إليه كما تطير فراشة إلى شعلة. جذبه النور إليه جذباً. تقدم فرأى نفسه أمام نافورةِ مرمرٍ، وسمع خرير الماء. سراج مفرد يتيم كان يشتعل في باب جامع النوفرة (جامع الأمير منذر التنوخي) فينير بالضوء الأصفر ـ الأزرق (لون شعلة فتيل القطن المبلول بزيت الزيتون) الكتابة المنقوشة في العتبة الحجر فوق الباب العالي الخشب. تلاعب نسيمٌ رطبٌ مالحٌ بالشعلة، غمر العتبة بالظلال، لكن عبد الجواد أحمد البارودي قرأ النقش:

الله حق ما في شك

في تلك اللحظة همى رذاذٌ باردٌ. خيوط المطر المتقطعة النحيلة استقرت على عمامته، على جبّته، على سرواله، على كفّه المفتوحة، على وجهه. الماء أزال عنه السويداء. اقترب من البركة وغسل وجهه. قطرات الماء نزلت على وجه البركة ونزلت على ثيابه ونزلت على باحة المسجد. عبد الجواد أحمد البارودي رجع عندئذٍ إلى ذاته. توضأ. ركع. وصلّى.

لم تمتْ زهرة. الحمّى المالطية لم تكن حمّى مالطية. لم يمتْ أحد. ولا انتشرت عدوى. الشيخ الدرزي سلامة المصفي شفاها بأعشاب تنبت في جرود اللجاة وتنبت في غابات حوران. شُفيت

زهرة وقامت من المرض تضحك وتعربش على ظهر أبيها وتلاعب أختيها الصغيرتين. في الصيف، في موسم البطيخ، أكلت بطيخاً حتى أوجعها بطنها. لمع النور في عينيها واستعادت لونها النبيذي ولمعة جلدها القاتمة.

عبد الجواد أحمد البارودي دلّلها حتى أفسدها. صار في بعض الصباحات يأخذها معه إلى الدكان، وهو ما لم يفعله حتى مع ابنه شاهين قبل ذلك. صفية، أم شاهين، كانت تراه من مكانها عند عتبة الباب، آتياً من البيت الثاني والبنت تتعلق بكتفه ورقبته. لم تغضب صفية. هي أيضاً وجدت هذه البنت زهرة «حبّابة»، قريبة من القلب. وللصدق، ولوجه الله سبحانه وتعالى، فأمها أيضاً قريبة من القلب، طيبة. صفية قالت هذا الكلام أمام اختها أم عصام، في تلك الأيام العصيبة، حين أعلمها أبو شاهين بخبر الحمى المالطية.

الحمّى المالطية لم تكن حمّى مالطية. نجت زهرة ونجت سوسن ونجت ياسمينة ونجت سهيلة ونجت كل العائلة. قبل نهاية الربيع فتح عبد الجواد أحمد البارودي حانوته أسفل سوق القطن من جديد. الوحول جُرِفت وأُزيلت. الحيطان أُصلِحت. وفي الخارج أضيف رفٌ حجرٌ لتقطيع اللحم عليه. ونُجرِت سقالة خشب لتثبت المناقل عليها.

في موسم الشمّام الماوردي، بعد ثلاثة أعوام على الولادة الأولى، وضعت صفية الفاخوري البارودي ابنها الثاني. عبد الجواد البارودي اغرورقت عيناه بالدموع حين خرجت أم عصام من البيت تُعلمه أنه صبيٌ ذكر. كان قاعداً مع عمه الحاج مصطفى غندور الفاخوري وأولاد عمه في ظلال الجميزة يشربون القهوة المرّة بحبّ الهال الأخضر. ارتعش وكاد الفنجان الشفّة الأبيض أن يقع من يده على التراب.

سمّى الصبي عبد الرحيم. وللمرة الثانية نزفت صفية بعد الولادة. في هذه المرة كادت ألا تزمط من خروم الشبك. طال جلوس الرجل صاحب الذراع الواحدة مع عمه وأبناء عمه تحت أغصان الجميزة حتى أقبل المساء. أقبل المساء، وارتفع عواء الذئاب، وصفية ما زالت تنزف. لكن الرحمن الرحيم شالها من فم الموت. لم تمتْ صفية. واحتفل عبد الجواد أحمد البارودي بابنه الثاني الذكر.

الولد أبو فحمة ترك يوسف ـ أو غيره ـ في حانوت الشواء، وجاء لتهنئة معلمه عبد الجواد بولادة الطفل عبد الرحيم. أبو فحمة الذي كان جلداً على عظم قبل عامين جاء إلى بيت معلمه بكرشٍ وفخذين بدينين وجلس علَى الحصير في مجلس الكبار وتناول قصعةً فخاراً طافحةً بالمغلي وانقضّ عليها انقضاضاً بملعقة الخشب.

المغلي (السكر والرزّ المطحون والمطبوخ مع الكراوية والقرفة وجوزة الطيب) لطّخ فم الولد الذي بدا مشغول الفكر بأشياءٍ تُقلقه. حين أنهى القصعة قام وجلس قرب معلمه لحظة وأخبره أنه سيفتح مع أبيه حانوتاً للشواء على المرفأ، وأنه آتٍ اليوم للتهنئة أولاً وللاستعفاء من الخدمة عند معلمه عبد الجواد ربّ نعمته ثانياً.

عبد الجواد أحمد البارودي نظر إلى الفتى الذي صار بضخامة الجاموس وضحك وقال له اللّه يُسهل لك يا ابني، رحْ والنبيّ معك. بدا فرحاً بالخلاص منه. صهره محي الدين الفاخوري أخبره أن أبا فحمة هذا لا يضع سيخ اللحم في الرغيف إلاّ بعد أن ينزع نصفه بأسنانه. حتى الرغيف يقضمه قبل أن يعطيه للزبون، صدق أو لا تصدق. عبد الجواد أحمد البارودي ضحك في وجه الفتى الذي صار ضخماً كثور وقال له رحْ والنبيّ معك. تذكر أن الصبي يوسف اقترح مرة تسميته أبا لحمة بدلاً من أبي فحمة.

من الآن وصاعداً سينقل عبد الجواد أحمد البارودي مركزه من دكان الخضر أعلى «الحدادين» إلى حانوت الشواء أسفل سوق القطن. كان هذا يعني (وهو ما لم يدركه عندئذٍ، ولكن ما سوف يدركه لاحقاً) التقدم خطوة أولى على درب الجاه والثروة. البلدة الصغيرة لا تستطيع أن تعطيه الكثير. أما هؤلاء الذين يأتون من البحر، هؤلاء الذين لا يملكون بيوتاً هنا، أو جلولاً مزروعة وراء البيوت، أو زرائب للماعز وأقناناً للدجاج، هؤلاء يقدرون أن يزودوه مالاً مقابل بضاعته. لكن ذلك لن يحدث بين ليلة وضحاها. لا لأن الثروة تحتاج إلى وقتٍ للتراكم (فهذا غير صحيح كما سيظهر بعد فترة) ولكن لأن بيروت عندئذٍ كانت ما زالت بلدة زراعية صغيرة قائمة على ساحل المتوسط. الميناء كان يستقبل عدداً قليلاً من السفن. والتجارة لم تكن حقاً مزدهرة.

بين سنة ولادة عبد الرحيم وسنة ولادة أخيه الأصغر عمر، لم تتغيّر أحوال العمل في باب المرفأ كثيراً. عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي وُلد بحسب «الشجرة النسبيّة لأسرة البارودي البيروتية»، سنة 1243 هجرية (1827 ميلادية). عمر بن عبد الجواد أحمد البارودي وُلد في 1831، سنة الفتح المصري للبلاد. أثناء هذه الأعوام الأربعة راقب عبد الجواد أحمد البارودي بكره شاهين يكبر فيصير شبيهاً به ظاهراً وباطناً.

راقب زهرة أيضاً تكبر والأعناق تلتفت نحوها حين تعبر السوق (لم تبلغ السابعة بعد، لكنه طلب من سهيلة ألاّ تسمح لها بالذهاب وحدها إلى السوق بعد اليوم). راقب الخريف يتبع الصيف، والصيف يتبع الربيع، والربيع يتبع الشتاء. كانت البلدة تتحول كل صيف إلى عاصفة من الغبار. طبقات الغبار المتراكمة في الأزقة والعطفات المسدودة ترتفع مع الهواء في أيام الخماسين وتلطخ

الخضر في السلال وتلطخ الثياب المنشورة خارج النوافذ وتلطخ أسياخ اللحم على المنقل وتلطخ الأواني المملوءة حمصاً بالطحينة أو بقدونساً مفروماً مع البصل وممزوجاً بالسماق من أجل الكفتة.

يلطخ الغبار كل شيء، يدخل من شقوق الأباجور ومن شقوق الأبواب ويدخل في فتحات الوجه، في الأنف وفي الفم وفي العينين وفي الأذنين ويحوّل الحياة إلى جهنم حمراء. في الجامع العمري الكبير يوصدون البوابتين الكبيرتين حين تهبّ الخماسين ويتركون الباب الشرقي الصغير وحده مفتوحاً. الخماسين لا تدخله لأنه محمي بشجرة عفص كثيفة الأغصان والورق، ومحمي أيضاً بجانب من سوق «الأساكفة» وبدهليز الحدادين بعد «الأساكفة».

غبار هذه البلدة فظيع. الرمال تتراكم في أزقتها منذ قرون. الحيطان السوداء من الرطوبة والطحالب تصير صفراء بالغبار والرمل كل صيف. الرمل يزحف من وراء حرج الصنوبر. الحرج لا يوقف زحفه. موجات صفراء، وموجات تضرب إلى الحمرة. رمل فوق رمل فوق رمل. تصفع الموجات باب الدركاه. تصفع باب يعقوب. تصفع باب السراي. ترتفع فوق السور، صوتها مسموع، تطقطق، تلك الحصى تضرب الخشب تضرب الحديد تضرب الحجر. الرمال تزحف، تتسلق السور المرتفع خمسة أمتار، تتسلق الأبواب والأبراج. تدخل من الشقوق. تمرق بين أوراق الشجر. لا يصدها سدّ، الرمل يزحف، يزحف، يزحف. طوال الصيف. وحين يحلّ موسم الأمطار تصير البلدة بركة وحل. لكن الناس لا يذهبون إلى مكانٍ آخر. هنا وُلدوا. هنا بيوتهم. هنا أنجبوا أولادهم. هنا يربّون الصغار. يزرعون أغراس الفاكهة والتوت. يقطفون الزيتون والعنب والتين والصبير ويربّون دود القزّ. يفرمون ورق التوت للدود، يقولون إن الربيع نعمة من عند الربّ. يتفرجون على الدود الشّره يسعى على

الأطباق الخضراء، ثم يصعد على الوزال ويشيّح شرانقه الصفر والبيض. هذه شرانق تُحلّ في ماء يغلي في الخلاقين. والخيط يغزل على النول. بعد الربيع يأتي الصيف وبعد الصيف يُقبل الخريف. وفي الخريف يورّقون ما بقي على أغصان التوت، وما نبت من موسم ورق أخضر داكن ثانٍ جديد. يطرحون الورق والعيدان الرفيعة في معالف الماشية ويشكرون الربّ. الخراف تسمن وتجهز للذبح. يوم الأحد يقدّسون في الكنيسة. المسلمون يصلّون في الجامع. وحياتهم مضبوطة بمواقيت الصلاة. بصيام رمضان وبقراءة كلام اللّه سبحانه وتعالى وبتلاوة الآيات الكريمة وذكر رسول اللّه. هذه هي حياتنا. اليهود يُعطّلون السبت. لا يلمسون شيئاً. يقعدون في البيوت التي نظفوها جيداً في الأمس. العجوز مزراحي مات ولم يعد يفتح باب الحارة صباح السبت في خروجه، ولا عاد يفتحه ثانية عند المساء. الفصول تتتابع، والحياة على حالها. تتغيّر أشياء. وتبقى أشياء. ذهب الولد الفحمة وتابع الحانوت حياته. بل صارت حال الحانوت أحسن. يبدو أن الصبي كان يأكل نصف المعلاق، ونصف الكفتة، ونصف وعاء الحمص بالطحينة، ونصف البابا غنوج، ونصف أرغفة الخبز. . . يبدو أن الصبي كان أكولاً.

عبد الجواد أحمد البارودي راقب البلدة في أربعة أعوام، وراقب صفية التي هدأت حماستها وباتت مثل الحليب الذي فار وانتهت فورته على النار. صارت صفية ساكنة مثل بركة مياه راكدة. عبد الرحيم، من بعد شاهين الذي كبر بسرعة، يملأ عليها جنبات البيت المربع، ويملأ عليها جنبات الحديقة أمام البيت. ساعدها وشاهين على تسوير الحديقة بألواح الخشب. البنت زهرة جاءت ومدّت يدها أيضاً. خلفها جاءت سوسن ثم ياسمينة ثم نرجس التي ولدت قبل عام. دبّت نرجس على أربع، تسعى على «الطريق

البيضاء»، وراء أخواتها الثلاث. كانت زهرة في المقدمة كأنها الدجاجة الأم، وأخواتها خلفها مثل الكتاكيت الصيصان. صفية المستندة بيدٍ إلى ردفها المستدير ضحكت حين رأت المنظر وخبطت كفاً بكف. البنت زهرة رأت عمتها أم شاهين تضحك فاستدارت ورأت أختها الطفلة نرجس تدب على أربع في لباسها الأخضر. أسرعت إليها وحملتها. حين التفتت وابتسمت مواجِهَةً أم شاهين والولدين شاهين وعبد الرحيم، بدا القلق في عينيّ صفية: لم يعجبها التوتر الذي نشب فجأة في الجو، مثل كهرباء العواصف الشتائية. من أين جاء كل ذلك التوتر، كل ذلك القلق، كل ذلك الارتباك، والهيجان المكتوم غير المصرح به؟

لم تفهم صفية ماذا جرى في تلك اللحظة. بعد سنوات طويلة سوف تفهم. شاهين قرر منذ البدء ألا يفهم، ألا يعترف بالحقيقة. وهي الحقيقة التي سيدركها جيداً في الساعة الأخيرة ـ تلك الساعة الطويلة الحزينة ـ من حياته القصيرة الخاطفة كالبرق.

هدأت صفية بعد ولادة عبد الرحيم. لم تعدْ على سلاحها. كفّت عن تغذية ديوك غيرتها بالشحم، وقبلت جارتها سهيلة ضرّةً. لم تكن تقصد شماتةً حين أرسلت شاهين بطبقٍ من المغلي إلى البيت وراء الأشجار. البيت الأبيض بالغرفة البيضاء التي تعلوه استقبل الصبي شاهين كأنه يستقبل ملاكاً. ابن صفية الفاخوري البارودي لم يدعس هذا البيت من قبل. سهيلة النابلسي البارودي قَبِلت الطبق المزين بجوز الهند المبروش وحبّات الجوز المقشرة الطرية وبالصنوبر واللوز والفستق الحلبي. بعد يوم أرسلت الطبق مع بنتها زهرة إلى بيت أم شاهين، مملوءاً بالمهلبية النابلسية. رائحة الحليب البارد وماء الزهر كانت تفوح وتتضوع في الفضاء. أم شاهين أخذت الطبق من زهرة وقبّلت خديها. هذا كلّه حدث قبل أن تولد نرجس،

البنت الرابعة لعبد الجواد أحمد البارودي. أو لعله حدث في سنة ولادتها. لا ندري متى حدث بالضبط. لكنه في الغالب حدث في فترة تسبق المشهد الكهربائي الموصوف في الفقرة السابقة.

لم يفكّر شاهين لحظة واحدة خلال حياته القصيرة أن قلبه تعلق بابنة أبيه: زهرة. أو أنه لم يقل ذلك لنفسه أبداً. لكن شيئاً من هذا حضر في حياته بشكلٍ عميقٍ مذ قرر أن يبتعد عن البيت وعن «طريق عبد الجواد»، أكثر ما يستطيع. سنة 1834، عند بلوغه العاشرة، توقف شاهين عن مساعدة أبيه في تجارته، وذهب يعمل أجيراً عند «مجلس صحة بيروت» الذي شكّله المصريون بالتنسيق مع القنصل الفرنساوي هنري غيز لبناء المحجر الصحي على الشاطئ. أثناء حفر أساسات الكرنتينا كسر إصبعاً من أصابع يده اليسرى، مما اضطره للعمل بيدٍ واحدة، تماماً كما فعل أبوه عبد الجواد أحمد البارودي قبل عقدٍ تقريباً، حين بنى ذلك البيت الأول الذي صدّعه زلزالٌ وأسقط سقفه.

موت العجوز موسى يعقوب مزراحي، ثم الوساوس المرضية التي عصفت بعبد الجواد أحمد البارودي إثر سماعه خبر الحمّى المالطية، ومن بعد ذلك نجاة البنت زهرة وولادة الابن الذكر الثاني عبد الرحيم، كل هذا شغلنا عن مراقبة الطفل شاهين المولود سنة 1824 وهو يدبّ على أربع، ثم يكبر قليلاً ويقف على قدميه، ثم يكبر أكثر ويصير إلى ما صار إليه. ولعل انشغالنا عنه كان في محله. فهكذا نتأكد أولاً أنه أُعطي أن يكبر فعلاً وأن ينجو بحياته من كل تلك الأمراض الفتّاكة التي كانت تصيب الأطفال في تلك الأزمنة البعيدة السابقة لاكتشافات الألماني كوخ والفرنسي باستور. نجا شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي من جراثيم لا تُحصى ونجا

من سقطات عن سطوحٍ وحوافٍ مرتفعة وأشجار. الحصبة لم تترك في وجهه أثراً. لكن الجدري خَلَّفَ ثلاثة ثقوب صغيرة فوق حاجبه الأيمن. الخانوق لم يقتله. والإسهال الذي أصابه من أكل الكرز في سنته الثانية لم يقتله. حُمَّ قبل أن يبلغ الثالثة لكنه نجا. كان واضحاً منذ البدء أن حياته ستكون صراعاً مع الكوارث الطبيعية. سنة ولادته ضرب زلزالٌ آخر بيروت. بعد عامين فقط على زلزال 1822 اهتزت حيطان البيوت وسقط البرج المتداعي في السهلات خارج باب السراي. كانوا يسمّونه «برج الكشّاف»، ويقولون إنه صامد هنا من أيام الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير الذي بنى السراي خارج السور والذي ازدهرت البلد بسببه لأنه فتحها على البحر وعلى سفن الإمارة التوسكانية. في ذلك الزمن البعيد بُني خان الملاحة وبُني خان البازركان. لكن كل هذه العمارات تداعت بعد موت الأمير المعني. بات الغراب والبوم يسكنها مع التجار. مع حلول أحمد باشا الجزار في بيروت عند نهاية القرن الثامن عشر حلّ ظلام كثيف. رفع الجزار الأسوار حول بيروت أعلى فأعلى، خوفاً من حاكم الجبل الأمير يوسف الشهابي. خنق التجارة ومنع السكن خارج الأسوار. الصبي شاهين أُعطي أن يحيا في البلدة المسوّرة وأن يسمع كل هذه السوالف والأخبار. لكنه قبل ذلك كافح بكل العناد الذي ورثه عن أبيه صاحب الذراع الواحدة. كافح لكي يصل الهواء إلى رئتيه. كافح لئلا يقتله الخانوق وهو لم يبلغ الثالثة بعد.

الخانوق لم يقتل شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي لكنه عطب أذنه اليسرى. سعاله الديكي الشديد مزّق عصباً بين العين والأذن، وكاد أن يذهب بنظر العين اليسرى أيضاً. كاد يحوّله أعور. لكن ذلك لم يحدث. أمه صفية لن تنسى أبداً تلك الليالي حين كان سعال ابنها يطول ويمتد، ووجهه يحتقن بالدم، ولونه يصير أسود

كالكستناء، ثم أسود كالوحل، ثم أسود كبقايا الزيتون المعصور، يصير كل الوجه أسود، واللسان يخرج زهرياً من الفم، والهواء لا يدخل، وشاهين يشهق، تلك الشهقات الطويلة المتتابعة، والهواء لا يدخل، والعينان تجحظان، كل العضلات تشتد، تتمدد وتتقلص وترتعش، وصفية ترى الأوتار في الخدين، وشاهين يتلاشى في شهقة لا نهائية، والهواء لا يدخل. ترى ما يشبه القشرة على لوزتيه، ترى القشرة الصفراء كالرمل على لوزتيه المتضخمتين، القشرة الصفراء بالبَرْغلة الضاربة إلى الحمرة، وشاهين يحاول أن يأخذ نفساً، والهواء لا يدخل، والنسائم الآتية من النوافذ بدرفات الخشب المشرعة لا تكفي، تكفي لها، تكفي لأبي شاهين الذي يذرع الغرفة جيئة ذهاباً بقبضة مشدودة، لكنها لا تكفي لشاهين. كل نسائم البحر الأبيض المتوسط لم تكن كافية في ذلك الزمن البعيد لتملأ بالهواء صدر طفلٍ يعاني الخانوق. شهق شاهين شهقة أخيرة، جحظت عيناه، التوت أذناه كأذني البهيمة، رفت رموشه وحدها، وبدا كأن الروح ستخرج من فمه. عبد الجواد أحمد البارودي لم يعد قادراً على الوقوف حيث هو. قفز إلى ابنه، حمله بذراعٍ عارمة القوة عارمة الحنان، وخرج به عبر الباب المفتوح إلى تحت الجميزة. كان يكلّمه في أذنه، يقول له تنفسْ يا بُني، خذْ نفساً صغيراً يا بني، لا تحاول أن تتنفس بكل قوتك، حاول قليلاً فقط، قليلاً فقط، هيا يا شاهين، خذْ نفساً، تنفسْ.

تنفس شاهين كما علّمه أبوه وعاش. بعد وقت نسي تلك الليلة ونسي كلمات أبيه. نسي الهمسات في أذنه ونسي الذراع التي كانت تضمّه إلى أعماقٍ تتمزق، تتمزق ولا تفقد الإيمان. نجا شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي من الموت مرّات لا تُعَد. كانت أمه تُفتت الكشك وتفركه وتُنشفه في الشمس على السطح حين غافلها

لحظة، دبّ بسرعة وهوى في الفراغ. صفية ستكره الكشك وساعة الكشك منذ تلك الساعة. كلما رأت إحدى أخواتها تمد كشكاً لتشميسه على مصطبة، أو تضيف اللبنة إلى الكشك الممدود الباقي طرياً لتفركه من جديد، أعتمت النظرة في عينيها وبدت في حاجة إلى هواء عليلٍ. صفية الفاخوري البارودي لن تنسى تلك الظهيرة أبداً. وسوف تتذكرها وهي تلمس شعرها بعد كل مغامرة جديدة من مغامرات ابنها شاهين. كانت تلمس الشعرات البيضاء. هذا الصبي شاهين خطّ شعر أمه الفاحم السواد بالخصل الكلسية البياض. رحمة اللّه سبحانه تعالى، رحمة الربّ وحدها، أعطت هذه المرأة أن تموت قبل أن يأتيها خبر ابنها الكبير. ماتت صفية الفاخوري البارودي قبل أن يموت ابنها شاهين في عزّ فتوته، في السادسة عشرة.

لم تنتبه إليه يدبّ في تلك الظهيرة الصفراء البعيدة ويغافلها ويقطع على الكشك الممدود على شراشف القطن البيضاء، ويجاوز أصص الفخار التي ينبت فيها الحبق والمردكوش والمنتور وزهور تمّ السمكة، ويجمد لحظة عند الحافة بتلك البسمة الخالدة التي سيصير بعد أعوام معروفاً بها.

توقف عند الحافة بجسمه الأبيض الصغير (لم يكن أكمل سنته الأولى في عالمنا بعد) ونظر إلى الفراغ الكبير وإلى اللون الأخضر بعد الفراغ. كان لون أشجار التوت (لم يكن عندئذٍ يعلم أنها أشجار توت) باهراً في تلك الظهيرة الصفراء. الشمس أرسلت أشعتها كالذهب فوق البلدة. انتشر المسحوق الشمسي كالتبر فوق رؤوس الأشجار. رفع الطفل يده يريد أن يلمس ذلك البريق الأصفر فوق الأوراق العريضة الداكنة الخضرة. تقدم ببسمته التي لا تفارق محياه ثم هوى في الفراغ. سقط على التراب وارتطمت رأسه بالتراب ولم

ترتطم بالجرن الحجر البعيد شبراً واحداً فقط. كيف عاش بعد السقطة؟ بسم اللّه الرحمن الرحيم. أمه على السطح، سمعت صوتاً يأتي من تحت. التفتت فلم ترَ الطفل حيث كان عند حافة الشراشف وسط السطح. كانت وحدها. لا أحد في العالم يريد أن يرى الملامح التي ارتسمت على وجهها في تلك اللحظة المرعبة.

كان في الثالثة من عمره حين أضاعته مرة أخرى. كانت جالسة على الدرجات الحجر الثلاث في مدخل البيت تنقر الكوسى والقرع وتعدّ طبخة من المحشي بالرز واللحم واللبن، والولد شاهين يلعب مع النمل (يلعب بالنمل) على التراب أمامها. هو يُفسد أعشاش النمل بالعود أو بأصابعه، وهي تقول له حرام عليك، حرام هل ترضى أن يأتي رجلٌ ضخم ويخرب بيتنا؟ وهو لا يجيبها، لا يقول إنه لا يخاف الرجال الضخام، لأنه لا يسمعها جيداً. لو أنه سمعها لقال ذلك، ولأخبرها أن أباه عبد الجواد يستطيع بذراعه الواحدة أن يكسر رقاب كل هؤلاء. لم يسمعها وهي لم تنتبه أنه الآن يواجهها بالأذن اليسرى التي لا تسمع جيداً. منذ ذلك المرض الفظيع، ذلك السعال، صار يسمع بالأذن اليمنى فقط. حين اكتشفت ذلك قبل فترة سألته لماذا لم يخبرها. أجابها أن عنده أذناً تسمع جيداً وهذا يكفي. صفية الفاخوري البارودي سمعت جواب ابنها الذي لم يبلغ الثالثة بأذنيها. بثقبي أذنيها الجميلتين الاثنتين سمعت الجواب. قال إن عنده هذه الأذن، ولمس أذنه اليمنى وشدّها، وقال إنها تكفيه.

أين كنّا؟ صفية الفاخوري البارودي تنقر الكوسى (وهذه نقرها أصعب من نقر القرع. حبّة القرع كبيرة. حبّة الكوسى أصغر. وباطن القرعة يستجيب للنقّارة كما لا تستجيب «نِقَارة الكوسى». ثم أنها لا تهتم حين تنقر القرع أين تُسقط المادة البيضاء ـ الخضراء اللزجة. أما المادة الخارجة من الكوسى فعليها أن تحفظها في القصعة في الظلّ

مغطاة بالقماش إلى الغد (أبو شاهين يحبّهاترويقة في الصباح مقليةً بالقورمة والبيض).

صفية الفاخوري البارودي تنقر الكوسى إذاً، بتركيزٍ واهتمام، لئلا يثقب رأس النّقارة حبّة الكوسى، ولئلا تكسر بيدها الحبّة التي بدأت تفرغ وتصير جلداً، تنقر والحبّة تدور في يدها، تنقر بتركيز وذهنها يأخذها إلى الليلة الماضية أو إلى أيام بعيدة في بيت أبيها المملوء بالأصوات وبرائحة معصرة السمسم المَجاورة. تنقر والحبّة تدور في يدها، وترفع نظرها بعض الشيء وتعدّ ما بقي من حبّات في الإناء وتقول أكاد أنتهي. ترفع رأسها إلى السماء لترى أين صارت الشمس في مسلكها: هل بلغت النقطة المألوفة فوق حافة السطح، حيث حوض الورد الجوري؟ لا، لم تبلغها بعد، وهذا حسن... هل جاع شاهين؟ هل يريد لفّة زعتر وزيت، أو لقمة مربى لقطين؟ شاهين مثل أبيه عبد الجواد، شهيته للطعام دائماً مفتوحة. كانت الحبّة المنقورة المنتهية في يدها، وقالت: «شاهين...»، نادت عليه بصوتها المعتاد المألوف، بلا أي ذعرٍ، وهي تتلفت وتفتش عنه بين مساكب البقدونس والنعناع والكزبرة، قبل الجميزة. لا بدّ أنه اختفى وراء أعواد دوّار الشمس. كانت الأقمار الكبيرة تتفتح وتميل مع دورة الشمس في قوسها الأبدي، والأوراق الخضراء الطويلة على السيقان تنزل بلونها المغبر نحو الأرض. هذه زهرة لا تشبع من ماء. كلّما سقيتها ارتفعت إلى أعلى. لا بدّ أنه يخفي نفسه عنها بسيقان دوّار الشمس وأوراقها. وقفت باسمةً ونادته ثانية.

كانت الأقمار المدوّرة الكبيرة بالبتلات الصفراء التي تستدير ناعمة حول قرص البزور الداكن، كانت الأقمار تملأ عينيها في هذه الظهيرة الساكنة. الدجاجات تنقر الحبّ وراء الجميزة، وتفتش عن

ديدان عند حافة الطريق البيضاء الجافة. أصوات سوق القطن بعيدة، وراء البيت، لا تكاد تبلغ هذه النقطة. ودخانٌ قليل (عمود نحيل) يرتفع وراء الأشجار (ماذا تطبخ أم زهرة اليوم؟).

ـ شاهين!

نادت صفية الفاخوري البارودي على ابنها بصوت أخذ يرتفع، ونبرته تتبدل.

ـ شاهين!

كان التوتر يشوب نبرة صوتها الآن. ثم فقدت سكينتها دفعة واحدة واندفعت إلى الجنينة تفتش عنه. لم تجده وراء صفّ دوّار الشمس. لم تجده وراء ثلم الكوسى. لم تجده وسط خيمة اللوبياء والفاصوليا العريضة بالورق الكثيف الذي عربش على القصب. لم تجده وراء البيت. لم تجده في القنّ الخشب حيث اعتاد حشر جسمه بحثاً عن بيضة ساخنة. ركضت مذعورة وسط ريش الدجاج المتطاير وأزاحت الديك بقدمها وقفزت الدرجات إلى داخل البيت. لم يكن في الداخل. لم تجده وراء الفرش المطوية في الزاوية. لم تجده في الغرفة الصغيرة حيث الفخارات وعناقيد البصل والثوم والموقد الحجر الذي تطبخ عليه في الشتاء. هذا المطبخ لا يخفي فأراً. لم تجده على السقيفة الخشب، بين الأجولة المملوءة بالحبوب. أين هو؟

ـ شاهين!

الزعقة خرجت من أحشائها. خرجت من البيت، تدور حول نفسها. فتشت بين سيقان دوّار الشمس مرّة أخرى. فتشت وراء البيت وتفحصت بعينين مذعورتين المساحات الخالية بين الشجر المحيط بالمكان. ونادت:

ـ شاهين!

نظرت إلى الطريق البيضاء، إلى نهايتها، حيث الزاروب بين قبوي العقد. لا يجرؤ على الذهاب إلى هناك. يخاف من أبيه. لا يجرؤ. هل يكون ذهب في الاتجاه الآخر، إلى بيتها، بيت أم زهرة؟

هدأ خوفها في تلك اللحظة. غاب الذعر وحلّ في مكانه الإرتباك. عليها الآن أن تمضي إلى هناك، إلى بيت سهيلة النابلسي، وأن تسأل عن ولدها. هكذا يُذلّها شاهين، هكذا يُذلّها الملعون!

حملت صفية الفاخوري نفسها وذهبت إلى بيت ضرّتها. كانت تتوجس، تخشى الارتباك في حضرة الغريمة. لسببٍ غامض كانت واثقة أن شاهين هناك. انه غافلها وركض على الطريق البيضاء إلى البيت وراء الشجر. مشت تحت الشمس مرتبكةً تنظر إلى ظلّها وإلى النحل الذي يطنّ عن جانبي الطريق، ويمتص الرحيق من زهر الصبير وزهر القندول الشائك. لا تخاف على شاهين من عقارب أو ثعابين. لو كان بيتها في مكان آخر من البلدة لماتت خوفاً عليه. لكن الكلس هنا يُبعد كل خطرٍ. لم ترَ مرةً زاحفةً هنا حتى ولو «أم أربعة وأربعين». وحدها السحالي، وهذه لا تؤذي أحداً، تظهر في هذه الأنحاء، تلتصق بالحيطان، تتشمس، ثم تختفي منسربةً في الشقوق وبين الحجارة ما إن يقربها أحد.

ـ شاهين.

نادت بصوتٍ قوي قبل أن تبلغ التوتة الكبيرة لتعلم الستّ سهيلة غايتها من القدوم. ليست آتية تطلب سكراً أو ملحاً أو سمناً أو حفنة طحين، ليست آتية تطلب كمشة صنوبر، جاءت رِجلاً إلى قدام ورِجلاً إلى وراء تُفتش عن ابنها شاهين.

وجدت صدمة بانتظارها: شاهين ليس هنا. شعرت صفية عندئذٍ

بارتجافة ركبتيها. ثم ارتجف قلبها. نسيت ذلّ قبول المساعدة من غريمتها. قبلت المساعدة. فتشتا عنه معاً. ولم تعثرا عليه. مشت صفية دائخةً. وقفت تتصبب عرقاً تحت أغصان الجميزة ثم صرخت بأعلى صوتها: «شاهين». وجّهت صراخها باتجاه القبلة، حيث يخرج الزاروب الأبيض إلى سوق الفشخة، إلى البلدة والمتاجر والناس. صرخت:

ـ شاهين!

كانت صرخة تقتل ثوراً، فيها ضراعة تقطع القلب. صرخة تبلغ آذان الملائكة، تهتز لها أركان السماء. وكأن صرختها (صلاتها) سُمِعت واستُجيبت. ما إن سكن صوتها حتى أجابها صوت الولد. بل، هذا صوت شاهين. سمعت الصوت يهبط من أعلى. سمعت ابنها الحبيب الذي أذاقها العلقم ولوعها تلويعاً يسألها لماذا تزعق هكذا، هل تظنه أطرش لا يسمع؟ الولد شاهين كان طوال الوقت في الشجرة. لم يكن يلعب مع أمه. لم يسمع صراخها. كان نائماً في أغصان الشجرة. نومه ثقيل مثل نوم أبيه. حين ينام لا يوقظه بغلٌ ولو سار عليه بأربعة حوافر.

كانت تلك المرة الثانية. من بعدها ستفقده صفية أكثر من مرة. وفي كل مرة تظهر خصلة بيضاء أخرى في رأسها. هو، في المقابل، ما إن بلغ الخامسة ونضج، حتى كفّ عن الاختفاء. كان يقعد وراء أمّه، في ذلك الزمن البعيد، ويمشط لها شعرها بالمشط الخشب، ويلمس الخصل البيضاء ويحزن. بعد وقتٍ تغيّر. بدأ يرافق أباه إلى الدكان وتغيّر.

ـ كل ولد هكذا، أخبرها عبد الجواد.

شاهين، بعد أن تسلق الجميزة بيسرٍ في تلك الظهيرة، اكتشف

اللذة الهائلة الكامنة في تسلق الأشجار. تسلُّق الشجر كان موهبة وُلدت معه. في زمنٍ مبكرٍ طالت أطرافه وقسا عوده. أصحاب أبيه كانوا ينظرون إلى الولد فيحسبونه في العاشرة وهو لم يبلغ الرابعة بعد. باكراً أيضاً ظهر شبهه الواضح بأبيه. العينان السوداوان الواسعتان. الأنف الحاد. الجبهة العريضة. الشعر الأسود الجعد. النظرة العارمة القوّة. وذلك العناد. العناد والإقبال على الحياة. في الأضحى، حين يرجع أبوه من البيت وراء الشجر، حاملاً على كفّه الممدودة صينية معمول العيد، تكبر ابتسامة الصبي، تتسع حتى يكاد طرفا فمه أن يلتقيا في مؤخرة رأسه. «لماذا تبتسم هكذا؟»، كانت أمه تسأله. في هذه اللحظات فقط، بينما يلتهم المعمول الذي صنعته سهيلة النابلسي، تظهر أمه غاضبة. تنهره. عيب أن يأكل بهذه الشراهة. عيب أن يبلع الأقراص المحشوة بالتمر بلعاً. عيب أن يلطخ وجهه وأصابعه بالسكر الناعم. عيب أن يزدرد الأقراص المحشوة بالجوز كأنه يزدرد حبّات فستق. عيب. وشاهين لا يبالي. يعطي أمه صفية الأذن اليسرى، ويتابع عمله. والأب يضحك. هذا الولد مثله. يعرف قيمة العجين الملتوت بالسمن والسكر. هذا الولد مثله. وفرخ البطّ عوّام. يضحك عبد الجواد أحمد البارودي ويطلب من صفية ألا تزعل لأن الصبي ضرسه حلو، فهذا لا يستوجب الزعل بل حمد اللّه على النعمة. تشرد صفية عندئذٍ، تسرح وتسقط نظرتها، كل وجهها يسقط، تتذكر المرض والخوف ولحظات الرعب، وتنتزع من أعماقها كل غيرة وكل كراهية. تبتسم للصبي كأنه يأكل معمول العيد الذي صنعته بيديها (ما زالت الصواني جنب الفراش. يقول إنها مزة، إنها مرّة. حتى الأقراص بالتمر يقول إنها مزّة، ويلزمها سكراً).

تضحك صفية للولد وتشكر ربّها على النعمة. تفكّر أن الصبي

شاهين لا يأكل معمول سهيلة النابلسي بل يأكل معمول أبيه عبد الجواد أحمد البارودي. من جاء بالسمن إلى بيت أم زهرة؟ من جاء بالسكر إلى بيت أم زهرة؟ من يعمل من الفجر إلى النجر في السوق كي تأتي أجولة الدقيق إلى بيت أم زهرة؟ ضحكت صفية للولد شاهين، وقَبِلت من يد أبيه نصف قرص باللوز والفستق أيضاً. ووجدته طيباً.

تسلّق الشجر موهبة وُلدت مع شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي. رفاقه كانوا يصابون بالذهول حين يرونه راكضاً نحو نخلة أو صنوبرة. هذه أشجار بجذوع طويلة لا تنبت في أسفلها فروع. كيف يلتصق بالجذع هكذا التصاقاً؟ الساقان تلتفان حول الشجرة، واليدان تلتصقان باللحاء. الأصابع تتحرك كأطراف العناكب. أوصاله كلّها تتمدد وإذا به في لحظة بلغ عناقيد البلح والسعف الخضراء وذهب الشمس العالية.

في لحظة يصل إلى أكواز الصنوبر ويهز الغصن ويمطرهم وابلاً من الورق الأبري الرفيع الأخضر والأحمر. كيف يتسلق الشجر هكذا؟ شاهين البارودي لم يترك شجرة في الجلول بين سوق القطن ومربع الزيتون في الجانب الآخر من «طريق عبد الجواد» إلاّ وتسلقها وقعد على أغصانها ونام في ظلال أوراقها المتشابكة. لكل شجرة رائحة. ولكل شجرة ملمس. قوّة الأغصان تختلف من شجرة إلى أخرى. وليونة الأغصان أيضاً. رائحة التوت ليست رائحة السنط. وورق السنديان ليس ورق العفص. لحاء الحور إذا تمزق يخرج منه سائل شبه أزرق عطري الرائحة. صمغ أشجار الفاكهة يختلف من صنف إلى آخر. الصمغ في خشب الخوخ غيره في الدراق غيره في الرمان غيره في الأكي دنيا. ليس كله يلتصق بالأيدي ويحرق الجلد. اهتزازة التينة حين يهبّ هواء البحر، ويكون ماكثاً في قبّتها العالية،

تختلف تماماً عن ارتعاشة الصفصافة. من تحت ينادونه، رفاقه الجدد. ينظرون إليه عالياً بأيدٍ تحمي عيونهم من وهج الشمس. يبدو في الأعلى مظلماً كالشبح بين الورق والأغصان المتقاطعة. لا أحد يعلم كيف صار متسلقاً بارعاً هكذا! موهبة وُلدت معه. اكتشف الأشجار بين سوق القطن ومربع الزيتون قرب «الزاروب الأبيض» شجرةً شجرة. كانت قطعة الأرض تلك تعجّ بالشجر. شجرة واحدة فقط لم يتسلقها؛ صنف واحد من الشجر: الصبّير. أوراقه يقتل شوكها. حين تحدّاه أحد رفاقه أن يطلع عليها أجابه محتفظاً بابتسامته المعروفة:

ـ الصبيّر ليست شجرة. هذه شتلة.

كانت هذه ثلاث خصائص ميّزت طفولته: القدرة على تسلق الأشجار (والحيطان والأسوار والمآذن لاحقاً)؛ القدرة على النوم في أي مكان وفي أي وقتٍ يشاء النوم؛ والابتسامة التي لا تفارق وجهه. لن يفقد من هذه الخواص، بتقدمه في السنين، إلاّ خاصية واحدة: القدرة على التسلق. وهو في الحقيقة لم يفقدها. لكن حدث في يومٍ من الأيام أن حلف على القرآن الكريم أمام أمه التي ابيض نصفُ شعرها إنه لن يتسلق شجرة بعد الآن، لن يتسلق سوراً، لن يتسلق مئذنة، ولن يتسلق برجاً. حلف على القرآن الكريم أمام أمه. بعدها لن ينكث بالقسم أبداً.

لكن قبل ذلك القَسَم كانت أشجار لا تُحصى في انتظاره. حين انتهى من اكتشاف كل تلك الأشجار المحيطة ببيتَي أبيه (بيت أمه، وبيت خالته أم زهرة) بدأ يخرج إلى المناطق المجاورة. تسلق النخلة في سوق الفشخة (كان موقعها على بعد خطوات من مكان Grand Café اليوم) وأشرف من علٍ على بستان رمانٍ أحمر الثمار سُوِّر بربيعات الصبير وبشجر المقسيس لحمايته من اللصوص الصغار.

البستان المستطيل الذي يملكه الخواجة ميشال فياض كان يمتد من زاوية سوق العطارين (حيث يلتقي «العطارين» بالفشخة، مقابل القبو الذي سكنه عبد الجواد أحمد البارودي أول نزوله في بيروت) إلى أن يبلغ الدكاكين الجديدة داخل باب إدريس: هذا طوله. أمّا عرضاً فكان يمتد متدرجاً إلى أعلى حتى يبلغ الحائط الشمالي لجامع النوفرة. من أعلى النخلة التي لم يتسلقها قبل شاهين البارودي أحد (بلحها لا يؤكل فلماذا يتسلقها أحد؟)، رأى الصبي صاحب الابتسامة الخالدة لمعة الشمس على ثمار الرمان الحمراء. ذلك العصر عَبَر مع رفاقه ربيعات الصبير وأكلوا رماناً حتى آلمتهم أضراسهم. أم شاهين غضبت منه مساءً حين رجع إلى البيت بقميص مبقّعة وببشرة مدبوغة كأنه واحد من أبناء النوَر.

بعد الشجر بدأ يتسلق الحيطان. كانت أطرافه تلتصق بالحجارة وتعثر غريزياً على النتوءات. كالعنكبوت يرتفع على الحيطان الواقفة. تسلق قناطر الجامع العمري الكبير. تسلق مئذنته المربعة العالية. تسلق مئذنة النوفرة المدوّرة وتسلق مئذنة السراي المدوّرة. لم يتسلق مئذنة جامع الدباغة لأنها في تلك الأيام كانت قد احترقت مرة أخرى، بصاعقة أخرى. (في هذه المرة لن يرفعوها فوق الجامع بل فوق بوابة الدباغة). تسلق كل بوابات بيروت. تسلق حارة الأمير ناصر الدين التنوخي (حارة الحاج القوتلي الملقب باليوناني) الملاصقة للسور. تسلق السور. صعد فوق الحجارة الضخمة وتعلق في الفراغ على علو خمسة أمتار وقفز على ساقٍ واحدة. رفاقه شهقوا في الأسفل. تسلق برج دندن.

تسلق شجرة الصنوبر الشاهقة العلو وراء حانوت الشواء الذي يملكه أبوه (كان عبد الجواد غائباً في البازركان عندئذٍ مع صهره خالد الفاخوري يتفاوضان لشراء دكان في قيسارية الصاغة). وتسلق مخزن

الحبوب في خان الملاحة. تسلق الحصن القريب من جامع الدباغة (أطلال «التل الأثري» الباقية إلى يومنا هذا). ونظر من السطح العالي إلى البحر وإلى سفينة راسية وإلى مواعين تتحرك متهادية في مياه المرفأ. تسلق برج السلسلة. وتسلق برج الفنار. وقف في الأعلى ناظراً إلى السلسلة الحديد في الأسفل وإلى المياه تتخابط تحت السلسلة. كان الوقت مساء. وصرخ رفاقه به أن ينزل لأنهم تأخروا عن بيوتهم. وضحك ولم ينزل. تسلق الحائط العالي لكنيسة مار جرجس الأرثوذكسية ومسح بيده على جرس النحاس الأصفر الذي لم يسمعه يُقرع يوماً. هبط إلى قعر البئر الجافة داخل باب يعقوب قرب بيت جده وكاد أن يختنق في الأسفل لولا أن موهبته مكّنته من التسلق والخروج من البئر قبل اختناق الأنفاس في صدره. تسلق برج العريس. تسلق برج جابر. تسلق الحائط الباقي من برج الكشّاف وكاد يسقط مع الحائط ويُدفن تحت الحجارة. تسلق السروات الثلاث خارج السور شرق باب الدركاه. قفز من رأس سروة إلى أخرى. هربت الأنفاس من صدور رفاقه في الأسفل. طار كالطائر وحطّ على السروة البعيدة وعانقها بكل جسمه ومال مع السروة حتى كادت السروة تنقصف به وتضربه على الأرض (حيث رصيف اللعازارية اليوم).

تسلق كل أشجار البلدة وكل حيطان البلدة. ولم تقتله سقطة. حين دخل إبراهيم باشا ابن والي مصر محمد علي باشا الألباني، إلى بيروت، فاتحاً، كان شاهين البارودي واقفاً أعلى قبّة كنيسة الموسكوب يتفرج على الجنود المصريين وقد اصطفوا على جانبي باب الدركاه حاملين البواريد اللامعة. تقدم إبراهيم باشا على حصانه الأبيض الضخم منحدراً في الدركاه، تحت رشاش الرزّ، فتبعه شاهين البارودي ابن السبعة أعوام، قافزاً من أعلى قبّة الموسكوب

إلى سطح حمّام الدركاه إلى سطوح البيوت المتلاصقة حيث بناية «الحياة» اليوم. انحدر إبراهيم باشا في الزقاق الذي صار بعد الحرب العالمية الأولى «شارع المعرض»، غير دارٍ بهذا الصبي القرد الذي يتبعه قافزاً فوق السطوح، غير دارٍ بما سوف يجري في هذه البلاد بعد أعوام، غير دارٍ بمعركة بحرصاف الآتية بعد تسع سنوات، وغير دارٍ بما يخفيه المستقبل لشخصه، لجيشه، لهذه البلدة الصغيرة على البحر، ولهذا العالم كلّه.

على حصانٍ أبيض ضخمٍ خطا على رمال الجزيرة العربية، خطا في سهول أفريقيا، خطا على رمل سيناء، خطا في نهر الأردن، على حصانٍ أبيض ضخمٍ وصفه الشاعر الفرنساوي لامارتين ووصف الأنفاس الصاعدة من منخاره ووصف وقع حوافره (تلك النعال الحديد بالمسامير الذهب) ووصف حركة ذيله الكثيف الشعر الممشط بالخصلة الواحدة المصبوغة بالحناء تبرق كستنائية وسط البياض الشبيه بغيوم الصيف، على حصانٍ أبيض ضخمٍ، والذبّان يطنّ والنساء يقذفن عليه الرزّ الرشيدي الكبير الحبة من النوافذ، على حصان أبيض ضخم، بين الهتافات وبين صفّين من البواريد، تقدم إبراهيم باشا غير دارٍ بولدٍ قردٍ يقفز على السطوح في جانب الكنيسة والحمّام، غير دارٍ بأولادٍ آخرين يتبعون الموكب على السطوح الأكثر تلاصقاً في الجانب الآخر (حيث سيظهر Scoozi و Dunkin' Donuts في المستقبل البعيد الغامض)، على حصانٍ أبيض ضخمٍ يتهادى إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا الألباني والي مصر الخارجَ على طاعة السلطان وطاعة الباب العالي، على حصانٍ أبيض ضخمٍ يتقدم قائد الجيوش المصرية تحت طربوشه العسكري الشهير الذي سيهدي مثله إلى حليفه حاكم الجبل الأمير بشير الثاني الشهابي الكبير صاحب اللحية البيضاء الهائلة، على حصانٍ أبيض ضخمٍ ينحدر قائد

الجيوش المصرية الفاتحة بين بيوتٍ سوداء تتلاصق، كلّها بطبقتين، وبعضها بطبقة واحدة، في الأسفل دكاكين وأقبية ومخازن وزرائب، في الأعلى المنازل والنوافذ المستطيلة بدرفات الخشب التي سوَّدها المطر وسوّدتها الشمس، نوافذ بدرفات خشب هي ألواح خشب لا تُطلى أبداً، ينحدر الباشا في الدركاه بين بيوتٍ سوداء تتكرر خطوة بعد خطوة في بؤسٍ لا نهائي، والقبب تتقاطع فوقه، والدهاليز تتعرج، على حصانٍ أبيض ضخمٍ يضرب الأرض بحوافره فيرتفع الغبار ويُدوّم عن جانبيه، ويدوِّم خلفه مثل أعاصير صغيرة، مثل دوامات رملٍ في صحراء غير مرئية، على حصانٍ أبيض ضخم قوائمه ملطخة بأثر المعارك والمسافات التي قطعها في الدرب الطويل المنهك من القاهرة إلى هذي البلاد، بلاد الشام التي سيحكمها المصريون تسعة أعوام فيفصلون تاريخها إلى الأبد عن تاريخ بلاد أخرى مجاورة تابعة للسلطنة، على حصانٍ أبيض ضخم ينحدر قائد الجيوش بجسمه المربوع وكتفيه العريضين وبذلته العسكرية الرمادية الضاربة إلى خضرة قاتمة، على حصانٍ أبيض ضخمٍ والحشود تجعل هذا الصباح مديداً، والشمس تظهر ثم تختفي بين غيومٍ تتباعد ثم تتقارب، والضوء يظهر ثم يختفي تحت قببٍ وسقوف خشب وسقوف قصب مكسر (من يبني سقفاً بقصب؟ أي ولد؟) وسقوفٍ تصنعها بيوت تميل عن الجانبين وتوشك أن تسقط فإذا ببعضها يسند بعضاً، على حصانٍ أبيض ضخم، ينحدر إبراهيم باشا محاطاً بضباطه «العساكر» في سراديبٍ تتشابكُ المنازل فوقها تشابك الأغصان في دغل، الأنفاق والأعقاد تتعرج بين نورٍ وظلال، الروائح تفوح، العرق والبصل والطحينة وزيت الزيتون وعظم يحترق (من يحرق عظاماً الآن؟ هذه الرائحة الفظيعة)، على حصانٍ أبيض ضخم يدخل رجلٌ مصدع الرأس بالصخب والتعب والحشرات والرطوبة إلى بلدةٍ

مسوّرة من تحت قنطرة في بوابتها تحمل نقشاً باليونانية (وهو يعرف اليونانية) تحمل نقشاً يضاعف اللمعة الداكنة في عينيه الصغيرتين الغارقتين في محجرين مدببي العظام: «أيها الداخل بهذا الباب افتكر بالرحمة»، ولماذا لا يفتكر بالرحمة كل من يدخل هذه البلدة البائسة على البحر، من يريد هذه البلدة لنفسه، الراكب على حصانٍ أبيض ضخم يطلب اسطنبول لا يطلب أقل منها، يطلب متاهة اسطنبول الهائلةَ، القصور البيضاء الرخام العالية على ضفة البوسفور، مساجد سنان باشا بقِببها التي لا يعرف أحد كيف علّقها الرجل هكذا في الفضاء بلا أعمدة، كل تلك الثروات المكدسة في الخزائن، أراضي الأناضول وما يتبعها، كل الغابات والسهول والمناجم والمواشي، كل هذه السلطنة أطلب لي وأطلب لأبي ـ محمد علي باشا الألباني ـ وأقل من ذلك لن أطلب أبداً، على حصانٍ أبيض ضخم ينحدر إبراهيم باشا بين بيوتٍ ينمو على حيطانها الخزّ وعلى سطوحها التراب العشب وفي شقوق جدرانها الطيّون والتيِّل البري والنباتات المعربشة الزاحفة، على حصانٍ أبيض ضخم في صباح رطب يتمدد إلى ما لا نهاية، في هذه الدروب المتلوية كالثعابين المريضة، بين بيوتٍ وحواكير وسياجات صبّار وغزار، لا يمكن أن تعبر عجلة هنا، ولا عربة، الحفر كالأخاديد في الدرب المتربة وبعد كل خطوتين تنعطف الطريق وتبرز زوايا البيوت حادةً وتسدّ الدرب، على حصانٍ أبيض ضخم ينحدر القائد الفاتح متجهاً نحو الجامع العمري الكبير بالمئذنة المربعة الصاعدة فوق ركام الأسواق والبيوت تطلب الضوء، تطلب الشمس المحجوبة عن البيوت في الأسفل بالأعقاد والسطوح والرطوبة الكثيفة وأنفاس البشر، على حصانٍ أبيض ضخم ينحدر إبراهيم باشا بين بيوتٍ يفكر في هدمها (لكن الصخب وثقلَ الهواء يمنعانه من مواصلة التفكير في ذلك، ثم من يهتم بأمر هذه البلدة؟)،

ينحدر بين بيوتٍ وتحت أعقادٍ تتشابك (ولا يرى الولد القرد يقفز على السطوح وينتقل من هذا الجانب إلى ذاك وينضم إلى رفاقه: أقرب هؤلاء إليه محمد «البسّ» الفاخوري ابن خاله محي الدين الفاخوري) على حصانٍ أبيض ضخمٍ، يخترق إبراهيم باشا الحشود ومتاهة الأزقة والرطوبة الشنيعة متَخيلاً شوارع اسطنبول النائية المفروشة حجراً ورخاماً ومرمراً بالنوافير المتدفقة والعريضة الأشجار المنتظمة والقصور البيضاء كغيوم الصيف والأشرعة التي تخفق على السفن التي تعبر البوسفور محملةً بالذهب والحبوب واللحم، محملة بالحرير والصوف والتوابل، محملة بالحديد والبارود والملح، محملة بالخضر والفاكهة والبقر، على حصانٍ أبيض ضخمٍ ينحدر إبراهيم باشا بين بيوتٍ لا يعرف أنها ستهدم في زمنٍ آتٍ بعده، في أزقةٍ لا يعلم أنها ستختفي وتتبدد كأنها لم تكن يوماً، في أرضٍ لا يعلم كم سيبدلها الوقت، كم سيغيرها توالي الفصول والعقود والحروب، على حصانٍ أبيض ضخم ينحدر إبراهيم باشا في جملةٍ طويلة متشعبة تعجّ بالفواصل إلى أن يبلغ منتصف سوق «العطارين» فيتوقف حصانه (وتنتهي الجملة) أمام قناطر الجامع العمري الكبير (هو الآتي من القاهرة لن يفهم لماذا يسمّون هذا الجامع الجامع الكبير؟ إنه أصغر من زاوية في جامعٍ صغير في مصر!)، على حصانٍ أبيض ضخمٍ يدخل إبراهيم باشا بيروت المسوّرة.

الحامية التركية لم تحارب ولم تدافع عن البلدة. فرّوا تحت جنح الظلام قبل وصول الجيوش المصرية. حملوا أجولتهم وبواريدهم وماءهم، امتطوا الأحصنة، ركبوا الحمير والبغال، ورحلوا. من يريد الدفاع عن هذه البلدة السوداء؟ بلدة على البحر؟ ليأخذ إبراهيم باشا البحر وليبلع كل مياهه المالحة. ماذا ينفعنا هذا البحر! لا يسقي العطشان ولا يلمس بزبده زرعاً إلاّ أيبسه. من يريد

هذه البلدة ببطيخها الذي يصيبك بالإسهال، بصبيّرها الذي يمزق الأصابع قبل أن يُقشر، بصيفها الذي يخنقك بالغبار ويذيبك بالرطوبة المالحة الحارة، بأمطارها القاتمة التي تعرف كيف تبدأ لكن لا تعرف كيف تنتهي، بالسقوف التي تدلف، بالحيطان التي تصير أطلالاً في قعر البحر، من يريد هذه البلدة، بالوحل والسيل في الشتاء، بالرمل والعرق في الصيف، من يريد هذه البلدة، بالبيوت المتساقطة، بالخانات المتداعية، بالأسوار التي تمنع الهواء وتمنع الضوء وتمنع الحياة. . . فرّت الحامية التركية وفرَّ معها رجالٌ من البلدة قرروا أن يحاربوا إبراهيم باشا. (بين هؤلاء: محي الدين الفاخوري ابن الشيخ مصطفى غندور الفاخوري صهر عبد الجواد أحمد البارودي ذي الذراع الواحدة. وستأخذ الدروب محي الدين إلى حلب ثم إلى الآستانة، وسيُكحل عينيه بمنظر السلطان محمود الثاني، وسيكون ذا أثرٍ عميق في انتهاء حياة ابن أخته صفية شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي، سيكون ذا أثرٍ عميق في انتهاء حياة شاهين باكراً).

لكن شاهين في الختام عاش كل الحياة هكذا. عاش حياته يحرق الوقت. باكراً نما جسمه. باكراً وقف ذكره. باكراً نزلت خصيتاه في كيسهما. باكراً بانت عضلات صدره. باكراً نبت الشعر الأسود الكثيف على ساقيه وذراعيه. باكراً تسلق الأشجار والحيطان والأسوار والمآذن. باكراً سقط وكاد أن يُقتل. باكراً عرف الغضب والأرق والخوف والتبغ والخمر والضحك والأحزان. باكراً عرف أشياء ولم يعرف أشياء. باكراً أصابته الحياة بكل ما في جعبتها من سهام. وباكراً خرج على طاعة أبيه. كل شيء فعله باكراً. أقاربه أحسّوا إحساساً كامناً أن نهايته لن تكون بعيدة. لم يقل ذلك أحد: من يقول شيئاً كهذا؟ لم يحذره أحدٌ، ولو حذره أحدٌ، ماذا كان

يحدث؟ هل يتبدل قدره؟ لو حذر أحدٌ شاهين البارودي لكان الصبي واجهه بتلك الابتسامة الخالدة وأدار له الأذن اليسرى الطرشاء.

بعد مئة وسبعين سنة على دخول إبراهيم باشا إلى بيروت (ذلك الخريف القديم، خريف 1831، ما زال يُكرر ظهوره كل سنة، بالرطوبة ذاتها، بالحرارة ذاتها، بالضوء الأصفر ذاته) أقف عند تقاطع «شارع المعرض» مع «شارع الأمير بشير» (ها هنا كانت بوابة الدركاه)، أُدخن سيجارة مارلبورو، وأنظر إلى الساعة في يدي ثم إلى الساعة البعيدة أسفل «المعرض» المنحدر، ساعة البرلمان (العبد).

أدرك أنها ما زالت الواحدة إلاّ عشر دقائق وأنني نزلت من المكتب باكراً. أنفخ الدخان من فمي، وأنظر إلى السيارات العابرة على بعد خطوة وإلى الشبك الأخضر الذي يحجب ورشة ترميم التياترو الكبير في الجانب الآخر من الشارع. عند الواحدة إلاّ دقيقة واحدة أرى رينيه الحايك آتيةً من جهة اللعازارية. يبتسم أحدنا للآخر كمن ينظر في مرآة. نقف لحظة على الرصيف، تحت القناطر العالية للإنتداب الفرنسي البائد، أمام زجاج «بنك لبنان والمهجر». أسألها عن يومها (عن صباحها) وتسألني عن يومي. ننحدر على الرصيف، نقطع مدخل «كاسبر أند غامبيني»، نقطع مدخل «الحياة»، نقطع مدخل DUO ثم مدخل LA POSTA، ونتابع طريقنا حتى ساحة الإيتوال.

نتكلم ونتأمل واجهات المطاعم. أخبرها أن الكونت اتصل بي قبل ساعة وأنني سأمرّ عليه بعد انتهاء الدوام. أقول إنني لن أتأخر كثيراً. نقطع Place de L'étoile ونمضي في «شارع حسين الأحدب». أتوقف لحظة، أشير بأصبعي إلى الكراسي على الرصيف، كراسي CAFFE DEL CENTRO حيث يلتقي

«الأحدب» بساحة النجمة، وأقول:

ـ هنا كان «كنيس اليهود» في بيروت القرن التاسع عشر. بقي هنا حتى سنة 1922. قبل ذلك، في نهاية القرن الـ 19، خرجت الطائفة اليهودية من هنا إلى وراء باب إدريس. استقروا في وادي أبو جميل وبنوا هناك الكنيس الكبير.

تنظر إلى السيجارة في يدي. أبتسم ثم أقذف العقب بعيداً. بعد سبعين خطوة نتوقف. تقول لي:

ـ هذا «مطعم البلد». يُقدم مأكولات لبنانية. بُني هنا بعد انتهاء الحرب سنة 1990. هنا سنأكل اليوم.

عند الثانية ظهراً بالضبط أكون قاعداً في مكتبي قبالة شاشة الكومبيوتر (imac) أنظر إلى الساعة في زاويته اليمنى العالية:

2:00 pm

منذ اكتشفت قبل 15 سنة أن تأليف الروايات هو الشيء الذي أريد فعله في هذا العالم، أتبع في أيامي نظاماً صارماً. يبدو هذا خيالياً إذا حاولت تسجيله هنا. أن أسجل مثلاً عدد الساعات المخصصة للقراءة. وأن أقول أنني أتأمل السماء من الساعة كذا إلى الساعة كذا. أمشي في شوارع بيروت من الساعة كذا إلى الساعة كذا. في الصيف أقضي على البحر عدداً محدداً من الساعات. في الصباح أبدأ الكتابة بعد ليتر الماء وكوب الحليب (NIDO) بالنسكافيه (Classic) ولا أتوقف قبل الساعة التاسعة (متى تستيقظ؟ في الخامسة كل يوم؟ دائماً؟). يبدو كل هذا خيالياً. ليظلْ هكذا. الأمر لا يهمّ. ثم أن الحياة لا تحتمل نظاماً. عند الثانية والنصف

يُريحني رنين الهاتف من المقالات التي أحرّرها كمن يُقلّم (كمن يشذّب) تعريشة عنب أو شجرة تفاح، أو كمن يقطع للشتاء حطباً. العمل يُتعب.

ـ آلو.

ـ ايه يا عم ربيع! فينك يا راجل؟

الصوت يأتي ضاحكاً حلواً عبر المسافة.

ـ مرحبا يا إبراهيم.

أتحدث مع إبراهيم في الهاتف 12 دقيقة. ينتابني إحساسٌ أنني أراه أمامي، بحركته النابضة، وبأخباره التي بلا نهاية. نتكلم في العمل (في مقالاتٍ أُرسلت من «مكتب القاهرة») وأسأله عن الحياة هناك، ويسألني عن الحياة هنا. لا أخبره أنني عدت للتو من «مطعم البلد»، ولا أخبره أن الفول المدمس الذي أكلته مع البصل السلموني الأبيض السكري الطعم بالخبز الخارج ساخناً من التنور، لا أقول له إنه (وأسلافه) جنوا عليّ بهذا الفول المدمسّ.

هذا طبق دخل بيروت مع الفتح المصري، وأسلافي لم يعرفوه قبل ذلك: قبل حلول الجنود المصريين هنا (كلّهم من الفلاحين جُنِدوا سخرةً في الجيش المصري الحديث الذي درّبه نائب إبراهيم باشا الكولونيل الفرنسي سيف Séve المعروف بسليمان الفرنساوي)، قبل عام 1831، كان البيروتي، ومثله ابن الجبل اللبناني، يأكل الفول مطبوخاً مع الحمص ومرشوشاً عليه السماق ويسميه «مخلوطة». المصريون علّموا أبناء بلاد الشام أن يسلقوا الفول ثم أن يُتبّلوه بالخل والملح والثوم المدقوق. أبناء بيروت كَرِهوا الخل فعصروا محله الليمون الحامض وأضافوا إلى الخلطة عصرة ليمون «بوصفير». أبناء الجبل اللبناني رفعوا الفول المدمس إلى مرتبة الطعام الفاخر حين

أغرقوه بزيت الزيتون الأصفر الذهبي. فول مصر، «بوصفير» الساحل اللبناني، وزيت الجبل، كل هذا يجني عليّ بينما أُكلّم أصلان الجالس في مكتبه الضيق في القاهرة، ينظر إلى صورة غالب هلسا الذي سكت قلبه أو إلى صورة أمل دنقل الميت بالسرطان على الباب.

أضع سماعة الهاتف وأنظر إلى الشاشة الزرقاء المضيئة. طعم الفول يمتزج بطعم آخر. ما هو؟ اللحم بعجين أم فطائر الجبنة الدسمة، أم الفتوشّ بالخبز المقلي في الزيت، أم الكبّة البعلبكية بالحرّ، أم الحمص بالطحينة أم مخلل الخيار أم صحن البطاطا المقلية الذي لم تكمله رينيه فاضطررت إلى إكماله مع القليل من كاتشاب Dolly's. كل ذلك يُسهم في ثقل بطني. أستدير على الكرسي ذي العجلات، وأنظر من باب الشرفة، عبر الزجاج المغبر، إلى الشرفة الصغيرة (بلاطة رخام بمساحة متر مربع تقريباً، محاطة بدرابزين أسود). أرى فراشة خضراء هامدة على مستطيل الرخام الأبيض بعروقه السوداء واللطخات الصفراء (هذه بقع في قلب الرخام نفسه). أنظر إلى العمارة المقابلة. كأنها هذه العمارة. الشرفات ذاتها. أباجور الأبواب والنوافذ ذاته. وفي الأسفل القناطر العالية للعمارة تظلّل الرصيف وتظلّل الكراسي أمام Scoozi Pizza-Pasta-Dolce.

المكان يحتشد بنساءٍ في أثواب ماركة Aishti أو La Strada أو Armani أو Gucci أو Pierre Cardin. الشمس تلمع على الكراسي البعيدة عن الرصيف والبعيد عن المظلاّت الحمراء. تلمع على الكراسي وعلى الطاولات المعدن وعلى صواني البيتزا وعلى صحون المعكرونة والبفتاك والأسكالوب والسمك وعلى أطباق الخشب المزينة بلفائف السوشي الياباني. كؤوس طافحة بنبيذ أحمر وأكواب

طافحة بمياه غازية، وقناني بيرة، وتنكات بيبسي دايت. امرأة في جينز أسود ضيق بشعر مارينز برتقالي تميل على صاحبها، وبلوزتها العاجية البياض المكشوفة عن كتفين سمراوين لامعين تلمس جانب الطاولة وتلمس جانب الصحن. أرى لطخة ترتسم على القماش. من هنا لن أستطيع تحذيرها. ثم ماذا ينفع التحذير؟ هل يُبدل المكتوب؟ لو فتحتُ الباب وخرجت إلى الشرفة وهتفت من مكاني العالي في الطابق الأول للمرأة التي تتلطخ بلوزتها بمزيج مايونيز وخل (Balsamic Vinegar) وخردل، في الأسفل، هل تعرف أنني أناديها هي من بين كل الزبائن؟ وإذا أدركتْ ذلك هل تعيرني أذناً صاغية؟ إن طرف البلوزة المكشكش قد ابتلّ بالصلصة (Yellow Sauce) وهي ما زالت تميل على أذن صاحبها، وهو لا أدري كيف لا ينتبه لهذا الذي يحدث. هل أنبّهها؟

لم يُنبّه أحدٌ الصبي شاهين البارودي. كانوا يحذّرونه من مغبة تسلق الأماكن العالية، من الركض أمام حصان مسرعٍ (وهذا نادر في تلك الأزقة)، أو من النزول إلى قعر الآبار، أو مِن التنقيب في الأقبية المهملة تحت معصرة دندن وقناطر دندن (حيث مجلس النواب اليوم). كانوا يُحذّرونه من كل ذلك لكن أحداً لم يأتِ ويثبته أمامه على التراب ثم يخبره الحقيقة:

ـ إذا تابعت هكذا فسوف تُقتل. سوف تنتهي حياتك. ما تفعله سوف يقتلك. وسوف يقتلك باكراً.

لم يسمع شاهين البارودي ذلك من فم، لكنه قرأ ما يشبه هذه الكلمات في نظرة سدّدتها إليه أخيراً امرأة أنهكها القلق فزاد عمرها في سنوات عقوداً. ابيضّ كل رأس صفية الفاخوري البارودي قبل أن يدخل إبراهيم باشا المصري إلى بيروت. لم تبقَ فيه خصلة كستنائية

واحدة. بات كالثلج على رأسها. احتفظ جسمها بشبابه، بتلك البدانة الفاخرة التي تلوع كل رجل يراها، لكن شعرها حال إلى شعر امرأة عجوز. صارت تصبغه بالحنّة كل يوم جمعة. صار يوم الجمعة يوم الحناء. ويبقى اللون الأحمر على يديها إلى الجمعة الذي بعده. لم يرَ أحد ذلك اللون الأبيض المدهش (لم تكن بلغت السادسة والعشرين) إلاّ ولداها وزوجها وأختها أم عصام. في ذلك الزمن البعيد لم تكن نساء بيروت يكشفن عن شعورهن. (كيف تكتب عن أم تحيا في بيروت ما قبل الفتح المصري، ناظراً إلى امرأةٍ بشعرٍ برتقالي قصير تأكل البيتزا بالشوكة والسكين وخيوط الجبن الأنشوفي السائل تلتف على الشوكة، بينما المحركات تهدر في إحدى الورش المجاورة، والمكيف التايواني يرسل تياراً بارداً على عنقك، والموكيت يدغدغ قدميك وهذا القلم الـ BIC الأزرق ينشف، الحبر ينشف، وأصابعك تؤلمك، وظهرك يؤلمك وتريد أن ترى تلك البلدة البعيدة، المدفونة في ظلمات التاريخ، تُريد أن تراها. سيارات تعبر سريعة على جسورٍ اسمنتية معلقة، وتريد أن ترى الحمير والسراديب المتشابكة، العطفات المسدودة بالبيوت، الأزقة التي تتحول حيطاناً فجأة، وتلك الأقبية المهجورة تحت حارة دندن، تحت مجلس النواب، وشاهين البارودي راكضاً مع ابن خاله، مع محمد محي الدين الفاخوري يطاردان أرنباً برّياً أو ثعلباً أو ابن عرس، أو غزالاً دخل الأسوار خطأً ثم قفز مذعوراً راكضاً في متاهة الحجر والخشب والقذارة، يريد الهواء والبساتين والنور القوي، فيفرّ مرتطماً بحيطان الحجر وحيطان الخشب وحيطان الطين والتراب، الغزال يفرّ بعينين تتسعان ذعراً، جلده يلمع كأنه طُلي زيتاً، الغزال يفرّ، يفرّ الغزال العرقان بالبقع الجميلة على جلده، يعبر الأسوار وسط ضحكات الناس الذين تجمهروا، ووسط الأصابع الممدودة،

يرمونه بالحصى والحجارة، يلتقطون الحصى عن التراب، في ساحة العصافير، في الدركاه، في البوابجية حيث ينشرون الخشب ويصنعون الأبواب، يطاردونه بالحجارة، يقفز فوق ألواح، يقفز فوق أقمشة معروضة فوق أباريق، فوق قناديل، يقفز ويزلق على قشر فاكهة والولدان يطاردانه. . . المكيف التايواني يرسل تياراً بارداً على عنقي، وأرى الولدين يركضان. أفقد الغزال وأفقد ذلك النهار القديم المشع بشمس الصيف. أفقد الغزال لكنني أرى الولدين، ما زالا يركضان، مضت الأيام لكن لعبهما لا يمضي، يقفزان في بيروت القديمة البائدة من نهارٍ إلى نهار، ومرات يخرجان في الليل أيضاً. أراهما يدخلان في الليل أقبية دندن، يدخلان الظلام الكثيف الصلب الذي يُقطع بالسكين كما يُقطع قالب جبنة، يمشيان في الظلام الكثيف ويناديان على الجن في القبو الطويل ويتحديان الأرواح، ثم يخرجان لاهثين من الجانب الآخر، يخرجان إلى ساحة مظلمة ومغمورة بضوء النجوم الفضي في آنٍ معاً. يقفان هكذا في ظلال شجرة كرزٍ عملاقة ولا يعرفان أنهما تحت المراقبة).

محمد محي الدين الفاخوري كان يكبر ابن عمته شاهين عبد الجواد البارودي، بأربعة أعوام أو خمسة، ربما أكثر. لكن حارق الوقت شاهين البارودي كان يبدو في مثل سنّ ابن خاله. الاثنان تصرفا دائماً كأنهما في سنٍ واحدة. هذا دام حتى مقتل الأصغر بينهما. لو لم يمت شاهين باكراً، هل كانت صداقتهما تدوم، أم أن شاهين السريع كان يقطعها كالنيزك؟

صداقة الولدين بدأت في شجرة الجميز أمام بيت صفية الفاخوري البارودي. عبد الرحيم (الأخ الذي وُلد ظهراً، بينما الظلال ترسم دائرة تحت الجميزة)، عبد الرحيم كان لا يزال طفلاً

رضيعاً حين بدأت صداقة شاهين ومحمد. هل بدأت الصداقة في الشجرة (بين الأغصان) أم تحتها؟ لنقلْ أن ذلك غير مهم. الولدان تبادلا نظرات قصيرة، في لحظة ما من هذه الحياة، ثم باشرا اللعب معاً. قبل ذلك لم يكن أحدهما يلتقي الآخر. سبب التباعد كان غضب محي الدين الفاخوري المكتوم: كيف يجرؤ صهره عبد الجواد على الزواج بأخرى بعد أن أنجبت له صفية ابناً ذكراً وكادت تموت نازفة؟ لكن هذا الغضب (ومثل كل شيء) لن يلبث أن يضعف ثم يتلاشى ويضمحل. الوقت يأكل الأشياء. ومثلما أكل الوقت غضب محي الدين أكل الوقت غضب صفية على ضرّتها. التقارب بين صفية الفاخوري البارودي وبين سهيلة النابلسي البارودي بعد مرض زهرة بالحمى ثم ولادة الذكر الثاني عبد الرحيم، هذا التقارب المفاجئ بين البيتين المفصولين بغابة صغيرة خضراء، دفع شاهين إلى الابتعاد عن المنطقة وإلى الابتعاد عن زاروب عبد الجواد، وإلى الابتعاد عن بيت أمه. إلى أين يبتعد؟ لم يكن يُسمح له بالتجوال في الأسواق لأنه طفل. محمد أعطاه المخرج. يستطيع أن يبتعد إلى بيت جده، بيت الشيخ مصطفى غندور الفاخوري داخل باب يعقوب. هناك، في الدار الكبيرة حيث يقطن جده وأخواله بين شجر البرتقال، تعمقت أواصر الصداقة بين شاهين ومحمد.

عبد الجواد أحمد البارودي ذو الذراع الواحدة راقب بِكره شاهين ينجو من الأمراض وينمو، راقب أم زهرة تنجب له بنتاً أخرى، راقب عبد الرحيم يطلّ على عالمنا بعينين متسعتين تبتلعان كل ما ترى كمن يشرب الماء، راقب كبرى بناته زهرة تشع كالكوكب الدرّي وتلفت العيون إليها، راقب الشامات القاتمة تظهر على قفا كفّه، راقب الناس يتكاثرون في سحابات الدخان الطيب الرائحة المتصاعدة من مناقل الشواء قدام حانوته، راقب السفن النمساوية

والطليانية والفرنساوية والإنكليزية يزدادظهورها في عرض البحر، وراقب البلدة تتبدل.

راقب كل ذلك ثم قرّر أن يضاعف أعماله التجارية. بعد فترة قصيرة من ولادة ابنه الثاني عبد الرحيم، وقبل ثلاث سنوات تقريباً من الفتح المصري لبلاد الشام، فتح أبو شاهين عبد الجواد أحمد البارودي ذو الذراع الواحدة متجراً لبيع الطنافس الفارسية والمنسوجات الحلبية المزركشة بالقصب وبخيوط الذهب، في سوق البازركان، بالشراكة مع اثنين: صهره خالد الفاخوري، والتاجر السرياني سمعان الصايغ الذي نزح من حلب إلى بيروت بعد الزلزال الذي دمر نصف بيوت حلب في خريف 1822. (أبناء سمعان الصايغ يلعبون دوراً مهماً في حياة بنات البارودي كما سنرى. أمّا سمعان الصايغ نفسه فلا يلبث أن يخرج من حياة هذه العائلة سنة 1836 إذ يستقل بتجارته الخاصة مغادراً متجر البارودي والفاخوري والصايغ في البازركان إلى عمارة رفعها في الميناء بالشراكة مع ترجمان القنصلية الفرنساوية. ولن ينعم سمعان الصايغ بعمارته الجديدة ولا بتجارته إذ يموت بالطاعون الأسود بعد عامٍ واحد فقط بينما يحجّ إلى أورشليم).

عبد الجواد أحمد البارودي لم يكن يعلم شيئاً عن سمعان الصايغ حين دخل عليه في دكانه الصغير في البازركان للمرة الأولى، يرافقه صهره خالد الفاخوري. الرجلان كانا يبحثان عن دكانٍ في السوق يكون معروضاً للبيع أو للإيجار. أحد التجار دلّهما إلى دكان سمعان الصايغ قائلاً إن هذا النصراني السرياني الحلبي قد يبيعهما متجره لأنه يخطط للسفر إلى أخوته في الاسكندرية. بدل أن يبيعهما السرياني متجره عرض عليهما الدخول معه في شراكة. عبد الجواد

أحمد البارودي لم تعجبه الفكرة. لكن صهره لم يلبث أن أقنعه بها. وقبِلا.

الحلبيون في بيروت لم يكونوا قلّة عندئذٍ. الهجرة الحلبية باتجاه لبنان بدأت قبل زلزال 1822 الشهير بسنوات. أنطوان طرازي مثلاً جاء من حلب إلى بيروت في مطلع القرن التاسع عشر. أخوته لحقوا به في سنة 1814 و1816. عبد الجواد أحمد البارودي سيسمع من سمعان الصايغ قصصاً عن أهل الرجل، وكيف أن أخوته فرّوا من حلب خوفاً من الوهابية. سمعان الصايغ لم يفرّ مع أخوته إلى مصر. الزحف الوهابي على دمشق انكسر أمام النجدة التي أرسلها محمد علي باشا إلى العثمانيين. رجع الوهابيون إلى الجزيرة العربية، لكن حياة النصارى في حلب تبدلت بعد هذه الأحداث. الولاة تشدّدوا في تطبيق أحكام الشريعة لكسب تعاطف الغالبية السنّية في البلاد. فرضوا قيوداً على النصارى واليهود وألزموهم تنفيذ قانون «الغيار». لم يعد يُسمح لنصراني أو يهودي بالخروج من بيته إلاّ لابساً ثوباً أصفر اللون. كما جرى التضييق على تجارتهم مع البنادقة. سمعان الصايغ روى كيف هاجم الجنود «خان البنادقة» في حلب وضربوا أباه. بعد الزلزال الذي هدم دار جده لأبيه ترك سمعان الصايغ حلب وسافر إلى دير القمر في جبل لبنان. الأمير بشير، حليف محمد علي، لا يضطهد النصارى. أقام سمعان الصايغ سنةً في دير القمر ثم نزل إلى بيروت التي تنمو تجارتها.

النازحون إلى بيروت من الداخل السوري حملوا معهم إلى البلدة المسوّرة أكياساً مملوءة ذهباً. سمعان الصايغ حمل في الخرج أيضاً «كتاب المزامير» الذي سيرثه ابنه نصر الله الصايغ ثم يفقده، فيعثر عليه أخوه إبراهيم بعد وقتٍ ويحتفظ به سرّاً. (الكتاب المذكور موجود في مكتبة الكونت ده بسترس. مطبوع بالحرف الكرشوني،

ويعود تاريخ طباعته إلى مطلع القرن السابع عشر. وسوف تظهر لاحقاً أسباب وصول هذا الكتاب إلى مكتبةٍ تخص آل بسترس).

حمل سمعان الصايغ إلى بيروت ثلاثة أكياس ذهب، ونسخة سريانية من كتاب المزامير مطبوعةً في حلب أو في سالونيكا وثوباً أصفر بلون قاذورات الطيور أقسم ألاّ يرتديه بعد ذلك أبداً. فتح دكاناً في البازركان واستقدم من وطنه الأول بغالاً وحميراً محملةً بالقماش المطرّز الذي تشتهر به حلب. قطّاع الطرق كبّدوه خسائر لا تحصى في ثلاثة أعوام، إلى أن وجد نفسه على حافة الإفلاس. قال لزوجته أبريزا إنه قد يضطر لتركها هي والأولاد في بيروت والسفر إلى أخوته في الاسكندرية.

ـ أرتب أوضاعي هناك، ثم أرسل في طلبكم.

أبريزا التي تعرف طبع الثعلب في زوجها بكت أمام كلماته. سمعان الصايغ مضى إلى البازركان ثقيل القلب. كان يُقلّب الخطط في دماغه، ويدخن نفس أرجيلة ناظراً إلى المصلين الخارجين من جامع النوفرة، حين أبصر رجلين أحدهما مقطوع الذراع، يتقدمان باشّين في اتجاهه.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

حين طلبا الدكان فرح قلبه. الربّ يسوع المسيح يتابعه من السماء ويريد له الخير. يحتاج مالاً لتدبير رحلته إلى الاسكندرية. ولا يريد النزول في أرض مصر خالي الجيوب خالي اليدين. يحتاج حفنة عثمليات وها هي العثمليات تأتي إليه. بينما يتكلم مع الرجلين، بينما يسمع كلماتهما، بدأ يُبدل خططه. لا ريب أن أبريزا تشعل الشمع أمام أيقونة أم الإله الآن.

يعرف أبريزا ويعرف أن صلاتها مستجابة عند ستّنا مريم. تريده أن يظلّ في بيروت. تدعو للعذرا أن يبقى زوجها في بيروت. والسيدة تفعل ما تطلبه أبريزا. فيأتيه رجل بذراعٍ واحدة، مثله شامي اللهجة (يريد أن يتكلم بلهجة البيروتي، لكنّه يميز لفظه لحرف الجيم، يلفظ الجيم مثل دروز حوران. كيف فقد ذراعه يا ترى؟)، ومع هذا الرجل الذي لا يعرف لماذا رحل عن الشام، يأتيه رجلٌ من آل الفاخوري، ابن الحاج الفاخوري أبو محي الدين صاحب تجارة الحبوب مع دمشق وحوران. القوافل التي تُنزل بضائعه في المخازن داخل باب يعقوب مشهورة. ليست حميراً وبغالاً فقط، بل إبلاً أيضاً. (إبل ضخمة بسنمين تأتي محملة بالأجولة، وغبار الطحين يرتفع منها!) رجلان معهما المال ويريدان دكانه. الصدق ظاهر على ملامحهما. وكلمتهما حلوة كالعسل. سمعان الصايغ قال إنه لم يقرر بيع الدكان بعد.

عبد الجواد أحمد البارودي الذي يتاجر في بيروت منذ أعوام تعرّف في نبرة الرجل على حِيل التجارة. ها هي المساومة تبدأ. يريد أن يعلمهما أنه ليس في ضائقة، إنه غير مستعجل على البيع. قبل أن يتكلم البارودي سبقه صهره الفاخوري بكلمات الشباب الواقفة:

ـ نحن جئنا إليك لأنهم قالوا لنا أنك عارض دكانك للبيع لأنك مسافر من البلد. ألم تعد تريد السفر الآن؟

سمعان الصايغ ابتسم ونادى على صبي يقف أمام الدكان وطلب منه أن يأتي بالفناجين وبإبريق القهوة.

كان قد رسم في ذهنه ما سيأتي: قوافل الحاج الفاخوري لا يهاجمها قطاع طرق. ومال هذين الرجلين سيؤمن له الوقوف على ساقيه من جديد. عليه أن يقنعهما بالدخول معه شريكين في تجارته.

هو يربح وهما يربحان. وأبريزا تبتسم له هذه الليلة.

عبد الجواد أحمد البارودي لم يشعر بالمودة تجاه سمعان الصايغ. قَبِلَ الدخول شريكاً في الدكان كرمى لصهره خالد وكرمى لصفية. لولا تدخل أم شاهين بكلمتين لقال البارودي ذو الذراع الواحدة لصهره خالد لا، ولإنتهى الأمر عند حدّه. لولا تدخل صفية كان سمعان الصايغ مضى في درب وأسرة البارودي مضت في درب، ولما اشتبكت طُرق الأسرتين أبداً. لكن صفية ألقمت الطفل عبد الرحيم ثديها الآخر وقالت إن قلبها يتمنى هذه الشراكة بين أبي شاهين وبين أخيها خالد. ثم أن هذا السرياني تاجر ومن حلب ويفهم في القماش وهو يعرض دكانه ولن يكون في ذلك خسارة.

سمع أبو شاهين كلمة أم شاهين. تاجر بالشراكة مع السرياني ومع صهره خالد ولم يندم. الدكان كان يربح. والسرياني بدا له أميناً. لم يسرقه ولم يسرق صهره. الثلاثة اتفقوا أن تكون للسرياني حصة زائدة من الأرباح كونه القائم على أعمال الدكان لحظة بلحظة. لم يسرقهما سمعان الصايغ صاحب وجه الثعلب. ولم يندم البارودي على هذه الشراكة.

تجارة عبد الجواد أحمد البارودي لم تجلب له يوماً هموماً وأحزاناً. بل العكس: أعطته الرخاء والازدهار والراحة. أينما زَرَعَ قرشاً نَبَتَ له القرش عثملية. اللّه يفتحها في وجهه أينما ولّى وجهه. التجارة لم تجلب له إلاّ الخير والأحباش والثروة. جاء إلى بيروت بينما بيروت تكبر وتتبدل. جاء إليها في الوقت المناسب وكبرَ معها. ولو لم يُعطَ أن يعيش وقتاً طويلاً ويرى إلى أي حدٍ ستزدهر هذه البلدة، وكيف ستتحول ـ بعد موته بعقدين ـ إلى المدينة الأشد ثراء في كل هذا الساحل. لم يُعط عبد الجواد أحمد البارودي أن يحيا وقتاً مديداً لكنه أُعطي الذهب والعبيد في حياته القصيرة. وأُعطي أن

يرى بداية التحولات التي طرأت على بيروت وأُعطي أن يُمتع نفسه بأربع زوجات وبجاريةٍ شركسية عزَّ وجودها وأُعطي أن ينام كل ليلة عارفاً أنه سيتناول لقمة طيبة في الصباح، وأنه لن يحتاج منّة أحد. تجارته أعطته أماناً. لم تُصبه بالأحزان. ولم تفطر قلبه. ولم تهدّ صحته. أحزان عبد الجواد أحمد البارودي جاءت من مطرحٍ آخر. جاءت من قدس الأقداس: من ذريته. تلك أحزان ستكسر قلبه ثم تقضي عليه.

عبد الجواد أحمد البارودي لم ينتبه إلى ابتعاد شاهين عنه إلاّ بعد فوات الأوان. شاهين البارودي في المقابل نأى عن أبيه وهو يدرك تماماً ما يفعله. قبل أن يتكرس هذا التباعد انتبهت أم شاهين إلى غُربة ابنها. شاهين لم يكن ولداً عادياً. باكراً نما جسمه. وباكراً اكتشفت أمه القوّة البدنية الخارقة في هيكله. نجاته من تلك السقطة عن السطح في موسم تشميس الكشك لم تكن صدفة. بعد عامٍ أو عامين من ميلاد عبد الرحيم سمعت صفية الفاخوري البارودي جَلبة وراء البيت. سمعت شيئاً يتكسر. كان شاهين في الخارج فأسرعت تدور حول البيت لترى ماذا حدث. وجدت الولد الذي لم يبلغ الخامسة بعد قابضاً على ثعبان أطول من أبيه عبد الجواد يحاول خنقه بالقبضتين الصغيرتين. إلتقطت المجرفة من الثلم، صاحت بإبنها أن يرمي الحيّة على الأرض، ثم أهوت عليها بالمجرفة. انقطع الثعبان نصفين. طار رأسه في فحيح وحطّ في البركة وراء مسكبة النعناع. أم شاهين ركضت إلى بِكرها تتلمس وجهه، تتلمس ذراعيه، تتلمس ساقيه العاريتين. لم تجد أثراً لناب. شاهين أبعدها عنه متضايقاً وسألها ما بها، لماذا ترتجف هكذا، ولماذا يسيل العرق من يديها ومن رأسها ومن أنفها. صفية الفاخوري البارودي انتبهت عندئذٍ أن

العرق يبلّلها من شعرها حتى أخمص قدميها. شاهين أبعدها من طريقه ومضى إلى البركة ليلتقط بالمجرفة رأس الثعبان. عند المساء قال أبو شاهين لإمرأته إنها قتلت «ثعبان الدّباغة». كان هذا ثعباناً مشهوراً في سوق القطن لا يستطيع أحد اقتناصه. يبدو أنه نزل وراء البيت عن إحدى الأشجار الملاصقة للسور. يستحيل أن يزحف إلى هنا على الكلس.

أم شاهين زاد رأسها خصلة بيضاء. قالت في سرّها إن الولد شاهين إلتقى الثعبان لا بدَّ في شجرة من الأشجار. حين رأت شاهين يصادق أولاد أخواله (محمد ابن محي الدين، عبد المجيد ابن عمر، ومصطفى ابن خليل) لم تصدق عينيها. اعتادت أن تراه في الجميزة ينتقل بين الأغصان بينما أبناء أخوتها يلعبون تحته على الأرض. بدا لها دائماً بعيداً عن أقرانه، قليل الكلام معهم، منطويّاً على ذاته. سُرَّت حين رأت اهتمام محمد به. محمد الذي يكبر شاهين بأعوام إصطفى ابن عمته صفية صديقاً. أم شاهين سمحت لإبنها أن يمضي إلى بيت جده الحاج مصطفى، داخل باب يعقوب، حين يشاء. لا تخاف عليه حين يكون في بيت أهلها. هناك، الدار كبيرة. يلعبون في الحوش المرصوص التراب، بين أشجار البرتقال اليافاوي، تحرسهم نظرات أقاربها ونظرات أمّها زهية. كانوا شلّة أولاد، كلّهم من العائلة، وتعرفهم واحداً واحداً. شاهين كان أصغرهم. لكن أحداً منهم لم يكن يجرؤ على التعارك معه. حتى محمد (المعروف بمحمد «البسّ») لم يجرب مرة واحدة استخدام أظافره على شاهين. ثم إن الولدين سرعان ما صارا مثل نفسٍ واحدة، لا يُرى أحدهما دون الآخر.

باكراً أخذ الولد شاهين يكتسب جسم رجلٍ ضخم. الشمّاس الياس دبّاس ابتسم حين رآه يحمل صندوق اللقطين على المصطبة

الحجر خارج دكان الخضر. ذكّره الولد بأيام فتوته. شاهين بدأ يلبس ثياب أبيه عبد الجواد وهو لم يبلغ العاشرة بعد. سنة 1833 التقطه الجنود المصريون من السوق واقتادوه إلى السراي للخدمة الإجبارية. عبد الجواد أحمد البارودي جمع نصف تجار البازركان وسوق القطن وذهب إلى السراي وقابل الأمير محمود نامي. الأمير محمود نامي والي بيروت من قبل محمد علي باشا ضحك حتى اهتز كرشه حين علم أن المخلوق الضخم الذي حسبه الجنود رجلاً فارّاً من الخدمة العسكرية ما زال ولداً دون العاشرة. أطلقوا سراحه. عبد الجواد أحمد البارودي ربَّت على كتف ابنه شاهين ثم دفعه أمامه باسماً. شاهين فَهِم الذراع القوية ولم يفهمها. أبوه جبارٌ مثله، قال شاهين في سرّه. لكنه في ذلك المساء ذاته قال لإبن خاله إن أباه عبد الجواد لا يحبّ أحداً. محمد سأله لماذا يقول هذا. شاهين البارودي تذكر اليد القاسية على كتفه وقال إنه سمع في السوق إن المعلم عبد الجواد جاء إلى بيروت هارباً من الشام بعد أن ضرب أخاه الأكبر سكيناً.

عبد الجواد أحمد البارودي أهمل ابنه. لم يفكر لحظة أنه يهمل ابنه. لكن هذا ما حدث. كان منشغلاً بتجارته ولا يمرّ على بيت أم شاهين إلاّ نصف ساعة في الصباح، أو نصف ساعة أول المساء. وقليلاً ما يجد الولد في البيت. هذا الصبي واقع في حبّ أخواله. طلب أبو شاهين من صفية أن تستبقي الولد في البيت صباحاً ليراه في طريقه من بيت أم زهرة إلى السوق. شاهين فكر أن أباه ـ الذي لا يُرى في البيت أبداً ـ يريد أن يفرض الطاعة عليه من دون أن يعطيه في المقابل شيئاً. فكّر في كل هذا وقَبِله على مضض. حين يتكلم أبوه يصغي ويفعل ما يقول. يأمره أن يذهب إلى الدكان في البازركان ويسأل الخواجة سمعان الصايغ عن أثواب الجوخ، فيذهب إلى البازركان ويسأل الخواجة عن الجوخ. يفعل ما يريد. يأمره أن

يحمل أسياخاً إلى الحانوت على الميناء، فيحمل الأسياخ ويمضي باتجاه الميناء. يأمره أن يصعد إلى الحدادين ويساعد الصبي يوسف في توضيب صناديق البندورة فيصعد إلى الحدادين ويساعد الصبي يوسف في توضيب الصناديق. يأمره أن يأخذ البغلة وجرار الماء وقِرب الجلد إلى محلة الكراوية وراء سهلات البرج، فيأخذ البغلة والجرار والقِرب إلى محلة الكراوية. يأمره أن يحدل السطح بعد المطرة الأولى فيتسلق السلم ويطلع إلى فوق ويحدل السطح. يفعل ما يريده دائماً. يأمره أن يساعد خاله خالد (صار يدعى أبو سليم) في تحزيم القماش المصبوغ بالنيلة الزرقاء فيساعد خاله في تحزيم القماش. يأمره أن يقطع اللحم في الحانوت شقفاً فيقطع اللحم. كل ما يطلبه المعلم عبد الجواد ينفذه الولد شاهين. يمضي عازماً على تنفيذ المهمة بسرعة. يفعل ذلك لينتهي منها. لينسى الأمر الصارم ولينسى المهمة كلّها. لا يمضي رِجلاً إلى أمام ورِجلاً إلى وراء إلاّ في حال واحدة. لا يتردد إلاّ أمام أمرٍ واحدٍ. لا يحب أن يكلفه أبوه بأي مهمة على علاقة بالبيت الأبيض وراء الأشجار. لا يحبّ المضي إلى هناك. لا يحبّ أن يحمل شواءً ونخاعات متبّلة إلى هناك. لا يحبّ أن يحمل حلاوة طحينية إلى هناك. ولا يحبّ أن يحمل صبيراً أو تيناً أو خوخاً إلى هناك.

حين يرى البنت زهرة يتكهرب جسمه. لا يفهم لماذا يمقتها هكذا. أكثر من مرة أراد أن يخبر محمد عن هذا. وفي كل مرة يبلع الكلمات ويبلع ريقه كمن يبلع شوكاً أو رماداً حاراً. لا يستطيع أن يقول. لا يفهم لماذا يمقت هذه الأخت، أخته من أبيه. لماذا يمقت هذه الأخت بالذات، من دون جميع أخواته. لا، لا يحبّ الأخريات. لا يحبّ ياسمينة ولا يحبّ سوسن ولا يحبّ نرجس لكنه أيضاً لا يمقتهن. أمّا هذه البنت زهرة فتُكهرب بدنه. إذا اقتربت

منه لتأخذ سلّ العنب وجد نفسه يلقي السلّ على العتبة ويستدير ذاهباً. يفكر أحياناً أن يركض ركضاً. يبتعد في «طريق عبد الجواد» ويرى الكلس يُظلم في عينيه. تغلي الكراهية في عينيه كما يغلي ربّ البندورة على حطب السنديان الأجاج. العالم كله يصير أسود. أرسله مرة أبوه حاملاً صدراً من البقلاوة الطرابلسية بالصنوبر إلى البيت وراء الأشجار. لم يجرؤ على ترك الصدر عند القنطرة لئلا يأكله الذباب. كان الباب موارباً فسعل ليسمعه من في الداخل، لتسمعه زوجة أبيه، أو لتسمعه بنت من البنات. لماذا خرجت تلك البنت زهرة ولم تخرج أخت من أخواتها الصغيرات؟ كان شعرها مبلولاً بالماء. سمع ضحكتها وعرف الضحكة قبل أن تظهر له من وراء الباب. أعطاها الصدر النحاس وكل بدنه يرتجف غيظاً من ضحكتها. ابتسمت له والتفتت وقالت:

ـ هذا أخي شاهين يا أمي! ومعه بقلاوة!

ثم سمع زوجة أبيه تناديه من الداخل المعتم وتدعوه للدخول. برطم بكلمات مبهمة، لا هو فَهِمَها ولا أخته زهرة فهمتها، ثم استدار ومضى.

بعد فترة قصيرة من تلك الحادثة سمع أباه عبد الجواد يُعلم أمه صفية أنه قرر أن يبني بيتاً ثالثاً في نهاية الطريق البيضاء. في البدء لم يفهم. لكن محمد ابن خاله أعلمه بما يحدث:

ـ أبوك سيتزوج.

كان الوقت خريفاً. الصيف انتهى، وهواء بارد يهبّ على بيروت. ولج شاهين سوراً من الصبير والمقسيس فوجد نفسه في بستان فاكهة. جلس على حجرٍ ينظر إلى التراب. لم يرَ الأشجار تتوهج تيجانها كنيرانٍ صغيرة تحت سماء نقية الزرقة. لم يرَ ورق

التين يصفر. لم يرَ ورق الكرز يصير برتقالياً. لم يرَ الخضرة الصامدة في ورق التفاح وفي ورق الكمثرى. شعلة الخريف تحرق ـ بألوان الشفق ـ البستان كلّه، وهو لا يرى شيئاً. نظر إلى الأشجار. رآها مظلمة. لم يكن الوقت ليلاً. لم يكن الوقت غروباً. شمس الظهيرة سقطت عمودية على رأسه. سقطت عمودية على الأشجار. لم يرَ كل تلك الألوان. لم يرَ حبّات «الخُرمة» التي تنضج على مهلٍ بين الورق الأخضر المغطى بما يشبه الرمل والغبار. لم يرَ إلاّ الظلام.

أظلمت الدنيا في عينيه. ولجت العتمة دماغه. حين رأى أمّه صفية بعد ليلتين تصبغ شعرها بالحناء كرهها هي أيضاً. تفعل ذلك من أجل رجلٍ شيَّب رأسها ولم يأتها بضرّة واحدة فقط، بل هو يريد الآن أن يذلّها بضرّة ثانية أيضاً! هي بنت آل الفاخوري الكرام كيف ترضى ذلك لحسبها ونسبها! كَرِه شاهين البارودي أصله. كره أباه عبد الجواد. حين رأى أخاه الأصغر عمر يتسلق ركبتي المعلم عبد الجواد ويجلس في حضنه متعلقاً برقبته الثخينة، كَرِه أخاه عمر أيضاً.

لم يكن شاهين البارودي بلغ العاشرة بعد. في حانوت الشواء، ذات ظهيرة، أمره أبوه أن يساعده على حمل صندوق الفحم الكبير. شاهين سمع كلمات أبيه فسارع إلى حمل الصندوق بمفرده. كان صندوقاً ضخماً. أوشك أن يفلت منه، أوشك أن يتعثر، لكنه توازن في اللحظة الأخيرة. أسقط الصندوق على الأرض وهوى فوقه. أبوه عبد الجواد زعق به أن ينتبه. الصندوق حطّ على صواني الدجاج المنقوع في الخل والثوم والملح واكليل الجبل. شاهين البارودي استدار بثيابٍ لطخها السواد وواجه أباه عبد الجواد أحمد البارودي للمرة الأولى في حياته:

ـ لا تصرخ!

عبد الجواد أحمد البارودي لم يصدق أذنيه. ابنه شاهين يرد في وجهه. صُعِق عبد الجواد أحمد البارودي أمام الجواب. لكن الصدمة الأعمق لم تكن في الكلمات المنطوقة، لا ولا كانت في النبرة المخيفة القاسية، نبرة الكراهية الخالصة التي لا تُصدق. عبد الجواد أحمد البارودي قتلته نظرة ابنه شاهين. كانت نظرة تفلج جملاً. الولد الضخم الجسم حدجه بنظرة مجرم. كأنه يريد أن يخنقه بيديه العاريتين الملطختين بغبار الفحم الأسود.

عبد الجواد أحمد البارودي داخ، أحسّ الأرض ترتجف تحت قدميه، وللمرة الأولى منذ زمنٍ بعيد فتك حريقٌ ناريٌ قاتلٌ بأصل كتفه، حيث قُطعت ذراعه. الألم انبثق في أصل الكتف ثم غطّى عنقه وغطّى كامل صدره. لهبٌ لا يحتمل اندلع في حنجرته وزلعومه. كأنه التهم رطلاً من دبس الفليفلة الحمراء. احترق كلّه. ومن النار خرج غضبٌ قديم معتقٌ. رفع كفّه وأهوى بها على وجه ابنه. الذراع التي رفعت بيوتاً حجراً وسقوفاً من جسور الصنوبر سقطت كالمطرقة. الأصابع الخمسة الحديد نقلت النار إلى وجه الولد الضخم الجسم الملطخ بغبار الفحم. تلك الليلة بكت أم شاهين ولم تنم حتى طلوع الشمس. الولد لن يُكلم أباه عبد الجواد بعدئذٍ طوال أربعة أعوام.

باكراً تحول شاهين البارودي رجلاً. حين حصده منجل الموت في سهلٍ من سهول المتن الشمالي، عام 1840، كان يبدو، لمن يراه، رجلاً أربعينياً أو ثلاثينياً. مثل أمه صفية نشأ ميّالاً إلى الصمت، قليل الثرثرة. مثل أمه صفية وجد العمل خلاصاً. كان العمل (الإنهاك العضلي) يشغله عن أسراب الوطاويط التي تخفق بين أضلاعه. لن يفكر مرة واحدة أنه في هذه الخاصية أيضاً يشبه أباه عبد الجواد.

ترك شاهين البارودي بيت أمه صفية حاملاً صرّة ثياب وانتقل إلى خارج الأسوار. أقام في مساكن العمال المستحدثة في الكرنتينا، يشتغل طوال النهار كالثور، وفي الليل يدخن التبغ ويشرب العرق ويأكل العدس المطبوخ مع الخبز والبصل. حيطان الكرنتينا (المحجر الصحي) ارتفعت ببلادة. بينما يلهث، والعرق يسيل من جسده، نسي شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي أباه، ونسي أمه، ونسي أخويه الصغيرين عبد الرحيم وعمر. طرد من ذهنه أيضاً ذلك البيت وراء الأشجار بالغرفة البيضاء على السطح. وطرد صورة الأخت الضاحكة بشعرها الأسود المبلول. حين انتهى العمل في بناء المحجر مضى إلى السراي يريد الدخول جندياً في العسكر المصري. الجنود تذكروه، وضحكوا منه، ثم طردوه خارج السراي. كان هذا خطأ سيُكلف إبراهيم باشا لاحقاً عدداً من القتلى والجرحى.

شاهين البارودي حمل جسمه القاتم الضخم بكل الندبات والجروح في ساقيه وفي جذعه وفي ذراعيه، حمل صرّة ثيابٍ أخرى، ودَّع محمد ابن خاله باسماً، ويمَّم شطر الأناضول. لم يكن يطلب الأناضول. كان يطلب استامبول، مقر خاله محي الدين الفاخوري منذ أربع سنوات. قبل أن يبلغ مضيق ظهر البيدر سمع صراخاً خلفه. التفت فرأى محمد الذي تركه قبل ساعات خارج باب الدركاه مقبلاً على حصانٍ بلون الثلج (كأنه حصان إبراهيم باشا) وضحكته تكبر حتى تحتل كامل مساحة وجهه.

عبد الجواد أحمد البارودي لن يعرف برحيل الولد عن البلد إلاّ بعد وقتٍ. مذ غادر شاهين بيت أمه صفية قبل شهور لم يرَه عبد الجواد أحمد البارودي مرة واحدة. كانت أخبار الولد تبلغه. كان يعلم أنه يشتغل في ورشة الكرنتينا، على بعد كيلومترين فقط إلى الشمال. سمع أيضاً أن الولد ظهر ليلاً في سوق المومسات

المصريات بين الدركاه ويعقوب.

في البدء لم يصدق. أو أنه لم يفهم. أليس ولداً في العاشرة؟ أليس ولداً في الحادية عشرة؟ سمع من يقول أن ابنه شاهين ليس صبياً، ليس في الحادية عشرة، ولكن أهله قالوا إنه في هذه السنّ لتخليصه من الخدمة الإلزامية. عبد الجواد أحمد البارودي، الذي بات يشرب كأساً من العرق بين ليلةٍ وأخرى، احتار حين سمع هذه الأخبار. رجع بذاكرته إلى زمنٍ بعيدٍ وأحصى السنوات مرة أخرى. كان متأكداً أن بِكره وُلِد في سنة الزلزال الثاني، زلزال 1824. لكنه بعد كأسٍ ثالثة من العرق الصافي غير الممزوج بالماء، غرق في رائحة الكحول وحبّ اليانسون ولم يعد متأكداً. لعل شاهين وُلد في زلزال 1822، الزلزال الأول. كل ذلك غير مهم، فكر عبد الجواد أحمد البارودي. سكب كأساً رابعة من إبريق الفخار الطويل وتذكر سعالاً ديكياً فظيعاً يخترق الليل الرطب.

قبل سنة من انتقال شريكه سمعان الصايغ إلى العمارة الجديدة جنب خان فخري بك على الميناء، تزوج عبد الجواد أحمد البارودي للمرة الثالثة. تزوج بنتاً نصرانية حلبية تمتّ بصلة قربى بعيدة إلى زوجة سمعان الصايغ أبريزا. البنت جاءت مع أهلها إلى بيروت سنة ولادة ابنه الثالث عمر، سنة الفتح المصري. أبوها نجّار، يشتغل في سوق البوابجية عند عيسى فياض. وأمها خيّاطة. البنت تُدعى هيلانة. عبد الجواد أحمد البارودي طلب يدها من أبيها النجّار بطرس جروة، أحد أنسباء المطران ميخائيل جروة. (هو المطران الذي، مثل أسلافه، كان تابعاً لمذهب السريان القائلين بطبيعة واحدة في السيد المسيح. ولكنه، بعكس أسلافه، لم يلبث أن نادى بالإيمان الكاثوليكي في 16 كانون الأول/ ديسمبر 1774 مع سائر أسرته وأبناء ملته وكهنتها في أبرشية حلب. ارتقى بعدئذٍ إلى السدّة

البطريركية الأنطاكية متخذاً اسم أغناطيوس ميخائيل الثالث).

النجّار السرياني الكاثوليكي بطرس جروة أجاب التاجر البيروتي المسلم صاحب الذراع الواحدة إن هذا الطلب الشريف يرهق كاهله مثل ثقلٍ من الحجارة. صمت لحظة ثم أردف:

ـ عليك أن تفهمني. ابنتي لا تنام الليل قبل أن تركع وتصلي للبابا في روما.

عبد الجواد أحمد البارودي أجابه بالصوت الهادئ العميق الذي طالما جلب له الاحترام بين سكان البلد وبين التجار الغرباء:

ـ ابنتك تبقى على دينها. أنتم من أهل الكتاب والشرع يضمن حق بنتك في البقاء ذميّة نصرانية. أريدها زوجةً. لنقرأ الفاتحة.

النجار بطرس جروة لم يقرأ الفاتحة عندئذٍ بل طلب مهلة يومين. في صباح اليوم التالي جاء إلى عبد الجواد أحمد البارودي في حانوت الشواء أسفل سوق القطن ودعاه إلى زيارة العروس مساءً.

هيلانة جروة البارودي أحبّت عبد الجواد أحمد البارودي كما لم تحبْ مخلوقاً قط. لا حبّها لأمّها، ولا حبّها لأبيها، ولا حبّها لأخوتها، ولا حبّها للبابا في الفاتيكان، ولا حبّها للربّ يسوع المسيح نفسه، وازى حبّها لهذا الرجل صاحب الذراع الواحدة. كان يكبرها بعشرة أعوام، بخمسة عشر عاماً، بعشرين عاماً، لا تدري ولا تهتم. كان يكبرها وكان حين يحملها بذراعٍ واحدة يرفعها إلى السماء السابعة. لم تعثر على ملائكة فوق الغيوم، ولم تعثر على ميخائيل ينفخ في البوق ويقود حراس الجنّة. عثرت على بحيرة صافية المياه. وعثرت على مرجٍ من العشب الأخضر. الذراع تحملها وجسدها يسبح فوق المرج ويسبح فوق صفحة المياه الصافية. رأت

وجهاً نقياً يحدق إليها من أعماق الماء. مذ كانت طفلة وهي تصلي للربّ أن يعطيها هذا الوجه النقي، الخالي من الحبوب، الخالي من النمش، الخالي من أي طيّة، من أي خطٍ نافر. هنا، في البيت الجديد الثالث، آخر «الطريق البيضاء»، عثرت هيلانة جروة البارودي على وجهها المنشود. حين عرفت أنها حامل قالت لزوجها عبد الجواد:

ـ أريد أن أشهد الشهادتين. أريدني مثلك مسلمة. علمّني أن أُصلي صلاتكم.

عبد الجواد أحمد البارودي ابتسم لزوجته الثالثة مُصحِّحاً:

ـ صلاتنا.

أكّدت هيلانة:

ـ صلاتنا.

تلك الليلة أفرغ جرّة العرق في البورة وراء البيت. كان الوقت صيفاً. تمدّد إلى جانب زوجته هيلانة في الفراش ووضع يده على بطنها. كان الهواء يخربش على ورق الجوز الجاف العريض خارج النافذة المظلمة المشرعة الدرفتين. دخلت رائحة العرق المهروق حادةً طيبةً. غمرت الرائحة عبد الجواد أحمد البارودي وأسكرته. نسي الولد شاهين ونسي ما يُقال عن رحيله مع محمد ابن خاله إلى عاصمة السلطنة. غرز وجهه في نحر هيلانة وتنفس رائحة الأنثى. أخذ نفساً عميقاً. اتسعت فتحتا منخاره حتى أحسّ أنه يرشف الرائحة رشفاً. زوجته تغرغرت الضحك. أبعدت ذراعه وقالت إنها نعسانة. لم تمنحه الوقت الكافي ليغضب. كانت تداعبه. استدارت في حركة مباغتة، وغمرته بذراعيها. لم تكن في بدانة سهيلة. لا ولا كانت في بدانة صفية. لكن جسمها المرن المطواع عوّض نحولها.

أحبّ أن يدفع وجهه في نحرها وأن يتنشق تلك الرائحة شبه الحيوانية. أخبرته، بعد ليلتها الأولى في فراشه، أنها لا تشرب حليب البقر أبداً. لا تقرب حليب البقر. ولا تقرب لبن البقر. ولا تقرب لبنة البقر. ولا الأجبان المعمولة من هذا الحليب. مذ كانت طفلة تحبّ حليب الماعز ولبنة الماعز وقريشة الماعز وجبنة الماعز. عبد الجواد أحمد البارودي الذي تزوج قبل هذه البنت مرتين، ورُزق حتئذٍ ثلاثة أبناء وحفنة من البنات، ضحك من كلمات هيلانة الحلبية. ذلك الصباح، فور بلوغه الحانوت، أرسل أحد الصبية ليحمل إلى «البيت الثالث» سطلاً من حليب الماعز. بعد سبعة ليالٍ أخرى اقتنى رأسي غنم.

صفية الفاخوري البارودي كانت واقفة في باب «البيت الأول» تنقي العدس من الحصى وحبّ الزؤان في نور الصباح، حين رأت الشبح الآتي من بعيدٍ يجرّ خلفه معزاة بلون الفحم. حين اقترب الشبح أكثر بانت أيضاً معزاة ثانية بلون كلس الطريق. أم شاهين لم تعرف الصبي الجديد. في قلبها مودة لذلك الولد يوسف الذي كبر في كنف زوجها وصار حلو اللسان سريع البديهة. لكن العساكر التقطته بينما يعبر «سوق الفشخة». ألبسوه البذة النظامية وأرسلوه في سفينة إلى اللاذقية. أبو شاهين قال إنهم يوزعون العساكر على القلاع في الأناضول. أم شاهين نظرت إلى الصبي الذي يجر بالرسن معزاتين شاميتين وفكرت في إبنها الذي ترك البلاد. أين يكون الآن؟ اللّه يُوجه لك الخير يا شاهين يا حبيبي، صلوات أهل البيت تحرس دربك، اللّه يحميك ويردك إلى أمك سالماً.

أم شاهين صلّت لإبنها، ردّت تحية الصبي، رأته يتابع الطريق قاطعاً الجميزة، وانتظرت إلى أن جاوز التوتة أيضاً قبالة «البيت

الثاني»، ثم استدارت ودخلت إلى البيت. عبد الرحيم كان يستلقي على فراشٍ تحت النافذة بعينيه المتسعتين المملوءتين سكينة. هذا الفتى عكس أخيه الكبير شاهين. جسمه ما زال جسم طفل، ولا يحبّ الشيطنة. عمر الذي يصغره بأعوام لا تكاد تراه في البيت. يذهب مع أبيه إلى الحانوت ويقضي النهار هناك. عينا عمر واسعتان أيضاً، لونهما لون العشب الأخضر في الربيع. عبد الرحيم ما زال يحمل عيني طفولته. البؤبؤان لامعا السواد، والبياض حولهما يضرب إلى البنفسجي الفاتح. سألته هل يريد لقمة دبس؟ ابتسم لها وقال إنه غير جائع. ابتسامته ذكّرتها بشاهين. أحسّت ألماً في رأس معدتها، كأنها عاجزة عن التنفس. اللّه يحميك يا ابني يا شاهين.

عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي رفع جسمه على مرفقه ونظر عبر النافذة المشرعة إلى شجرة الخروب الكبيرة بظروفها الخضراء المتدلية. كأنها ظروف لوبياء، وتتدلى بغزارة، كأنها مشكوكة شكاً. بين الفروع العالية رأى قماشة السماء الزرقاء، ونتفاً من الغيوم تتفتت كالقطن المندوف وتسبح في صمت الصباح.

من يتأمل هذا الولد في ذلك الصباح الكسول البعيد يحسب أنه سينمو ليصير تنبلاً. هذا إذا وجد في أعماقه ما يكفي من الهمّة لكي ينمو أصلاً! سهيلة النابلسي البارودي قالت ذات أصيلٍ برتقالي إن شاهين كَبِر عن الاثنين معاً. قالت إنه سحب كل الغذاء من جسم أمه صفية فخرج عبد الرحيم من بعده عليلاً. زهرة، التي قرر أبوها عبد الجواد أن يرسلها إلى «المدرسة الأميركانية للبنات» خارج باب يعقوب كما فعل شريكه سمعان الصايغ مع بناته أخيراً، زهرة سمعت كلمات أمها عن شاهين وعبد الرحيم وقالت أن أخاها الكبير شاهين (اللّه يردّه لنا) غريب الطبع، مرتبك الحركة، معقود اللسان. قالت إن عبد الرحيم، في المقابل، يعرف ماذا يريد.

شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي لم يكن غريب الطبع مرتبك الحركة معقود اللسان إلاّ أمام أخته زهرة. غُربته كانت ضخامة جسمه. وغرابته كانت تلك البسمة التي لا تفارق محياه. في استامبول قالت له بائعة حبٍ كلدانية إنه يستطيع أن يأتي إلى عندها حين يشاء وإنه غير مضطر لأن يدفع لها. لا تريد منه شيئاً، ويقدر أن يأتي إلى فراشها حين يشاء.

شاهين البارودي ظلّ صامتاً.

الكلدانية سألته عندئذٍ لماذا يبتسم هكذا؟

شاهين البارودي أجابها جواباً طالما كرّره أمام الناس:

ـ هذه ليست ابتسامة. هذا شكل وجهي.

كان ذلك أول الشتاء. وعيناه تريان للمرة الأولى في حياته ثلجاً يهبط وراء زجاج نافذة. لم يرَ زجاجاً على نافذة من قبل. لا، ولا رأى ثلجاً (هذه الرقع البيضاء الناشفة المتهادية).

الكلدانية شردت تنظر إلى بيوت الخشب المصطفة فوق مياه البوسفور البيضاء. حين رأته ينهض وينتعل جزمته انخرطت في نوبةٍ من البكاء.

سألها:

ـ ما بكِ؟

أجابت:

ـ الثلج يُحزن.

بعد سبعة عشر يوماً ظهر في حوران.

لم يعرف شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي بزواج أبيه الثالث إلاّ بعد انقضاء شهورٍ. حين سَمِع الخبر أخيراً كان مع الثوار الدروز في سهل خارج السويداء. سمع الخبر من لسان عبد المجيد الفاخوري. لكنه لم يُظهر غضباً. الإحساس الذي انتابه كان حزناً مشوباً بالحيرة. لم يحزن شاهين البارودي لأن أباه تزوج بنتاً نصرانية حلبية في سنّ بناته. حَزِن لأن هذه البنت (اسمها هيلانة جروة، أبوها نجار وأمّها خيّاطة) قضت في رمشة عينٍ. سمع خبر زواجها وخبر موتها في اللحظة ذاتها. الخبر المباغت ـ المزدوج الطابع ـ حيَّره.

ماتت هيلانة جروة البارودي بالحمّى المالطية. أمّها علَّمتها منذ الطفولة ألاّ تشرب حليب الماعز قبل غليه. لكن البنت مالت إلى الكسل دائماً. ماتت زوجة عبد الجواد الصغيرة بالحمى اللعينة المالطية قبل أن يرتفع ثوبها ويظهر انتفاخ بطنها.

صفية الفاخوري البارودي، وضرّتها سهيلة، غسلتا جثة الضرّة الصغيرة النصرانية التي أسلمت قبل موتها بشهرين. غسلتا شعر رأسها الأسود الضارب إلى الحمرة. غسلتا كل جسمها، بالبطن البيضاء التي تتكور. غسلتا قدميها، وفركتا بحجرٍ خشنٍ أسود، القشرة القاسية عند الكعبين.

مكعب الصابون يرغي على الليفة المبلولة بالماء الساخن، ثم ينزلق على الجثة البيضاء الحزينة. سهيلة النابلسي أوجعها قلبها وهي تفرك ظهر المرأة التي ماتت قبل أن يغطي الشحم فقرات عمودها الفقري. صفية الفاخوري رفعت ذراعاً بيضاء مزرقة جامدة كالحطب ومسحت تحت الإبط بالاسفنجة الخشنة الكبيرة، ثم انتقلت إلى الذراع الأخرى. كانت تفعل ذلك سارحة في مكانٍ آخر. كأنها ليست هنا. سهيلة النابلسي، في المقابل، كانت تفكر ببناتها، والدمع يسيل على خديها خفيفاً ثم ينزل في الفم مالحاً.

تحت شجرة الجوز، خارج «البيت الثالث» المنكوب، كان عبد الرحيم البارودي يرمي العيدان اليابسة في النار، ويزيد ماء من جرّة الفخار في الطنجرة المسوّدة. البنت نرجس كانت تكسر جوزاً. أخواتها زهرة وسوسن وياسمينة كنَّ قاعدات على كراسي القش عندئذٍ، في «المدرسة الأميركانية للبنات» مدرسة الست سميت خارج باب يعقوب.

عبد الجواد أحمد البارودي كان في حانوت الشواء أسفل سوق القطن، واقفاً بين مناقل حديد جديدة حُمِلت إلى بيروت من مرسيليا البعيدة. كان يقف منتصباً وفي يده ملقط حديد، يقلب الجمرات الحُمر ويكوم الفحمات فوقها لتلقط ناراً. أمام الحانوت، على المصطبة المستطيلة الجديدة، توزعت الكراسي الجديدة والطاولات الجديدة. في جانبٍ من المصطبة جلس حمّالون وتجارٌ من أهل البلد، على الحصر، يأكلون الطعام بالأصابع، كما أكلوه طوال حياتهم. لم يجلس أحدٌ على الكراسي الخشب ذات الظهر. ولا وُضع شواء أو إناء سلطة على طاولة. إلاّ للأجانب. أو لبعض التجار النصارى الذين أخذوا يتفرنجون أخيراً. حتى أن بينهم من بات يأكل الدجاج المشوي بالسكين والشوكة كالفرنسيس تماماً.

العمل في الحانوت أمام الميناء يزدهر. وكذلك العمل في متجر الأقمشة في البازركان. عبد الجواد أحمد البارودي ما عاد يهتم كثيراً بدكان الخضر أعلى «الحدادين». تركه للصبيان. يمرّ عليهم بين حينٍ وآخر. يجلس نصف ساعة في مجلس العجوز مزراحي القديم على المصطبة. ينظر إلى الساحة التي ما عادت تُعلق من أشجارها أقفاص العصافير. يُدخن لفّافة تبغٍ أو أرجيلة مع صاحبه الشمّاس، ثم يقفل عائداً إلى حانوت الشواء. لا يستطيع أن يترك مطعمه لوقت طويلٍ. هؤلاء الصبية يلتهمون اللحم التهاماً. إن لم ينتبه، إن لم يرفع صوته، التجارة تخسر. سمعان الصايغ سأله لماذا لا يقتني حبشياً؟ أجابه عبد الجواد أحمد البارودي ذو الذراع الواحدة إن هؤلاء يأكلون أكثر، ألاّ ترى قاماتهم العملاقة؟ سمعان الصايغ أجابه إنه على خطأ. هم يولدون هكذا. لكن طعامهم قليل. أبدانهم سوداء تحتمل العمل الشاق ولقمتهم صغيرة.

عبد الجواد أحمد البارودي لم ينسَ كلمات شريكه. حين رأى الولد سلامة (الذي أفلت من العِقال تماماً بعد رحيل يوسف مع العساكر) يخفي شيئاً من اللحم تحت ثوبه، ساخناً يقطر دهناً، ويحرق نفسه، تذكر حديث سمعان الصايغ وقرر أن يقتني عبداً.

الأيام ستدفعه إلى تأجيل ذلك. موت زوجته الصغيرة سوف يهدّه هدّاً. رحيل شاهين، موت هيلانة، والتبدلات السريعة التي تطرأ على البلد، كل ذلك هزّ قشرة الأرض تحت قدمي عبد الجواد.

كان سريع البديهة، سريع التأقلم، يبغي دائماً الاستفادة، وتكثير ماله، والاعتناء بعرضه، بالبنين والبنات. سبحانه تعالى يرعاه، وهو لا يريد إلاّ رؤية الأبناء يتكاثرون حوله. لا يؤذي أحداً. ولا يطلب إلاّ الخير للكلّ. صيتهُ عَطِرٌ في بيروت. وقبل عامٍ بُني المحراب الجديد في الجامع العمري الكبير بخشب الأرز من زكاته. لعله ما

عاد يصلي الصلوات الخمس كما اعتاد أن يفعل قبل سنين، في حياة مولاه الإمام الحوت. لعله ما عاد يجد الوقت الكافي لذلك. كل هذه الأشغال تُنهكه، تسرق نهاره. وحين يبلغ بيتاً من البيوت الثلاثة في الليل يكون مبلّل الثوب بالعرق، وأنفاسه تتسارع. جسمه يشيخ باكراً. مرّات يقف في مدخل الزاروب الأبيض، غارقاً في رائحة الوزّال أو زهر البابونج، فيتذكر زمناً قديماً، ولا يستوعب تماماً كيف مضت السنون.

جسمه يشيخ، والأيام تفرّ منه كالأرانب المذعورة. شاهين غادر البلد. والعساكر تملأ السوق. والبيوت ترتفع وتتكاثر حيث كانت الحواكير من قبل وجلول الرمان والعنب والتين. عند طرف «ساحة العصافير»، تحت قناطر كنيسة مار جرجس، ظهر صفّ كامل من الدكاكين. لكن المتاجر تتكاثر أكثر هنا، حول مطعمه، في الجزء السفلي من البلد: بين «سوق الفشخة» والميناء تكاد الجلول المشجرة أن تختفي.

عبد الجواد أحمد البارودي سعيد بهذه الزحمة. عائلات النصولي وبربير وعيتاني وسرسق والمدور وفرعون تبني من حوله. سعر أراضيه يرتفع. صاحب الذراع الواحدة لا يشكو. لا يتذمر من ازدهار التجارة. لا يشكو من توافد القوافل من دمشق وحوران محملة بالقمح والشعير والذرة والحرير والسختيان والجلود. يحصي مع أصحابه السفن التي تظهر أمام الشطّ كل أسبوع ويقول الحمد للّه ولا يقول غير ذلك. لكنه مضطرب أيضاً. الصخب يُربك. وهو ليس على بعضه. لو أن شاهين لم. . .

مرات لا تحصى استعاد عبد الجواد تلك اللحظة في الحانوت، تلك النظرة في عينيّ ابنه. هو زَعَقَ به خوفاً عليه. قال له حُطْ يدك معي، ساعدني على حمل الصندوق. لم يقلْ له أن يحمل الصندوق

الضخم الثقيل وحده! قال له ساعدني، أعطني يدك يا ابني. هو لا يستطيع أن يحمل بذراع واحدةٍ صندوقاً مملوءاً بالفحم الإنكليزي. حين غادر بيت أمه فكر أنها ليلة، ليلة وأخرى، ثم يعود، لكن الولد مثله، رأسه ناشفة، حطب، مثله هذا الولد. لكن لماذا نظر إليه تلك النظرة؟ ماذا صنع له؟ حين غادر بيت أمه فكر أنها ليلة، ليلة وأخرى، ثم يرجع. لكن الولد ذهب ولم يرجع. حين سمع أنه يشتغل في «ورشة الكرنتينا» احتار ولم يعرف ماذا يقول. لم يعرف أين يذهب بوجهه من الناس ومن صفية. صفية التي تبكي حين يسألها من لَعِب برأس الولد، من جعله يكره والده، من وضع تلك النظرة المظلمة في عينيه؟ لم يَره يوماً إلاّ باسماً. بسمة شاهين تساوي الحياة. حين يضحك لا يبقى أحد إلاّ ويضحك. كيف انقلب عليه؟

عبد الجواد أحمد البارودي أتعبه ذهاب ابنه. زواجه بهيلانة أنقذه. العرق المثلث خفَّف عنه أيضاً. لكن النجاة لم تكتمل. سريعاً أغرقته اللجّة. هيلانة الحلوة قضت في غمضة عين. ذابت أمام عينيه ولم يستطع لها شيئاً.

غسلوها، كفَّنوها، وصلّوا عليها. ثم دفنوها في مقبرة الخارجة بين مقبرة المصلى ومقبرة الغرباء. كان يوم جمعة. الهواء يهبّ من الأشرفية، شرقياً، محمّلاً بالرمل. زحمة باب الدباغة أخفّ من الأيام الأخرى. خارج الباب لا تبرك إبلٌ كالعادة. كل القوافل تدخل البلد من هذا الباب. هنا يُدفع المكوس عن البضائع. وهنا يُسجل الموظفون الوارد والصادر. الأمير محمود نامي نظّم الإدارة. الحاج مصطفى غندور الفاخوري عضو في «مجلس شورى بيروت» الذي أنشأه المصريون لتنظيم التجارة وحفظ النظافة وتبليط الطرقات وكل

شيء. في الطريق إلى «الخارجة» كان الحاج أبو محي الدين ماشياً إلى جانبه. الحاج أيضاً قلبه مفطورٌ على ولده محي الدين وعلى ثلاثة من أحفاده. رحلوا عن البلد والتحقوا بعساكر الدولة العلية. الحاج قال إن قلبه ليس مفطوراً، قال إن قلبه معهم. هنا يعمل مع الأمير نامي، يعمل مع المصريين، لأن تجارته تقتضي ذلك. الرزق والحريم والأولاد والدار. لكنه غير غاضب على محي الدين. لو كانت في بدنه همّة الشباب كان هو أيضاً حمل نفسه وسافر إلى استانبول. إبراهيم باشا هذا يفعل مثل الفرنسيس، يخالف الشرع ويرفع مقام الذمّيين. والأمير بشير مثله. والنصارى باتوا يتصرفون كأنهم أصحاب البلد.

الحاج الفاخوري سار مع صهره البارودي في مأتم الحلبية النصرانية التي شهدت الشهادتين وصارت مسلمة، هيلانة جروة البارودي. بعد الدفن قال الحاج لصهره:

ـ الآن يا ابني صرت بيروتياً. الواحد لا يصير ابن البلد إلاّ حين يدفن موتاه في تربة البلد. اللّه يرحمها. واللّه يرحمنا. واللّه يرحم الجميع.

كان الهواء يهبّ محمّلاً بالرمل. ورأى عبد الجواد أحمد البارودي بعينين محمرتين من الغبار النساء المسلمات في أثواب الحداد البيضاء يعبرن الظلال المتهادية بين القبور. حين سكن الهواء لحظة تجمدت أغصان التوت. كفّت الأوراق ذاتها عن الارتجاف. تجمد العالم لحظة، ورأى عبد الجواد أحمد البارودي السهلات الممتدة بعد حائط المقبرة. كان ضوء الشمس يُنير الأشجار العارمة الخضرة ويُنير قرمة توت محترقة متفحمة. أهي تلك القرمة القديمة ذاتها؟

صفية الفاخوري البارودي اعتادت في تلك الأيام الجلوس على الدرجات الحجر الثلاث في باب «البيت الأول» تنتظر. ماذا كانت تنتظر؟ تفعل كل ما تريد أن تفعله في نهارها، وهي قاعدة هناك، أو في الحديقة المسوّرة بألواح الخشب قدام الدرج. هنا تطبخ. هنا تغسل. هنا تأكل لقمتها. عيناها ثابتتان على «طريق عبد الجواد»، على مدخل الطريق، ذلك الزاروب بين البيتين، تتحرك ما بعده الحمير والأجسام، جيئةً ذهاباً في «سوق الفشخة». الولد عبد الرحيم أرسلوه إلى كتاب الشيخ سعيد المغربي جنب جامع النوفرة، ليحفظ القرآن الكريم ويتعلم أن يفكّ الحرف وأن يخطّ بالريشة والحبر اسمه على القرطاس. الصغير عمر يمضي كل صباح مع أبيه، ثم يرسله أبوه مع صبي من صبيانه عند أذان الظهر ليأكل في البيت ويبقى في البيت. هي، أم شاهين، تخرج عند المساء، وقد نام الولدان، وتقعد هنا، في العراء، تحت الجميزة. نظرتها ثابتة على الطريق البيضاء. صوت حشرات الليل يطنّ في أذنيها. حين يظهر أبو شاهين قادماً من بعيد تعرفه من قامته. وتعرفه من ذراعه الواحدة. وتعرفه لأن أحداً غيره لا يدخل الزاروب بعد غروب الشمس.

لا يظهر في الزاروب غريبٌ بعد غروب الشمس، أمّا في سحابة النهار فيظهر كثرٌ. منذ جاء المصريون إلى البلد انقلب حال البلد. تكون قاعدةً في فيء الجميزة تمشط شعرها بلا منديل، فتراهم بغتةً يظهرون في الجانب الآخر من «طريق عبد الجواد» يتفقدون قطعة الأرض، وبعضهم في الزيّ الافرنجي. حتى أن بعض الجنود يبول واقفاً هناك، بين العقدين الحجر!

منذ جاء المصريون إلى بيروت عجّت الأسواق بالغرباء. في طريقها إلى بيت أهلها داخل باب يعقوب يُخيل إليها أحياناً أنها ضلّت الدرب، أنها دخلت الزقاق الخطأ. لكنه الزقاق ذاته! ذاته

ولكنه تغير. كل هذه الأسواق تتغير. حتى المتجر الذي يملكه أبو شاهين مناصفة مع أخيها خالد والتاجر الحلبي، حتى ذلك المتجر لم تعرفه حين رأته من جديد.

أبو شاهين حدّثها عن الزحمة في المطعم. وعن البضائع الغريبة التي تُحمل بالمواعين من السفن الراسية إلى الأرصفة. هي، أم شاهين، لا تذهب إلى تلك الأنحاء. بعيدة عنها خطوة، لكن ماذا تنزل تفعل هناك؟ إذا خرجت من الزاروب مضت إلى بيت أهلها. لا تحتاج أن تشتري غرضاً من دكان. أبو شاهين يرسل لها كل شيء. إذا خرجت من الزاروب فإلى بيت أهلها، إلى «دار البرتقال». وفي الأعياد تذهب إلى المقبرة أيضاً. وهذا كل خروجها.

أم زهرة جعلتها ذات صباح تطلع معها إلى سطح البيت وراء الأشجار. من فوق، من فوق السطح الثاني، سطح الغرفة المبنية بالحجر الأبيض المقصب، رأت المنظر العجيب: رأت الميناء والدكاكين وزحمة الحمّالين والصناديق والبضائع المحزومة والحمير والبغال والمراكب المقلوبة والأولاد والتجار. أم زهرة دلّتها عندئذٍ إلى مئذنة الدباغة ثم نزلت باصبعها نزولاً وزاحت ذراعها صوب البحر أيضاً. قالت:

ـ هناك.

لم تفهم صفية الفاخوري البارودي ما تعنيه ضرّتها النابلسية.

كانت الأصبع مصوبة إلى سوقٍ تزدحم بالناس والحمير وأقفاص الدجاج والقطن المتطاير والدخان ـ الذي يرتفع في غيوم ثم يتبدد ـ والمقاطف المملوءة ثمراً، والسلال التي تبرعط فيها أسماك وحيّات ماء. كانت الأصبع المزينة بخاتم فضة تشير إلى مشهد لا تصدقه العين. أهذا هو السوق الذي تغير، السوق الذي يحكي عنه المعلم

عبد الجواد؟ كان مشهداً عجيباً. وأحسّت أنها أخطأت وأذنبت حين رأته. أم زهرة كرّرت مرة أخرى:

ـ هناك!

صفية الفاخوري البارودي قالت إنها ترى السوق، وقالت إنها سوق كبيرة كما تكون كل سوق كبيرة، وهذا كل ما في الأمر، فماذا تريدها أم زهرة أن ترى أيضاً؟

ـ لا، لا، ليس السوق. انظري هناك!

كانت تدلّها إلى المصطبة المستطيلة، بكل تلك الكراسي الخشب والطاولات الخشب، أمام حانوت المعلم عبد الجواد.

تغيب الشمس ويتعالى عواء الذئاب من وراء الأسوار. أم شاهين تغطي الولدين جيداً وتخرج لتقف أمام الباب. أبو شاهين يتأخر هذه الليالي في الرجوع. ينام مرات هنا، وينام مرات عند أم زهرة والبنات. البيت الثالث أوصده بالقفل والمفتاح. غسلوا أرضه بالكلس المذاب في الماء ثم أقفلوا الباب. تحت شجرة الجوز أحرقوا ثياب المرحومة هيلانة.

تغيب الشمس ويرتفع نقيق الضفادع حول البركة خلف البيت. تتلاشى الضجة في سوق القطن رويداً رويداً. لكنها تستمر ساعة أخرى وراء فم الزاروب. ترى رجالاً يعبرون «الفشخة» ولا يتوقف عبورهم حتى بعد حلول الظلام. تراهم الآن يعبرون مع المصابيح المشتعلة. وتسمع وقع خطاهم على الحجارة. أبوها الحاج عضو في المجلس الذي يفرش منذ شهور أزقة بيروت بالحجارة والبلاط. بات وقع النعال يختلف عن أيام زمان. لكنهم لن يُبلطوا كل الأزقة. باشروا بسوق الفشخة، وبعد «الفشخة» قد يبلطون طريق سوق القطن المنحدرة إلى الميناء. الأمير محمود نامي عاش في بلاد الفرنجة.

يقولون إن كل الدروب في باريز مبلطة بالرخام. يقولون إن طرقهم تبقى منارة في الليل. يُعلقون الفوانيس من أشجار مزروعة جنب الطريق وتبقى الفوانيس مشتعلة كل الليل. ولا أحد يسرقها. ولا أحد يكسرها. وكل الدروب نظيفة كأنك قاعد في البيت.

تغيب الشمس ويرتفع عواء الذئاب في البرية ويُسمَع موج البحر. أم شاهين تغطي الولدين جيداً، تلتف بجبّة أبي شاهين الصوف القديمة، وتخرج لتقف أمام البيت. توارب الباب خلفها لئلا يبرد الولدان. تقف في الظلام، تقضم حبّة تين مجفّفة، وتنتظر. أبو شاهين يتأخر في العودة هذه الأيام. قبل خمس ليالٍ رأته آتياً مع رجلين. وقفوا في فم الزاروب لحظة. ثم تابع الآخران الطريق، ذاهبين في سوق الفشخة باتجاه «العطارين». تراجعت أم شاهين إلى خلف. لئلا يراها أبو شاهين فينهرها مرة أخرى لأنها تعرض نفسها لبرد الليل، واقفة في الظلام في العراء.

تغيب الشمس وتخرج أم شاهين لتقف أمام البيت. الظلام هبّط على الأشجار وعلى البيوت بين الأشجار. هبط الليل على البلد وشاهين راح إلى البعيد.

يقولون رأوه في ديار بكر، أين هذه؟ وأبو شاهين لم يرجع إلى البيت بعد. قبل ليلتين رأته آتياً. كانت تعلم أن هذه ليلة أم زهرة وليست ليلتها. تراجعت إلى الداخل وردّت الباب. ألصقت أذنها بخشب الباب الأليف الملمس الأليف الرائحة وانتظرت خطوته. تغيرت خطوة المعلم عبد الجواد. لعله لا يعلم ذلك. أمّا هي فتعلم. تغيّرت خطوته، خطوته هنا، على الدرب التي لم تتبدل، ولم يبلطها أحد، تغيرت خطوة المعلم عبد الجواد. مذ رحل الولد عن البلد تغيرت خطوته. لعله لا يعلم ذلك. أمّا هي فتعلم. وتغيرت أكثر أيضاً بعد أن ماتت المسكينة. لم تحبّها. لم تجدها

قريبة إلى القلب. ولم تعرف يوماً ماذا رأى أبو شاهين فيها. بنت كالقصبة الممصوصة. بنت كقضيب الرمان برأس عصفوري صغير وليس فيها ما يجذب ولد. كيف تزوجها أبو شاهين؟

لم تحبّها. لكنها مسكينة. مسكينة ولا تنسى الرائحة التي كانت تفوح من شعرها، ولا تنسى الشرايين بلون النيلة الزرقاء في ذراعيها وساقيها. مسكينة. وخطوة المعلم عبد الجواد تبدلت.

ألصقت أم شاهين أذنها بالباب وسمعت الخطوة وسمعت التردد في الخطوة وسمعت الحزن في الخطوة وسمعت العرَقَ الزحلاوي الملعون في الخطوة وسمعت الحيرة. ثم ابتعدت الخطوات من جديد. أم شاهين انتظرت الوقت الكافي ثم جذبت الباب على مهلٍ، واربته بما يكفي لخروج جسمها، وأطلت على الدرب البيضاء الخالية وعلى أغصان الجميزة المرتجفة في نسائم الليل.

على غير عادته مكث أبو شاهين وقتاً واقفاً تحت التوتة، قدام البيت الثاني. أم شاهين استغربت ذلك، لأنها تعلم أن أم زهرة تنتظره الآن لا بدّ تحت القنطرة الحجر. تعلم ماذا ترتدي أم زهرة الآن وتعلم ماذا تمدّ على السماط في الغرفة البيضاء العالية. رأتها تقطف ورق العنب، ورأت صبي الجزّار مقبلاً عند الظهر والكلاب تنبح على اللحم وعلى اللسانات وعلى عظام السلسلة في مقطفه. تعرف ماذا طبخت أم زهرة لأبي شاهين وتعرف أنها تنتظره منذ ارتفع صوت لطف اللّه يؤذن العشاء. من مكانها في الحديقة ترى المؤذن حين يعلو المئذنة المستطيلة. تراه قبل أن يرفع الأذان. ترى حركة يديه. ترى ثوبه الكحلي. وترى عمامته البيضاء يفردها ويرتبها أو يصلحها على رأسه. من هنا تراه.

أم شاهين نظرت إلى أبي شاهين واقفاً في ظلال التوتة (للوهلة الأولى لم تَرَه. نور النجوم كان ضئيلاً. وأغصان التوتة تتدلى مثقلةً

بالورق وبالهزّاز الأبيض العسل). نظرت إليه واقفاً كفزاعة الحقول واستغربت وقوفه الطويل. الصدمة حلّت عليها حين رأته يتابع الدرب باتجاه البيت الثالث الموصد. اختفى عن نظرها.

أخفته الغيوم وأخفته المسافة وأخفاه الظلام. اختفى ولم يرجع. أم شاهين انتظرت إلى أن بدأ بالها ينشغل عليه. وأم زهرة ألم ينشغل بالها عليه؟ قالت أم شاهين في سرّها إن ضرّتها العبيطة غفت ونامت في الغرفة البيضاء العالية بينما تنتظر. نامت ولا بدَّ أنها تشخر الآن غارقةً في رائحة الكوسى وورق العريش.

فعلت أم شاهين عندئذٍ شيئاً سوف تندم عليه: لحِقت بزوجها. حافية القدمين أسرعت على رؤوس أصابعها إلى التوتة. وقفت لحظة في الظلام ونظرت إلى البيت المظلم وإلى نور سراج يتلاعب وراء درفة النافذة المواربةَ في الغرفة البيضاء التي تعلو البيت. كان عليها في تلك اللحظة أن تدور على نفسها وتعود من حيث جاءت وتدخل إلى بيتها وترد الباب وتُسقط المزلاج وتنزل تحت البطانية وتخلد إلى النوم. كان عليها أن ترجع من حيث أتت. لكن بالها المشغول دفعها إلى مطاردة الرجل. بالها المشغول عليه فعل بها ذلك.

وجدته قاعداً على التراب أمام الباب الأسود، ورأسه في يده، يرتجف بالبكاء من دون أن يصدر عنه صوت.

على رؤوس أصابعها، العالم غائم في عينيها، والشوك يملأ حلقها، رجعت أم شاهين من حيث أتت. بعد هذه الليلة لن يكون أبو شاهين أبا شاهين القديم نفسه. تبدّل في عينيها إلى الأبد. على فراش الموت، قبل أن تلفظ روحها، ستستعيد صورته باكياً في الظلام. ستستعيد صورته هذه وستضغط على أصابع ابنها بيدٍ تُغادرها القوّة ثم توصيه بأبيه.

لكن قبل أن يأتي الموت إلى بيت صفية الفاخوري البارودي أتت الإشاعات. أتت الأخبار الكاذبة وأتى القلق وأتى الخوف وأتى الأرق وأتت الأخبار المتناقضة وأتى الانتظار الذي لا ينتهي. أين شاهين؟ في أي أرضٍ يخطو الآن؟ في استانبول أم في حوران؟ ماذا ترى عيناه الحبيبتان؟ ماذا يأكل؟ ماذا يفعل بثوبه إذا اتسخ؟ هل ينام ليله في العراء؟ اللّه يحميك يا ابني يا شاهين ويزيح أولاد الحرام من دربك. اللّه يحميك ويُبعد عدوك إلى وراء البحر.

صلوات صفية الفاخوري البارودي خفّفت كربها، لكنها لم تبعد عدو ولدها البكر إلى وراء البحر. مَن كان عدو شاهين أصلاً؟ إبراهيم باشا؟ العساكر المصرية؟ الأمير خليل شهاب ابن الأمير بشير؟ الأمير بشير؟ سليمان باشا الفرنساوي؟ الأمير محمود نامي؟ كل هؤلاء معاً؟ ضد من يحارب شاهين البارودي؟ ولماذا يتبع السلطان في استامبول ولا يتبع الوالي في القاهرة؟ الرجل (الفتى) أراد في البدء أن يلتحق بعساكر إبراهيم باشا في السراي في سهلات البرج!

صلوات صفية الفاخوري البارودي لم تبعد العساكر المصرية عن البلاد. ماتت أم شاهين قبل أن يقصف الأسطول الإنكليزي ـ النمساوي أسوار بيروت. ماتت قبل معركة بحرصاف. ماتت قبل فرار الأمير بشير بالبحر إلى مالطة (مالطة التي تعجّ بالماعز. مالطة التي تعجّ بالقراصنة). ماتت قبل أن يغادر الأمير محمود نامي بيروت التي أرادها ـ عبثاً ـ أن تكون نظيفة. (لم يقل أبداً إنه أرادها نظيفة كجوهرة. قال يريدها «نظيفة كعاصمة الفرنسيس»، كباريس حيث درس الرياضيات طوال عامين في دفعة رافع رفاعة الطهطاوي، باريس التي لم تكن يوماً نظيفة!).

صلوات صفية الفاخوري البارودي لم تبعد عدو ولدها إلى وراء

البحر إلاَّ بعد فوات الأوان. شاهين البارودي لن تُكتب له النجاة. لكن قبل أن تحين تلك الساعة، عرفت صفية لحظات هناء ولحظات شقاء. وعرف بِكرها الغائب عن بيروت لحظات مماثلة. أبو شاهين أيضاً أعطته الأيام (الوقت الشافي) أن يخرج من أحزانه وأن تعود البسمة إلى شفتيه.

كان صيفٌ لاهبٌ آخر ينتهي. بعد المطرة الأولى في أيلول (سبتمبر) تنفست الأرض. رائحة الجو تغيرت. هبّت نسائم الخريف من البحر، ثم من الجبل، وظهرت الغيوم الداكنة السمينة في السماء. البساتين تبدل لونها من الأخضر إلى الأصفر والأحمر والبرتقالي. على سطوح البيوت اشتعلت خضرة جديدة بين العشب الأصفر الذي أيبسته شمس الشهور الفائتة وأحرقته. بعد مطرةٍ أخرى لمعت الحجارة في «سوق الفشخة». الحجر البحري الذي بُلِط به ذلك السوق، للمرة الأولى في تاريخ بيروت، كان أبيض ضارباً إلى الرمادي. بعد زمنٍ طويل، في عصور الانتداب الفرنسي، سيُحمل إلى المدينة الحجر البركاني الأسود في القطار وفي شاحنات الجيش الكبيرة فيفرش به هذا السوق الذي اتسع وبات يعرف باسم الجنرال الفرنساوي مكسيم ويغان. هذا الشارع، مثل كل الشوارع المجاورة، سيُبلط بالحجر البركاني الحوراني القاتم ذاته. في حرب السنتين (1975 ـ 1976) سينزف أحد أحفاد أحفاد زهرة البارودي نقوزي دمه على هذه الحجارة. سيرى الموت يرسم باللون الأحمر متاهة خيوط لزجة تتشعب بين البلاطات السوداء الحامية تحت وهج الشمس. لكن هذا الحفيد الكبير لن يفكر عندها ولو للحظة واحدة (وكيف للمسكين طالب السنة الأولى فرع الرياضيات في الجامعة اللبنانية أن يدري بهذه الأمور المدفونة في ظلمات التاريخ المترب البعيد؟) لا لن يدري أكرم مدحت نقوزي (19 عاماً) أنه كان حينئذٍ يكرر مشهداً

من حياة قديمة لم يعشها هو، بل أحد أخوة جدته الكبيرة من أبيها، وأن ذاك الرجل القديم بدوره نظر تحت شمسٍ وهاجة إلى خيوط الدم التي انسربت من جسمه الضخم تكرج على الحجر الأسود الساخن المحروق فيرتفع منها بخار تُدوِّخ رائحته. لفَّ البخار رأس الرجل وأسقطه في نوم عميق مطروحاً على جنبه فوق سهلٍ من الحجارة البركانية السوداء، ليس في سوق الفشخة في باطن بيروت، بل في موطن تلك الحجارة، في جرود اللجاة النائية، حيث تتباعد أدغال شوكٍ وأشجار قطلبٍ وبطمٍ وبلوط.

كان صيفٌ آخر ينتهي. حلّ الخريف. وراء سهلات البرج، في محلة الكراوية، انخفض منسوب المياه في بركة النبع. مع نهاية كل صيف تشح المياه. البغال والحمير تواصل الدرب عندئذٍ محملةً بجرار الفخار وقرب الجلد (المصنوعة في سوق الدباغة) فتتسلق الهضبة بغاباتها المتجاورة إلى أن تبلغ مصدر الماء في «رأس النبع». هنا المياه أقوى منها في الأسفل. بينما الجرار تمتلئ بالمياه يحمل الهواء صرخات من أسفل الهضبة: مياه الكراوية تعتكر الآن، تمتزج بالوحل والقش. كانت تلك لعبة مفضلة بين ألعاب الأولاد في ذلك الزمن البعيد: أن يرموا حبّات كرزٍ في رأس النبع، في المياه التي تفور باردة وتخبط جوانب الحوض الحجر وتنزل في جوف الأرض، ثم أن يرفعوا أثوابهم ويهبّوا منحدرين كأنهم يتدحرجون على سفح الهضبة بين الصخور وشجر السنديان وجبوب الوزال والقندول إلى أن يبلغوا محلة الكراوية عند حافة السهلات (حيث يعبر جسر فؤاد شهاب اليوم ملقياً ظلّ الإسمنت على شارع بشارة الخوري). كانوا يبلغون الكراوية لاهثين ليروا حبات الكرز الحمراء وتلك السوداء بالبقع البنية الخشب عليها (حيث تنقرها العصافير فيلجها شعاع الشمس ويضاعف الحلاوة فيها)، وهي تنبثق من قلب الصخر مع

شلال الماء الصغير. أحياناً تضيع كرزات في قلب الأرض. لا يأكلها بعد ذلك أحد.

كان صيفٌ آخر ينتهي. قُطِفت مواسم الفاكهة. وحدها «الخُرمة» ما زالت على الشجر المغبر تنضج رويداً رويداً في رطوبة الخريف، أو يقضمها السوس فتهوي على التراب المغطى بالورق. الخراف تُعلف وتسمن بالعشب وبالموسم الخريفي من ورق التوت. البنت الصغيرة نرجس تقود معزاةً بلون الفحم وأخرى بلون الكلس ذات لحية شبه حمراء إلى الحقل وراء «طريق عبد الجواد». تقعد في ظلّ شجرة سنط وتنظر إلى العنزتين تقضمان رؤوس الأوراق وترفعان ثغاءً كسولاً مديداً في الظهيرة الساكنة. الغيوم تتباعد بيضاء كلسية في الأعالي وتنشر ظلالاً منعشة على البلد وعلى الحواكير. عصافير الدوري تصخب في الجميزة. الموسيقى تصمّ الآذان. لكن زقزقة العصافير لا تبلغ القاعدين في باب الميناء.

مطعم المعلم عبد الجواد يغرق في صخبٍ من صنفٍ آخر. صارت الباحة المرصوصة التراب بين مصطبته وبين الجامع القريب محطة للقوافل. واقفاً بين المناقل، وفي يده لوح خشب يُلوح به على الجمر، كان المعلم عبد الجواد أحمد البارودي يرى كل ما يأتي إلى الميناء وكل ما يخرج منه. رأى كل ذلك وبدأ يقلب خططاً جديدة في رأسه، بينما يقلب أفخاذ الدجاج التي تحمرّ على الشبك الحامي الأحمر فوق الجمار.

المحجر الصحي (الكرنتينا) الذي بُني بالتوافق بين المصريين والقناصل الأجانب حوّل كل تجارة بلاد الشام الخارجية إلى بيروت. صارت بيروت باب دمشق (حيث استقر إبراهيم باشا)، وباب بلاد الشام كلّها. سرقت بيروت تجارة عكا وسرقت تجارة يافا وسرقت تجارة صور وسرقت تجارة صيدا وسرقت تجارة طرابلس وسرقت

تجارة كل المرافئ إلى الشمال. صارت بيروت باب دمشق وحوران على البحر وصارت باب بلاد الشام. لا ترسو سفينة على الساحل السوري قبل مرورها في الكرنتينا. ولا تنزل بضاعة أجنبية في المرافئ قبل أن يراقبها موظفو المحجر الصحيّ. الفتح المصري سيضاعف عدد السكان في بيروت ويغيِّر وجه البلد نهائياً.

عبد الرحيم البارودي سيروي أمام أولاده بعد سنوات أخباراً كثيرة عن تلك الأيام وعن السنوات الأولى للصخب التجاري في المدينة. بعد أن تعلم القراءة والكتابة بات يرافق أباه وأخاه الأصغر إلى المطعم المزدهر أسفل سوق القطن. الأب لم يكن يكلفه بأعمال بل يتركه ليفعل ما يشاء. عبد الرحيم لم يكن يفعل شيئاً. علَّم نفسه الجلوس على الكراسي كما يجلس الإفرنج والتجار النصارى الكبار (الخواجة ميشال فرعون؛ الخواجة سليم سرسق؛ الخواجة أنطون بسترس؛ الخواجة حبيب بربارة ترجمان القنصل الفرنساوي غيِز؛ الخواجة انطوان فياض).

صار عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي يجلس على الكراسي (ينتقل بينها بحسب حركة الشمس، ليبقى في الظلّ في زمن الحرّ وفي الشمس في زمن البرد)، يسمع حكايات القاعدين على مصطبة أبيه، ويتأمل الإبل والبغال والسفر والمواعين والطيور والحيوانات والبضائع والبشر.

كان ذلك زمن الاكتشافات العجيبة والاختراعات التي لا يصدقها عقل: صندوق يُفتح فتخرج منه أصوات أجمل من صخب الدوري في الجميزة، أجمل من صخب الحسون في حقول الشوك، وأجمل من صخب الشحرور و بو الحنّ في جلول الزيتون. صندوق يُفتح فتصدر منه زقزقة آلية وتُرى بنت أجنبية في ثوبٍ أبيض تدور على قرصٍ مخملٍ وترفع ذراعيها الصغيرتين الرفيعتين أمام مرآة.

وأي مرآة! مرآة بلا غبش، بلا شقوق، بلا خطوط رصاص. مرآة إذا نظرت فيها رأيت وجهك صافياً، وإذا رفعتها رأيت فيها كل السوق.

كان ذلك زمن الاكتشافات العجيبة والاختراعات التي لا يصدقها عقل. حين استقدم القنصل شاسود أثاثاً جديداً للبيت الذي بناه في حيّ الإفرنج تجمدت الحركة في سوق القطن. كل التجار، كل الصبية، كل المعلمين، تجمهروا في باب الميناء. لم يبقَ ندافٌ عجوز بين كوم القطن والبالات المثقوبة والأقواس والفرش في مداخل الدكاكين والأقبية. لم يبقَ مخلوقٌ في السوق إلاّ وانحدر إلى باب الميناء ليرى بعينيه الاثنتين هذه الأشياء التي يحكون عنها والتي لم يُرَ مثلها في هذه البلاد قط. كانت المواعين والمراكب تذهب إلى السفينة الإنكليزية الراسية على بعد سبعين متراً وراء الصخور ثم تعود محملة بالعجائب. حين أنزلوا من الماعون شيئاً له شكل الباب، لكنه ملفوف بالقماش ومحزوم بالحبال (من يلف باباً بالقماش ويحزمه بالحبال؟)، شقّ عبد الرحيم طريقه وسط الزحمة ليرى ما عساه يكون هذا الشيء. القنصل شاسود كان واقفاً بعظمه وشحمه بين الحمّالين، يصدر الأوامر بالعربية الثقيلة وبلغة أخرى لا يفهمها أحد (لغة سيتعلم عبد الرحيم أن يفهمها بمرور الوقت، لكنه لن يتكلم بها إلاّ قليلاً). يُنبّه عليهم لئلا يكسروا شيئاً. يقول هذا نحمله على البغال. يقول ذلك على الظهور. وذاك في اليد. البيت ليس بعيداً. مسافة عشر دقائق مشياً ليس أكثر.

أحد التجار أشار إلى الباب الملفوف بالقماش الأسود والمحزوم بالحبال: ما هذا؟ القنصل شاسود لم يهتم. كان منشغلاً بأمور أخرى. مراقبة عمل الحمالين، التأكد من البضاعة ووصولها سليمة، ولكن أيضاً: مراقبة دهشة الأهالي أمام الكنبات الخشب (كيف لو شاهدوها وقد صُفت عليها مساند المخمل؟)، الدهشة أمام الخزائن

الخشب (كيف لو عرفوا أن هذه الأبواب تفتح وتغلق متى أزيلت الحبال، وكيف لو عرفوا أن في داخل الخزائن رفوفاً وعلاقات للقمصان والسترات؟)، الدهشة أمام التماثيل الخزف والزجاج والمعدن والعاج، أمام الصناديق الضخمة بسيور الجلد وبكلات النحاس التي لو فتحت هنا يتضاعف هذا الضجيج حتى يبلغ السماء: ماذا لو أبصروا الشراشف والثياب الغريبة واللوحات الزيتية ومجموعات الفراشات المحنطة وعلب الشاي الفضية والأباريق الفضة والأكواب الخزف والملاعق الفضة والسكاكين الذهب... والصحون، صحون الزجاج المدورة وقد رُسِم في قعرها مرجٌ أخضر وفي المرج ثلاث بقرات وخروف وكلب من فصيل الراعي الألماني وفي الزاوية كوخ من الخشب الأميركي الأحمر ومن سقف الكوخ تظهر مدخنة بلون الصلصال المحروق ومن المدخنة يخرج دخان بلون الكستناء وفوق الكوخ والمرج والأبقار والخروف والكلب رُسمت سماء أميركا التي لا تُحد، سماء شاسعة بلا بداية ولا نهاية، لا جبال تحد نظرك، ولا هضاب ولا أسوار، سماء لا نهائية، وفي السماء رُسمت غيمة واحدة صغيرة، غيمة بلون الثلج على قمم كولورادو، غيمة رُسِمت لسبب واحد فقط، لكي يظهر أزرق السماء أشد دكنة، أزرق يتوهج كالياقوت، كحجر الكوبالت، وفي السماء الزرقاء اللانهائية رُسمت أيضاً (للسبب ذاته ربما) سنونات خمس من سنونات غابات كاليفورنيا. كيف لو شاهد الأهالي هذه الصحون البيضاء العجيبة، بالرسوم الملونة في قعرها؟

لكن التجار كانوا عندئذٍ يتحلقون حول ذلك الباب (هل هو باب؟) الملفوف بالقماش والمحزوم بالحبال. كان القماش قطناً أبيض غير مدبوغ، عاجي اللون تقريباً. وكانت الحبال حبال بحر متينة، مجدولة جدلاً عنيفاً، وعليها آثار قاتمة من الأيدي المتعرقة.

أحد التجار كرّر سؤاله على القنصل شاسود: ما هذا؟ والقنصل استدار وحين رأى ما يشيرون إليه بالأصابع ابتسم ثم أشاح بوجهه غير مبالٍ.

ـ ولكن ما هذا؟

القنصل شاسود وجّه كلامه عندئذٍ إلى أحد خدمه من الأهالي (أو لعله أحد التراجمة):

ـ But you've seen this already!

ثم بالعربية:

ـ تعرفون! تعرفون!

كان يعني أن الأهالي شاهدوا هذا من قبل وأنهم يعرفونه. لم يكن يريد أن يفكّ الحبال، ولا أن يزيل الغطاء، ولا أن يضيع الوقت. تأخر ويريد الذهاب إلى البيت، ليخلع الحذاء ويتخلص من جوربي الصوف (حتى هذه الجوارب لم يبصروا مثلها من قبل) ويرفع ساقيه على الطاولة المدوّرة الصغيرة بسطحها العاج المعمول مربعات بيضاء وسوداء مثل رقعة شطرنج (وهذه أعجوبة أخرى!) وينظر إلى السقف الحجر المستوي (لا يسقفون هنا إلاّ بجسور الصنوبر وفوق الجسور يُلقون الخشب والتراب والطين، وإذا بنوا سقفاً حجراً جعلوه مائلاً مقوساً غير مستوٍ!) ويرتاح من الضجة وينام قليلاً قبل أن تحين ساعة الشاي المقدسة (لا يعرفون الشاي! لم يشربوا شاياً في حياتهم كلّها! يعرفون القهوة، بلى. لكن الشاي لا. أبداً. يقطفون من شجر الكينا زهراً، ومن الحقول أزهاراً أخرى، ثم يغلون كل ذلك ويشربونه مع العسل أو دبس العنب ويحسبونه شاياً!). تأخر والشمس تميل في السماء ويريد أن يمضي إلى البيت. لكنهم يحيطون به، كالاسوارة حول المعصم، ويسألون:

ـ ما هذا؟

قال القنصل شاسود فارغ الصبر:

ـ Fine! fine!

ثم:

ـ طيب! طيب!

وبتلويحة من يده سمح لخادمه الخاص أن يفكّ القطعة الغامضة التي تشبه باباً. لكن الخادم عجز عن فكّ العقد البحرية. عندئذٍ ناوله عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي سكيناً يفوح برائحة اللحم.

قطع الخادم الحبال متأففاً، من صعوبة العمل، أو ربما من رائحة السكين القوية. القنصل شاسود تقدم حينئذٍ خطوة (تراجع الجميع لكي يمر) وأزاح بنفسه الغطاء عن القطعة الغامضة المنتصبة كالباب وقد أخفت خلفها جانباً من السفينة الراسية وقسماً من البحر ومن السماء معاً.

القنصل انتصب باسماً ابتسامة حزينة: ما هذا المكان البائس الذي حلّلت فيه، بين كل هؤلاء البدائيين الذين يحيون خارج العالم؟ لست مكرّزاً مثل أصدقائي المبشرين، لست حتى إنجيلياً صارماً، فماذا أصنع بأيامي هنا؟ ثم أنزل القماش عن القطعة المستطيلة الغامضة. القطعة المستطيلة لم تكن باباً. كانت بمساحة الباب لكنها لم تكن باباً ولم تكن خشباً. كانت شيئاً اعتقد القنصل شاسود خطأً أن الأهالي قد أبصروا مثله من قبل. لكن ذلك الإعتقاد لم يكن دقيقاً. عبد الرحيم البارودي ذاته أصيب بالصدمة. كان رأى ذلك الصندوق الصغير، صندوق الموسيقى وراقصة الباليه التي تدور ويدور معها انعكاس سحري في قطعة زجاج صغيرة يسمونها مرآة.

لكن تلك القطعة العاكسة شيء، وما يراه الآن شيء آخر، شيء مختلف تماماً. إنه كالفارق بين حفنة ماء تجمعها في باطن يدك، وبين نهرٍ صاخب يتدفق عارماً أمام عينيك ويقطع السهول والمنحدرات.

عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي لن يضجر من تلاوة تلك القصة على أولاده. عبد الغني البارودي سيحكي لسليمان بسترس أشياء كثيرة عن أبيه عبد الرحيم. وسينقل إليه (وفي الختام: إلينا) قطعاً من الماضي حُفِظت من الزوال ومن التلاشي التام. (الوقت يمضي والعالم يتبدل بلا توقف، يبقى على حاله ويتبدل بلا توقف، وكل شيء يتلاشى ويضمحل ويضيع. ماذا يبقى اليوم من هيلانة جروة البارودي غير هذه الكلمات الفاترة وغير وثيقةٍ محفوظة في مكتبة تشبه المتاهة، وثيقة هي قرطاس أصفر سميك حائل اللون يقرضه العثّ وتتبدّد حروفه القاتمة الحبر، رويداً رويداً: «حضرت الحرمة المرأة النصرانية المدعوة هيلانة جروة وجاءت راغبة في دين الإسلام ونطقت بالشهادتين العظيمتين الشريفتين المستوفيتين شرايطهما الشرعية وأعلنت بهما جهراً وتبرأت من كل دين يخالف دين الإسلام دين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وصارت للّه الحمد مسلمة لها ما لنا وعليها ما علينا تحريراً في الخامس عشر خلت من ربيع الثاني سنة 1251».).

القنصل جسبر شاسود الواقف في بذلته الإفرنجية البيضاء، بقبعة طليانية زرقاء على رأسه وابتسامة حزينة تنيرها شمس الظهيرة الثابتة فوق مئذنة الدباغة الخشب، أسقط الغطاء العاجي اللون عن القطعة الغامضة التي بمساحة باب. أسقط القنصل الغطاء فشعشع نورٌ. كان نوراً فظيعاً حاداً وقع في عيون الأهالي كالنار الحارقة. عبد الرحيم بن

عبد الجواد أحمد البارودي رأى عندئذٍ أكبر مرآة في هذا العالم. كانت مرآة تحتشد بالبشر وبالوجوه المدهوشة. لكن الوجوه سرعان ما اختفت متراجعةً إلى هذا الجانب، وإلى ذاك الجانب. أفزعهم المنظر الواضح لوجوههم التي لم يبصروها من قبل. أفزعهم النور الأقوى من نور الشمس العالية. وأفزعهم العالم المربك الذي ظهر كاملاً مكرراً في أعماق المرآة.

عبد الرحيم البارودي بقي واقفاً جامداً أمام المرآة. لم يبتعد. بعينين متسعتين كثقبين أسودين امتص عبد الرحيم البارودي إلى أعماق جمجمته كل تلك المناظر. لم يرَ الخشب الأميركي اللامع المصقول الذي يؤطر المرآة. لم يرَ حتى المرآة. كان يحدّق إلى أعماق الباب الذي فُتح أمامه، إلى كل تلك المناظر المسحورة. مناظر مألوفة طالما رآها، لكنها بانت له الآن مختلفة تماماً كما يحدث له حين يرى أهله أو بيته (أو «طريق عبد الجواد» البيضاء) في المنام. كل الأشياء تبدو مختلفة في المنامات. كأنها هي. ولكنها مختلفة أيضاً. فيها سحر، فيها ليونة، كأنها توشك ـ في أي لحظة ـ أن تسيل وتتحول إلى شيء آخر. عبد الرحيم البارودي كان يحسّ بكل هذه الأحاسيس ولا يعرف كيف يلفظ ذلك في كلمات واضحة. ولعله لم يكن يهتم. الفتى كان قليل الكلام. يسأل أسئلة غريبة أحياناً، لكنه في العموم قليل الكلام. ويبدو لزوجة أبيه سهيلة النابلسي البارودي بليد الذهن بعض الشيء.

عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي، وكما سيظهر لاحقاً، لم يكن ولداً بليد الذهن. في تلك الظهيرة البعيدة وقف أمام مرآةٍ هائلة حُمِلت إلى هذه البلاد عبر المحيطات والبحار ورأى أشياء لا تحصى ولا نستطيع أن نتخيلها الآن. رأى وجوهاً تطلّ وتسترق نظرة ـ شبه بلهاء ـ ثم تختفي من جديد. رأى قطعة زرقاء من

السماء. رأى سرب حمام يعبر فوق شجر السنط وفوق دكاكين الندافين وفوق الجميزة التي انكسرت في الشتاء فسقط نصفها وراء بيتهم. وقعت أغصانها في بركة الماء، ودفنت بعيدانها وأوراقها مسكبة النعناع (ليست مسكبة فعلاً. بل دغلاً من النعناع ينمو لصق حائط البركة الذي ينشّ ماء طوال الصيف وطوال الشتاء). رأى كوم القطن الأبيض والرمادي أمام الدكاكين العقد العميقة المظلمة. رأى جانباً من الجامع، ورأى المداسات والنعال والكنادر والصرامي أمام الباب. رأى أولاداً يظهرون خلفه واحداً تلو الآخر، باسمين. ثم رآهم يضحكون. كانوا يعملون وجوهاً أمام المرآة ويرفعون أصابعهم أو شفاههم وينظرون إلى أسنانهم وإلى حركاتهم في المرآة. ثم بدأ الكبار يظهرون أيضاً. رآهم يبعدون الأولاد جانباً وينظرون إلى وجوههم، إلى هندامهم، وإلى العمامات والطرابيش على رؤوسهم. ابتسموا أيضاً. لكن في حيرة. والأولاد ضحكوا بلا حيرة.

رأى عبد الرحيم البارودي كل تلك الوجوه المألوفة: يوسف بيهم؛ خالد أفندي؛ سعد الدين القباني؛ حسن بيهم ابن عمر بيهم رئيس مجلس شورى بيروت وصديق جده الحاج مصطفى؛ الخواجة الياس طراد؛ عارف بك؛ الشيخ عبد الرحمن النحاس؛ ندّافو القطن عبد الباسط وكمال الدين ومصباح وصالح وعبد اللطيف ونجيب وهارون الذين يسمونه الأقرع؛ الكندرجي حسين هلال؛ بائع السمك والحنكليس الصياد الدرزي أبو سليمان محمد نجّار الذي يريد أن يبني بيتاً وراء «الطريق البيضاء» مقابل بيتهم والذي اشترى الأرض من ابن النصولي صاحب كرخانة النصولي لكنه لم يبنِ البيت بعد؛ مؤذن جامع النوفرة محمد بيرم حمادة قريب السيد عبد الفتاح بك حمادة الأعلى مقاماً من السيد عمر بيهم والذي لا أحد فوقه في إدارة بيروت إلاّ الأمير نامي ذاته، ورغم علو شأنه لا يسمّونه السيد عبد

الفتاح بك بل السيد فتيحة؛ الخواجات باحوط وثابت وقنديل أصحاب معامل المناديل، ثلاثة رجال لا يظهر أحدهم إلاّ في صحبة الآخرين كأنهم في خوفٍ دائم أن يسرق أحدهم الاثنين الباقيين؛ الخواجة نقولا منسى المشهور بالاستقامة، يوزع ـ مثل أبيه عبد الجواد ـ مالاً على الأرامل والأيتام؛ سماحتلو الشيخ رشيد عزت الولي عنده 19 صبياً أحدهم يدعى مدحت كان يدرس معه في الكتاب ثم أرسله أبوه إلى أخواله في حمص؛ محمد أفندي الدنا صاحب المتجر الملاصق لمتجر البازركان الذي يملكه أبوه مع خاله خالد ومع ذلك التاجر النصراني الغريب النظرة: كأنه يرى بالعين اليمنى فقط، فعينه اليسرى جامدة كحبّة العنب على الأرض، لا يتحرك بؤبؤبها أبداً؛ عبد الرحمن بربير صاحب دكان النرابيج والأراكيل والتبغ والتنبك في سوق الفشخة، بالكحل على رموشه؛ الخواجة يوسف غبريل يتاجر مع الإنجليز ويبيع في محله صداري منسوجة في معامل منشستر؛ علي سلامة الذي مقابل كل حبّة تفاح يبيعها لزبونٍ يأكل حبّة، والذي لا يتوقف فمه عن اللوك حتى في منامه، لكنه رغم ذلك حبّاب ويعرف أشياء كثيرة عن بيوت بيروت وعائلاتها ولا يبخل بجواب عن أي سؤال، حتى ولو كان يجهل الإجابة؛ الخواجة هاني رعد الذي يستورد قوالب السكر الأميركاني ثم يقطعها ويبيعها بالمفرق؛ الخواجة رعد هاني الذي يفكر في منافسة الخواجة السابق الذكر لكنه الآن يعمل حمّالاً على المرفأ ولا أحد يقبل أن يناديه خواجة إلاّ بعض الأولاد الذين يخشون عضلاته؛ خال علي سلامة، رجل نحيل طويل يربي نحلاً، تخفق عباءته حول جسمه خفقاً؛ وكل هؤلاء الذين لا يعرفهم بالأسماء والمهن لكن وجوههم مألوفة أيضاً؛ الوجوه التي يعرفها ولا يعرفها، وجوه تظهر مع القوافل الآتية إلى البلد ومع السفن الآتية إلى البلد ثم تغيب

زمناً، ومرات تظهر من جديد ومرات تختفي ولا ترجع فيفكر أن خسارةً أصابتها أو مرضاً ولا يعرف هل يراها مرة أخرى!.

رأى عبد الرحيم البارودي كل تلك الوجوه في المرآة التي بمساحة باب ورأى المصطبة الحجر أمام حانوت أبيه ورأى الكراسي والطاولات ورأى التجار على الكراسي. كانوا ينظرون إلى هنا، ويشيرون بالأصابع، إلى المرآة ثم إلى الجمهرة الموزعة حولها. لم يرَ أباه عبد الجواد. ثم رآه. كان واقفاً عند حافة المصطبة، ولم يكن يحدّق إليه. بلى، ألقى نحوه نظرة، وأبصر المرآة أيضاً. لكنه سرعان ما عاد ينظر إلى كل تلك الحمير والبغال، الراقدة على الأرض والصناديق مرصوفة إلى جانبها، والأجولة تستند إلى الصناديق، وفوق الصناديق بعض القِرب والكوفيات. رأى عبد الرحيم البارودي أباه ذا الذراع الواحدة ينظر إلى رجالٍ حماصنة ناموا في حرّ الظهيرة بين البهائم، بأقدام حافية. ورأى الذبان يتطاير فوق الأقدام الحافية. رأى سرب الحمام يعود إلى قلب المرآة المسحورة، ويرسم قوساً، ثم يختفي مرة أخرى. رأى سوق القطن كلّه، ورأى البالات المحزومة، ورأى رجالاً يتحركون محملين بالصناديق والأكياس، ويتعثرون وينهضون ورأى بقرة يقودها ولدٌ في مثل سنّه، ورأى غزالاً حزيناً مربوطاً بالرسن إلى وتدٍ في جانب العنابر الخشب المشرعة الأبواب. رأى غباراً يتصاعد من أكياس حنطة، ورأى السوق يرجع إلى حركته. لم يسمع كلمات الناس وتعليقاتهم. وجدها تتكرر من فمٍ إلى فم ولم يجدها ذات قيمة. كان ينظر أمامه وتابع النظر وهو يرى خدم القنصل يُعدّون القماش لتغطية المرآة من جديد. أحدهم كان يمدّ إليه السكين. لكن عبد الرحيم البارودي كان يحدّق عندئذٍ إلى وجهٍ آخر في المرآة.

لم يكن يحدّق إلى وجهه. سبق له أن فعل ذلك. طوال الوقت

بينما ينظر إلى كل تلك الوجوه، إلى كل تلك المناظر، كان أيضاً يحدّق إلى وجهه. إلى العينين الواسعتين والأنف الصغير وثقوب الجدري الخمسة على الخد الأيمن (في المرآة المسحورة ظهرت على خده الأيسر!). ليست ثقوباً، علامات خفيفة! وأمه قالت إنها ستزول حين يكبر. كان يلمسها باصبعه ولا يحزن. يعرف أولاداً أكل الجدري وجوههم أكلاً. الآن يحدّق عبد الرحيم البارودي إلى وجهٍ آخر ظهر بغتة في المرآة المسحورة. قبل أن يُميز الوجه رأى الشبح المنحدر من أعلى سوق القطن وخيّل إليه أنه يرى زحمة تتبعه آتية من سوق الفشخة. لم يكن متأكداً. ثم اقترب الوجه. اقترب الشبح ورأى عبد الرحيم أن أباه عبد الحواد قد التفت هو أيضاً إلى تلك الناحية. خدم القنصل رفعوا القماش لتغطية المرآة، لكن عبد الرحيم البارودي رأى، قبل ذلك، الوجه الحبيب، واضحاً تماماً، الوجه الذي لم يرَه منذ عامين أو ثلاثة، الوجه الذي لم يرَه منذ غادر أخوه الأكبر شاهين البلد. كان ذلك وجه محمد محي الدين الفاخوري، ابن خاله.

بعد غيابٍ دام ثلاثة أعوام رجع محمد الفاخوري إلى بيروت محمّلاً بالأخبار. حمل معه أيضاً زوجةً تركية هي عائشة هانم (عُرِف فيما بعد أنها تكبر محمد بسبعة أعوام) لن تعجبها الإقامة في «دار البرتقال» عند حماتها ووسط كناتها. محمد الفاخوري سيجد نفسه بعدئذٍ مجبراً على تكوين بيته العائلي الخاص بعيداً من دار العائلة الكبيرة. لكن قبل ذلك كان عليه أن يهتم بشؤونٍ أخرى. لم يرجع إلى البلد تائباً كما قال أمام الأمير محمود نامي. أبوه أوصاه ولقّنه ما سيقول عبارةً عبارة. لا، لم يرجع تائباً. وعبد المجيد الفاخوري، الذي سيرجع بعد شهرٍ أو شهرين من رجوع محمد، هو أيضاً لن

يرجع تائباً. وإن قال ذلك. ومثله آخرون تركوا بيروت وجبل لبنان بعد الفتح المصري ثم عادوا.

يتوبون عن ماذا؟ ماذا فعلوا أصلاً؟ أكانوا هم من غزوا هذه الأرض أم عساكر إبراهيم باشا هي التي غزت؟ أكانوا هم من خرجوا عن طاعة الباب العالي أم هو إبراهيم باشا وأبوه محمد علي باشا وعساكر المصريين الذين خرجوا؟ يتوبون عن ماذا؟ رجعوا وقالوا إنهم تابوا. رجعوا إلى بيوتٍ موصدة، إلى بساتين يبست في غيابهم. رجعوا وكانوا محمّلين بأخبار تغرّبهم في حوران والشام، في الأناضول والآستانة. محي الدين الفاخوري ابن الحاج مصطفى غندور الفاخوري لم يرجع. ولن يرجع إلاّ بعد زوال الحكم المصري عن البلاد سنة 1840. لكن ابنه محمد رجع. وحين أخبر محمد زوج عمته صفية بما حدث له منذ غادر البلد قبل ثلاثة أعوام تنهد عبد الجواد أحمد البارودي وسقطت نظرته.

أم شاهين، صفية الفاخوري البارودي، كانت واقفة عندئذٍ في باب بيتها تنظر إلى الطيور في الجميزة غير دارية برجوع محمد ابن أخيها محي الدين إلى البلد. حين طارت العصافير من الشجرة، أحسّت المرأة المتروكة وحدها كل يوم ـ من الصباح إلى المساء بارتجافةٍ في ظهرها، بارتجافة في بطنها، وبارتجافة في كتفيها. دارت ودخلت البيت. ركعت على الحصير تحت النافذة. التقطت المسبحة التي تركها المعلم عبد الجواد هنا. شمّت رائحة حبّات العنبر، سبّحت بحمد الربّ، وصلّت أن يعود إليها ابنها شاهين سالماً. حين تعبت من السجود نهضت إلى الباب من جديد. في الجانب الآخر من «الطريق البيضاء» ظهرت البنت نرجس ثم المعزاة البيضاء بلحيتها التي بلون التوت الشامي. كانت المعزاة ترعى عند حواف البقعة التي أزالوا منها الصبيّر والأشواك. لم يجلبوا الحجارة

بعد. لكنهم سيبنون قبل المطر. وأبو شاهين أخبرها أن تجاراً من آل سرسق اشتروا الأرض الأخرى وراء «البيت الثالث». كل تلك الجلول بين طرف «الطريق البيضاء» وبين البحر، ابتاعها ثلاثة أخوة من آل سرسق يعملون وسطاء بين بنوك أوروبا وبين والي مصر وبلاد الشام محمد علي باشا.

نظرت أم شاهين إلى البنت وإلى المعزاة وإلى الفسحة بين الأشواك وأحسّت بالتعب. التعب والوحدة. مشت حتى الطريق، حتى حافة الطريق، ووقفت. البنت لم تنتبه لها. كانت مشغولة، كعادتها، بالمعزاة. التفتت أم شاهين يساراً، إلى فم الزاروب حيث تعبر حمير وأشباح.

صوت سوق الفشخة يبلغها كالطنين. استدارت بكل جسمها ونظرت في الاتجاه الآخر: نظرت إلى التوتة الضخمة أمام بيت ضرّتها سهيلة، بيت أم زهرة. نظرت إلى الجوزة بعيداً، في نهاية الدرب. نظرت إلى الجلول المتدرجة وراء ورق الجوز، نزولاً نحو البحر. رأت النوارس البيضاء المخططة بالرمادي تحوم فوق الصفحة الزرقاء. رأت النوارس مثل نقطٍ تظهر وتختفي على شاشة العينين. كأنها تبكي. كأنها تستيقظ من الكابوس باكية. هذه الأعوام أنهكتها. وضعت أم شاهين يدها على بطنٍ تخفق. تخفق وتسمع صوتها الخافق. وضعت يدها على بطنها وأحسّت ذلك الإحساس الفظيع من جديد: لن ترى شاهين بعد الآن. في الصيف الفائت، بينما تغلي ركوة القهوة ذات صباحٍ لزوجها الآتي من «البيت الثاني»، سقطت الركوة من يدها. سقطت الركوة على النار، فاحت رائحة القهوة، وصرخ أبو شاهين لأن القهوة كادت أن تحرقها. لم تحترق ولم تهتم بالقهوة التي اندلقت على النار. أبو شاهين رأى الدموع تنحدر من عينيها ولم يفهم. هي، أم شاهين، اختنقت العبارة في زلعومها:

ـ قتلوا شاهين!

لم تتخلص من ذلك الإحساس المرعب (ذلك اليقين المدمر) إلاّ بعد أيام. لكنها في ذلك الصباح الحار، وسط رائحة القهوة المحترقة، اعتقدت اعتقاداً فظيعاً لا يقبل الشك، أنها فقدت الولد. بعد سنوات ستحكي لإبنها العائد عن ذلك الصباح المشؤوم. شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي سيجلس ساكتاً، ويسمع كلمات أمه، ناظراً إلى شعرها الذي لا تخفي بياضه كل حنّة هذا العالم. نظر إلى شعرها. نظر إلى التجاعيد حول عينيها. وفكر إنه في ذلك الصباح البعيد أوشك فعلاً أن يموت. شمّ رائحة البارود مرة أخرى. وسمع الفرقعة تتردد في الوادي. حفنة الخردق انزرعت في بطنه وخاصرته. سقط عن حصانه وتدحرج على الصخر. رفاقه أنقذوه. لا يعرف كيف نجا. لكنه نجا.

مرة تلو المرة نجا شاهين البارودي من الموت. حين غادر بيروت في ذلك الصباح البعيد، وحيداً، لم يكن يعلم أن محمد ابن خاله سيلحق به، وأنه سينقذه بعد أيامٍ من الموت بينما يعبران البادية. ضربت الشمس شاهين البارودي فوقع عن مطيته لاهب الوجه. احترق جسمه. تبخرت المياه من مسام جلده. محمد الفاخوري نصب له خيمة، وضع قربة الماء على صدره، ثم تركه. ذهب محمد الفاخوري بين كثبان الرمل باحثاً عن نجدة. لم يجد أحداً في بحر الرمل. رجع مستهدياً بالنجوم في السماء. في عودته باغتته عاصفة. لكنه بلغ الخيمة التي نصبها بين شجيرات الصبّير. وجد شاهين يلفظ أنفاسه. أفرغ محمد كل ما في القربة على وجه ابن عمته صفية. لكن المياه تبخرت على الوجه كأنها تُرشَ على حجارة حامية. محمد الفاخوري لن يخبر أحداً أنه بكى تلك الليلة. بكى حتى أرهقه البكاء ودفعه إلى بئر النوم العميقة. العرب أيقظوه

فجراً. أيقظوه وأنقذوه، وأنقذوا ابن عمته أيضاً. رأوا الخيمة فقدموا.

طوال ثلاثة أعوام راقب محمد الفاخوري ابن عمته صفية يصارع الموت وينجو. لم يفهم محمد الفاخوري لماذا تغير شاهين البارودي إلى هذا الحد. ولم يفهم كيف تغير. الولد الذي قفز على مساحة بيروت كلّها فوق سطوح البيوت المتلاصقة من دون أن يسقط عن حافةٍ ولو لمرةٍ واحدة، هذا الولد ذاته بات كثير السقطات، كثير العثرات، كأنه يتحرك في منام، كأنه يسعى إلى الموت سعياً. سارحاً طوال الوقت كان شاهين البارودي يعرف كيف يضع نفسه أمام طلقات البواريد، أمام الصواعق النازلة من السماء. بحسٍّ غامضٍ لا يفهمه أحدٌ كان هذا الفتى الضخم يعثر على أخطر المخدرات ويقود حصانه إليها. كيف استطاع أن يقود قوافل الحمير والبغال المحملة بالسلاح عبر هضبة الأناضول، عبر مضائق جبال طوروس، عبر الأنهار والسهول والبوادي، كل الطريق من استامبول وكوتاهية وأنقرة إلى حوران واللجاة ووادي التيم وجبل عامل! كيف تمكن أن يصير أشهر مهربٍ للبواريد والبارود والخردق بين عاصمة السلطنة وبين الأطراف التي تحتلها العساكر المصرية! طوال ثلاثة أعوام راقب محمد الفاخوري ابن عمته صفية.

مرة تلو المرة نجا شاهين عبد الجواد أحمد البارودي من الموت. لم تقتله ضربة الشمس في بادية الشام. نجا من الشمس ومن الحمّى ومن رمال البادية التي تتكرر متطابقة كأيامه إلى ما لا نهاية. نجا من الصحاري والثعابين والعقارب والعطش القاتل. نجا من الغرق في الفرات بعد أن نزل إلى النهر ليبترد ببطنٍ مثقلة بنصف خروفٍ شُوِيَ على نارْ البلوط وبجبلٍ صغيرٍ من البرغل المفلفل بسمن البدو. نجا من التدحرج مع حصانه على منحدرات كيليكية.

نجا من سقطة في أخدود تغمره الثلوج في «جبال أفيو قرة حصار». نجا من قطاع طرق سرقوا حمولته وأشبعوه ضرباً على طريق الأشباح بين مُغلا ومرسين. نجا من قطيع ذئاب هاجمه ذات ليلة ظلماء في الغابات خارج بورصة. نجا من كمائن العساكر المصرية على الحدود بين الشام والأناضول في مرعش وفي غوكصو وفي أضنة وفي عنتاب وفي أروفة وفي نصيبين (المشهورة بالعقارب التي يذكرها القزويني والإمام الدُميري وابن الأثير). نجا من القتل في ماردين، وفي ديار بكر، وفي مرعش مرة أخرى. مرتين نجا من الموت في حقول الزيتون وكروم العنب بين مرعش وأديمان. الهجمات المصرية والهجمات العثمانية المضادة على هذه الجبهة كانت لا تتوقف. مع كل رحلة (ذهاباً أو إياباً) كانت الحدود تتبدل. على الحدود التي تتبدل ـ كمن يرسم خطاً على الرمل ثم يمحوه وينقله شبراً إلى هذه الجهة أو تلك ـ أوشك شاهين البارودي وابن خاله محمد أن يفقدا حياتهما مرة تلو الأخرى.

بعد عامين من هذه الرحلات الخطرة أعلم محمد الفاخوري ابن عمته صفية أنه قرر التوقف. تزوج محمد الفاخوري وأقام في دار أبيه الكبيرة في استامبول. محي الدين الفاخوري الذي يتاجر بالذهب والتوابل والحرير عرض على ابن أخته صفية النزول في دارٍ مجاورة والزواج بأخت المرأة التي تزوجها ولده محمد. الأختان كانتا من بنات شريكه الاسطمبولي حاجي خليفة. شاهين البارودي قال إنه سيقرر أثناء رحلته هذه. كان مقبلاً عندئذٍ على رحلة أخرى إلى جبل حوران. محمد الفاخوري عرض أن يرافقه. أجابه الرجل الضخم الذي بات بلون الكستناء:

ـ لا يا ابن خالي. طريقي وعرة.

اعترض محمد:

ـ ليست المرة الأولى!

قال شاهين:

ـ لم تكن متزوجاً! الآن تغيرت الطريق!

في الطريق إلى حوران اكتشف شاهين البارودي أن الدرب اختلفت بالنسبة إليه هو أيضاً. الدرب تتغير مع توالي الفصول. رحلة الصيف غير رحلة الخريف غير رحلة الشتاء غير رحلة الربيع. يتغير لون البساتين فتتغير الدرب. يتبدل لون الغابات فتتبدل الطريق. ومع ارتفاع درجة الحرارة أو هبوطها يتحول العالم كاملاً إلى عالم آخر مختلف. توالي الفصول يُبدل الطريق والصحبة أيضاً تُبدلها. منَ دون ابن خاله، مع كل هؤلاء المكارين الذين لا يمتّون له بصلة دم، أحسّ شاهين البارودي بالغربة. لكن ذلك الإحساس الثقيل سرعان ما زال عنه، وحلّ في مكانه إحساس عجيب: أحسّ بالخفّة.

من دون محمد، شعر شاهين البارودي أنه بات أخفّ، أن سلاسل حديدية غير مرئية قد سقطت عن كتفيه. عطف محمد، صداقة محمد، نظرة محمد، كل ذلك كان كالأثقال على صدره. لماذا أتعبته تلك الصداقة؟ على الطريق إلى حوران قرّر شاهين البارودي أن يطرد كل هذا من ذهنه (كلّها وساوس لا تنفع في شيء، تقلق نهاره، تؤرق ليله، ولا تُبدل أمراً). قرر أن ينسى وجه محمد كما نسي من قبل وجه زهرة (أو كما ظنّ أنه نسي وجه زهرة). عليه أن ينسى كل هؤلاء. حياته الآن هذه الطريق بين مخازن البارود في اسطنبول وبين معاقل الثوار في بلاد الشام.

محمد الفاخوري تزوج عائشة هانم وأقام في دار أبيه على ضفة بحر مرمرة. كان يقضي النهار في المتجر مع أبيه والليل بين الزوجة وأصحابه. الآستانة (دار السعادة) أدهشت محمد الفاخوري كما أدهشت من قبله أباه محي الدين. محمد الفاخوري جال في المدينة

العظيمة مع قريبه عبد الباسط ولم يفهم كيف يستطيع ابن عمته صفية أن يمشي في هذه الأسواق العريضة المتشعبة بلا مبالاة. عبد الباسط الفاخوري (الذي صار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر «مفتي بيروت») قال لقريبه محمد إن هذا الرجل صاحب الإبتسامة الغريبة شاهين البارودي ـ ابن عبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع الواحدة ـ يبدو له مسكوناً بالجن.

ـ إنه يبتسم. لكنه لا يبتسم.

عبد الباسط الفاخوري صادَقَ شاهين البارودي في تخت السلطنة اسلامبول، ولم يصادقه. وجده قريباً من القلب وبعيداً من القلب في اللحظة نفسها. محمد، في المقابل، لم يجد ابن عمته صفية بعيداً عن قلبه يوماً. وراء العضلات الملتفة والندبات والأوشام التي غطّت الجذع والذراعين تعرَّف محمد الفاخوري دائماً على ذلك القرد الضاحك الذي اعتاد القفز من سروة إلى سروة خارج باب الدركاه، ومن توتة إلى أخرى في «سهلات البرج».

لم يتحول شاهين البارودي غريباً في عيني محمد الفاخوري. لكن محمد أيضاً، صديقه الأوحد، بدأ يكتشف المسافة التي تفصل هذا الفتى العملاق عن الجميع. بينما يمشيان في حيّ بيوغلو، وشراع سفينة تعبر البوسفور يظهر من بين البيوت ثم يختفي ثم يبين من جديد، انتبه محمد الفاخوري أن ابن عمته لا يرى الشراع الأزرق المربع الضخم ولا يرى البيوت العالية الخشب. لا يرى أحواض الزنابق بالحمرة المتوهجة في نوافذ البيوت. لا يرى الأرمنيات العابثات في المداخل الباردة الظليلة. لا يرى أواني الخزف المعلقة من الأغصان. ولا يرى الشموع التي تشتعل على ظهور السلاحف لحظة يُقبل المساء وتلف الظلمات «در سعادت» الحافلة بالمباهج وأجناس البشر.

كانا يمشيان في الدروب المرصوفة بالحجر المصقول، تنيرها الشموع الزاحفة ببطء ـ بترتيبٍ وانتظام ـ على ظهور السلاحف. يقطعان الدروب الرخام تنيرها القناديل المعلقة من سروات خضر ترسل ما يشبه شعلات قاتمة في الفضاء؛ وعينا محمد الفاخوري تشربان كل ما ترى، وشاهين البارودي يبدو كأنه لا يبصر شيئاً. أدهشت استانبول محي الدين الفاخوري وأدهشت أولاده وأدهشت أقاربه وأدهشت كل بيروتي وكل بعقليني وكل صيداوي وكل طرابلسي وكل حوراني وكل لاذقاني وكل حمويّ وكل حمصي جاء إليها هارباً من عساكر إبراهيم باشا ابن عزيز مصر. لكنها لم تدهش شاهين البارودي الابن البكر لعبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع المقطوعة. مشى في دار الخلافة بعينين مركزتين أمام قدميه. مشى محاطاً بدغلٍ مظلمٍ، بهالةٍ كالحة لا يبدّدها شعاع شمس ولا نور قنديل ولا ضوء نجومٍ. مشى محاصراً بعتمة لا يُسبر غورها، من أعماقه تنبع وفي أعماقه تصبّ. احتفظ بابتسامته الخالدة كما يحتفظ أحدنا بشعره الأسود أو بلون عينيه طوال العمر. عبد الباسط الفاخوري قال إنه لا يبتسم وإن بدا مبتسماً طوال الوقت. محمد الفاخوري أخذه إلى قصورٍ ورياض وبساتين. لكن شاهين البارودي لم يجد السلوى هناك.

الابن البكر لعبد الجواد أحمد البارودي لم يعد ولداً مذ ترك بيت أبيه عند حافة «الطريق البيضاء». ما عاد يجد العزاء إلاّ في البراري راكباً على ظهر الحصان والهواء يصفع وجهه. ما عاد يجد العزاء إلاّ في فرش الغواني، في حيّ اليهود أو حيّ الأرمن أو في الكاغد خانة وراء «مصنع الورق» حيث الجسر الذي يصل بين شطري المدينة. كل هذه الأحياء لا تعني له شيئاً. كل هذه الزحمة ليست إلاّ متاهة من الحجر والرخام والخشب تعجّ بمليون آدمي

وتقوده إلى لحم رخوٍ يدخله كالغريب ويخرج منه كالغريب (وإن لقي الراحة لحظةً عابرةً بين الدخول والخروج). حين لا يعود قادراً على التنفس هنا يخرج من المدينة كلّها، من المتاهة كلّها، من استانبول كلّها، إلى البراري والحقول والجبال.

دار الخلافة، مدينة السلطان، لم تدهش شاهين البارودي كما أدهشت خاله محي الدين ابن الشيخ مصطفى غندور الفاخوري. محي الدين الفاخوري بلغ الآستانة بعد رحلةٍ طويلة بدأت في بيروت في خريف 1831. محي الدين الفاخوري لم يكن يعلم حين ترك بلدته الصغيرة ذات الأسوار في ذلك الليل الخريفي البعيد، هارباً مع الحامية العثمانية وبطنه ملفوفة بزنارٍ عريضٍ مثقل بالذهبيات، أن الدروب ستحمله إلى تخوم السلطنة، إلى تخوم الأمبراطورية التي يقرضها الأعداء بالأنياب. من بيروت فرّ إلى طرابلس. من طرابلس فرّ مع القائد العثماني عثمان باشا إلى حمص. إبراهيم باشا لحق بالجيوش الهاربة. النجدة العثمانية بزعامة محمد باشا لقيت الهزيمة أمام المصريين عند أبواب حمص. فرّ محي الدين الفاخوري إلى حلب.

نام ليلة واحدة في «خان البنادقة». صباحاً أيقظه الصراخ ورائحة جيف تحترق. من حلب فرّ شمالاً مع نبلاء من آل البكري. كانت وجهتهم أدنة حيث اجتمعت قوات السردار الأعظم حسين باشا لصدّ الهجوم المصري. المطايا لفظت أنفاسها تحت الفرسان. الدروب بدت بلا نهاية. في الأعالي امتدت سماء داكنة لا مبالية. هبّت الرياح وفاحت رائحة الصنوبر وصمغ يطبخ على النار. محي الدين الفاخوري سوف يروي لشاهين البارودي لاحقاً أنه فقد الأمل حين صِهلت فرسه وسقطت على جنبها. سقطت في بحر من الرمل الأحمر.

دخل الرمل في كل فتحات وجهه، وشمّ محي الدين الفاخوري رائحة فظيعة. كان الرمل يغطي وجهه ويغطي أصابعه ويغطي قفطانه ويغطي جبّته ويغطي عمامته ويغطي عينيه. رمل بلون القرمز، بلون سمك السلطان إبراهيم بعد دقيقتين من تغطيسه في زيتٍ يغلي على النار. محي الدين الفاخوري قال إنه لم يفهم في البدء ماذا جرى، لم يفهم الرائحة، لم يفهم القنوط الذي أصابه، ولم يفهم الرعب الذي دبّ في ساقيه ثم تجمد ككتلة من الشمع عند رأس معدته. لم يفهم إلاّ بعد أن فرك عينيه وأبعد ستارة الرمل القرمزية جانباً. حين رأى فهم. وحين فهم لم يعد قادراً على التنفس.

كانت الأطراف البشرية تحاصره. الأيادي والأرجل والأصابع والرؤوس. كلّها تخرج من الرمل كعيدان القصب، كالنبات البرّي، كالطيون والوزال والقندول. لكنها ليست نباتاً. بل أطرافاً آدمية. فهم الرائحة عندئذٍ. خبط الأرض، حاول النهوض، جرب الزحف خارج بحر الرمل الأحمر (هذه ليست الرمال وراء «سهلات البرج»، هذه ليست رمال بيروت الضاربة إلى الصفرة، هذه ليست رمالاً!). حاول التحرك. لم يستطع. أحسّ الرمل حارقاً كالنار على رموشه ثم بارداً كالثلج. وسمع صراخاً يرتفع من كل الجهات. لا يعرف كيف تمكن من الوقوف. لا يعرف كيف نجا.

رأى حصاناً شبه أحمر يخرج من قلب الرمال. مدّ ذراعاً ولمس عنق الحصان. رأى عين الحصان تبتلعه ابتلاعاً. رأى رموشاً عرقانة. قال بعد سنوات إنه لم يعرف أبداً صديقاً مثل ذلك الحصان. سحبه الحصان من أعماق الموت. طار والرائحة لا تفارق جلده. طار والجيشان يلتحمان في مضيق بيلان. ارتفع فوق جبال الأمانوس المكلّلة بالثلوج ورأى جنود حسين باشا يسابقونه هاربين من وجه العساكر المصرية والمدافع التي تجرها البغال. هرب مع الهاربين من

أدنه إلى قونية عابراً الدروب ذاتها التي سيسلكها ابن أخته صفية بعد سنوات، ولكن في الاتجاه المعاكس، على رأس قوافل محملة بالذخائر للثوار الدروز في حوران، والثوار الشيعة في جبل لبنان.

هرب محي الدين الفاخوري ورائحة الجيف والرمل الأحمر عالقة بخياشيمه. حين بلغ قونية رأى المعسكرات المضروبة ورأى الخيمة العالية ذات الراية الخافقة: خيمة الصدر الأعظم رشيد باشا. هنا، في قونية، نزل عن الحصان القرمزي وغسل نفسه في البحيرة. كل ماء البحيرة لم يغسله من الرائحة. الرائحة التصقت بشعيرات أنفه، التصقت برؤوس أنامله. فرك نفسه بالصابون. فرك نفسه بعشبة الزجاج. فرك نفسه بالنعناع البرّي. بينما ينشف جسمه سمع الصراخ يرتفع من جديد. رأى رايات إبراهيم باشا تخفق مقبلة وسمع صهيل الأحصنة المتلاطمة في المعسكر العثماني. العساكر المصرية هبطت كالجوارح على جيش الصدر الأعظم وشتّتته. محي الدين الفاخوري رأى سهام النار تشق الهواء البارد وتزرع لهباً في الخيمة العالية. فرّ محي الدين الفاخوري على حصانه القرمزي. فرّ معه مشايخٌ من آل جنبلاط بدأت رحلتهم في المختارة (جبل لبنان) وفي بعذران (جبل لبنان) ولم تبدأ في بيروت. الصدر الأعظم خرج على حصان بلون الشمس، رافعاً بارودة مطعمة بالجواهر. اقتحم الصف الأمامي للعساكر المصرية إلى أن بلغ في هجومه الصاعق فرقة الحرس الخاص بإبراهيم باشا. رفع البارودة الطليانية الثمينة وسدّدها إلى صدر الرجل المربوع السوداوي المزاج. لكن سيفاً مستقيماً سقط على ذراعه قبل أن تفرقع البارودة في الفضاء. أُخِذَ الصدر الأعظم أسيراً. إبراهيم باشا وضعه في قفصٍ من الخيزران وأرسله مع قطيعٍ من خراف قونية الصفراء كالذهب إلى بلاط أبيه في القاهرة. محيّ الدين الفاخوري لم يرَ القفص لكنه سمع عنه. كان الآن خارج

قونية، هارباً مع المشايخ الدروز، باتجاه كوتاهية، والعساكر المصرية تطاردهم وتجتاح كامل هضبة الأناضول.

هرب في الليل وهرب في النهار. هرب في الحرّ وهرب في البرد. رأى القرى تحترق. رأى الجنود يقضون من الهيضة والحمى. رأى ماشية مبعثرة في الجرود. رأى شجر الخريف يتساقط بلا هبّة هواء. رأى الثلج يغزل نسيجاً فوق سرب فئران يعبر نهراً. رأى سهل قمح أنضجته شمس الصيف يميل في النسيم. رأى جراداً ينزل على السهل مثل غيمة سوداء عملاقة ورأى الغيمة ترتفع من جديد بآلاف العيون التي تضاعف حجمها وتضاعف عددها ثم رأى السهل يابساً بلون الفحم. رأى امرأة تغطيها حبوب الطاعون السوداء تحاول أن ترضع طفلها ولا تستطيع. رأى ولداً يقطع عنق دجاجة ثم ينتف ريشها جالساً على ضفة خضراء جنب طاحونة تدور عجلتها وترفع مع الماء أسمالاً وعشباً وأغصاناً. رأى الغيوم بلون الرماد تعبر السماء. رأى السماء تركض في الأعالي. نزل في قرى لن ينزل فيها أبداً بعد ذلك. رأى معارك ولم يرَ معارك. حين بلغ إبراهيم باشا كوتاهية كان محي الدين الفاخوري قد ركب حصانه من جديد وطار... إلى الشمال، إلى الشمال. حين وصله الخبر أن إبراهيم باشا سحق الجيوش الشاهانية مرة أخرى لم يستغرب. لم يتوقف وينظر إلى الوجوه ويدرس ردّات فعلها. كل هذا مقدر ومكتوب. كل شيء يتساقط. تابع فراره شمالاً. لم يعد يفكر في حياته. بات يفكر في الموت فقط. سوف يموت. يعرف أنه سيموت. لكنه يريد أن يموت في استانبول. محي الدين الفاخوري قال بعد سنوات إنه لم يقرر ذلك ولكن حصانه القرمزي هو الذي اتخذ القرار.

فرّ محي الدين الفاخوري من كوتاهية كما فرَّ من قونية كما فرَّ من أدنة كما فرّ من بيلان كما فرَّ من حلب كما فرَّ من حمص كما فرّ

من طرابلس كما فرّ من بيروت. فرَّ كما يفرّ كل هارب من وجه الموت. حين بلغ بروسة في أقصى غرب الأناضول سمع من جنود مقبلين من الآستانة أن الأسطول الروسي ظهر في مياه البوسفور، وأن القيصر لن يسمح لإبراهيم باشا بدخول اسطنبول. محي الدين الفاخوري نام ليلة واحدة في بروسة. أكل باذنجاناً محشواً بالصنوبر واللحم المفروم ومطبوخاً بعصير البندورة في التنور، أكل خبزاً من طحين الذرة، أكل أرزاً مطبوخاً بالحليب والسكر وماء الزهر، ثم طار على صهوة حصانه القرمزي من جديد.

رائحة الموت كانت لا تزال عالقة بأظافره وبشعيرات أنفه. باتت أضعف لكنها لم تتلاشَ. همز الحصان وطار في الريح عابراً درباً مرصوفة بالحصى، بصفين من أشجار الجوز الضخمة عن الجانبين. لم يكن يعلم أن ابن أخته صفية وولده محمد سيعبران هذه الدرب ذاتها بعد وقتٍ ويلحقان به في اسطنبول. كان نسي أولاده ونسي أهله ونسي بيروت. تلك الرائحة أنسته كل شيء.

بلغ اسطنبول ليلاً. كان الوقت ربيعاً. والمطر تساقط على البوسفور قبل ليلة والبزاق يزحف خارجاً من التراب. رأى محي الدين الفاخوري مشهداً لم يرَ مثله من قبل. رأى مدينة بلا بداية ولا نهاية تشتعل بالقناديل رأى مراكب تعبر المياه السوداء ورأى ثريات الشموع تنعكس عند حواف المراكب وترسم عقوداً وأساور وثريات تحت صفحة الماء. رأى القصور الرخام الشاهقة العلو توج بيضاء كالحليب في ظلام المدينة الهائلة. رأى الأبراج والنوافذ المضيئة في قمم الأبراج. رأى السفن ورأى الأشرعة ورأى الرايات. كان الوقت ليلاً ورأى اسطنبول تشع كأنها القمر في قلب الظلام. شموع دار الخلافة أنارت الغيوم السابحة في السماء. أنارت المضيق وأنارت الزوارق وأنارت بقراً يرعى عند الضفاف. محي الدين الفاخوري شمّ

عندئذٍ رائحة مليون آدمي ينامون ويسهرون في تخت السلطنة. شمّ رائحة البشر فزالت رائحة الموت العالقة بجلده وتذكر أهله وتذكر أولاده وتذكر بلدته بيروت. لم يكن يعلم عندئذٍ إنه لن يرجع إلى بيته إلاّ بعد سنين. في تلك اللحظة أراد شيئاً واحداً فقط: أن يبقى حياً، أن يعطيه الرحمن الرحيم هذه الفرصة. ركع الرجل على ركبتيه وصلّى أن تضرب الحمى إبراهيم باشا. صلّى أن يفتك الطاعون بالعساكر المصرية وصلّى ألاّ يسقط السلطان قتيلاً أو أسيراً. حين غادر إبراهيم باشا كوتاهية متراجعاً إلى بلاد الشام في نيسان (أبريل) 1833 أدرك محي الدين الفاخوري المقيم في «حيّ الشوام الجديد» على ضفة مرمرة أن صَلاته قد استجيبت... ولو بعد حين.

انسحب إبراهيم باشا بعد معاهدة كوتاهية من الأناضول إلى بلاد الشام. محي الدين الفاخوري بقي في استامبول. قدمه لن تطأ أرض بيروت قبل زوال الحكم المصري في 1840. حين عاد أخيراً لم يرجع في طريق البرّ كما رجع ابنه محمد الفاخوري قبله بثلاث سنين.

محي الدين الفاخوري رجع إلى بيروت على ظهر باخرة تابعة لشركة المساجيري أبحرت من ميناء ازمير. كان يخاف الطريق البريّة بين اسطنبول وبلاد الشام. بات يراها في كوابيسه في «حيّ الشوام الجديد» على ضفاف مرمرة: الدرب من عاصمة السلطنة إلى الشام تحولت في كوابيسه إلى بحر رمال بلون القرمز تنبت فيه أشجارٌ من الأطراف الآدمية فتتشابك كالأدغال أو تتباعد كشجر ينمو في تربة فقيرة. محمد الفاخوري لم يعرف هذه الكوابيس. رجع إلى بيروت بعد ثلاثة أعوام من الغياب. جلس في أصيل يومٍ صافٍ على مصطبة جديدة أمام مطعم زوج عمته صفية، وأخبره بكلّ ما جرى له وللعزيز شاهين مذ غادرا البلد ميممين شطر اسطنبول.

العزيز شاهين البارودي كان قاعداً عندئذٍ في ظلال واحة من الواحات على ضفاف الفرات، حيث رُسِمت بعد قرنٍ تقريباً الحدود العراقية ـ السورية. أشعل ناراً صغيرة، صنع ركوة من القهوة، ولفّ تبغاً في ورق.

كان في نقطةٍ بعيدة عن دربه المعهودة. لم يضل الدرب. مرات يشرد هكذا. يمضي إلى أطراف البادية. تأخذه مطيته إلى حيث تأخذه. ينسى كل الوجوه. ينسى المدن وينسى القرى وينسى الناس. يغفو في ظلّ نخلة، تحت عناقيد البلح. وحين يفتح عينيه يرى أشعة الشمس تنزل في خصلٍ مشعة، ويرى غيماً يعبر كالقطن بين السعف العالية. ينسى كل شيء. ينسى أيضاً مناماته. تغيب من أمام عينيه تلك البنت التي أبعدته عن بيت أبيه. تغيب البنت زهرة، أخته. يغيب الوجه الأبيض الذي صار بمرور السنين مائلاً إلى السمرة. تغيب الملامح المألوفة. يغيب حاجبان أسودان يتقوسان فوق رموش سوداء ترف فوق بؤبؤين أسودين. يغيب الأنف المرتفع. ويغيب الفم القوي الضحكة. يغيب صفّان من الأسنان بلون الغيوم، بلون القطن، بلون العظم، بلون الحليب، بلون اللبن، بلون السكر. تغيب العنق الملتفة العارمة الثقة. يغيب الشعر المبلول المتساقط كمطرٍ غزير على بادية مشققة التربة. تغيب أخته زهرة. ينعس في حرّ البادية، في ظلال الواحة. تهبّ النسائم. تجفّ قطرات العرق على جبهته. والدخان المتصاعد من ناره يذهب في دوائر نحو الغرب، نحو قافلة إبل بعيدة تعبر الصفحة الذهب ببلادة وظلالها تتحرك على الرمل وتسبح، كأنها تزحف في منامٍ بلا نهاية.

في هذه الأثناء كانت زهرة البارودي جالسةً بين رفيقاتها في مدرسة المسز سميث خارج بوابة يعقوب تتعلم أن 5 × 1 = 5، 5 × 2 = 10، 5 × 3 = 15، 5 × 4 = 20، 5 × 5 = 25، 5 × 6 = 30،

5 × 7 = 35، 5 × 8 = 40، 5 × 9 = 45، 5 × 10 = 50. حين ارتفع أذان العصر في الخارج تحركت المسز سميث باتجاه النافذة. وقفت هكذا في النور البرتقالي المتدفق كالشلال فبدت أشبه ما تكون بوزّة أو بحمامة عملاقة. انتهى الدوام وهرعت الفتيات إلى الخارج كدجاجات فالتة من القن. انحدرن في الطريق التي باتت تسمى «طلعة الأميركان» وولجن بيروت من باب يعقوب.

لا زهرة البارودي انتبهت ولا أختها سوسن انتبهت ولا حتى ياسمينة الكبيرة العينين انتبهت، إلى ولدي سمعان الصايغ، نصر اللّه وبطرس، وقد وقفا أمام حوانيت الحياكين الجديدة تحت السور بين يعقوب والدركاه، يحدقان إلى هذا الاتجاه، يحدقان إلى سرب البنات، وهما يقضمان حبّات الزبيب والمشمش المجفّف كما فعلا في كل أصيلٍ منذ انتهاء موسم الأمطار.

في هذه الفترة نفسها، بعد مدة قصيرة من رجوع محمد الفاخوري إلى بيروت مع زوجته عائشة هانم، باع سمعان الصايغ حصته في متجر البازركان وانتقل إلى العمارة الجديدة التي أقامها مع مترجم القنصلية الفرنساوية حبيب بربارة على الميناء. كانت العمارة الثالثة التي ترتفع هنا بعد عمارة ميشال سرسق وعمارة إبراهيم بسترس. عبد الجواد أحمد البارودي ذو الذراع الواحدة وجد نفسه وحيداً في متجر البازركان حين جاء صهره خالد ليعلمه أنه يريد الخروج من التجارة: بعد الأخبار التي سمعها من ابن أخيه العائد، قرر خالد الفاخوري السفر إلى محي الدين في اسلامبول!

ابتاع عبد الجواد أحمد الفاخوري حصة صهره في دكان البازركان وبات يقضي نصف نهاره هنا ونصف النهار أسفل سوق القطن. سرعان ما أدرك أنه لن يستطيع الاهتمام بالتجارتين معاً منفرداً (دكان الخضر بات في عهدة الصبيان). لكنه، ذات عصر،

وجد مفاجأة في انتظاره عند وصوله إلى حانوت الشواء لاهث الأنفاس وقد أقفل المتجر في البازركان لتوه: وجد ابنه عبد الرحيم، الذي يبقى شارداً ناعساً طوال الوقت، وقد وقف وراء المناقل يوجه التعليمات إلى هذا وذاك، ويشرف على أعمال المطعم بمهارة واحتراف، كأنه قضى حياة طويلة في هذه الأشغال.

رحل خالد الفاخوري إلى الآستانة لكنه لم يتخلَّ تماماً عن شريكه. بالعكس: بدأ يرسل عبر الأناضول والشام بضاعة فريدة إلى المتجر القديم في البازركان، بضاعة تزايد الطلب عليها مع توافد السفن المصرية والأوروبية إلى ميناء بيروت. بضاعة ثمينة لم يلبث أن بدأ خالد الفاخوري يرسلها بالبواخر من استامبول. كانت الباخرة الأولى (باخرة مدفوعة بقوة المحركات، وليست سفينة شراعية يرسلها الهواء إلى حيث يشاء) قد وصلت إلى بيروت في أيلول (سبتمبر) 1835. خلال الفترة 1835 ـ 1837 ستدخل هذا الميناء 300 سفينة (وباخرة) حمولتها نحو 50 ألف طن، من بينها 30 ألف طن حملتها سفن مصرية، 5500 طن لليونانية (معظم ما تنقله بضائع من اسطنبول يرسلها تجار شوام وأرمن ويهود يقيمون في «در سعادت»)، 5200 طن للسفن الفرنسية، 3900 للسردينية، 300 للنمساوية، و1700 للسفن البريطانية. كانت البضاعة الآتية على البواخر تتوزع على وكالات بيروت ثم تباع للقوافل البرية الذاهبة إلى الداخل السوري. والبضائع الآتية مع القوافل البرية من الداخل تصل الميناء ثم ترفع إلى المواعين وتنقل إلى البواخر الراسية وراء الصخور. عبد الجواد أحمد البارودي وجد نفسه في قلب هذه التجارة. كانت البضاعة أحياناً تأتيه من دار الخلافة برّاً، وأحياناً بحراً، يبيعها لأبناء الشام حيناً، وللتجار الفرنجة في أحيان أخرى. الذهب سال في بيروت.

عام 1837 باتت البواخر البريطانية المحملة بالمنسوجات تأتي بانتظام من لندن عن طريق مالطة والإسكندرونة. سمعان الصايغ كان تكلم في الميناء قبل عام عن هذه الخطط الإنكليزية. لكن هذا التاجر الحلبي الداهية لن يعيش ليرى اكتمال الخطط المذكورة وتسيير خطين بحريين ثابتين ابتداء من خريف 1837 بين أوروبا والمشرق: خط يتبع شركة لويد النمساوية تنطلق بواخره من ترييستا؛ وخط يتبع شركة المساجيري (الملكية، ثم الوطنية، ثم الأمبراطورية وأخيراً البحرية) تنطلق بواخره من مرسيليا.

سمعان الصايغ لن يعيش ليرى ظهور هذه البواخر بانتظام مقابل عمارته ومخازنه على الميناء لأنه مات مطعوناً داخل أبواب أورشليم في يوم مشمسٍ من أيام ذلك الصيف البعيد. كان يوماً أزرق السماء حلو الشمس، لكن الموت كان يعبق في الجو. الموت كان في رائحة الهواء الشنيعة. 127 مقدسياً قضوا في ذلك النهار ذاته. موجة الطاعون لم تلبث أن طُوقت. جُمعت الجيف في حفرة خارج الأسوار، رُمي عليها النَفط، وأشعلت فيها النار. قبل ذلك أقدم فاعلو الخير على ترتيب الجثث فوق ألواح خشب. جثة سمعان الصايغ كانت في عباءة عاجية اللون شبه ممزقة (جرّوه إلى هنا جرّاً). أصابع يده اليمنى كانت قابضة على صرّة قماش قبضة لم يفكها الموت بل زادها جماداً. الذين جرّوا الرجل إلى هنا تركوا الصرّة بين أصابعه العظمية بعد أن تحسسوها بالأنامل ووجدوها طرّية: ليس فيها ذهب ولا متاليك ولا نحاس ولا فضة؛ ليأخذها معه إلى جهنم! الذين رتبوا الجثث على ألواح الخشب قبل إشعال النار الكبيرة كانوا أعمق رحمة. خلصوا صرّة القماش من الأصابع (فتحوا القبضة أصبعاً مُفرقعاً بعد أصبع مفرقع، كمن يكسر عيداناً يابسة)، فتحوا الصرّة على الأرض، أخرجوا منها الثوب الأصفر

المغسول والمكوي، وألبسوا الرجل زيّاً غير ممزق ليكون كفنه. اعتبروا أنهم بهذه المحبّة المسيحية الخالصة يكسبون أجراً في السماء. ما كان أحدٌ منهم يعلم إلى أي حد كان المرحوم المجهول يمقت هذا الثوب. ما كان أحدٌ منهم يعلم قصة الأثواب الصفراء في حلب. تمييز النصارى بهذا اللون لم يكن تقليداً شائعاً في جميع أنحاء السلطنة. في العاصمة ذاتها مثلاً، في اسطنبول، منع قائمقام دار الخلافة سنة 1693 النصارى، من لبس الأثواب الملونة والبابوج الأصفر، وقلبق السمور، وأحزمة الجلد العريضة، وألزمهم أن يلبسوا الأثواب السود، وأن يضعوا في رقابهم علامة يتميزون بها عن المسلمين. ومنعهم ركوب الخيل في المدينة.

مات سمعان الصايغ في أورشليم قبل أن يستكمل حجّه. أُلبس الثوب الأصفر الذي حمله كل العمر في صرّة لئلا ينسى حياةً عاشها ونجا منها. علّم أولاده أن الحياة تقدر أن تكون ظالمة لكن المؤمن صاحب الذراع النشيطة والعقل النشيط يقدر أن يتغلب على الصعاب. كان خَبِر قسوة العالم لكنه خَبِر أيضاً القدرات اللامتناهية الكامنة في أعماق ابن آدم. لم يتخيل يوماً أنه سينتهي مكفّناً في ذلك الثوب الأصفر المشؤوم. مات واحترق ولم تبقَ منه إلاّ كومة عظام مسودة دُفنت خارج أسوار القدس.

حين تأخر رجوعه إلى بيروت انشغل بال أولاده عليه. حين وصل خبر الطاعون وضاع الأمل حزنوا وكفّوا عن الظهور في الأسواق أو التوجه إلى مدارسهم. عبد الجواد أحمد البارودي حزن هو أيضاً. طالما حمل ريبةً تجاه هذا النصراني الحلبي. لكن سمعان الصايغ لم يسرق مالاً أو بضاعة من الدكان أبداً. صحيح أنه جمع ذهباً كثيراً في هذه الأعوام واستطاع الدخول في شراكة مع ترجمان القنصلية الفرنساوية، لكنه فعل ذلك بنشاطه وحسن إدارته للتجارة،

وليس بالسرقة والاختلاس. حَزِنَ عبد الجواد أحمد البارودي لموت شريكه القديم وظلّ على حزنه الوفي إلى أن جاء ابن شريكه ـ هذا الولد نصر اللّه ـ يطلب المصاهرة. جاء يطلب يد البنت، ليس زهرة، بل ياسمينة.

عبد الجواد أحمد البارودي صُعِقَ أمام كلمات الولد. في البدء تركه يتكلم لأنه أحسّ عليه بالشفقة. لكنه حين تغلب على هذا الإحساس وجد غضباً يتململ في جوفه. كيف يجرؤ هذا الولد على هذا الطلب؟ نسي عبد الجواد أحمد البارودي حزنه على المرحوم وعقد حاجبيه وسدّد إلى الولد النحيل الظاهر العظام نظرة قاسية. حين نطق أخيراً خرجت الكلمات من بين شفتيه مرتبة بطيئة باردة كأنه يبذل جهداً فظيعاً في كبت جماحها:

ـ اسمع يا ابني، أنت نصراني، ونحن مسلمون. كيف تأتي إليّ وتطلب أن أعطيك قرّة عيني؟

نصر اللّه بن سمعان الصايغ لم يرفّ له جفن. نظر في عينيّ الرجل صاحب الذراع الواحدة الذي سيصبح عمه وقال:

ـ اسمع يا عمي، أنا لستُ عبيطاً، وأنا أعرف مقامك وشرفك، ومكانتك عالية ليس في عينيّ أنا فقط، بل في عيون كل أهل البلد. لا أجيء إليك نصرانياً كي أطلب شرف أن أصير ابنك. أجيء مسلماً. أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه. وكل ما أريد هو سعادة مصاهرة عائلتك الكريمة.

أشهر نصر اللّه الصايغ إسلامه وبنى على ياسمينة البارودي. بعد فترة تبعه أخوه بطرس وبنى على سوسن البارودي. زهرة تزوجت قبل سوسن. تزوجت ناظر المسلخ في صيدا رفعت نقوزي الساطورجي وانتقلت للعيش في بيته بعيداً من بيروت. بعد رحيل زهرة عن «البيت الثاني» عند حافة «الطريق البيضاء» رأت صفية

الفاخوري البارودي في المنام أن ولدها شاهين يظهر ذات ظهيرة تحت الجميزة باسماً ويلقي على أهله السلام.

عبد الجواد أحمد البارودي سمع أم شاهين تروي المنام وعدّ حبّات المسبحة (66 حبّة) وقال لا إله إلاّ اللّه، لا إله إلاّ اللّه، سبحانك يا ربّ. كان يصلي أن يرى الولد مرة واحدة بعد. مرة واحدة يا رحمن يا رحيم. مرة واحدة يا خالق السموات والأرض. مرة واحدة يا ربّ! صهره هذا نصر اللّه يذكره بشاهين. قوة الإرادة ومتانة العصب. والثبات. الثبات، الثبات، الثبات. لا تهزمه المصيبة. لا يرفّ له جفن. خرج عبد الجواد أحمد البارودي من بيت أم شاهين ووقف لحظة بين أعواد دوار الشمس الذابلة ينظر إلى البيت الذي ترتفع حيطانه في الجانب الآخر من «الطريق البيضاء». ثم مشى نحو سوق الفشخة. النهار قصير والشغل كثير. العمر ينتهي والعمل لا ينتهي. هذا يوم القوافل. شريكه القديم خالد الفاخوري يغمر البازركان كلّه بالبضائع الاستامبولية: المجوهرات والخواتم والخناجر المذهبة والمفضضة والمسابح والغلايين والصناديق المذهبة والمنزّلة بالعاج والفضة والأرائك الصغيرة المطعمة بالعاج والصدف وأسلاك الفضة لحمل المصاحف. عبد الجواد أحمد البارودي بات يُعرف في الأسواق بلقب الجوهرجي.

باتت حياة بيروت اليومية مرتبطة ارتباطاً متيناً بوصول هذه القوافل، وبظهور السفن في عرض البحر. محمد الفاخوري العائد بعد غيابٍ طويل لم ينتبه في البدء إلى التبدل الذي أصاب البلدة. لم ينتبه أن عدد سكانها تضاعف. لم ينتبه إلى العمارات الجديدة التي ظهرت عند الميناء. لم ينتبه إلى الغرباء الذين تكاثروا بين المرفأ والأسواق. كل ما قاله غداة رجوعه إلى البلد كان تعليقاً ضاحكاً على اللون الأزرق الفاقع الذي طُليت به بوابات بيروت بأمر من

الأمير محمود نامي. قال إن بيروت ظهرت من بعيد كأن البحر يجتاحها من أبوابها. وقال إنه خاف ألاّ يبلغها إلاّ بعد أن يبيض فيها السمك وتعربش على بيوتها أعشاب الماء.

محمد الفاخوري لم ينتبه إلى التبدل الذي أصاب بيروت إلاّ بعد وقت. كيف يراها أكبر بعد ثلاثة أعوام وهو قضى هذه الأعوام في عاصمة السلطنة؟ إن حيّاً صغيراً واحداً في اسلامبول يضم بيروت كاملة في زاوية من زواياه! في الحيّ اليهودي فقط يحيا مئة ألف رجل! في حيّ الأرمن في اسطنبول لا تكاد ترى بلاط الدروب من زحمة الأقدام وعجقة الكنادر والصرامي والأثواب!

محمد الفاخوري لم ينتبه إلى التبدل الذي أصاب بيروت إلا بعد وقت. انتبه إلى ذلك بينما يسمع كلام التجار. جدُّه في مجلس الشورى ويعرف الأمير محمود نامي ويحضر استقبالات التجار الكبار والقناصل الإفرنج. الحاج مصطفى غندور الفاخوري صاحب كلمة في البلد، وحين يتكلم يصغي إليه الناس. محمد الفاخوري جلس وسمع الكلام هو أيضاً. كان يحكّ ساقه بأظافره الطويلة كما فعل دائماً، ومذ كان أقرانه يسمّونه «البسّ». لكنه بينما يحكّ عقصات البرغش على فخذه وعند كاحله انتبه إلى لهجة الافتخار في كلام جدّه لأبيه. أبناء بيروت جميعاً (أكانوا مسلمين يفضلون السلطان على عزيز مصر، أم نصارى يفضلون عزيز مصر على السلطان)، التجار وغير التجار أيضاً يشعرون بالفخر لأنهم صُنّاع هذا الازدهار الذي تحياه بيروت. لا الأمير محمود نامي صنع هذا الازدهار بتبليطه سوق الفشخة وبتنظيم أعمال التكنيس ورش الماء في الدروب المتربة وبإشعال القناديل ليلاً داخل الأبواب في السور؛ ولا القنصل الفرنساوي غيز صنع هٰذا الإزدهار باقتراحه الذي أفضى إلى إنشاء المحجر الصحي (الكرنتينا)؛ ولا التجار الذين جاؤوا إلى البلد من

مرسيليا والاسكندرية صنعوا إزدهار البلد؛ ولا القوافل الوافدة من حلب وحوران ودمشق صنعت هذا الازدهار. كل هذا يلعب دوراً مهماً في نهضة البلد. بلى، بالتأكيد. لكن شطارة أبناء بيروت، نشاط أبناء بيروت، وإقبال أبناء بيروت على العمل، هذا هو العامل الحاسم في هذا النهوض، في هذا الإزدهار. محمد الفاخوري سمع هذا الكلام في مجالس كثيرة: في «القهوة» عند جامع النوفرة التي فتحها رجلٌ اسكندراني وسمّاها «قهوة النوفرة»؛ على المصطبة أمام مطعم أبي شاهين البارودي على الميناء؛ وعند سبيل الماء أمام حمام الدركاه حيث بُنيت أقبية عقد للعساكر المصرية.

محمد الفاخوري انتبه إلى التبدل في طباع الناس قبل أن ينتبه إلى التبدل في البيوت والدروب والأحياء. حين انتبه إلى التبدل في طباع الناس بدأ يلاحظ التبدل الذي أصاب الأحياء: اختفى بستان الرمان قبالة الجامع العمري الكبير؛ غابت حواكير التين والتوت والعنب بين سوق الفشخة والبازركان؛ هُدمت بيوت الخشب وراء كنيسة الموسكوب؛ ارتفعت عمارات غريبة الطراز عند البحر؛ تكاثرت البيوت في حيّ الإفرنج والمتاجر داخل باب إدريس؛ ظهرت اصطبلات جديدة خارج باب السراي؛ قُطعت أشجار الجميز عند باب الدباغة ليتسع المدخل أمام القوافل؛ تباعدت أكواخٌ لم يرَها من قبل في سهلات البرج وفي البساتين إلى جهة المصيطبة (جنوباً) وإلى جهة الأشرفية (شرقاً) وإلى جهة رأس بيروت (غرباً)؛ سُقِفت بعض البيوت بالقرميد الأحمر وبنى «السيد فتيحة» بيتاً من الحجر الأبيض في جوار «طلعة الأميركان»؛ حُفِرت قناة لجرّ مياه الشرب من سبيل الدركاه حتى زاوية الإمام الأوزاعي؛ بانت أرصفة خشبية أمام العنابر في ميناء البصل وفي ميناء البطيخ وفي ميناء الحبوب؛ واختفت أقفاص العصافير التي كانت تعلق من أشجار الساحة أمام

كنيسة مار جرجس للروم الأرثوذكس.

الأحياء تبدلت. والبيوت أيضاً تبدلت. ظهرت الكنبات والكراسي والطاولات والخزائن والأسرة حيث لم تظهر أبداً من قبل. محمد الفاخوري نظر إلى أولادٍ في بيت جارٍ من الجيران وقد تحلقوا حول طاولة دائرية صُفت عليها الصحاف والشوك والسكاكين والملاعق الإفرنجية، وفي مركز هذه الزحمة من الأدوات البارقة تربع إناء عميق من الزجاج الشفاف وقد كُوِمت فيه أسماك البزري والسردين المقلية. نظر إلى الأولاد يحاول التقاط الفراخ الساخنة بالشوك والسكاكين ويعجزون. راقب التردد في العيون وشمّ رائحة الطرطور التي تفوح من طاسات خزفٍ مرتبة بين الصحون. كل ذلك بدا له محزناً ومضحكاً في آنٍ معاً. طباع الناس تبدلت، ولباسهم أيضاً تبدل.

قلّت العمامات على الرؤوس، ومن احتفظ بعمامته جعلها أرقّ وأصغر. مضى وقتٌ كانوا يفاخرون به بلفّات العمائم. يذكر جده الحاج مصطفى يحكي قبل سنين عن الشيخ حمّاد الجزائري الذي تعمّم ذات عصرٍ ببطانية فعجز عن الدخول إلى الجامع العمري من بابه الكبير. قلّت العمامات وقلّت الجبب والقنابيز. شاعت الطرابيش المغربية الحمراء الطويلة بالشرابة المسترسلة الزرقاء وشاعت الصدريات وكبابيت التفتيك وقمصان التفتة البيضاء (عنبر كيس) وبناطيل الجوخ الأوروبي. مضى زمن الأنسجة القطن التي كانت تحاك على اليد. غزت الأسواق منتوجات المصانع الإنكليزية. حرير بيروت بات يُحمل في سفن المساجيري إلى مصانع مرسيليا وليون. بيروت تغيرت والناس باتوا يميلون عن شراء الثياب ذات الألوان الفاقعة كالأحمر والبنفسجي والعشبي الأخضر ويكتفون بالأسود والكحلي والرمادي المحروق.

انتبه محمد الفاخوري إلى كل ذلك ولم يزعل. حين رأى سرب نساء يعبرن السوق بضحكات عالية بانت أسنانه البيضاء اللامعة. رأى العقائص وكرات الفضة وشراريب الحرير في الشعر المتطاير، سمع خشخشة العقود والأساور والخلاخيل والحلق، شمّ الصابون والعطر والحنّة والعنبر، لمس أثر العطر النسائي في الفضاء، وقال إن الحياة تمضي نحو الأفضل. نسي في تلك اللحظة عائشة هانم التي تشكو منذ سبع ليالٍ ثقلاً في بطنها. ونسي سرواله المقصور الأبيض المقطوع عند الركبة والذي يحتاج إلى زيارة الخياط حمادة لرقعه.

تبدلت أشياء ولم تتبدل أشياء. ذهب محمد الفاخوري يزور عمته صفية فرأى البيت الذي ظهر في الجانب الآخر (بيت صياد سمك درزي من آل نجّار) ورأى قطعة الأرض المجاورة للبيت المذكور وقد قُطع صبّيرها وغزارها ومقسيسها وأُحرِق شوكها. هذه الأرض لم يشترِها درزيّ. هذه الأرض ابتاعها عمه خليل. جلس محمد الفاخوري مع عمته صفية في ظلال الجميزة الوارفة. شرب القهوة المرّة مع حبّة الهال الأخضر. نظر إلى الوجه المتعب من الشوق والمتعب من الوحدة والمتعب من الانتظار. تبدلت أشياء ولم تتبدل أشياء. هبّ الهواء البحري، فتساقطت ثمارٌ قاتمة على التراب، وعلى حافة الثلم القريب اليابس النبات. في تلك اللحظة، كانا يفكران معاً، في الولد الذي طالما تسلق هذه الأغصان وارتقى إلى القمّة المشمسة العالية. الولد الذي ما عاد ولداً.

صفية الفاخوري البارودي اعتادت في تلك الأيام الحارّة الطويلة أن تنتظر الأخبار الآتية مع القوافل الوافدة من دمشق وحوران. كانت تسأل الصغير عمر عن كل شيء يسمعه في الدكان. وتصغي إلى كلام عبد الرحيم مع أبيه (لا يتحدث إلا عن البضائع والزبائن والتجار الإفرنج) وتحاول أن تجمع التفاصيل والحكايات وأن تفهم

ماذا يجري في هذه البلاد، أين صارت عساكر مصر، ماذا يصنع السلطان، من يثور وأين، وما هي آخر الأخبار.

لم يعد عبد الرحيم ولداً صامتاً كثير الشرود. صار كثير الكلام. لكن كلامه المتدفق كالأنهار لا ينفعها، لا يبل ريقها، لا يفك عقدة، ولا يبعد كرباً. لماح ذكي ماهر ولسانه عسل وكفه نظيفة والكل يحبه. من صدرها أرضعته وتحبه كما تحب بكرها شاهين (احفظه يا خاتم الأنبياء، يا حبيبي يا رسول اللّه)، وتحبه كما تحبّ الصغير عمر. ابنها ومن لحمها ودمها. وتحبه. والكل يحبه. وأبوه عبد الجواد يحبه ويترك الحانوت والتجارة بين يديه. تحبه وتحب حديثه وتسمع ما يقوله أبوه عنه. لكنه ليس شاهين. الغائب له وحشة، وأحبوا غائبهم حتى يحضر. شاهين غاب قبل سنين. أين أرضه الآن؟ أين يلقي رأسه لينام؟ ماذا يأكل ومن يغسل ثوبه؟

تجلس صفية الفاخوري البارودي وتستمع إلى أحاديث زوجها وإبنيها وتحاول أن تجمع الخيوط وأن تبصر النسيج وأن تعثر على أثر بكرها الغائب. لا تسمع إلاّ كلاماً يأخذها في دروب متعرجة ولا يفضي إلى يقين أو أمان. كل هذه التجارة ماذا تهمّها؟ من دون بسمة شاهين ماذا تعني لها كل هذه الأشياء؟ عبد الرحيم مثل أبيه المعلم عبد الجواد يراقب القوافل ويصاحب المكارين ويدعو البغّالين إلى الشواء والماء. ماذا تهمّها كل هذه البضائع المتدفقة كالسيول، كالوحول، إلى الأسواق؟ الأقمشة والصابون والجلود والقطن الخام والصوف والحرير والعفص والفستق من حلب. اللؤلؤ والنيلة والعطور والبن والأعشاب الطبّية والتمر من البصرة وبغداد. الكشمير والبرتقال الهندي والتبغ والتنباك من بلاد فارس. البطيخ والشمام من طولكرم. التفاح من كُفرسلوان. الكرز والدراق من الورهانية والباروك وبتلون. البندورة من كفرنبرخ. القمح من عنتاب. الجلود

المدبوغة والأثواب والعباءات المقصبة والقنابز المفقشة والزرابيل المقيطة والطرابيش المشموطة من دمشق. كل هذه البضائع التي تتدفق إلى البلد ماذا تعنيها! وماذا تعني للأهالي وماذا تعني لأبي شاهين وماذا تعني لعبد الرحيم! كل هذه الأشياء بلا قيمة. تراب ووحل وغبار.

صفية الفاخوري البارودي تستمع إلى حديث البضائع لتسمع كلمة نقلها تاجرٌ أو مكّار عن معركة في حوران أو اللجاة. المعارك ليست ما يعنيها. تريد خبراً عن شاهين. كلمة واحدة عن شاهين. ولدها الذي غاب.

الأيام تتوالى حارّة طويلة، ثم باردة طويلة، وشاهين لا يرجع. يقولون إنه يُهرِّب الذخائر إلى ثوار جبل عامل. يقولون إنه أنزل حمولة من البواريد في سهل البقاع. لكن المعلم عبد الجواد لا يثق بهذه الأخبار. وعبد الرحيم قال إن شاهين في الغالب يقيم عند خاله في حيّ الشوام في دار الخلافة. اللّه يسمع من فمك يا ابني يا عبد الرحيم، اللّه يسمع منك ويحفظ شاهين سالماً معافى في بيت خاله محي الدين في بلد السلطان!

صفية الفاخوري البارودي كانت تصلي أن يحفظ اللّه بكرها في بيت أخيها محي الدين في استامبول ثم تنتظر رجوعه كلما سمعت عن قافلة تدنو من الأسوار. في هذه الفترة، بعد شهور من رجوع محمد الفاخوري، تجدّدت علاقة أم شاهين بضرّتها أم زهرة. شجَّع هذه العلاقة عاملان. الأول انتقال زهرة إلى بيت الزوجية في صيدا. والآخر معرفة سهيلة النابلسي البارودي بأخبار البلد والدنيا. أم شاهين ما كانت تفهم من أين تجلب ضرّتها كل تلك الأخبار! سهيلة النابلسي البارودي تعرف كل ما يدور في بيوت بيروت، فكيف تعرف كل هذا؟ صفية لم ترَها يوماً تقطع «الطريق البيضاء» وتلجّ

الزاروب بين العقدين وتخرج إلى «سوق الفشخة». هذه المرأة تعيش في بيتها ذي القنطرة الحجر وكل سياحتها تسلق السلم الحجر إلى الغرفة الحجر البيضاء على السطح، فكيف تعرف كل هذه الأخبار عن النساء والرجال والأولاد؟ حيرة صفية دامت وقتاً قصيراً. سرعان ما ظهر أن أم زهرة تنقل الأخبار كما تسمعها من بناتها ياسمينة وسوسن ونرجس. بلى، نرجس أيضاً باتت تحمل الأخبار إلى البيتين النائمين عند حافة «طريق عبد الجواد».

انتهى الصيف وحلّ الخريف. تبدل لون الشجر واختلفت رائحة الفضاء. قرصة البرد في نصف الليل أو عند الفجر توقظ أم شاهين من نومها. الحلم نفسه كل ليلة: ترى شاهين واقفاً تحت الجميزة باسماً، وفي يده صرّة الثياب التي حملها يوم رحيله. يبتسم الولد الحبيب العائد ويرفع يده في تحية. لا يقول شيئاً. ذات ليلة قال لها:

ـ مرحباً يا أمي!

استيقظت مذعورة لا تعرف ماذا بها كأن يداً صفعتها على وجهها. تذكرت المنام عندئذٍ وعرفت لماذا فزعت. كان الولد يرفع يده اليمنى لكنها لم ترَ اليسرى. كان عائداً بذراع واحدة!

انتهى الخريف وحلّ الشتاء. انهمر المطر غزيراً على بيروت، سال الطلاء الطلياني الأزرق على باب السراي. سال في الباحة فصار الوحل بلون سماء الصيف. تساقط المطر على البحر وعلى الأرض على السطوح وعلى الحواكير وعلى أكواخ الحرير الموزعة بين بساتين التوت. شجر التوت يتكاثر حول البيوت والمطر ينهمر غزيراً على الورق العريض القليل الباقي على الأغصان. كل قرب السماء

ثقبت دفعة واحدة. سالت الوحول في الدروب وغطت البلاط الحجر في سوق الفشخة وانحدرت في سوق القطن وتسلقت العتبات وتدحرجت مقرقعة على السلالم وأفسدت البضائع في المخازن وفي الأقبية وفي الحوانيت.

انقلب المطر سيولاً. غابت السفن في الضباب وتسلق الموج السلسول وارتطمت المياه صاخبة مزبدة بالعنابر الخشب. تطايرت المراكب المتروكة على الشاطئ، رفعها الموج عالياً، وأسقطها في البحر. الحبال ظلت تشدها إلى اليابسة. لعب الموج بالمراكب يقذفها ويردها حتى كسّرها على الصخور. انقلب المطر إلى عويل. غصّت المزاريب بالماء والقاذورات. السماء تنتحب والصواعق تحرق الأشجار. زلزلت الرعود الحيطان وتحطم الزجاج في نوافذ بيوت عائلات بسترس وفياض وهاني وبيهُم وحلاوي ورعد.

انكسرت السروة الوسطى في صف السروات الثلاث خارج باب يعقوب حيث ظهر بعد سنين «جامع الأمين»، وقبل ذلك «باب أبي النصر». تفسخ جدارٌ من جدران كنيسة مار الياس الملكية ودخل السيل إلى غرفة الخوري مرقس وغطت الوحول المذبح. ضربت صاعقة للمرة التي لا يعرف أحد رقمها ـ مئذنة جامع الدباغة القائمة فوق باب الدباغة، فأحرقتها. سهيلة النابلسي البارودي رأت من النافذة الخلفية المئذنة تحترق والشرر يتطاير منها في المساء الغزير المطر. الأمطار عجزت عن إطفاء النار في المئذنة الخشب. طُليت بالقطران لتلمع وليُحفظ خشبها من السوس. لكن القطران يشتعل كالنفط أيضاً. هزّت الرعود بيروت ولم تتوقف الأمطار. طوال سبعة أيام غمر الطوفان البلد. في اليوم الثامن استيقظت بيروت على صوتٍ غريب: زقزقة العصافير. أخيراً انحبس المطر.

صفية الفاخوري البارودي خرجت من البيت لتُشمس عظامها

التي داخلها العفن. مشطت شعرها الرطب في نور الصباح وتركت الأشعة تلمس رموشها ووجهها. أبعدت منديلها وأعطت ظهرها للبيت الذي يسكنه الدروز. هذه الليلة أيضاً رأت شاهين يعود إليها في المنام.

انحبس المطر فجر يوم جمعة. بعد يومين فقط، عند أصيل الأحد، رجع عبد المجيد الفاخوري إلى بيروت وجاء إلى بيت عمته صفية يحمل سلاماً من شاهين. وجد عمته طريحة الفراش، تسعل كالمسلولة، ووجهها في صفرة اليقطين.

لم تصدق أذنها حين أعلمها أن شاهين يقيم في دمشق منذ سلّم الثوار سلاحهم في الخريف وأنه قد يرجع قريباً إلى بيروت، ولعلها أيام وتراه هنا، في البيت. صفية الفاخوري البارودي غصّت بالريق والدمع، استقامت في فراشها، وضمّت عبد المجيد. كل أصحابه ينادونه «عبد»، أهله ينادونه «عبد المجيد»، وهي اعتادت مذ كان طفلاً يحبو في «دار البرتقال» أن تناديه «مجيد». ضمّت صفية الفاخوري البارودي الولد مجيد الذي صار رجلاً إلى صدرها. ضمّته وبلّلته بالدمع. حين تذكرت نزلة البرد التي ألمت بها تراجعت إلى خلف وحبست نَفَسَها وكفكفت دمعها بالبطانية. الحبيب شاهين يعود! الرسول الحبيب يردُّ إليها ولدها شاهين!

قبّل عبد المجيد الفاخوري يد عمته صفية، وقال إن شاهين قد يرجع قريباً لكنه لا يعرف متى سيرجع ولعله يرجع في الصيف. صفية الفاخوري البارودي خرج النَفَسُ من صدرها ولم يرجع. اختنقت بكلمة «الصيف» وكادت تلفظ الروح. الآن قال إن شاهين راجع، فما باله يُبدل كلامه ويؤجل رجوع ولدها الحبيب. عبد المجيد سارع إلى طمأنة عمته. قال إن شاهين عائد، إن شاء اللّه عائد، كل ما في الأمر أنه لا يعلم متى بالضبط يعود. سكت عبد

المجيد ثم أعلم عمته أنه مسافر إلى دمشق بعد أيام، وأنه قبل السفر يأتي ويزورها ويطلب بركتها، وإذا أرادت أن ترسل إلى شاهين شيئاً فهو يحمله إلى شاهين.

صباح الخميس عاد عبد المجيد. كان الطقس صحواً وطيور الدوري تصخب في الجميزة. وجد عمته صفية صفراء كالكوربا، والعظام ناتئة من وجهها. قبّل يدها، جلس دقيقة، ثم قام واقفاً وودّعها. كانت قالت له، بينما يقعد صامتاً جنب الفرشة، أنها لن تُثقل عليه بأغراضٍ، ولا بثوبٍ واحدٍ. سأل عبد المجيد نفسه عندئذٍ كيف تبدلت عمته هكذا!

حين وصل إلى الباب نادت عليه:

ـ مجيد!

استدار فرآها ترفع نفسها على ذراعٍ معروقة وتُسدِّد إليه نظرة تحرق كالحديد المحمى. سمع كلماتها وحفظها كلمةً كلمة. قالت له عمته صفية:

ـ قلْ لشاهين إنني أموت، قلْ له أمك تموت وتريد أن تراك قبل أن تغمض عينيها.

أراد عبد المجيد الفاخوري أن يتكلم. أن يذكر اللّه الرحمن الرحيم وأن يقول لعمته... لكنه سكت. ماذا يقول؟ كل كلامه ماذا ينفع هذه الأم التي هدّها القلق والانتظار فحوّلها عجوزاً! سكت عبد المجيد. النظرة الحارقة أخرسته. هو الذي جال أراضي السلطنة وجادل المتكلمين في الباب العالي ونقل رسائل شفهية من الوزير فؤاد باشا إلى الأعيان والباكوات في دمشق، سكت أمام كلمات العمّة العجوز. استدار ومضى. حَسب أنها انتهت من الكلام لكنها نادته مرة أخرى:

ـ مجيد!

هذه المرة سمع النداء كاستغاثة. كأنها تغرق تحت تيارٍ مائي عارم الطغيان. استدار مرة أخرى ورجع إلى العتبة مثقل القلب محني الظهر. سمع كلماتها:

ـ قلْ له إنني أموت. وأخبره أن أخته زهرة تزوجت وذهبت تعيش في بيت زوجها في صيدا في الجنوب. قلْ له إنني أريد أن أراه قبل أن أغمض عينيّ.

يوم الجمعة غابت صفية الفاخوري البارودي عن الوعي. نهار السبت استيقظت. يوم الأحد تناولت طاسة حساء من يد ابنها عبد الرحيم. ظهيرة الاثنين أكلت برغلاً مفلفلاً بعصير البندورة طبخته من أجلها سهيلة النابلسي البارودي. ظهيرة يوم الثلثاء، بينما تخيط كنزةً بصنارتي صوف، أعتمت الغرفة (الفارغة إلاَّ منها) وغمرها ظلٌّ غامضٌ عملاق. رفعت صفية الفاخوري البارودي عينيها فلم تعرف المخلوق الضخم الذي يسدّ الباب.

كان ذلك ابنها: شاهين. بقي صامتاً لحظة، يرفّ برموشه، إلى أن تبيّنها في ظلمة ما بين الحيطان. رفع يده كما يفعل في المنام، ترك الأخرى مسبلةً، وقال:

ـ مرحبا يا أمي!

عبد الجواد أحمد البارودي كان واقفاً عندئذٍ في متجره في البازركان يُوجه التعليمات إلى العبدين الحبشيين مونس وسنان ويُسبّح بمسبحة عاج. كان يعدّ الحبّات اثنتين اثنتين (98 حبة) إلى أن يبلغ الحبّة الأخيرة المفردة (99) فيقلب المسبحة بين أصابع يده اليتيمة ويبدأ العدّ من جديد. هذان الحبشيان فيهما طاقة غير مرئية. أسكنهما «البيت الثالث»، بيت المرحومة هيلانة لأن أم شاهين لم

تقبل الانتقال من بيتها. قالت هنا حملت
لماذا تريدني أن انتقل إلى البيت في نهاية ا
البارودي ذو الذراع الواحدة ذكر ربّه وحاول
لم تفهم. قال لها إنه لا يريد عبور العبيد
كل صباح وكل مساء، فإذا سكنتْ مع الول
العبدين هنا في البيت الأول وارتاح من الم
عينها وقالت إنه الرجل وتاج رأسها وربّ
لمّي أغراضك وافرشي تحت الجميزة أو في
هذا البيت، بيتها، إلاّ مكسورة الخاطر.

عبد الجواد أحمد البارودي استعاذ بالل
أحد يكسر خاطرك. ثم أنزل العبدين في
لماذا عاندت أم شاهين كما عاندت. صفية
تخاف أن يرجع ولدها الغائب الحبيب ش
يجدها في هذا البيت حيث رَضِعَ وأكل الد
في موسم الكشك، فيمضي عائداً من حيث

عبد الجواد أحمد البارودي الواقف
عندئذٍ (حيث مطعم «كرم بيروت» اليوم
الإيطالي) يراقب الحبشيين مونس وسنان ي
القماش وحزمها ورفعها إلى السقيفة الخش
شاهين قد عاد للتو إلى البلد. لم يكن ي
- منذ فترة - يترقب رجوعه. الثوار سلم
الأخيرة عند سفح جبل الشيخ. والأمير خل
أقنع إبراهيم باشا أن يفرض عليهم شروط
جديد. إبراهيم باشا جعل للدروز فرقة
تختلط بالفرق الأخرى. وأصدر عفواً عن

جنبلاط وعن ناصر العماد. عبد الجواد أحمد البارودي يترقب رجوع ابنه منذ أيام. كل يوم يعود غائبون إلى بيروت.

خرج صاحب الذراع الواحدة ووقف أمام متجره ونظر إلى شجرة اللوز في الجانب الآخر من الزقاق. كانت عارية من الأوراق، أغصانها تتفرع - رمادية ضاربة إلى الحمرة - في الفضاء. الوحول المتجمعة أسفل حائط الجامع لم تجفْ بعد. والمياه تصخب في النوفرة المرمر. (في ذلك الزمن البعيد كان مدخل الجامع الرئيسي من هذه الجهة، وليس من الجهة الأخرى كما هي الحال اليوم). السوق غير مزدحم. التجار ما زالوا يصلحون ما أفسدته الأمطار. (أسفل السوق في جوار «زاوية البازركان»، دخلت الوحول إلى مخزن الحاج محمد قرنفل وعطبت كل الأطلس فيه وعطبت كل الكشمير الإيراني المشغول بالتخريم والتطريز). السوق غير مزدحم لكن الناس ينتشرون هنا وهناك، والقهوة جنب الجامع تعجّ بالزبائن. (علي الإسكندراني يجلس الآن وراء المكتب الكبير، بين الصواني والأباريق والفناجين، يراقب الصبيان، ويدخن أرجيلته. العواصف حطمت السقائف الخشب في جانب «القهوة» لكنه أصلحها في يومين وزاد سقيفة أخرى. الأمير محمود نامي منع الجنود من الجلوس في «القهوة» لأنهم باتوا كالتنابل، كروشهم أمامهم. ولأن علي الإسكندراني لا يتورع عن دسّ الحشيش والأفيون في تنباك الأراجيل مقابل الخردق والبارود).

السوق غير مزدحم لكن رائحة الفول الذي يطبخ على القدور النحاس الضخمة طوال ساعات الليل والنهار تفوح من دكاكين ضيقة مظلمة، وتمتزج برائحة العرق الكوراني الرخيص وتمتزج برائحة الشتاء الذي لم يتبدّد تماماً بعد. أحسّ عبد الجواد أحمد البارودي بغتةً بالبرد. تراجع إلى جوف متجره المزدحم بالبضاعة وأصلح الجبّة

الثقيلة على كتفيه. مرات يحسّ بوخزٍ في أصل كتفه.

قبل زمن غير طويل أحسّ بذراعه المقطوعة كأنها غير مقطوعة كأنها لا تزال متصلة بجسمه. أيقظه الإحساس الغريب في نصف الليل. حين تبين جسور السقف المتقاطعة في الزاوية، حيث الكوّة المربعة، أيقن أنه نائم عند أم شاهين وليس عند أم زهرة. نهض في الظلام وتناول إبريق الماء الفخار من جنب الصندوق الدمشقي المطعم بالصدف وقلبه في جوفه. بات قليلاً ما يقضي الليل هنا. معظم الليالي ينام عند أم زهرة. استوحدت سهيلة واستوحشت بعد زواج البنات. نرجس لا تؤنس وحدتها. غريبة هذه البنت. ليست مثل أخواتها. تحبّه وتتعلق برقبته حين يسمح لها، لكنها تقطع الكلمات في نصفها، تتلعثم في الحديث، تلفظ الحروف خطأ، كأن حنكها رخو، وتظلّ مع المعزى، كأنها تفضل عِشرة المعزى على عشرة أمها وأخواتها. غريبة هذه النرجس. حلوة مثل أخواتها، لكن عقلها صغير. سبحانك يا ربّ. وسهيلة تقول إن البنت لا تفهم بسرعة ما تقوله لها، وأنها لا تتعلم بعض الأمور أبداً... ثم أنها ما زالت تمصّ إصبعها. عبد الجواد أحمد البارودي فكر أن البنت ليست طبيعية تماماً في رأسها لكنه لم يزعل. تذكر ضحكتها حين تراه آتياً في المساء، وتذكر ركضتها إليه وقفزتها على جسمه، تذكر ذلك وابتسم وذهب عنه البرد وذهب الوخز في أصل الذراع المقطوعة. قال في سره عندئذٍ إن هذا الوخز رجع منذ شتاءين أو ثلاثة أو أربعة، ولعله رجع منذ غضب على الولد في حانوت الشواء.

كيف غضب عليه؟ كيف ضربه؟ كيف ترك الغضب يعميه! لكن الولد... سقطت نظرة عبد الجواد أحمد البارودي. حدق أرضاً وغامت الدنيا في عينيه. أين صار ابنه الآن ومتى يعود وهل يعود؟

أبناء أخواله كلّهم عادوا. محمد عاد قبل عام، وشاهين لا يعود. يسمع أخباره ولا يراه. ولا يعرف هل يراه. لكنه يشعر أنه سيعود. وأم شاهين مرضت ولم تعد تقدر أن تقوم. لكنها في الأمس قامت وأكلت برغلاً ووقفت عند العتبة تنظر إلى الطريق. جاره ابن العيتاني رجع ابناه في رمضان. وعيّدوا الفطر معاً. ابنه شاهين متى يعود؟ يسمع أخباره ولا يراه. كان مع شبلي العريان في وادي التيم. لكنه لم يكن مع الدروز في المعركة الأخيرة في شبعا. عبد المجيد الفاخوري قال إن شاهين كان عندئذٍ في حوران، نازلاً في بيت الشيخ عدنان الأطرش مع رفيقٍ من رفاقه يُدعى سليمان منذر. عبد المجيد سهر معه ليلة، وتركه قبل الفجر. قال إن شاهين أخبره أنه سيرجع قريباً إلى بيروت. لا يعرف متى، لكن ربما في الصيف. هكذا قال عبد المجيد.

كيف صار وجه ابنه شاهين بعد كل هذه السنين؟ محمد الفاخوري يروي عنه حكايات. يقول إن الدروز في حوران يحبّونه كأنه واحد منهم. وإن النساء مرات لا يغطين وجوههن في حضوره. محمد يبالغ لكن عبد الجواد أحمد البارودي سمع أيضاً من تجار الحبوب الحوارنة كلاماً حلواً. ولده شاهين معروف بنخوته، بالكرم، بالشجاعة، بالصدق، بالوفاء. التجار الحوارنة يقصدونه في البازركان، أو في المطعم أسفل سوق القطن، للقائه، للقاء أبي شاهين البارودي. ابنه بات شهيراً في حوران واللجاة ووادي التيم. يحمل لهم البواريد والذخائر كل الطريق من الأناضول، كل الطريق من استانبول. في أكثر من واقعة حارب معهم. الدروز يعتبرونه واحداً من جماعتهم. هكذا قال محمد البسّ. وقال إنه أصيب بنيران المصريين مرتين. لكن في المرتين سترها سبحانه. في القفر البركاني الفسيح الذي يسمّونه «اللجاة»، أهلك الدروز بالكمائن عساكر محمد

باشا نائب إبراهيم باشا الثاني. وهناك كاد الولد الذي صار رجلاً أن يفقد حياته. لكن اللّه ستر، مرة أخرى، وشاهين برأ من جراحه.

محمد قال إن ابن عمته صفية وجد نفسه يحارب حين وقع في كمينٍ مصري بين وادي القرن ووادي الحرير. هاجموه وهاجموا رفاقه ولم يكن أطلق بارودة على مخلوق من قبل. حياته أو حياتهم. كان مضطراً. فرفع البارودة وسط الصخب والشمس والغبار والدخان وسدّد إلى رأس الفارس المنقض عليه. لكن البارود بال والبارودة لم تُفرقع. قوّص لكن الخردق لم يخرج من فوهة البارودة. الفارس المصري أطلق غدارته فأصاب بالخردق حصان شاهين ولم يصبه. التحما بالأيدي وطعن المصري شاهين في فخذه بخنجرٍ معقوفٍ. شاهين أمسك المصري بالأصابع العشرة، عندئذٍ، ودقّ عنقه.

عبد الجواد أحمد البارودي ذو الذراع الواحدة طلب من محمد ابن صهره محي الدين أن يكفّ عن رواية هذه الأخبار أمام الناس. محمد الفاخوري طأطأ رأسه وقال «حاضر يا عمي».

الثوار سلّموا سلاحهم. الدروز قبلوا أخيراً الخدمة الإجبارية في الجيش المصري. إبراهيم باشا جمع السلاح بمعونة الأمير خليل من القرى والمزارع والبيوت، استقدم سفناً محمّلة بالبزات النظامية من الإسكندرية، وفرض النظام على الجبل. الحال هادئة منذ فترة وقرار العفو شمل الجميع. الكل يرجعون.

عبد المجيد رجع وقال إن شاهين نازل في دمشق، في دارٍ عند سفح قاسيون تخصّ الحاج يوسف الخشّ أحد أصحاب عمه محي الدين وجاره على بحر مرمرة في دار الخلافة اسطنبول. عبد الجواد أحمد البارودي تذكر زمن الشام القديم واختلطت عليه المشاعر حين سمع كلمة «قاسيون». أي صدفٍ عجيبة جعلت ولده ينزل في

دمشق؟ ومن هذا الحاج يوسف الخش الذي يضيفه؟ لا يعرف هذه العائلة، لكنه يعرف عن آل الخشّ في مصياف في جبال الإسماعيلية، وهؤلاء ليسوا أبناء دمشق!

عبد المجيد رجع إلى بيروت وجاء إلى زوج عمته صفية في سوق البازركان وقال إن شاهين يفكر في الرجوع. عبد الجواد أحمد البارودي سمع كلمات عبد المجيد ثم قال:

ـ بيته هنا وأخوته هنا. قلْ له إن أمه مريضة وإنها لا تطلب إلاّ أن تراه.

لم يقل صاحب الذراع الواحدة المزيد. أحسّ ألماً في زلعومه. كأن شيئاً ساخناً يُغمد في حلقه. نظر جانباً وسكت.

الآن يرفع عبد الجواد أحمد البارودي رأسه وينظر إلى حمير محملة بالأقمشة تعبر السوق. من هذا الباب خرج عبد المجيد حاملاً كلماته إلى ابنه شاهين: «بيته هنا وأخوته هنا. قلْ له إن أمه مريضة وإنها لا تطلب إلاّ أن تراه.». لم يستطع أن يلفظ كلمة واحدة أخرى. فكر أن يقول: «. . . قبل أن تموت». لكن العبارة حطّمته تحطيماً. كيف تكون الحياة إذا ماتت أم شاهين؟ وفكر أن يقول شيئاً آخر، شيئاً عن نفسه. لكنه لم يقدر. قال «بيته هنا وأخوته هنا». كان عليه أن يقول: «وأبوه هنا». لماذا لم يلفظ العبارة، لماذا سكت ولم يقل؟

عبد الجواد أحمد البارودي انتبه عندئذٍ أن العبدين أنهيا رفع البضاعة. وقفا كعمودين أمام المتجر والعرق يبرق على بشرتهما الكالحة المصقولة. ارتفع الأذان. المساء يزحف على البلد والمتاجر توصد أبوابها. الرجال يتوافدون إلى الجامع، والشموع تضاء في الجوف المظلم. أحسّ عبد الجواد أحمد البارودي بقلبه يهوي بين

أضلاعه. إنهارت معنوياته فجأة. تدلّت المسبحة من بين أصابعه حتى لمست الأرض بشرابتها الفضة ذات النقود الأسدية المثقوبة. إنهارت نفسيته. لم يعد يرغب الحياة. نظر إلى الأقدام تعبر أمام عينيه، كل تلك النعال والصرامي والكنادر والصبابيط، نظر إلى تلك الأقدام المسرعة في هذا الاتجاه وفي ذاك الاتجاه، نظر إلى الوحل وإلى القناة وسط السوق، نظر إلى العتمة التي تزحف كالبزاق وتتطاير مع الوحل بين الصرامي، وأحسّ كل ذلك على وجهه وعلى عينيه. كأنهم يدوسونه بالنعال. كل أقدام هذا العالم تمشي على وجهه، تدوس جسمه، تدعس ذراعه الواحدة، تمعس أصابعه الخمسة الحديد، تكبس صدره وبطنه. زالت الأصوات. ما عاد يسمع الأذان الخارج من جامع النوفرة، ولا الأذان الآتي من وراء المتجر، الأذان الأليف من «الجامع العمري الكبير». زالت الأصوات. الحبشيان يتبادلان كلاماً خافتاً بلغتهما العجيبة الغامضة لكنه لا يسمع شيئاً. السوق يرتفع ضجيجها في هذه اللحظات، حين يحتضر النهار، ويُقبل المساء. يرتفع ضجيج الأبواب الخشب، طرطقة المزاليج، قرقعة الأقفال، نداءات الفراق المألوفة. . . يرتفع الضجيج لكن عبد الجواد أحمد البارودي لا يسمع شيئاً. قلبه سقط ونظرته سقطت. لم يعد يسمع الأصوات. كان يستعيد قصة من القصص التي رواها محمد عن شاهين. قال إن شاهين كاد يُقتل في بستان فستق خارج اللاذقية بسبب أذنه الطرشاء. قال إن رجلاً اقترب منه من جهة الأذن الطرشاء ليقتله ويسرق حمولته. وإن شاهين لم ينتبه إليه. ولولا رحمة اللّه سبحانه وتعالى كان الرجل قتله. عبد الجواد أحمد البارودي سمع كلمات محمد تتكرر في رأسه ولم يسمع الحبشيين يُكلّمانه. لا سمع كلامهما ولا سمع كلام الولد عمر الذي ظهر فجأة لاهثاً في الباب.

كان متعباً، كل تعب البشر على هذه الأرض، كان متعباً ولا يريد إلاّ أن يضمحل ويختفي في الهواء. كل هذه الحياة، كل هذا الجهد، كل هذا السعي الحثيث، ماذا ينفعه؟ ما هي أيامه ولياليه بلا وجه ولده الحبيب، بلا تلك الابتسامة، وتلك الالتفاتة بكل عنقه حين لا يسمع جيداً ما يُقال عن هذه الجهة! لماذا يحيا وشاهين ليس معه! عبد الجواد أحمد البارودي لم يكن يفكر في كل هذه الأشياء. صاحب الذراع الواحدة كان عاجزاً عن التفكير في تلك اللحظة من التخلي التام. كان فقط يسقط. يسقط في بئرٍ مظلمة بلا قرار. ولا يفكر. أيقن أنه ما عاد يريد شيئاً، ما عاد يطلب شيئاً... إلاّ الاضمحلال. لا يريد أن ينهض ليقفل المتجر ويذهب إلى البيت. لا يريد أن يرى «الطريق البيضاء» مرة أخرى. ولا يريد أن يرى أم شاهين تنتظر عند العتبة أو قاعدة في الفراش. لا يريد النهوض. لا يريد شيئاً. كان يسقط في أعماق سحيقة، والمسبحة تلمس الأرض. كان ثابتاً على كرسي القش، ونظرته ثابتة على الصبي عمر الذي ظهر فجأة لاهثاً في الباب. وكان يعلم علم اليقين أنه لن يرى ابنه شاهين بعد الآن. هذا عقابه. هذا هو العقاب. منذ أن طعن أخاه في بطنه في ذلك اليوم البعيد والله يدّخر له العقاب: حمله إلى هنا، أعطاه شاهين، ثم أخذه.

عبد الجواد أحمد البارودي أوشك أن يموت بذبحةٍ صدرية في تلك اللحظة. أوشك أن يقتل نفسه. تلك الفكرة، ذلك الإحساس المرعب (أن الله قد أعطاه شاهين فقط كي يخطفه منه)... لا، ليس في مقدور إنسان أن يحتمل هذا. اختنقت الأنفاس في صدر الرجل. دبّ نملٌ في ذراعه الباقية وارتعش ثديه الأيسر رعشةً خاطفة ثم انكمش. عضلة القلبْ أوشكت أن تهمد. كانت هذه نهاية الرجل الذي جاء من دمشق هارباً وملطخاً بالدم ذات شتاءٍ بعيد.

كانت هذه نهاية عبد الجواد أحمد البارودي ذي الذراع الواحدة... لولا أن ابنه الصغير عمر ظهر عندئذٍ في باب المتجر في البازركان ولفظ مع أنفاسه اللاهثة المتقطعة هذه الكلمات:

ـ أبي... أبي... شاهين... شاهين أبي... شاهين في البيت أبي... شاهين في البيت.

عاد شاهين البارودي إلى بيروت بعد غيابٍ طويل وعاد إلى الكلام مع أبيه عبد الجواد أحمد البارودي. تلك الليلة تناولت العائلة عشاءها على سماطٍ واحدٍ. سهيلة النابلسي البارودي جاءت هي أيضاً، من «البيت الثاني»، تدفع أمامها البنت نرجس، للاحتفال بالابن الضال الذي رجع أخيراً. وجدت في الداخل رجلاً ضخماً أفزعها رغم الابتسامة الأليفة على وجهه، وأفزع بنتها نرجس. سهيلة النابلسي البارودي وضعت الطنجرة الساخنة على الأرض ولفظت كلمات الترحيب بصوتٍ مرتبك. صفية الفاخوري البارودي لم تسمع كلمات ضرّتها. كانت منشغلة بوجه ابنها. تحدق إليه، تضغط يده بين يديها، والماء يلمع في عينيها الصافيتين.

سهيلة النابلسي البارودي كانت تعتقد أن أواصر الصداقة بينها وبين ضرّتها أم شاهين تعمقت في ذلك الأصيل البرتقالي، بينما تغسلان جسم الضرّة الثالثة المرحومة هيلانة جروة الحلبية التي كانت نصرانية ثم أسلمت. في ذلك الأصيل اللانهائي، بينما تقلبان جسم الميتة الناصع البياض وتغسلانها وتنزعان بالسكر شعرها وتُليفانها بالصابون والماء الساخن ثم تطيّبانها بالمسك العدني المجلوب من سوق العطارين، في ذلك الأصيل اللانهائي أحسّت أم زهرة أن أم شاهين صارت أختها، أختها الكبيرة.

أم شاهين في المقابل لم تسمح لأم زهرة بالإقتراب من قلبها فعلاً إلاّ بعد زواج ابنتها الكبرى زهرة ورحيلها عن البلد، إلى صيدا البعيدة. في ذلك المساء، بينما الكل يحتفل برجوع شاهين، بقيت أم شاهين قاعدة لصق ابنها، ولم تنهض لتساعد ضرّتها في إعداد الطعام. تركت كل شيء على أم زهرة. فعلت ما لا تفعله أمٌ في العالم. لم تنهض لتصنع طعاماً لإبنها العائد. بقيت لصقه تحدق إلى وجهه، عالمةً أن الجوع، إذا بان في هذا الوجه، لن يكون جوعاً لخبزٍ أو لبنٍ أو دجاجٍ أو حلوى. تركت أم زهرة تمدّ السماط وتوزع الصحون. فعلت ما لا تفعله امرأة في عالمنا. تركت ضرّتها تسود في قلب بيتها ولم تتحرك. لم تكن واعيةً بما يجري حولها. كل ما فيها إنصبَّ على الوجه الباسم الذي لا يبتسم. حين تكلم شاهين مع أبيه سمعت في أعماق الصوت حزناً بلا بداية ولا نهاية. كسر الصوت قلبها. شهقت بالدمع والكل حَسِب أنها دموع الفرح برجوع الولد ـ الذي صار رجلاً ـ شاهين.

رجع شاهين إلى أهله، إلى أمه وأبيه وأخوته. رجع إلى البيت النائم عند حافة «طريق عبد الجواد». عاد إلى الكلام مع أبي شاهين عبد الجواد أحمد البارودي وإلى مرافقته إلى المطعم أسفل سوق القطن، أو إلى دكان الخضر القديم. كانا في معظم الأيام يمضيان متبوعين بالعبدين مونس وسنان إلى المتجر في سوق الصاغة في البازركان، وهما يوزعان التحيات على المعارف يميناً ويساراً. الولد صار أطول من الوالد. ويشبهه كأنه أخوه. لكن الابن أضخم من أبيه. والأب بذراعٍ واحدة فقط. كل هؤلاء في سوق الفشخة، في العطارين، في سوق القطن، في سوق الأساكفة، في سوق البوابجية، في سوق الحدادين، كانوا ينظرون إلى الأب وابنه ويفرحون للمنظر. أن يعود الولد إلى أبيه! سبحانك يا ربّ!

كانوا يفرحون وحين يتبادلون الكلام مع عبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع الواحدة يقولون سبحان الخالق الناطق، هذا الشبل من ذاك الأسد. يقولون إن شاهين يشبه أباه كأنه هو، ولكن الأب ذراعه مقطوعة، والابن غريب الابتسامة أضخم جثةً، وهذا كل الفرق.

شاهين البارودي كان يسمع كلام الناس، يشرب فنجان قهوته، ويبتسم كعادته (كما ابتسم في اسلامبول، كما ابتسم في أنقرة، كما ابتسم في اللاذقية، كما ابتسم في حوران، كما ابتسم في دمشق) بينما ينظر إلى وجه أبيه، أو إلى المنظر وراء كتفه، أو إلى سرب بجع يعبر السماء وينذر بتبدل الطقس. يبتسم شاهين البارودي حين يقولون إنه يشبه أباه فكأنه أخوه، ولا يخبر أحداً (وبالتأكيد لن يخبر أباه) عن مغامرته الغريبة في دمشق: رأى عمّه، رأى الأخ الكبير ـ الأخ الأوحد ـ لأبيه عبد الجواد أحمد البارودي. رآه بعينه الاثنتين.

حدث ذلك صدفة. لكنها لم تكن تماماً صدفة. قاد القدر شاهين البارودي إلى دمشق بعد أن استسلم الثوار في مقابل العفو عنهم. في دمشق رأى شاهين البارودي مناماً: رأى أنه يجلس بين نساء كثيرات، يعرفهن ولا يعرفهن. كنَّ قاعدات على التراب تحت شجرة برتقال كبيرة ينقرن حبّات كوسى وباذنجان وقرع ويتحدثن عن المواسم هذه السنة، وعن الجفاف الذي أصاب النهر في سنة سابقة. الحديث لم يكن مهماً. ولكن الاحساس الغريب: من هنّ؟ كل هذي النسوة اللواتي يقعد بينهن، وبين يديه حبّة بندورة يقلبها بين أصابعه وينعس، كأنه قاعد في بيت أمه، قبل سنين. من هنّ؟

استيقظ شاهين البارودي فوجد نفسه وحيداً في دار فسيحة خالية إلاَّ من أنفاسه. هذه دار الحاج يوسف الخش صديق خاله محي الدين وجاره في استامبول. شرب شاهين البارودي ماء، ثم خرج

ووقف أمام الباب ينظر إلى صخور جبل قاسيون خضراء ـ رمادية في نور الفجر. «من هنّ؟» سأل نفسه، وفي تلك اللحظة قرر أن يبحث عن أهل أبيه. ها هو في دمشق، الصدف جاءت به إلى هنا، إلى المدينة التي كانت بيت أبيه عبد الجواد، فلماذا لا يبحث عن آل البارودي؟ ما الذي يمنعه؟

دلّوه إلى بيت المرحوم أحمد البارودي ودلّوه إلى دكان الخضر المجاور للجامع الأموي. شاهين البارودي لم يكن يعرف اسم عمّه حتى تلك اللحظة. كان يعرف اسم جده (أحمد) لأن الأب عبد الجواد لم يتخلَ عن اسم المرحوم أبيه حين نزل في بيروت. لكن أحداً لم يخبر شاهين البارودي باسم عمه من قبل. سأل عن بيت جده المرحوم أحمد البارودي، ماشياً من زقاقٍ إلى زقاق، إلى أن بلغ البيت المنشود. لم يدخله. نظر إلى أغصان شجرة برتقال ترتفع فوق الجدار القاتم القديم، ولم يقترب من الباب الخارجي. في الداخل جدّته (أم أبيه، بلى، ما زالت حية!). وفي الداخل بعض عمّاته (أخوات أبيه، بلى، نصفهن يحيا هنا!) لعلهن جالسات الآن في أفياء الشجرة الخضراء في الحوش غير المرئي الكبير!

ابتعد شاهين البارودي عن البيت، ابتعد في أزقة ودروب متعرجة، بين باعة ومشاة وبغال وإبل وصناديق ومقاطف وسلال، إلى أن وجد نفسه أمام قناطر الجامع الأموي. الرجل الذي دلّه إلى دكان عمّه وأولاد عمّه أخبره أنه لن يضيع. الدكاكين كثيرة هناك لكنه لن يضيع. قبالة الدكان شجرة جوز وارفة الظلال وتحت الشجرة يجلس ثابتاً، في الصيف وفي الشتاء، بائع سمكٍ نهري وحنكليس. يتربع محاطاً بسلال القصب المملوءة سمكاً، وفوق السمك ورق تين وجوز عريض بارق الخضرة، وفوق الورق سحابات من الذباب الأزرق الضخم الطنّان.

الرجل دلّه إلى دكان عمّه. شاهين البارودي سمع في ذلك اليوم اسم عمّه للمرة الأولى في حياته. سمع الإسم مرات لا تحصى في حياته. لكنه لم يتخيل يوماً أن هذا اسم عمه أيضاً. لا ندري هل سأل عن الإسم، أم أن الإسم ذُكِر عرضاً في الحديث. في الغالب ذُكر الإسم ما إن بان للرجل (الدليل) أن المقصود هو ابن المرحوم أحمد البارودي الباقي في البلد. (هناك ابنٌ آخر بذراع مقطوعة غادر دمشق هارباً قبل زمنٍ بعيدٍ). يمكن أن نرتب أحداث ذلك النهار بأكثر من ترتيب. لكن كل هذا غير ضروري. القدر قاد شاهين البارودي مع صديقه سليمان منذر إلى دمشق وإلى بيت الحاج يوسف الخشّ عند سفح قاسيون. القدر جعل سليمان منذر يترك الشام بعد أيام عائداً بعد طول فراقٍ إلى أهله في تلك القرية البيضاء الصغيرة المحضونة بالشجر والينابيع في جبل لبنان. والقدر أعطى شاهين البارودي أن يرى ذلك المنام في دارٍ فارغة إلاّ منه. استيقظ شاهين البارودي مستوحداً. ناظراً إلى الجبل الصامت في نور الفجر أحسّ وحدته مضاعفةً. لو كان صاحبه الدرزي هنا لنسي المنام وضاعت الخطة! لكنه كان وحيداً في مدينة غريبة. غريبة وليست غريبة: أبوه ولد في هذه الأرض! وأهل أبيه يحيون هنا! قرّر شاهين البارودي عندئذٍ أن يجدهم. أن يسأل عنهم الناس.

دلّوه إلى دكان عمّه.

لعله سألهم عن اسمه، اسم العم.

ـ ماذا يُدعى؟

لعلهم ابتسموا عندئذٍ.

ـ ولكن ألاّ تعرف؟

كان لإستغرابهم ما يبرره.

ـ اسمك مثل اسمه. يُدعى شاهين البارودي.

وقف شاهين البارودي بن عبد الجواد أحمد البارودي في زحمة أسواق دمشق لا يعرف ماذا يفعل. البلد يعجّ بالبشر والقوافل والأصوات. رأى قوافل الغزل والقرمز المجلوب من أزمير. رأى القلانس والحرير والمطرزات. رأى الإبل المحملة بالتبغ مقبلةً من فارس وبغداد. رأى قوافل الموسلين الهندي والكشمير واللؤلؤ والسيوف. رأى المخمل والقماش الموشى بالترتر والألماس الهندي. شمّ روائح ذكّرته بسوق العطارين في بلده: الفلفل والقرفة وجوزة الطيب والقرنفل والمسك والحنّة وخشب الصبر والبخور والكافور. رأى سلال التمور وسلال العفصة الجوزية وسلال الكهرمان الأصفر ورأى سلال العنب والتين. رأى البغال تعبر محملة بأكياس القمح والشعير والذرة، ورأى الحمير مثقلةً بمقاطف الخوخ والبرقوق والتفاح والإجاص. رأى كل ذلك ولم يعرف ماذا يفعل بنفسه.

مالت الشمس في قوسها الأبدي ورأى نفسه ماشياً باتجاه شجرة جوز وارفة الظلال. رأى انعكاس جسمه في بركة مياه متجمعة في ماء القناة وسط الزقاق ثم رأى انعكاس وجهه في الحدقتين المتسعتين لصياد السمك النهري وثعابين الماء.

استدار عندئذٍ فواجه دكان الخضر الذي لم يرَه من قبل ورأى ذلك المنظر العجيب: في قلب الدكان الواسع، بين صناديق الخضر والفاكهة، وراء القبّان، وقف أبوه عبد الجواد أحمد البارودي يُكلم بعض الزبائن مُحركاً يديه الإثنتين في الفضاء. كانت الإيماءات ترافق كلمات لا يسمعها شاهين البارودي المتسمر تحت أغصان الجوزة في

هذا الجانب من الطريق. شاهين البارودي وقف فاغر الفم أمام المشهد العجيب. كان يرى أباه عبد الجواد بذراعين، وليس بذراعٍ واحدة! كان يرى عمه!في تلك اللحظة فقط انتبه شاهين البارودي كَم اشتاق إلى أبيه! في تلك اللحظة (وقبل أن يعود عبد المجيد ويخبره أن زهرة تركت البلد وأن أمه مريضة) أراد شاهين البارودي أن يركب حصانه ويقطع الجبال عدواً إلى بيروت. أراد أن يرى أباه عبد الجواد أحمد البارودي صاحب الذراع الواحدة. أراد أن يراه، أن يُكلمه، وأن يسمع صوته.

رجع شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي إلى بيروت في نهاية الشتاء. قبل أن تبرعم الأغصان وتتحول أشجار اللوز والكرز والأكي دنيا إلى كواكب من الزهر الأبيض، كتب كتابه على خديجة قرنفل بنت الحاج محمد قرنفل. فعل ذلك إرضاء لأمّه صفية. أم شاهين قالت إنها الآن تموت مرتاحة البال.

ـ سلامة قلبك من الموت يا أمي، قال لها شاهين.

تزوج شاهين البارودي وبنى بيتاً جنب بيت أمه. من الآن وصاعداً لن يكون بيت أم شاهين «البيت الأول» عند حافة «طريق عبد الجواد». صار بيتها «البيت الثاني». بيت أم زهرة صار «البيت الثالث». وبيت المرحومة هيلانة جروة الحلبية البارودي بات «البيت الرابع». عمر سمّاه بيت العبيد. عبد الرحيم سمّاه بيت الأحباش. أم زهرة ظلّت تسميه بيت المرحومة.

عبد الجواد أحمد البارودي أراد أن يجعله بيت ابنه شاهين وزوجته خديجة. قال نبني بيتاً من الخشب والطين للعبيد. لكن أم شاهين لم تقبل. تريد ابنها هنا، على بعد ذراع منها. لولا أن البيت صغير لأجبرت شاهين أن يقيم مع حرمه تحت سقفها. لكن البيت

صغير. أم شاهين أصرّت أن يبني شاهين بيته «الحائط على الحائط». هكذا يبقى تحت نظرتها: لا تريده أن يختفي مرة أخرى بعدا رضخ عبد الجواد أحمد البارودي.

في الجانب الآخر من «الطريق البيضاء» ظهرت بيوت عدة. بعد بيت ابن نجار الدرزي، بنى السيد موسى الوتوات مخزناً لفيالج الحرير. وراء المخزن بنى أولاد جرجي تامر ثلاثة بيوت. بعد حوادث 1860 سيترك أولاد جرجي تامر البلد ويهاجرون إلى مصر، فينزل في هذه البيوت نازحون من دمشق وحلب، ثم لا يلبثون أن يغادروها إلى بيوت أخرى خارج الأسوار، في الجانب الآخر من «سهلات البرج» (منطقة «الصيفي» الآن). بعد حوادث 1860 أيضاً يبيع ورثة موسى الوتوات مخزن الفيالج المتداعي لرجل من آل الفاخوري. خليل الفاخوري نفسه، صهر عبد الجواد أحمد البارودي، كان بنى قبل ذلك بسنوات طويلة بيتاً يجاور بيت المرحومة هيلانة الذي سُمّي من بعدها «بيت العبيد» و«بيت الأحباش» و«بيت سعدية». سكن خليل الفاخوري هذا البيت زمناً، ثم أجّره إلى ابن أخيه. محمد الفاخوري لن يعيش في هذا البيت طويلاً. لكن عائشة هانم زوجته التركية ستنجب له ابنه الأول هنا، وابنته الأولى أيضاً. مقابل هذا البيت، في الجانب الآخر من «الطريق البيضاء» ظهرت زريبة ماشية، تماماً بين «بيت الأحباش» وبيت أم زهرة. هذه الزريبة لم تكن إلاّ نزوة من نزوات عمر البارودي. وسوف تتحول بعد وقتٍ بيتاً آخر من «بيوت العبيد»، في زمن ازدهار تجارة عبد الرحيم أبو حسين البارودي ابن بيروت المعروف الذي حضر حفل افتتاح قناة السويس مع الأمراء ومع خديوي مصر ومع ملوك أوروبا في عام 1869.

كل هذه البيوت ستصبح بيوتاً للعبيد في قصيدة تكتبها امرأة من عائلة بسترس لم تعرف يوماً ماذا تريد أن تكون (شاعرة؟ باحثة في الأدب اللاتيني؟ بوهيمية تعيش مع البوهيميين في سفينة مهجورة في خليج سان فرانسيسكو؟ بدوية تقيم في أطلال البتراء أو وادي الملوك؟ أم تسهر على راحة أبنائها في لندن أو باريس؟ صحافية ومراسلة حربية من طراز غير مألوف الخ الخ. . .). كل هذه البيوت ستصبح «بيوتاً بيضاء لعبيد الأسلاف» في قصيدة تُكتب بالإنكليزية عند منتصف القرن العشرين. لكن هذه البيوت لم تكن يوماً بيوت عبيد. الأحباش سكنوا بيتين أو ثلاثة منها. ليس أكثر. ثم أن هؤلاء لن يبقوا عبيداً لوقتٍ طويل. في الربع الأخير من القرن التاسع عشر مُنِعت تجارة الرقيق في أنحاء السلطنة بضغط من القناصل الأوروبيين. الأحباش الذين ظلّوا في «حارة البارودي» بعد ذلك، ظلّوا بصفتهم أجراء عند الحاج عبد الرحيم البارودي.

أحد أقدم هؤلاء، سنان، سيظلّ يتذكر ـ حتى مرضه ووفاته محاطاً بالأولاد ـ ذلك النهار البعيد، حين ساعد معلمه الأول عبد الجواد أحمد البارودي (اللّه يرحمه ويُطيب ثراه) وابنه البكر شاهين البارودي (قُتل في عزّ الشباب) في انزال العتبات الحجر الضخمة عن ظهور الإبل أمام بيت أم شاهين.

انتهى بناء البيت قبل نهاية الصيف ووصول غيوم الخريف. سهيلة النابلسي البارودي قضت ذلك الربيع بين ورشة البناء جنب بيت أم شاهين وبين الغرفة البيضاء على السطح، حيث باتت تُربي دود الحرير. أم زهرة قضت ذلك الربيع راكضة بين مهام لا تنتهي ولا تعد. صارت تستيقظ قبل الفجر ولا تأوي إلى الفراش إلاّ حين يدلهمّ الظلام.

كانت أشغالها كثيرة: قطف ورق التوت والعيدان الرفيعة، فرم

الورق والعيدان وفرشها في أطباق الدود، طبخ الطعام للعائلتين وللعبدين أيضاً، الاهتمام بالبنت نرجس وبالمعزى معاً، نثر الحبّ للدجاج، حلب المعزى، تكنيس البيت ورش الكلس عند الباب وتحت النوافذ (ثمة ثعبان آخر من ثعابين الجوز ذي العقد الخضر ظهر وراء بيت أم شاهين آتياً من أقبية سوق القطن)، حمل الطعام إلى ورشة البناء، الرجوع بالقدور الفارغة، غسل القدور وتنشيفها في الشمس، الإسراع إلى التوتات مرة أخرى، قطف الورق الأخضر من جديد وفرمه، الركض على السلالم إلى الغرفة العالية. . . وكل هذا الركض ولا تبلغ الأطباق إلاّ لترى الدود الشره قد التهم كل ما تركت له قبل أقل من ساعة، التهم الورق والتهم العيدان وبدأ يلتهم قاذوراته ويتسلق حواف المطابق وينزل على السقالات وينتشر على الأرض. . . باحثاً عن المزيد من ورق التوت. هلكت أم زهرة من الركض في ذلك الربيع وكادت تمرض مثل ضرّتها.

صفية الفاخوري البارودي لم تُنقَذْ من المرض برجوع ابنها. في الأيام الأولى فقط بدا أنها شفيت. صبغت شعرها بالحنّة الحمراء، أخرجت من الصندوق ثوباً أزرق نظيفاً رائحته خزامى وزعفران، عقدت منديلاً أخضر على رأسها، وبدأت العمل. في سبعة أيام تبدل شكل بيتها. جعلت عمر يساعدها وذوّبت كلساً في سطول الحديد وطرشت البيت كلّه، من الداخل ومن الخارج. شعاع الشمس صار ينعكس على أبيض الحيطان ويبهر المؤذن قدورة (صار عجوزاً) حين يتسلق مئذنة الجامع العمري الكبير ظهراً. طرشت البيت وأصلحت أحواض الزرع وشتلت أشجار ورد جوري نقلتها إلى هنا من دار أهلها داخل باب يعقوب. فرشت على الأرض سجاجيد وحصراً دمشقية مبهرجة الألوان وعلقت ستائر من الحرير على الشبابيك وطلت الدرف الخشب باللون الأزرق كما فعل الأمير نامي مع

بوابات بيروت. في تلك الأيام الأولى طبخت طعاماً يكفي لجيش. كانت تحتفل بابنها الذي سيتزوج بنتاً من عائلة كريمة وكانت تحتفل بنجاتها من الموت. في تلك الأيام كانت تسعل ثم تنظر في منديلها، وحين لا ترى دماً تقول أنها نجت من الموت.

ذبحت دجاجاً، ذبحت خروفاً، وذبحت حماماً. ابنها عبد الرحيم كان يختار أفضل المعاليق ويرسلها إليها. طبخت طعاماً يكفي جيشاً وقبلت على نفسها للمرة الأولى أن تطلب خدمة من ضرّتها أم زهرة. طلبت منها أن تصنع معمولاً بالجوز ومعمولاً بالتمر ومعمولاً بالفستق الحلبي، لأن شاهين يحبّ المعمول النابلسي.

عبد الجواد أحمد البارودي نظر إلى زوجته الأولى تمتلئ بالقوة والشباب من جديد، بعد أن بلغت شيخوخةً مخيفة غير مفهومة في السنوات الأخيرة، وتذكر أيامهما الأولى معاً، وتذكر أول مرة انتفخ بطنها قبل زمن بعيد. أم زهرة رأت نظرات زوجها إلى هيكل ضرّتها العائدة من الموت ولم تهتم. في ذلك الربيع المنهك انصب اهتمام أم زهرة على ديدان الحرير في الغرفة العالية. لم تنتبه حتى لابنتها نرجس كفاية. كانت البنت الشيطانة تأخذ المعزى إلى الحقول ولا ترجع إلاّ قبيل الغروب ولا أحد يسألها أين كنتِ أو ماذا فعلتِ أو مع من تكلمتِ أو ماذا أكلتِ في النهار.

أم زهرة وجدت دود القز يملأ عليها حياتها بعد رحيل البنات. لم تعد تهتم كثيراً بمجيء المعلم عبد الجواد في الليل. لم تعد تأبه. أم شاهين هي أيضاً لم تكن تهتم بزوجها في تلك الأيام. كل نظرها كان على الولد الذي بات رجلاً، بكرها شاهين. جرّت نفسها من فراش الموت فقط من أجله. حين وصلت زوجته أخيراً إلى «الطريق البيضاء» آتيةً من بيت أهلها، تنفست أم شاهين الصعداء. زوّجت الولد، وأبعدت عنه الوحدة. لن تخاف عليه بعد اليوم. في تلك

الفترة رجع السعال قوياً إلى صدرها. على منديلها الدمشقي المطرز (هذه هدية المعلم عبد الجواد) ظهر أثر دم.

مطلع الصيف ماتت أم شاهين. على فراش الاحتضار أمسكت بيد ولدها صاحب الابتسامة الحزينة وأوصته بأبيه. أوصته بأبيه وأوصته بزوجته وأوصته بأخويه عمر وعبد الرحيم. دام احتضارها ثلاث ليالٍ كاملة. أم زهرة سهرت جنب فراشها، تبكي، تمسح الدم عن شفتيها كلما سعلت، وتبلل جبهتها بفوط مبلّلة. أم شاهين اكتشفت في الساعات الأخيرة من حياتها أنها عاشت الحياة كلّها مفصولة عن هذه المرأة الطيّبة بالأشجار وبفكرةٍ حمقاء عن الضرّة التى لا تريد غير الشر والأذى لضرّتها. صحيح أنها انتبهت قبل الآن لطيبة سهيلة النابلسي لكنها لم تعتبرها يوماً أختاً لها. وها هي تخدمها كما لم تخدمها أختها ذاتها.

الكل خاف من السلّ في صدر أم شاهين. لكن أم زهرة لم تخف. حتى المعلم عبد الجواد يشيح بوجهه حين تسعل. حتى المعلم عبد الجواد يبدو خائفاً من السل. هي رأته بعينيها. رأت عضلات وجهه ترتجف، رأت رموشه ترفّ، ورأته ينظر عبر النافذة إلى أغصان الخروبة، بينما تسعل وغيمة حمراء تغطي عينيها وتغمر العالم. نظر بعيداً وتركها تموت.

أم زهرة لم تتركها. جلست على الفراش، جلست جنبها، ومسحت الدم عن فمها. هذه المرأة الطيبة! لن تغفر لنفسها أبداً أنها سمّتها ذات يوم بعيد «البقرة النابلسية».

نحلت أم شاهين في مرضها وذابت. حتى عظامها رقّت. قبل ليلة من موتها رأت في المنام أنها تدخل إلى بيت أبيض فترى على

فراشٍ أبيض امرأة بيضاء كالحليب. كانت امرأة سمينة كأم زهرة، ولكن طويلة الرقبة كالمرحومة هيلانة الحلبية. المرأة البيضاء كانت تتمدد عاريةً تماماً على الفراش الأبيض وسط المنزل الأبيض. لم يكن في المنزل أحد. وقفت أم شاهين تنظر إلى المرأة ولا تعرف ماذا عليها فعله. هل تغطيها؟ هل تتركها وتخرج؟ هل المرأة ميتة؟ في تلك اللحظة انتبهت إلى قطة بيضاء (من أين دخلت؟ من النافذة المملوءة بشعاع الشمس الأبيض الباهر؟) تقترب من المرأة البيضاء العارية. ثم رأت قطة أخرى، بيضاء أيضاً، تقترب من الجهة الأخرى. بعد ذلك ازدحمت الأرض بالقطط.

سبع قطط، سبع عشرة قطة، لا تعرف كم، قطط بيضاء نظيفة، بلون الحليب، اقتربت وأحاطت بالجسد الممدد على الفراش. ثم انتبهت إلى حركة. المرأة تتحرك وعيناها أيضاً. فتحت المرأة عينين بلون ورق التوت، بلون عيني عمر ابنها الصغير. خافت أم شاهين عندئذٍ واستيقظت. وجدت أم زهرة تغفو قاعدة جنبها في ضوء الفجر الخفيف.

سهيلة النابلسي فتحت عينيها وسألت أم شاهين كيف تحسّ؟ قالت أم شاهين إنها رأت مناماً غريباً.

ـ ماذا رأيتِ؟

أجابت أم شاهين بالكلمات ذاتها. قالت إنها رأت مناماً غريباً ثم ولجت نوبة سعال.

كانت تحيا الساعات الأخيرة من عمرها. عرفت ذلك. لكنها أرادت أن تروي المنام على ضرّتها، على أختها أم زهرة. إذا أخبرتها المنام ترتاح. أرادت أم شاهين أن تروي المنام الغريب وترتاح. لكن نوبات السعال أعجزتها. مع الدم بصقت قطعاً من لحمها. كان

صدرها يتمزق. سعلت وحاولت أن تتكلم. لم تستطع. تريد فقط أن تروي هذا المنام. . . لكن الألم الفظيع سرعان ما أنساها كل ذلك. نسيت المرأة العارية البيضاء ونسيت البيت المملوء بالشمس ونسيت القطط السمينة. نسيت كل ذلك. في لحظة من الألم الفظيع أغمضت عينيها وإلى الأبد ارتاحت.

حين أخبروا عبد الجواد أحمد البارودي أن أم شاهين أعطته عمرها نظر إلى المسبحة بين أصابعه وقال:

ـ لا إله إلاّ اللّه.

خرج من المتجر وقطع الطريق ماضياً إلى جامع النوفرة. لم يبقَ في الداخل إلاّ دقيقتين ثم غادر المكان بذراعٍ تنقط ماءً وقطع البازركان عائداً من حيث أتى. لم يرد تحية الحبشي المنتصب في باب الدكان وتابع الدرب إلى «العطارين» ثم دخل تحت قناطر الجامع العمري الكبير فتوضأ عند البركة ومشى على السجاجيد حتى بلغ المحراب. سجد جنب المحراب، في نور النافذة، حيث اعتاد مولاه المرحوم الحوت الجلوس قبل زمنٍ بعيد. مكث هكذا حتى أعتمت النافذة وأعتم فضاء الجامع وجاء صبيٌ من الصبيان حاملاً شعلة ينير السرج والشموع. المصلون الذين اقتربوا لتعزيته في ذلك المساء، بمصابه الذي يصيب الجميع، مترحمين على الشيخة التي أنجبت أولاده الثلاثة الذكور، رأوا في عينيه قنوطاً وموتاً. قالوا إن الرجل انقطع ظهره بموت رفيقة عمره أم أولاده. حين سمعوا بعد أربعين يوماً أو أكثرِ بقليل أنه تزوج هزّوا رؤوسهم وقالوا: «سبحان الحيّ الذي لا يموت».

عبد الجواد أحمد البارودي تزوج في هذه المرة الرابعة بنتاً يتيمة الأب من آل الحصّ تُدعى سعدية. سعدية الحص البارودي أنجبت

للرجل صاحب الذراع الواحدة بعد تسعة شهور بنتاً تشبه في جمالها بناته من سهيلة النابلسي. سمّى الرجل بنته الخامسة هذه: هند.

مضت تسعة شهور أخرى، أو أكثر بقليل، فوضعت سعدية بنتاً ثانية. أبو شاهين سمّى بنته السادسة هذه: ورد.

البنت الأخيرة السابعة لن ترى عيناها النور إلاّ بعد رحيل الأب صاحب الذراع الواحدة عن عالمنا. لن تُعطي الأيام عبد الجواد أحمد البارودي فرصة تسمية البنت السابعة اسماً يلائم قافية «هند» و «ورد». الأم سعدية ستسمي هذه البنت الثالثة فاطمة. فاطمة البارودي ستعيش حياة طويلة ولن تلفظ الروح قبل أن ترى دار زوجها رفعت الداعوق مقابل معهد غوته الألماني في رأس بيروت مزدحمة بالأولاد والأحفاد وأولاد الأحفاد. عاشت فاطمة البارودي الداعوق حتى سنة الأزمة الاقتصادية العالمية. حين ماتت ميتة ربّها في شتاء 1929 كانت عائلة الداعوق تعدّ العدّة للإحتفال بعيدها التسعين.

وُلدت فاطمة سنة رحيل المصريين من بيروت. أختها ورد التي ستلازمها نحو ربع قرنٍ قبل أن تفترق حياتهما في دربين ولدت قبل وصول خبر معركة نزب إلى البلد: في ذلك الربيع البعيد من عام 1839 أقدم السلطان محمود الثاني على إرسال جيش عثماني جرّار لطرد إبراهيم باشا من بلاد الشام. الجيش العثماني قطع نهر الفرات فوجد العساكر المصرية في انتظاره.

ابن عزيز مصر، الرجل المربوع السوداوي المزاج، هاجم الأتراك في سهل نزب معتمراً طربوشه العسكري فشتّت صفوفهم. أسر منهم 15 ألف جندي، وأرسل قائدهم إلى القاهرة مكبلاً بقيود الحديد (صُنعت من حديد مناجم قرنايل وأرصون التي نقبها الجيش

المصري في جبل لبنان بتسخير الأهالي ومصادرة ما يملكون من إبل وحميرٍ).

مرة أخرى أفلح إبراهيم باشا في سحق الجيش العثماني. ومرة أخرى مُنِع، بتدخل أوروبا، من متابعة الزحف إلى استامبول. (لم يخطط للسيطرة على «دار الخلافة» قبل سنين إلاّ بعد الكآبة التي خيّمت على دماغه عندما دخل متاهة بيروت الفقيرة الكالحة: الأزقة المملوءة حفراً؛ البيوت المتراكمة؛ ذلك الخريف الحار الرطب من سنة 1831؛ أمواج الرمال التي تزحف على الأسوار ولا يمنعها شجر الصنوبر في الحرج؛ المسالك المتعرجة التي تنتهي إلى سدود سود؛ الصبير والغزار بين الدكاكين؛ الهواء الراكد كالطين!).

هُزم العثمانيون مبلّلين بماء الفرات سنة ولادة البنت السادسة لعبد الجواد أحمد البارودي. خبر الهزيمة لن يبلغ السلطان محمود الثاني في قصره الأبيض على ضفاف البوسفور. مات السلطان ممدداً في فراشه، فوق جارية صربية، بعد أن تناول عشاء مكوناً من السمك واللبن. وَرِث الخلافة ابنه عبد المجيد البالغ من العمر 15 عاماً. أمسك عبد المجيد العاصمة بقبضة متينة، أعدم جميع أخوته، وفاوض محمد علي باشا على الصلح ليُبعد عن دار الخلافة التهديد المصري. في هذه الأثناء اختفى شاهين البارودي.

اختفى شاهين البارودي من بيروت في موسم قطف شرانق الحرير. سهيلة النابلسي البارودي كانت في تلك الفترة تحيا وسط دود القز. تحيا بين القزّ فعلاً. ذلك أن زوجها أخذ منها الغرفة البيضاء العالية وجعلها بيتاً للزوجة الرابعة. كان هذا ترتيباً موقتاً دام أقل من عام. في هذه الفترة بنى العبدان الحبشيان كوخاً طينياً جنب البركة وراء بيت أم شاهين الذي صار الآن بيت عبد الرحيم وأخيه الأصغر عمر. انتقل الحبشيان قبل سقوط المطر إلى كوخهما ففرغ

بيت المرحومة هيلانة. عبد الجواد أحمد البارودي أقدم متردداً على نقل زوجته الرابعة إلى هذا البيت بعد أن طهَّره بحجر الكلس المذاب في الماء، ثم بالكبريت، ثم بالكلس مرة أخيرة.

مع هذا الرحيل الثاني لشاهين البارودي عن البلد تبدأ نهاية قصة عبد الجواد أحمد البارودي. سهيلة النابلسي البارودي أُتيح لها باكراً أن ترى ملامح الإنهيار المقبل. ذات ليلة جاء أبو شاهين إلى بابها عرقان الوجه، ارتمى على الدكة الخشب المغطاة بالطراحات، وقال:

ـ تعبان يا أم زهرة! تعبان!

عبد الرحيم البارودي أيضاً انتبه إلى تبدل أحوال أبيه. اعتاد أن يرافقه في هذه الفترة الأخيرة إلى صلاة الظهر في الجامع العمري الكبير. الإمام عبد الفتاح السوسي كان رجلاً قوي الصوت طويل النفس. خطبة الجمعة تستمر معه وقتاً يُرهق الساجدين والقاعدين داخل الجامع وعلى الطريق تحت القناطر الحجر العالية. عبد الرحيم انتبه إلى تعب أبيه وانتبه إلى تبدل طقس الوضوء عنده. اعتاد الولد أن يراقب أباه بعينين مفتوحتين بينما يتوضأ.

كان عبد الجواد أحمد البارودي يبدأ بنزع مداسه ووضعه جنب المداسات المتراصفة. بينما يقترب من البركة المدوّرة يرفع ذراعه عالياً فوق رأسه فيهوي الكم الفضفاض باتجاه كتفه. عبد الجواد أحمد البارودي كان ينحني عندئذٍ فوق صفحة الماء ويلمس المياه بمرفقه كأنه يتأكد أنها ماء. ثم يخبط ذراعه في البركة ثلاث خبطات. ثلاث خبطات والذراع اليتيمة تختفي تحت الصفحة ثم تخرج. القطرات تنقط من الشعر الأسود الضارب إلى شقرة خفيفة، وأبو

شاهين يميل أيضاً، حتى يكاد أنفه يلامس الماء. يلقي حفنة ماء من قبضته على رأسه. يمسح وجهه ويمسح جبهته ويمسح رأسه. ثم يلقي حفنة أخرى على قذاله ويمسح عنقه ويفرك وراء أذنيه. بالطاسة المعلقة من جانب البركة بسلسلة حديد (كما داخل «حمام الدركاه») يغرف الماء ليغسل قدميه. السروال مطوٍ إلى تحت الركبة والندبات بائنة على الربلتين. يغسل قدميه بيده الكبيرة ويغسل كاحليه. الولد عبد الرحيم يرى عظام أبيه عندئذٍ ويسمع فرقعة ظهره حين يستقيم من جديد.

هذا الطقس تبدل في الآونة الأخيرة. لم يعد أبو شاهين يقبل على الوضوء بحماسه القديم. وحين ينحني ليغسل قدميه يفكر عبد الرحيم أن أباه قد يعجز عن الاستقامة من جديد. إلى هذا الحد أرهق رحيل شاهين أباه عبد الجواد! أم هو رحيل أم شاهين قبل رحيل شاهين؟ أم أن السبب لعنة البنات التي تطارده؟ لم يعطه اللّٰه إلاَّ ثلاثة أبناء ذكور وهو يطلب قبيلة من الأبناء!

كبر عبد الرحيم البارودي. لم يتضخم جسمانياً مثل أخيه شاهين لكنه كبر. بات يدير التجارة في حانوت الشواء منفرداً. يستعين بأبيه طبعاً. وأخوه الصغير عمر يلازمه. لكنه يقوم بأعمال المطعم كأنه ابن المصلحة. وعينه تنظر إلى بعيد. مثل أبيه عبد الجواد أراد عبد الرحيم تكثير أمواله. باكراً لاحظ زحمة القوافل في باب الدباغة وأمام مصطبة المطعم وعند مدخل الميناء. باكراً صَاحَبَ المكارين الآتين من داخل البلاد. وباكراً خطَّط للأيام المقبلة. الصغير عمر كان يقطع حبل أفكاره من حين إلى آخر أو يشغله عن عمله. الصغير عمر لم يعد يلازم أباه عبد الجواد كما كان يفعل قبل سنين. الأب مشغول بالزوجة الجديدة. وعمر مشغول بالبحر. عبد

الرحيم قال لأبيه عبد الجواد إن عمر يبقى في حانوت الشواء أكثر مما يبقى في متجر البازركان لسببٍ واحد فقط: الحانوت يجاور البحر.

أولاد الحيّ اكتشفوا أن هذا الأسمر الصغير ذا العينين الخضراوين يعوم كالسمكة ويقفز كالضفدع في جوف الأمواج. اكتشفوا أن هذا الصبي ابن المعلم الجوهرجي صاحب الذراع الواحدة يستطيع أن يقطع كل المسافة من برج الفنار إلى الشاطئ في رمشة عين. احترق جسم الولد الصغير بالماء المالح والشمس. أم زهرة كانت تضحك حين تراه آتياً شبه عارٍ، والماء يقطر من شعره الأسود الجعد. تقول إنه بات أسود مثل مونس وسنان. عمر يضحك فتبين أسنانه بيضاء، بيضاء مثل أسنان العبيد. تمكنت منه، منذ ذلك الوقت، عادة لن تفارقه حتى يموت بالهواء الأصفر سنة 1865: يمرر أصابع اليدين الاثنتين في شعره ثم يكبس رأسه بين يديه ويغمض عينيه. كأنه خارجٌ لتوه من مياه البحر.

بين 1837 و1840 اكتشف عمر بن عبد الجواد أحمد البارودي بحر بيروت. البحر الأبيض المتوسط في النصف الأول من القرن التاسع عشر ليس البحر الأبيض المتوسط الذي نعرفه اليوم. في ذلك الزمن البعيد لم يكن محرك الديزل اختُرع بعد. حتى السفن المدفوعة بقوة البخار، البواخر العاملة على الفحم الحجري، كانت لا تزال اختراعاً حديثاً. في ذلك الزمن البعيد، السابق لعصور النفط، كان البحر نظيفاً لامعاً كماء أنهار الجنة، ولكن مع ملح.

في عصر السفن الشراعية الخُرافي اكتشف عمر بن عبد الجواد أحمد البارودي، عالماً مذهشاً، غير عالمنا، يختفي محملاً بالكنوز تحت الصفحة الزرقاء.

لم يكن وحده. الصبي علي، ابن الخياط حمادة صديق والده القديم، كان معه. الاثنان تعلما معاً صيد الإسفنج في أعماق خليج عين المريسة، ومواكبة الصيادين أصحاب المراكب إلى عرض البحر. علي ابن الخياط حمادة لم يُعط هذا الاسم تيمناً بالإمام علي بن أبي طالب، بل تيمناً بسفينة من سفن الأسطول المصري ثلاثية الصواري، اعتادت الظهور أمام شطآن بيروت كلما اندلعت فتنة في جبال الدروز. الأخت الصغرى لعلي، التي تزوجت بعد وقتٍ أحد أبناء محمد بن محي الدين الفاخوري، سُميت علياء على اسم سفينة أخرى في أسطول محمد علي باشا. على هذه السفينة جاءت إلى بلادنا سنة 1833 عربة القنصل الإنكليزي فيرن، عربة بعجلتين أُنزلت في مرفأ بيروت ثم حملت مُفككةً على الإبل إلى دمشق، فكانت أول عربة خيل تجري في برّ الشام.

حين رجع شاهين البارودي إلى بيروت وتزوج خديجة قرنفل وبنى بيتاً عند حافة «الطريق البيضاء» نظر عمر البارودي إلى هذا الأخ الأكبر الذي رجع أضخم من أبيه عبد الجواد وأحسّ بالارتباك. عمر خاف من أخيه. لن يعرف من أين جاء هذا الخوف. قبل رجوع شاهين البارودي كان عمر يفخر بالأخ الأكبر، مهرب الأسلحة قاطع الطريق رفيق الثوار الدروز، البيروتي الذي يحارب عساكر عزيز مصر في اللجاة ووادي التيم وحوران. اختلف الأمر بعد رجوع شاهين. كانت رائحة البارود التي تنبعث من جلده تزرع النفور في قلب الصبي الصغير. لم يحبّ عمر أخاه الكبير ثم وجد نفسه يبتعد عن أبيه صاحب الذراع الواحدة أيضاً. وجد السلوى زمناً قصيراً في حانوت الشواء وفي أخيه عبد الرحيم الذي أخذه تحت جناحه. لكن هذا لم يكن يكفي بالنسبة إليه. عمر لن يكتشف السبب الذي دفعه بعيداً عن اليابسة، بعيداً إلى البحر. شاهين ابتعد عن بيت أبيه بسبب

أخته زهرة. عمر ابتعد بسبب شاهين وأبيه عبد الجواد معاً. ذلك أن هذين الرجلين المتشابهين ـ الأب والابن البكر ـ جعلا حياة عمر صعبة. كيف؟ الاثنان أصابا بالمرض، بالعجز والشيخوخة، أمه صفية.

نزل عمر إلى الماء حين شاب شعر أمه وتهدل لحمها. عامَ في ماء البركة التي تعكس سماء الصيف وراء البيت قبل أن يعوم في مياه الميناء المجاورة للمطعم (عبد الرحيم لن يلبث أن يسمي المكان: «محطة الشام»). سابحاً في البحر التقى عمر الصبي علي ابن الخياط حمادة. علي بشعره الأحمر والنمش الذي يغطي وجهه بدا جنيّاً خارجاً من النار. كان يحكي كالملسوع وكلماته تخرج من فمه مقذوفة كالسهام مع بصاق. مع علي سيكتشف عمر شاطئ بيروت الصخري بين الميناء وعين المريسة. ومن دون علي، وحيداً تماماً، بعد غرق علي سنة 1839 في مياه مينا الحصن الكثيرة التيارات، سيتابع عمر بن عبد الجواد البارودي اكتشاف شاطئ بيروت الرملي، في المنطقة الممتدة بعد صخور الروشة، المنطقة التي نسميها اليوم «الرملة البيضاء».

في ماء البحر كان ينقع نفسه ويترك الضوء ينزل في مسامه مع الملح. الضوء والماء والملح. والتمدد ساعات في البحر. يصلب نفسه في المياه ويتهادى مع المد والجزر. ثم يغطس إلى الأعماق. تغيب رائحة المرض المنبعثة مع أنفاس أمه. تغيب رائحة الحنّة التي تسيل كالوحل من الشعر العجوز. وتغيب اللمسة القاسية على جبهته حين كان يستيقظ في الظلام ودموع أمه تبلّل خديه وصوتها ينده باسم الولد الذي ترك البيت وذهب إلى أطراف العالم. هو يُدعى عمر ولا يُدعى شاهين. فلماذا تحضنه هكذا ولماذا توقظه من نومه ولماذا تحرقه بهذا الدمع؟

هرب عمر إلى البحر. ينام على جنبه بذراع مسبلة ويمد الأخرى لتشق اليمّ أمامه كأنه يقص جوخاً بالمقص. وجهه فوق الماء وأشعة الشمس على رموشه السود الطويلة وعلى خده وعلى عينيه. في خريف 1837 غرقت السفينة «ليفورنو» قبالة ساحل بيروت فغطس مع علي دقائق طويلة كدهور ثم خرج كالدلفين وإلى جانبه علي الموشك على الاختناق يحملان سوية صندوقاً خشبياً بأذنين من النحاس الأصفر. اعتاد النزول إلى البحر في كل الفصول، حتى في الشتاء كان يغطس. لون الأعماق يتبدل من شهرٍ إلى آخر. وأجمل الغطس أول الخريف. تكون المياه ما زالت دافئة لكن لون الحيوان المرجاني عند قواعد الصخور يكون أبهى وأعمق من أي وقتٍ آخر. (بحر بيروت في ذلك الزمن البعيد لا علاقة له ببحر بيروت اليوم. لا قاسم مشتركاً بينهما غير المياه. حتى اللون لم يعد هو نفسه. أين تجد مرجاناً قرب شطآن بيروت اليوم؟ لم يعد البحر الأبيض المتوسط هو ذاته منذ ولجنا القرن العشرين. حتى قبل ذلك، في نهايات القرن التاسع عشر، نقرأ في يوميات الروسي كريمسكي عن كلاب مسعورة قتلها الأتراك ورموها في البحر. الحال ساءت بعد الحرب العالمية الثانية. ساءت أكثر بعد الحروب الأهلية في الربع الأخير من القرن العشرين. بين 1983 و1989 رست بواخر أوروبية قبالة ساحل بيروت وأفرغت ـ تحت جنح الظلام ـ نفايات كيماوية سامة وأخرى مشعة. «القوات اللبنانية» ـ المسيطرة على الشطر الشرقي من العاصمة وعلى الميناء ـ كانت تنال عمولة تراوح بين عشرة آلاف وخمسين ألف دولار عن حمولة السفينة الواحدة).

السباحة من الميناء حتى عين المريسة كانت تستغرق ساعة تقريباً. في ساعة أخرى يقطع المسافة حتى صخرة الروشة. كل الساحل صخري ولا يرى بين الأشجار على السفح، بعد الشاطئ،

بيتاً واحداً. يرى أكواخاً في عين المريسة يقطنها صيادون. في رأس بيروت (حيث الجامعة الأميركية اليوم) تظهر أكواخ أخرى يسمونها «بيوت قزّ» ويربى فيها دود الحرير. حين يبلغ صخور الروشة عند المغيب يرى عدداً لا يحصى من الوطاويط. أسراب من هذه الفئران الطائرة تخرج من المغاور أسفل جدار الشاطئ الصخري الذي يرتفع نحو خمسين متراً. في ساعة أخرى يستطيع بلوغ الشاطئ الرملي. لكن الوقت تأخر الآن، وعليه الرجوع قبل حلول الظلام وظهور أسراب القرش والحيتان.

حين يريد بلوغ الرمال يغادر الميناء أول الصباح أو عند الفجر. هكذا يقضي وقتاً على الشاطئ الأصفر ينقب الرمل الرطب بحثاً عن سمك البطلينوس ويجمع الأصداف المنقطة وتلك الحجارة المرمر شبه الشفافة التي تشبه بيوض الفري.

تحت صخور الروشة وجد تجويفاً من الرخام البنفسجي يعج بأسراب من السمك البرتقالي الدقيق الذي يوّج بالنار كأنه يحترق في قلب الماء. قنافذ البحر تنكمش حين تراه، وتفرد شوكها الأسود الحاد. المحار ينكمش على نفسه ويخفي حبوب اللؤلؤ البارقة. التوتياء إذا شكته تركت شوكها في جسمه يحرقه كل النهار. يرى الإسفنج يلتصق بالصخور شبه الزرقاء ويتراقص في الماء مع نور الشمس. يغرز السكين في الحيوان الإسفنجي ويقطعه عن الصخرة. تعلم صيده من الصيادين اليونان والطرابلسيين في مرفأ بيروت. صيادو جزيرة المورة يعتبرون إسفنج الساحل السوري أفضل إسفنج في العالم. لونه أبيض، طراوته بالغة، وشكله مستدير. ليس في العالم بحر يعطي هذا الحصاد الوفير من حيوان البوليبوس الإسفنجي الذي ينمو في القاع مثل المرجان ويخفي نفسه بين العشب وعنب الماء ونتوءات الصخور والتفاح الدقيق الذهبي.

عمر بن عبد الجواد أحمد البارودي نسي أمه ورائحة أمه بينما يراقب الغطاسين يختفون تحت الصفحة الزرقاء الساكنة مع رماحهم المثلثة الأسنان وسلالهم ذات الشبك. حين يخرجون من البحر أخيراً يرى سلالهم معبأة بالإسفنج، لونه غامق، يفرز مخاطاً يغطيه ويجذب إليه حبيبات الرمل والأصداف الصغيرة. التجار المهرة الفرنسيس لا يشترونه من الغطاسين إلاَّ بعد نفضه جيداً من الرمل. الرمل يجعل وزنه ثقيلاً.

عمر البارودي تعلم صيد الإسفنج بالسكين والسلة. صاد إسفنجاً أبيض طرياً صغير الثقوب. صاد إسفنجاً أصفر قاسياً. وصاد إسفنجاً بنياً خشناً لا يصلح إلاَّ لتنظيف الكنادر والصبابيط. كان يعطي ما يصيده من إسفنج فاخر أبيض إلى اليونانيين وهؤلاء يبيعونه للتجار المصريين والفرنسيين. في مقابل الإسفنج يعطونه سمكاً. كل ما تلقطه «الجاروفة» (الشبكة الكبيرة) من أصناف السمك في هذه البقاع: سردين ولقّز رملي وصخري ومواسطة وسلطان إبراهيم وبوري وقريدس وعرموط وبزري وسرغوس ومرمور وغبّص وجربيدي ومسقار ومليفة وفريدي وغزال ورأس الثعلب وعقيص والنبي يونس وتونة وصبيدج وبومنقار.

البزري يحمله إلى أم زهرة. تقليه في الزيت العميق وتصنع معه الفتوش بخبزٍ تقليه في الزيت ذاته. القريدس يحمله إلى بيت جده، والسلاطعين أيضاً، طبق جده الحاج مصطفى المفضل. الكركند يأخذه علي إلى أهله. ورأس الثعلب يشويه عمر بنفسه في «محطة الشام» ويأكله مع خلطة الكفتة المشوية. يحبه لكنه لا يأكل منه كثيراً. لا يحب الطعام. يحب البحر. ويحب قليلاً ثمار البحار. يأكلها نيئة. يفتح الأصداف السوداء المخضرة وبشوكة صبار بحري يخرج لب الحلزون. بحجر مدبب الرأس يفتح حبة التوتياء ويخرج

منها اللحم الطري ويدفعه في جوفه فاتراً نابضاً طعمه شمس وملح. يأكل قاعداً على الشاطئ ثم ينام نصف ساعة ثم ينزل إلى الماء. مثل عجول البحر. اليونان ينادونه عن المراكب وهو يلوح لهم ويبتعد.

يشد كل عضلاته ويغطس. يبذل جهداً يؤلم كل جسمه قبل أن يبلغ القعر. البحر يدفعه إلى أعلى وهو كالضفدع يسبح إلى القاع. تحت تغيب كل الأصوات. لا ضجة الميناء تسمع، ولا صراخ النوارس فوق البحر. يضيع في غابات المرجان وأدغال السفرجل المائي والصبار الذي ينمو بلا ثمر. اللبلاب يتموج والطحالب تكسو الصخور والسمك المكهرب ينسل بين الأعشاب والشجر الشائك. إذا لم يتحرك بحذر لن ينام الليل من جراح هذه الأشواك وعقصاتها.

الظلال تتراقص، ويعرف الوقت من التحول الطفيف في لون خطوط الشمس على رمال القاع. ترسم الخطوط في القاع شبكات بلون اليقطين اليابس، واللون يتبدل إلى لون قشور البرتقال كلما اقترب المساء. حين يخرج من البحر ساعة الغروب، يهدر الهواء حول رأسه. رويداً رويداً تصله أصوات البلد. يقفز على الصخور ويحاذر لئلا يزلق على الطحلب اللزج. كل الخز الأخضر في العالم لن يسقطه على هذه الصخور. في البدء كان يقع وترتطم ركبتاه بالصخر والصخر يكشط جلده ويخرج الدم. الآن لا. يزلق فيتمسك بحبال غير مرئية في الهواء ولا ترتطم عظامه بالصخر. بات كالأسماك، كالضفادع، كحيوانات الماء. كالسلطعون والعقرب البحري والفقمة التي تُرى أحياناً حيث يصب النهر.

حين غرقت السفينة «دردنيل» مقابل رمال الأوزاعي ركب مع البحارة في زورقٍ بتسعة مجاذيف، ثم قفز من الزورق حين ظهرت الصارية كالقصبة المغروزة، وغاص بين الأشرعة والحبال يتسلق الصاري إلى أسفل حتى بلغ العنبر. رأى رجالاً مفتوحي الأعين

تخرج الأسماك من أفواههم وأقدامهم مجدولة بالجبال إلى جسم السفينة. في قمرة القيادة رأى القبطان، بالنجوم على صدره، والغليون في فمه، مضغوطاً بين خزانتين، جالساً على كرسي بمتكأين. الكرسي بالغطاء المخمل تزحزح من بين الخزانتين بعد دفعات متوالية من ذراعي عمر بن عبد الجواد البارودي. السباحة جعلت جسمه عصبياً متيناً. تزحزح الكرسي ثم انقلب في الماء رأساً على عقب وبقي القبطان عالقاً به، وأصابعه تلتف كأطراف الأخطبوط متحجرة على المتكأين. عمر حاول تحرير الأظافر من الخشب ومن المخمل الذي يغطي الخشب. حاول حتى خرجت فقاعات الهواء من فمه وأنفه، حتى كاد يختنق. ولم ينجح. كل ما أخرجه من جوف السفينة كان ذلك الغليون المنحوت في شكل سمكة. أعطاه ـ لا يدري لماذا ـ لأخيه شاهين الذي تزوج أخيراً. حين اختفى شاهين البارودي اختفى معه الغليون.

عمر البارودي لم يهتم. ذات أصيل بارد عاد مرتجف العظام إلى البيت فرأى البنت نرجس قاعدة تحت الجميزة تعصر ظروف الخروب في طاسة حليب كي يروب ويصير «قريشة». دخل إلى البيت ولبس جبّة لأبيه ثم خرج إلى تحت الجميزة وجلس مع نرجس. هي تركته وذهبت إلى البيت مقابل التوتة ثم رجعت تحمل عسلاً لونه داكن ورائحته قوية. أكلا جالسين، جنباً إلى جنب، قريشة وعسلاً.

بعد يومين جلب لها حجراً مفلطحاً يشبه وجه الآدمي، ولونه أخضر كورق التوت. سألته أين وجده. ظلَّ صامتاً. حين وضعت يدها في شعره الرطب تذكر أمه. دفعها على التراب ومضى يبحث عن طعام يأكله. لم يجد خبزاً في البيت. طرق باب البيت المجاور. خديجة قرنفل البارودي فتحت له الباب وأدخلته.

في هذه الأثناء كان عبد الرحيم البارودي يُقفل باب الحانوت متوجهاً إلى متجر أبيه في البازركان. اليوم سمع من تاجرٍ لاذقاني أخباراً عن معارك جديدة نشبت على حدود الأناضول. وسمع أن أخاه شاهين رجع إلى تهريب السلاح. قطع سوق القطن ثم سوق الفشخة وعبر أمام جامع السراي (منصور عساف) ودخل دهليز الحدادين ثم انعطف يميناً وعبر سوق الأساكفة وخرج إلى العطارين وشم الروائح الفواحة وتابع طريقه إلى أن بلغ المتجر بعد الطلعة القصيرة. وجد المتجر مفتوحاً، والحبشيان قاعدان في الداخل، بين الصناديق الدمشقية والأثواب المذهبة والقناديل، يلعبان الداما ويبتسمان في صمت كأنهما يلعبان في الوطن البعيد في أفريقيا. لم يسألهما عن المعلم عبد الجواد. حدس أين هو.

عبد الجواد أحمد البارودي القاعد تحت النافذة التي تظلم رويداً رويداً، جنب المحراب في الجامع العمري الكبير، لم ينتبه إلى ابنه آتياً من تحت القناطر العالية. كان ينعس ناظراً إلى شامات بلون التراب تتكاثر على ظاهر يده. كان ينعس ناظراً إلى ارتجافة يده الملقاة على ساقه الممدودة وكان ينعس ناسياً حياته الطويلة ورحلته من دمشق إلى هذه الأرض، وكان ينعس ناسياً أربع زوجات، وثلاثة أبناء ذكور، وبنات لا يريد أن يعدّهن على الأصابع. لم يرَ ابنه عبد الرحيم آتياً بين المصلين والجالسين على الحصائر والسجاجيد. كان ينعس، وفي نعاسه، تذكر مرة أخرى إمرأةً عالية الردفين ملونة الملاءة عبرت أمامه هذا الصباح وردّته في الزمن إلى أول نزوله في بيروت.

هذه الجارية الشركسية تبدو كأنها لم تكبر 17 عاماً. ما زالت تعبر الأسواق كالغزالة وكل الأعناق تلتفت لتتابعها. من صاحب القيسارية نسيب الأمير بشير انتقلت ملكيتها بالمزاد العلني إلى الأمير

مصطفى أرسلان. من الأمير أرسلان انتقلت ملكيتها بيعاً إلى الخواجة رزق الله حداد. الخواجة حداد باعها إلى سليم الدهان، وهذا يريد بيعها الآن. في 17 عاماً أنجبت الشركسية تسعة أولاد ذكور وبنتين، لكن من يُبصر جسمها المشدود وساقيها المفتولتين تحت الملاءة الحرير يحسبها لم تحمل طفلاً في بطنها بعد. عبد الجواد أحمد البارودي لم يفكر يوماً في اقتناء جارية. لكن ظهور هذه المرأة، مرة تلو مرة، في حياته، ظلّ يربكه. لا يفهم لماذا يضعها سبحانه في دربه هكذا. نسي عبد الجواد أحمد البارودي أنه يحيا في مدينةٍ صغيرة محاصرة بسورٍ مستطيل طوله من الدركاه إلى الدباغة 540 متراً، وعرضه من باب السراي إلى باب إدريس 345 متراً. لم ينتبه أن كل إنسان في هذه المدينة التي لا يجاوز عدد سكانها 15 ألف نسمة، قد رأى كل إنسان آخر يعبر هذه الأسواق، مرات لا تحصى في 17 عاماً! عبد الجواد أحمد البارودي تأمل ناعساً الشامات التي تتكاثر قاتمةً على قفا كفّه، لم ينتبه لابنه عبد الرحيم المقبل نحوه، ووجد نفسه يفكر في شراء الشركسية من صاحبها سليم الياس الدهان.

وسوف يُقدم صاحب الذراع الواحدة على تنفيذ ذلك في نهارٍ ربيعيٍ صافٍ يعبق برائحة الزهور والورق الأخضر الجديد. وسوف يزرع بذرته في رحم الشركسية (اسمها غريب كلفدان) في تلك الليلة بالذات. وسوف تتأوه الجارية في أذنه متمتمةً كلمات موسيقية الوقع أعجمية (كلمات من لغة الطفولة؟ أم كلمات فارسية من زمن العبودية في شيراز وطهران؟ أم كلمات تركية تعلمتها حين كانت عتيقة السلطان؟)، وهي تتمسك بذراعه القاسية، وسوف تلف ساقيها حول جسمه وتشده إليها كأنها تخشى الموت إذا نهض عنها الآن. عبد الجواد أحمد البارودي لن ينهض عن جاريته تلك الليلة. نام داخلاً

فيها، والجارية لم تبعده عنها. نامت تحته، سامعةً حفيف ورق الأشجار على الحائط وعلى درفة النافذة المشرعة على سماء ترصعها نجومٌ لا يستطيع أحدٌ أن يعدّها.

سعدية الحص البارودي كانت تنام بين هند وورد عندئذٍ وترى في منامها مرة أخرى ذلك الثعبان المخيف بعينه الواسعة الصفراء. قبل ولادة ورد بزمنٍ كادت تفقد بنتها هند. سعدية الحصّ البارودي لن تنسى تلك الظهيرة. كانت ما زالت تقيم في تلك الغرفة البيضاء على سطح بيت ضرّتها أم زهرة. وراء البيت سنديانة ضخمة يتدلى نصف فروعها فوق بيوت سوق القطن، والنصف الآخر يتدلى فوق الغرفة والسطيحة أمام الغرفة. تحت هذه السنديانة بنى عبد الجواد أحمد البارودي موقدة وتنوراً. هنا اعتادت أم زهرة أن تسلق القمح لتصنع برغل الصيف والشتاء. تسلق القمح نصف سلقة ثم ترسله مع عمر أو عبد الرحيم إلى المطحنة. يجرشونه خشناً للطبخ، وناعماً للتبولة والكبة. هنا اعتادت أم زهرة أن تخبز العجين. هنا اعتادت أن تطبخ المخلوطة والهريسة. وهنا اعتادت أن تعقد مربى التين ومربى السفرجل ومربى اللقطين. في ظلال السنديانة الهائلة عاشت أم زهرة القسم الأجمل من حياتها حتى هذه اللحظة. هذه السنديانة أعطت المرأة، التي أنجبت للمعلم عبد الجواد أربع بنات، سعادة، وأعطتها أياماً عليلة في حرّ الصيف، وأعطتها أن تسمع زقزقة العصافير في سحابة النهار وأناشيد الصرصار في الظلام الحالك. لأم زهرة أعطت السنديانة الهناء. لكن لأم هند أعطت الرعب، ذلك الثعبان المخيف بلسانه المشطور وعينه الصفراء الواسعة.

كان الوقت ظهيرة، وسعدية تكنس الغرفة. البنت هند، الطفلة هند، دبّت عارية تماماً على السطيحة المغمورة بالشمس. أبوها سوّر السطيحة بالحجارة وأحواض الزرع لتدبّ حيث شاءت كما تشاء.

الطفلة دبّت على السطيحة فرحةً تضحك لمنظر فراشات ملونة تلهو بين العيدان الخضراء. الأم كانت تكنس الغرفة حين سمعت البكاء. خرجت فرأت ثعباناً ضخماً أطول من زوجها يلتف على الطفلة الباكية. سعدية الحص البارودي لم تجد في أعماقها طاقة خيالية تهدم الحيطان أمام ذلك المنظر. اصفرّت وسقطت مغشياً عليها.

حين فتحت عينيها من جديد، كانت الشمس تحرق رأسها، والطفلة قاعدة على بعد شبر، وجهها كما جسمها مبلول بالدمع، وصوتها مبحوح من البكاء. لم ترَ أم هند للثعبان أثراً. اختفى لكنه خلّف خطاً أحمر عريضاً على بطن الطفلة وساقها، وخلّف شتلات مكسرة في أحواض الزرع، وخلّف ورق سنديان يابساً وأخضر منثوراً على السطيحة. سعدية الحصّ البارودي قلبت الطفلة بين كفيها كأنها تقلب رغيفاً حاراً: لمست جسمها الطري الساخن نقطة نقطةً حتى تأكدت أن الثعبان لم يعضّها بنابه. حين لم تجد أثراً لعضّة ضمّت الطفلة إليها. وعندئذٍ فقط انفجرت بصيحات بكاءٍ مرعبة أيقظت أم زهرة في البيت تحتها من قيلولة الظهر (هذه عادة استجدت بعد أن فرغ البيت من البنات).

الصيحات بلغت خديجة قرنفل البارودي في بيتها البعيد وراء الأشجار ووراء بيت المرحومة أم شاهين. قبل أن تسمع الصراخ كانت ممددةً على جنبها تعبث بقش الحصير وتترك النسيم يُبرد وجهها. لا أحد يزورها في النهار ولا أحد يزورها في المساء. كل علاقتها بالناس هذا الصبي الصغير الذي يفوح برائحة البحر والشمس طوال الوقت. يجيء إلى بابها جائعاً فتمزج له دبس العنب أو دبس الخروب مع ملعقة طحينة وتضع القصعة قدّامه مع رغيف خبز. يأكل طعامه ولا يقول شيئاً. وفي أحيانٍ قليلة يخبرها عن سفينة غرقت أو مركب انقلب أو زورق تحطم على الصخور. لا يزورها مرات طوال

أيام. ثم يرجع محملاً بسلٍ مملوء بثمار البحر، أو بسمكةٍ أطول من ذراعه.

أبو شاهين، الذي تناديه عمي، يزورها بين صباح وآخر، يقعد دقائق، يسألها هل تحتاج قمحاً، هل تحتاج زيتاً، هل تحتاج حطباً، ثم يمضي. لا يشرب حتى فنجان القهوة. وابنه عبد الرحيم مثله. يمرّ أحياناً مع أبيه لكنه لا ينظر إلى وجهها أبداً. لا يشبه أخاه شاهين. لا، لا يشبه زوجها. الأب يشبه زوجها. عبد الرحيم والصبي الصغير الأسمر لا يشبهان زوجها. تعرف أنهم جميعاً أخوة وولدوا من بطنٍ واحدة، لكنهم لا يتشابهون. كأنهم ليسوا أخوة.

خديجة قرنفل البارودي تتمدد على حصيرةٍ، تعبث بالقش وتنتظر. ماذا تنتظر؟ هل تنتظر رجوع زوجها شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي؟ هل تعلقت به في هذه الشهور الفائتة بما يكفي لكي تنتظره؟ وبعد رحيله المباغت الذي لا تعرف له سبباً، هل هي أكيدة أنه سيعود إليها، إلى بيته؟ حياتهما معاً دامت أقل من عام. لكنها في هذه المدة القصيرة التي عبرت كرمشة عين التصقت به التصاق هذا المحبس الفضّة بأصبعها. كان قليل الكلام، مثل أخويه، لكنه حين يرفع ثوبها ليلاً ويدخل فيها، يعانقها بالذراعين معاً ويخطفها إلى عالمٍ آخر. في المرة الأولى عصَف الألم بدماغها، لفّ الألم مخّها مثلَ زنار النار، وانبثق حاراً حارقاً كمياه تغلي بين فخذيها. باغتها الألم الفظيع وعضّت شفّتها لئلا تصرخ وغرزت أظافرها في الفراش لئلا تغرزها في لحم العملاق المستلقي على جسمها. كانت صغيرة الحجم، جمالها في عينيها، وفي شعرها الطويل، وفي بسمتها. لكنها في تلك المرة الأولى أحسّت الألم يشوّه ابتسامتها، يشوّه عينيها، ويُجعد حتى شعْرها الناعم ويقصفه ويكسره كما تتكسر العيدان اليابسة.

اللّه لطف في المرة الثانية. جاء إليها وهي نائمة. فزعت قليلاً لكنها لم تتوجع. وفي المرة الثالثة اكتشفت تلك اللذة التي لم يخبرها عنها أحد. كانت تضيع في أراض بلا نهاية، وكل جسمها يذوب، شعرها يطول، وعيناها تتسعان وتبتلعان كتف العملاق وأذنه، وعنقه ذات الندبة، وجسور الصنوبر في السقف، والسقف، وخطوط نور القمر في درفة النافذة، والشبك الحديد الذي يمنع دخول البرغش والحشرات والسحالي، والحائط القاتم. عيناها تتسعان، وتسمع لهاثه في أذنيها، وتلفظ ما يشبه الكلام في أذنه الطرشاء عالمةً أنه لا يسمع بهذه الأذن منذ الطفولة، لأن أم شاهين أعلمتها بذلك. (أم شاهين التي عاملتها بتهذيب وكانت تعطف عليها؛ أم شاهين التي كانت تناديها «امرأة عمي»، ثم صارت تناديها «أمي»، ثم رجعت تناديها «امرأة عمي» بعد أن مرضت في صدرها ولم تعد تتكلم إلاّ مع ضرّتها أم زهرة، ثم ماتت. المرحومة أم شاهين التي، بسببها، تحيا هنا الآن، في هذا البيت، بيتها، وتنتظر رجوع زوجها: شاهين البارودي).

صلّت خديجة قرنفل البارودي أن يرجع إليها زوجها سالماً. في أيام الانتظار الطويلة تبدّلت حياتها رويداً رويداً. صارت تُكلم جارتها أم سليمان نجّار، في الجانب الآخر من «الطريق البيضاء»، أو تحمل نفسها وتذهب إلى بيت الخالة أم زهرة، حاملة صحناً من القمح المسلوق والمزين بحبّ الرّمان، أو ركوةً من القهوة «سكر زيادة» كما تحبّها الخالة. صارت تناديها «إمرأة عمي» أو «خالتي» بحسب تبدل الأحوال، وحين جاءت أم زهرة تردّ لها الزيارة لأول مرة فكرت خديجة قرنفل البارودي أن اللّه يحبها وأن زوجها عائدٌ إليها بالتأكيد، ولو بعد حينٍ.

شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي لن يرجع إلى زوجته ولن

يرجع حياً إلى بيروت. حين بلغ «دار الخلافة» هذه المرّة وجد دار خاله محي الدين الفاخوري محترقة والدخان يتصاعد من الأحياء المتلاصقة على ضفاف مرمرة.

استامبول المشهورة بالحرائق الخوتاء التي تندلع في خشب الأسواق والبيوت كل صيفٍ، احترقت مرة أخرى. «حيّ الشوام الجديد»، حيث يجتمع النازحون من سورية، حال رماداً. السلطان محمود الثاني خصّص قبل أن يموت قسماً من مال الخزينة لإعادة بناء الحيّ المنكوب. من بعده سيواصل ابنه السلطان عبد المجيد العمل لرفع كل تلك الأحياء المتفحمة على بحر مرمرة.

لم يبق شاهين البارودي في اسطنبول طويلاً. في رحلاته السابقة كانت الكلمات العربية تسلو وحدته. لكن مع احتراق «حي الشوام» وتبعثر أهله أبناء دمشق وحلب وحوران وحمص وبيروت وصيدا والقدس ونابلس وطولكرم وجنين، في أنحاء العاصمة المكتظة بالبشر، باتت الكلمات التركية الجلفة هي كل ما يسقط في أذنه السليمة. حتى خاله محي الدين الفاخوري، الذي عثر عليه أخيراً في بيتٍ صغيرٍ من الطوب وراء «جامع السلطان سليم»، قاعداً في زحمة الأولاد الصغار وزوجته الصغيرة تغسل قدميه وتقصّ أظافره، حتى خاله محي الدين جعل يحدثه بالتركية الممزوجة بحفنة كلمات عربية. كاد شاهين ألاّ يفهم كلام خاله! نظر إلى نربيج الأرجيلة الملقى على الأرض، نظر إلى الإبزيم الذهبي الأليف المنظر، ولم يعرف أين يذهب.

أختاه سوسن وياسمينة ابنتا سهيلة النابلسي البارودي كانتا تتحدثان عنه في تلك اللحظة قاعدتين في بيروت على مصطبةٍ تُظلّلها تعريشة عنب مقساسي مرفوعة على أربعة أعمدة. الأختان تعيشان في دارٍ واحدة كبيرة في حيّ الإفرنج مع زوجيهما الأخوين بطرس

ونصر اللّه الصايغ. سوسن تُرضع طفلها أيوب الآن وياسمينة تتلمس بيدٍ متورمة بطناً منتفخة. أيوب شره يحبّ الحليب. سوسن تضحك من عضّاته. ذَكَرَتا الأخ الكبير الغائب، ابن أبيهما، لأن الصبي إسحاق الذي يعمل في «الوكالة» على الميناء أخبرهما قبل أيام أن المعلم عبد الجواد أحمد البارودي الجوهرجي التقط في سوق البازركان سودانياً حشّاشاً كان يدفع أخاهما الصغير عمر في صدره، التقطه المعلم من رقبته ورماه على الحيط وكاد يكسر رأسه.

الصبي إسحاق قال إن السوق كلّها، أن بيروت كلّها تحكي بما جرى. لم يرَ أحدٌ المعلم عبد الجواد غاضباً هكذا من قبل. بذراعه الواحد رفع السوداني عن الأرض ثم ثبَّته من عنقه إلى الحائط. شتمه بالكلام الكبير وشتم بلده وأهله وشتم العسكر الذي حمله إلى هذه الأرض. لم يترك رأساً إلاّ وشتمها.

أصهاره أبناء الفاخوري جاؤوا جرياً من طرف السوق لتهدئته. حتى الحاج الختيار مصطفى غندور الفاخوري جاء من داره في باب يعقوب لتهدئة خاطر أبي شاهين. لم يرَ أحدٌ المعلم عبد الجواد غاضباً هكذا من قبل. لكن اللّه ستر. السوداني المحشش بكى حين صحا وجاء إلى المعلم وقبَّل ثوبه وجثا على التراب يطلب المغفرة والمعلم سامحه وكل شيء انتهى. لم ينقل أحد الكلام الكبير الواقف إلى الأمير نامي وإلى العساكر. لكن السوق كلّها ما زالت تحكي بها جرى.

العبدان العملاقان مونس وسنان عجزا معاً، هما وأصهار المعلم وأوادم السوق، عن الإمساك بالمعلم عبد الجواد في غضبته. كان هائجاً كالثور الجريح، كالنمر المحبوس في القفص جنب السراي، واستطاع بذراعٍ واحدة أن يُبعد الجميع من دربه وأن يبلغ مرة أخرى السوداني المنحوس الذي يُبرطم بالسُباب أسفل حائط الجامع.

سبحانه اللّه ستر. لو مات السوداني تحت يد المعلم كانت وقعت كارثة. السوداني جندي، ولو قتله المعلم كانت تكون مصيبة. اللّه وحده ستر.

بطرس ونصر اللّه طمأنا الزوجتين الأختين أن كل شيء انتهى. قالا إنهما زارا الأب في متجره وإن الموضوع انتهى والقصة نُسيت ولا أحد يتكلم فيها الآن. بعد ذلك، في العمارة على الميناء، أنّبا الصبي إسحاق تأنيباً شديداً. نهره نصر اللّه:

ـ أقصّ لسانك إذا كررت فعلتك.

الصبي إسحاق وضع رأسه في الأرض ودمعت عيناه. كان يعيش في تلك اللحظة إحساساً سيعيشه عمر بن عبد الجواد أحمد البارودي مضاعفاً مئة مرة بعد حفنة شهور حين يرفع أبوه أصبعاً ضخمة في وجهه ويلفظ تلك الكلمات التي يستحيل عليه نسيانها.

عبد الجواد أحمد البارودي المتعب هذه الأيام، الشارد النظرة معظم الوقت، سمع في متجره في البازركان أن بعض الأولاد الزعران يخرجون من مياه الميناء ويسرقون البطيخ المكوم على الرصيف ويهربون في البحر. أبو شاهين لم يهتم للأمر في البدء بل وجد القصة كلها مسلية مضحكة. لم يخطر في باله أبداً أن القصة على علاقة بولده الصغير عمر. حين فهم ذلك أخيراً (ذكروا الولد بالإسم وقالوا إنه يعاشر أولاد الحرام ونبهوا عليه أن ينتبه للصبي: يُنبهون عليه هو! في آخر هذا العمر يخرج من صلبه ولد يمدّ يده ويسرق!)، حين فهم أن ولده عمر يعاشر الزعران، أظلمت الدنيا في عينيه وهاج الغضب الأعمى في صدره. لو كان الولد أمامه في تلك اللحظة لكسر رقبته. الرحمن الرحيم قضى ألاّ يكون الولد أمامه عندئذٍ. قبل شهور كاد أن يقتل رجلاً! ها هنا، أمام المتجر، في

عرض السوق، كاد أن يقتل عسكرياً سودانياً محششاً! كيف أعماه الغضب؟ أخذ المعلم عبد الجواد أحمد البارودي نفساً عميقاً ثم أرسل الحبشي مونس إلى «قهوة النافورة» ليجلب له ركوة قهوة مُرّة.

في أول المساء كان عبد الجواد أحمد البارودي قاعداً تحت أغصان الجميزة مع ابنه عبد الرحيم وزوجة ابنه شاهين وأم زهرة، حين ظهر الصبي عمر مقبلاً من جهة الزاروب يعرج قليلاً. حين اقترب من ظلال الشجرة، توقف في النور الذي يتلاشى تحت السماء التي تُظلم رويداً رويداً، وأحسّ أن شيئاً غريباً يطفو من هذه النظرات المسدّدة إليه. كانوا صامتين ولا أحد ينطق كلمة. ثم تكلم أبوه بصوتٍ خافتٍ آمر:

ـ تعال إلى هنا!

عمر البارودي أيقن فوراً أن للأمر علاقة بلعبة البطيخ. الأولاد تحدّوه أن يدحرج البطيخات إلى البحر. كانت كومة بطيخ، كومة كالجبل، من بطيخ طولكرم. الأولاد تحدّوه. كان عليه أن يغطس عند صخور المدور (العساكر باتت تمنع السباحة في منطقة المرفأ) ثم أن يحبس أنفاسه ويسبح كل المسَافة إلى مينا البطيخ ويخرج من الماء ويبلغ الكومة قبل أن يراه أحد ثم أن يدحرج ما يستطيع دحرجته من الرؤوس قبل أن يقفز في البحر من جديد. اللعبة بدأت ببطيخة واحدة. ثم تحدّوه أن يدحرج بطيختين قبل أن يُرى. وفي الختام بات قادراً على دحرجة الجبل كلّه إلى البحر والهرب مع رؤوس البطيخ العائمة.

عمر البارودي لم يفكر عندئذٍ أنه يسرق بطيخاً! هو حتى لا يحبّ البطيخ! كلّما أكل بطيخاً أوجعته بطنه! لا يحبّ البطيخ ولا يحبّ الشمّام! فلماذا يسرقه؟ كانت لعبة. تحدّوه فكيف يقول لا؟

عمر الباروردي فكر في كل ذلك وهو يقترب من أبيه. في تلك اللحظة فقط أحسّ ندماً. بعد تلك اللحظة غاب الندم وحلّ ما يشبه الذعر.

أبوه عبد الجواد أحمد البارودي سأله بوجهٍ جامدٍ مظلمٍ:

ـ مَنْ أصحابك؟ أين تغيب كل النهار وترجع بعد غروب الشمس؟

عمر البارودي أوشك أن ينطق، لكن الصوت ارتفع من جديد، أقسى هذه المرة:

ـ تسرق بطيخاً وتسبح مع عكاريت المينا!

خديجة قرنفل البارودي خافت على الولد، وباتت مشدودة الجسم كالوتر على القوس تنتظر اللحظة التي ستقفز فيها فوق الصبي لتحميه بجسمها من ضربات أبيه، عمّها. إذا كانت هذه الذراع تحمل نصف قوّة ذراع زوجها شاهين فإن خبطة واحدة تكفي لقتل الولد!

أم زهرة كانت عندئذٍ تفكر الفكرة ذاتها. وحده عبد الرحيم البارودي لم يكن خائفاً. أبوه كلّمه في حانوت الشواء قبل أن يرجعا إلى البيت. وعبد الرحيم أخبره أن عمر ليس سارقاً لكنه طفل.

انهمرت الدموع من عينيّ الصبي. تلعثم محاولاً أن يشرح الأمور، وكيف جرى ما جرى. سمعته خديجة مفطورة القلب يقول مبرطماً إنه أصلاً لا يحبّ البطيخ ولا يطيق طعمه. أوشكت أم زهرة أن تمدّ ذراعها وتطبطب على رأسه. لكن عبد الجواد أحمد البارودي رفع أصبعاً قاسية أمام الوجه الباكي ولفظ تلك الكلمات:

ـ إذا سمعت مرة أنك تسبح في المرفأ، أو في جوار المرفأ، أفكّ رقبتك. سمعت؟ رخ من وجهي! رخ!

استدار عمر البارودي وفرّ ناشجاً إلى البيت. آخر ما سمعه كان

جملة عن شفاعة أخيه عبد الرحيم به ولولا تلك الشفاعة لكان. . .
لم يسمع عمر البارودي الكلمات الأخيرة. غاب في ظلمة البيت وفي ظلمة دموعه. رمى نفسه في الزاوية حيث لفظت المرحومة أمّه أنفاسها الأخيرة، وأحرق وجهه بالبكاء وهدّ بالنشيج جسمه. أقسم عمر البارودي في تلك اللحظة أن لا ينزل في البحر بعد الآن أبداً. كلمات أبيه فعلت فيه عندئذٍ ما فعلته نظرات حزينة قبل سنين بعيدة بأخيه الأكبر شاهين. نظرات صفية الفاخوري البارودي جعلت بِكرها يكف عن تسلق السطوح والأشجار. كلمة عبد الجواد أحمد البارودي «رخ!» جعلت عمر البارودي يحلف أنه لن يسبح بعد اليوم أبداً.

هدّه البكاء هدّاً، وكسّر عظامه، فكأنه أكلها بالفعل علقةً ساخنة من أبيه. نام وتنهداته تُسمع إلى خارج البيت ولم ينهض من النوم إلاّ بعد أن اجتاحت الشمس النافذة. فور نهوضه، بجسمه المهدود من البكاء، أحسّ نداء البحر في أضلاعه. أقسم عندئذٍ أنه لا يقرب المرفأ بعد الآن، ولكنه يسبح بعيداً من المينا.

حلف عمر البارودي أنه بعد اليوم لا يسبح في الميناء. أقسم أمام ربّه ولم يحنث بالقسم. مياه الميناء أصلاً باتت لا تُغري بالسباحة. صارت السباحة هنا خطرة. كل هذه المواعين التي تنقل الركاب والبضائع. كل هذه المجاذيف الخشب التي تمزق صفحة الماء تمزيقاً. المرفأ الصغير بات يعجّ بالمراكب. وفي الليل تُعلق سلسلة الحديد في مدخله، وتشتعل المصابيح في أطلال القلعة البحرية. (نصف القلعة تداعى في الشتاء الفائت. القناطر التي تربط القلعة بالبرّ تداعت أيضاً. وهوى مدفعٌ ضخم مع الحجارة وغرق في قاع البحر. عمر غطس هناك حين هدأ الموج ورأى قسطل المدفع مملوءاً بالسلاطعين، وعشب البحر يلتف على ثقب الفتيل ويسدّه.

كان ذلك في 1838 أو 1839. بعد عقود طويلة، في عام 1992، انتشلت «سوليدير» ـ شركة إعمار الوسط التجاري في بيروت ما بعد الحرب الأهلية ـ المدفع المذكور من قاع البحر. هذه المنطقة البحرية باتت برّاً بسبب أعمال الردم. المدفع العثماني موجود الآن في «المتحف الوطني»، وهو مبنى يقع على خط التماس الذي شقّ بيروت إلى شطرين بين 1975 و1990... بيروت التي خرجت من أسوارها قبل زمنٍ بعيد فامتدت في ثلاثة اتجاهات وتضاعف عدد سكانها نحو مئة مرة).

عبد الرحيم البارودي أخذ أخاه الصغير تحت جناحه. كان يكلفه بمهمات صغيرة ويرسله حاملاً صواني الشواء إلى بيوت القناصل، إلى خان الروم، إلى دكاكين الفشخة والبازركان. في هذه الفترة ذاتها رجع يوسف منيمنة إلى البلد في البذلة العسكرية الرمادية وجاء يزور حانوت الشواء حيث قضى وقتاً طويلاً قبل سنين. وجد الحانوت متبدلاً. المصطبة أمامه وكل تلك الكراسي والطاولات! عبد الرحيم البارودي رأى يوسف منيمنة ـ الذي صار عسكرياً ـ يرتجف واقفاً بين الطاولات على المصطبة. سأله ما به، هل هو محموم؟ يوسف منيمنة قال إنه برد الشمال، برد لا يترك جسمه: على الحدود الأناضولية كان الثلج يتساقط طوال الشتاء وحتى منتصف الربيع.

عمر اصطحب يوسف منيمنة إلى المتجر في البازركان. عبد الجواد أحمد البارودي أرسل عمر إلى القهوة المقابلة ليأتي بالمطلوب وجلس يتحدث مع العائد. انتبه إلى الرجفة في كتفيه. يعرف هذا البرد جيداً. ليس ثلجاً كما يقول العسكري الذي كان صبياً يعمل في خدمته حاملاً صناديق الخضر والفواكه. ليس ثلجاً!

زوجة عبد الجواد أحمد البارودي الرابعة سعدية الحصّ، استغربت أن ترى الرجل يرتدي لباساً داخلياً صوفياً حتى في الصيف. في حرّ الصيف الذي لا يحتمله مخلوقٌ في بيروت كان الرجل صاحب الذراع الواحدة يلبس صوفاً تحت ثيابه القطنية!

لم يبقَ العسكري يوسف منيمنة في البلد أكثر من عشرة أيام. السفن المصرية كانت تظهر أمام الميناء محملة ببذات عسكرية وبواريد وأكياس جنفيص. لم تعد تأتي محملةً بالبطاطا. إبراهيم باشا أمر أن يُزرع سهل البقاع كلّه بالبطاطا والبصل من أجل العسكر. موسم للقمح والشعير، وموسم للبصل والبطاطا. عبد الرحيم البارودي صار يشوي بطاطا في المطعم. أبوه عبد الجواد بدأ في هذه الفترة يأكل البطاطا مسلوقةً. وجد هذا الطعام الذي لم يُعرفَ في بلادنا من قبل خفيفاً على معدته.

منذ رحل ابنه شاهين عن البلد لم يعد عبد الجواد أحمد البارودي على بعضه. حتى الكنافة من يد زوجته النابلسية لم يعد يتناولها برغبة. ظهرت غشاوة على عينيه. حين ولّدت له سعدية بنتاً ثانية أحسّ أن الريق الذي ينزل في زلعومه ينزل كقشر الصبير، شائكاً يجرح الحلق.

الجارية الشركسية أعطته أن يتنفس هواءً طيباً من جديد. سعدية مشغولة عنه بالبنتين. أم شاهين الحبيبة راحت. وسهيلة تحيا بين شرانق الحرير والحلوى التي تخبزها وراء البيت كي يبيعها عبد الرحيم في مطعمه. ذكيٌ هذا الصبي. وعنده أفكار لا تُعد. ذكي ويدير باله على التجارة وعلى الشيطان الصغير عمر. يقلب الجملة في رأسه قبل أن يلفظها. ولا يغش ولا يؤذي. اللّه يحبّه. وهو أبوه راضٍ عنه. لكن الولد فاتر. عبد الرحيم ليس شاهين وليس الصغير عمر. لا، عبد الرحيم ليس شاهين.

ترك شاهين البارودي بيروت بعد زواج أبيه للمرة الرابعة. عبد الجواد أحمد البارودي حدس أن بِكرَه غادر بسبب هذا الزواج. فكر أن شاهين رحل لئلا يصطدم به. كان يرى شاهين ذاهباً لزيارة قبر أمّه خارج باب الدباغة. دفنوا صفية الفاخوري البارودي جنباً إلى جنب هيلانة جروة البارودي. بعد الجنازة همى رذاذٌ فاترٌ من السماء. عبد الجواد أحمد البارودي رأى القطرات تنقط من رموش ابنه شاهين وأحسّ برجفة برد عميقة بين كتفيه. صاحب الذراع الواحدة تذكر عندئذٍ، بينما الهواء يهزّ أغصان التوتات المحيطة بالمقابر، أول نزوله في هذه البلاد.

بعد أيام، بينما يعبر في هذا المكان ذاته، انتبه أنه منذ فترة يستعيد تلك الأيام القديمة في ذهنه. حتى في المنامات تعود إليه الذكريات. ذات ليلة رأى نفسه يقف بيدٍ يقطر منها الدم أمام أمّه. كانت أمّه ممددةً في فراشٍ لا يدري كيف تذكره، وسألته أين كان، وما هذا اللون الأحمر على ثيابه، هل كان يقطف توتاً؟

في ليلةٍ أخرى استيقظ مبلّلاً بالعرق وقلبه ينبض في أذنيه. رأى مناماً مخيفاً: رأى نفسه قاعداً في البرية يشوي أرنباً على النار في عتمة الليل. ثم انتبه فجأة أنه لا يشوي أرنباً. انتبه أنه يشوي طفلاً!

وحدها الجارية الشركسية كلفدان أعطته بعض الراحة في تلك الأيام الفاصلة بين ولادة ابنته السادسة وبين معركة بحرصاف. هذه المرأة التي دلّته من دون أن تقصد إلى دكان صاحبه اليهودي المرحوم موسى يعقوب مزراحي قبل زمنٍ بعيد، وجدت نفسها تدلّه الآن إلى الوضعيات الأكثر راحة في الفراش وإلى أعشابٍ وبذورٍ وجذور يمكن ابتياعها من سوق العطارين.

كانت تصنع له بيدين حاذقتين أدوية ليلٍ وأدوية نهار. خلال

حياتها في جبالٍ أفريقية لم يرَها هو أبداً، وفي استامبول التي سمع أخبارها من شاهين وأصهاره، جمعت الشركسية معرفةً علاجية توازي معرفة العطّارين في السوق أمام قناطر الجامع العمري الكبير. حين انتبهت إلى آلام مزمنة في بطنه سألته ـ من دون أن تستحي ـ عن لون غائطه صباحاً وهل يرى دوداً فيه. عبد الجواد أحمد البارودي هزّ رأسه ولم يقل شيئاً. تلك الليلة حمل إلى البيت جذر الزنجبيل الذي طلبته، ثم راقبها تقطعه بالسكين وتنقعه في مياهٍ ساخنة. طوال خمسة أيام شرب كأساً من هذا النقيع بعد كل وجبة طعام. في اليوم السادس شُفي من أوجاعه. كفوف الزنجبيل التي تشبه كفوف ابن آدم قتلت الدود في أمعائه.

حين كان يصاب بالإمساك ولا ينفع معه التهام التوت والمشمش الساخن في الشمس وسيقان الحميضة وورق الصعتر الخلاط، كانت تمضي إلى «العطارين» وترجع حاملةً بقجةً من أوراق الدردّار الذي تسميه «توزلت». حين لا تجد ورق دردار في السوق تشتري أعواد سوس (عرق سوس) وزيت خروع. الخروع تعطيه منه ملعقة كبيرة ما أن تبلغ البيت، والسوس (الذي تسميه «رغليس») تغسله وتغليه على نار خفيفة في ركوة ماء ثم تدعه يرقد ليلة كاملة تحت النجوم. في الصباح تصفّيه في قماش شاش. بينما يشرب الكوب تمشي معدته.

إذا أصابه إسهالٌ عالجته بالخروب وقزبور البير والقصعين المقطّر. حين توجعه أسنانه تضع له على مائدة فطوره سلطة من حبّ الرشاد مع الحامض والزيت والملح، تُطيِّب له طعام الغذاء بالزعفران الحر، ولا تدعه يغفو قبل أن يدخن أرجيلةً مزجت تنباكها العجمي بورق السالمية المفروم (تُسميها «حبيقة الصدر»، وأحياناً «مريمية»، بحسب خضرتها أو يباسها).

مطلع عام 1840، بينما أجراس الكنائس تُقرع، تساقط الثلج على بيروت. كان ذلك أمراً خارقاً لم يعهده أبناء هذه السواحل. آخر مرة تساقطت الثلوج على الشاطئ قبل ثلاثة عقود (سنة 1809)، اعتقد الناس أن اللّه سمح في انهدام العالم. هذه الكلمات خطّها الشيخ الشمّاس أنطونيوس أبي خطار العينطوريني (1757 ـ 1821) في مخطوطته «مختصر تاريخ الجبل اللبناني» التي نشرتها الرهبنة المارونية في بيروت سنة 1953 تحت عنوان «مختصر تاريخ لبنان»: «في 1809 (ألف وثمانمائة وتسعة) في 27 آذار صارت ضربة قوية من قرية صليما في المتن ووسط بلاد كسروان لنهر إبراهيم. نزل بردٌ بكثرة في الليل. استمرّ مقدار ساعتين وكانت ساعة مهولة. خشي على كثير ان اللّه سمح في انهدام العالم. لكونه أعدم الزروع ونثر أوراق الأشجار الجوي والبري. وأذاب العشب وقتل جملة طيور برية كبار وصغار. وأغرق مراكب. نزل البَرَدْ في بعض المحلات مقدار ذراعين وقيل عن أناس صادقين أنهم في وقت نزوله شاهدوا البَرَدْ بحجم قريب لبيض النعام».

في سنة 1809 تساقطت رقع الثلج على خليج جونيه شمال بيروت. الثلوج بلغت نهر الكلب حين عصفت الرياح دافعةً الغيوم المكفهرة جنوباً. لكن تلك العاصفة القديمة لم تقطع نهر بيروت ولم تبلغ أسوار البلد. هذه المرة، في 1840، غطّت القشرة البيضاء سوق الفشخة المبلط، وغطّت مياه البركة أمام جامع النوفرة، وغطّت شرفة المئذنة العالية للجامع العمري حيث يرفع لطف اللّه قدورة صوته بالأذان خمس مرات كل يوم منذ عشرين عاماً.

قناطر كنيسة مار جرجس الصفراء حالت إلى لون أبيض. رقع الثلج نزلت ناشفة كالقطن والتصقت بقبّة كنيس اليهود المخضرة من الطحالب. الجنود المصريون وقفوا على الأسوار وصاحوا فرحاً

بالمنظر. غطّى الثلج الأبيض العجيب «سهلات البرج» فبانت الطيور المتقافزة بين الأغصان مثل لطخات بلون الفحم تسعى على صفحة بيضاء بلا بداية وبلا نهاية. ابيضّت السماء وابيضت الأرض وابيض الفضاء ما بينهما. حتى البحر بدا كأنه يتدثر بغطاء من الثلج. عبد الجواد أحمد البارودي أصيب بنزلة صدرية. جاريته (نصفها جركس، نصفها بربر) تذكرت حكايا قديمة من جبال الأطلس. الذكريات التي تدفقت عليها لم تمنعها من غلي النعناع اليابس للرجل صاحب الذراع الواحدة. لم ينفعه النعناع فغلت له زهور الكينا وحبّ اليانسون. هذا أيضاً لم ينفعه. سخّنت زيت الزيتون إلى أن صار فاتراً ودلّكت بالزيت صدره وظهره وذراعه اليتيمة. لم يكفِه ذلك. امتلأ صدره بالبلغم القاتم ذي الخرير. استخدمت كلفدان عندئذٍ وصفةً اشتهرت بها أختها ـ زوجة الأمير بشير ـ حُسن جهان: صرم الديك المغلي مع جذر الشمّار ـ المفيد لتنشيط قوى الباه أيضاً (شرش الزلوع).

تحسنت صحة أبي شاهين قليلاً عندئذٍ. لكنه ازداد توتراً. منذ أيام لا يغادر الغرفة البيضاء العالية. المتجر في البازركان يبقى موصداً. المصلون الخارجون من جامع الأمير منذر التنوخي يستغربون رؤية الباب الخشب المواجه مقفلاً. اعتادوا رؤية الباب مفتوحاً، واعتادوا منظر العبدين العملاقين واقفين أمام الباب يدخنان تبغاً أو جالسين في الداخل يلعبان الداما.

غطى الثلج المصطبة عند «محطة الشام». عبد الرحيم البارودي كوَّم بمساعدة الصبية كل الطاولات والكراسي في قلب الحانوت. بات الواحد يعجز عن الحركة في الداخل. الحركة تعطلت في الميناء. ظهرت الأخشاب المحطمة وأكياس الجنفيص الممزقة على الشاطئ. عمر البارودي تسلى في تلك الأيام بالجلوس مع الحبشيين

مونس وسنان في كوخهما الخشب. خديجة قرنفل البارودي صنعت عقوداً من نوى الخوخ وعقوداً من نوى المشمش. سهيلة النابلسي البارودي حاولت التحدث مع ابنتها نرجس لكن البنت اكتفت بإطلاق دمدمات غامضة قاعدة في الزاوية مع معزاتها البيضاء ذات اللحية الداكنة الحمرة.

في الجانب الآخر من «طريق عبد الجواد» رأى محمد الفاخوري بطن عائشة هانم ينتفخ من جديد. لم يعجبه ذلك فبات يقضي معظم أيامه في دار أهله داخل «باب يعقوب». أشجار البركة في الحوش سقط ورقها وكلّل الثلج أغصانها العالية. غطّى الثلج سطوحاً طالما قفز عليها محمد «البسّ» في طفولته. وغطّى أبراجاً. وغطّى أزقة. كانت الصفحات البيضاء تسقط مائلة وتلتصق بالحيطان، بالأشجار، بسياجات الصبير والمقسيس التي تحدّد قطع الأرض، بالأكتاف والرؤوس والملابس، وتلتصق بالحجارة التي كُومت خارج باب السراي لبناء قصرٍ ـ لن يبنى أبداً ـ للأمير محمود نامي.

غطّى الثلج البلد وغطّى الباحة في حارة اليهود وغطّى حياة العجوز ملكة مزراحي. اعتادت العجوز ملكة في تلك الأيام والليالي الجامدة الصقيع أن تتدثر بكل ما في البيت من بطانيات صوف ثم تقعد مصطكة الأسنان أمام كانون الفخار. كل بطانيات العالم لن تعطيها الدفء في هذا الثلج. كان اللون الأبيض الفظيع يتسرب من الشقوق في درف النوافذ. اللون الفظيع ورياح الشمال الفظيعة. لم يؤنسها في تلك الأيام الجليدية غير أخيها المرحوم موسى يعقوب مزراحي.

كان يجيء عند الظهيرة ـ بينما تنعس والنمل يدبّ في ساقها اليسرى ـ فيوقظها بهمهمة أليفة ويشرب معها فنجان قهوة مرّة. تعطيه

بطانية وتنظر إلى الشيخوخة التي نالت من محياه. يبتسم فتظهر لثته الخالية من الأسنان ويخبرها أن العمر قد نال منها هي أيضاً.

ـ وماذا كنت تتوقع؟ الوقت يمضي.

ـ أعلم أنه يمضي، لكن لم أكن أعرف أنه يمضي بهذه السرعة!

يسكتان. يتأملان الجمار. ويشربان القهوة. تسأله لماذا يظل يعود إلى هنا. يخبرها أنه من الصعب الحصول على أصدقاء في الجانب الآخر من العالم.

ـ الواحد يصنع أصدقاء حين يكون ولداً. بعد ذلك يصبح الأمر صعباً. أنت تعلمين.

تهز رأسها وكأنها لا تفهم ما يقول، أو كأنها لم تسمعه.

يفكر أنها صارت طرشاء بمرور الزمن. ينظر إلى قشور الحائط، إلى اللون الأبيض في شقوق الخشب. يسمع الدود ينخر جسور السقف. يسمع الدود ويسمع السوس ويسمع النمل الأبيض. ينهي فنجانه. يتذوق تفل القعر على رأس لسانه، ويقول إن المكان مزدحم جداً هناك، حتى أنك إذا التقيت شخصاً وصادقته يوم الاثنين، تضيعه في الثلثاء، فلا تعثر عليه حتى لو بحثت عنه نهاراً كاملاً. وإذا صادف والتقيته من جديد يوم الأربعاء فإنك لا تلبث أن تفقده في الخميس. لذلك فالأفضل ألاّ تتعلق بأحد.

يقول إنه يرجع إلى البلد بسبب الإلفة. ومرات يمشي في برية الرأس، هناك إلى الغرب من الأسوار، حيث جلول التوت وبساتين الخس، يمشي هناك ويشم الروائح القديمة.

ـ صاروا يبنون بيوت قزّ هناك.

يقول إنه يعرف ذلك لأنه رآهم. ورأى البيت الكبير الذي يُبنى في الطلعة خارج باب يعقوب.

ـ هذا للأميركان. يُبشرون بدين البروتستانت. ليسوا مثل المسيحيين الذين نعرفهم. لا يضعون في الكنائس غير المقاعد. لا صلبان ولا شموع ولا أيقونات ولا من يحزنون.

يقول إنه مرّ قبل أيام على دكانه القديم فلم يعرف الدكان ولم يعرف الساحة. كل البلد تبدلت.

يقول إنه رأى صاحبه القديم البارودي ماشياً أمام الجامع العمري الكبير فتبعه حتى بيته.

ـ عنده بيوت الآن. بذراعٍ واحدة وعنده زوجات وبيوت وعبيد.

يخبرها أنه يعلم ذلك. لأنه مرات يقعد في ظلال الجميزة المجاورة لنوفرة الجامع ويراقبه جالساً وسط القماش والصناديق الدمشقية والقناديل والعباءات. يراه ويرى العبيد.

تقول إنها لم تعد قادرة على التحطيب، فالفأس تقع من بين أصابعها.

ـ وماذا كنتِ تتوقعين؟ الوقت يمضي.

ـ الوقت يمضي، بلى، أعلم. لكن بهذه السرعة!

تُغمض عينيها لحظةً لترتاح، فيسحبها النوم إلى مملكة أخرى. موسى يعقوب مزراحي ينهض عندئذٍ ويُرتب بطانيته فوق أخته العجوز المستوحدة. قبل أن يخرج ينظر مرة أخيرة إلى وجهها. ينظر إلى التجاعيد وإلى النمش البنيّ الذي يزداد لونه دكنةً بمرور الزمن. أراد أن يخبرها أشياء حلوة. أن يُفرحها قليلاً. لكنه مرة أخرى لم يجد شيئاً مفرحاً يقوله. كان عليه أن يصف المكان هناك. أن يخبرها أنه كالفندق، كخان الروم عند الميناء، كخان البنادقة في حلب، كخان الإفرنج في صيدا. مثل الفندق لكن أكبر بكثير ولا تدفع مالاً

مقابل النوم والطعام وكل ذلك. غير أنه شديد الازدحام. أراد أن يصف لها المكان ثم فكر أن أخته ملكة لا تعرف الخانات ولا تعرف من دنيا اللّه الواسعة غير هذه الحارة وهذا البيت. نزل الدرجات الحجر المغطاة بقشرة بيضاء محاذراً لئلا يزلق على الجليد ويفك رقبته. سار في أزقة بيروت شبه المهجورة إلى أن بلغ «طريق عبد الجواد»، ثم استدار عائداً من حيث أتى. جلس في مطرحه القديم على المصطبة الحجر وراقب الثلج يسقط على الساحة الفارغة التي لم تعد ساحة للعصافير.

عبد الجواد أحمد البارودي كان يشق درفة النافذة عندئذٍ وينظر إلى الثلج يتساقط فوق السنديانة وفوق سوق القطن. فكر صاحب الذراع الواحدة، وهو يسعل سعالاً شديداً، أن العجائز يقضون نحبهم في مثل هذا الشتاء. لم يفكر في صاحبه القديم مزراحي. ولكنه فكر في أمه: أمّا زالت على قيد الحياة؟

في الليل يوقظه السعال فتنهض جاريته في الظلام وتأتيه بالماء أو الدواء. سعاله يوقظ البومات في السنديانة ويوقظ البنت نرجس في البيت تحته. لكنه لا يوقظ أم زهرة. سهيلة النابلسي البارودي علّمت نفسها أن تنام نومة ديدان الحرير في الشرانق. تلف جسمها السمين بالبطانية وتهوي إلى أعماق النوم. فلا يوقظها زلزالٌ ولا توقظها عاصفة.

نرجس يوقظها السعال (أو نعيق البوم) في نصف الليل. تعانق معزاتها وتجلس في الظلام مفتوحة العينين. في الظلام الكثيف توجُ عيناها الفوسفوريتان الوامضتان كعيون القطط. تجلس هكذا وهي تتأمل البطانية ترتفع وتهبط فوق بطن أمها إلى أن تنعسها حركة البطانية وتأخذها إلى النوم كأنها تهدهد رأسها.

غطى الثلج بيروت وغطى البساتين المجاورة وغطى أرصفة الميناء وغطى سطوح العنابر وغطى شاطئ البحر. خديجة قرنفل البارودي أحسَّت أن قلبها سوف يطق إذا بقيت يوماً آخر واحداً في هذه الوحدة القاتلة. التفت بجبةٍ تركها زوجها وخرجت وقرعت باب البيت المجاور. عبد الرحيم البارودي فتح لها.

الابن البكر لعبد الجواد أحمد البارودي كان يدخل أنقرة في تلك اللحظة آتياً من عاصمة السلطنة على صهوة حصانٍ بلون الذهب. خاله محي الدين الفاخوري منحه هذا الحصان التركماني هديةً. قال له مودعاً: «اللّه ينصرك على أعدائنا يا ابن أختي».

أخبار شاهين البارودي كانت ترِد إلى بيروت مع ورود القوافل. محمد الفاخوري كان يتلقى الأخبار بقلبٍ واجفٍ، ثم ينقلها إلى زوج عمته صفية. عبد الجواد أحمد البارودي لم يكن في حاجة إلى صهره ليعرف الأخبار. القوافل تأتي إليه هو أيضاً. والذي يعرف الأخبار أكثر منه وأكثر من محمد «البسّ» هو الولد عبد الرحيم الذي ما عاد ولداً. عبد الرحيم يقف على المصطبة أمام المطعم ويسمع كل أخبار بلاد الشام بينما دخان المشاوي يتصاعد وراء ظهره.

لكن محمد الفاخوري يترقب أخبار صديقه القديم كأنها تعني حياةً أو موتاً لروحه. لم ينتبه أحد إلى التبدل الذي طرأ على هذا الرجل: بات شديد العصبية، وحين يحكّ العقصات على جلده يجرح نفسه بأظافرٍ مسننة. يصرخ في وجه زوجته التركية ويخبط الباب خلفه ويمضي إلى «قهوة النوفرة». أنفاسه غاضبة ومشيته غاضبة. وفي الليل لا يقرب عائشة هانم. وحين يدخل غرفة الخلاء مع طنجرة ماء ساخنٍ يبقى وراء الباب المردود وقتاً طويلاً. ماذا يفعل في الداخل؟

عائشة هانم لم يخطر في بالها أن زوجها التقط السفلس من «العوالم» في السوق بين الدركاه ويعقوب. محمد الفاخوري احتار لا يدري ماذا يفعل بالنار في بوله. الحريق في الأسفل منعه من النوم. لم يكن يعرف شيئاً من هذه الأمراض، فأهل بلادنا لم يعرفوا أمراض الزهري قبل مجيء المصريين إلى برّ الشام. لكنه اكتشف بالتجربة أن الماء الساخن يريحه. البقع التي ظهرت في منطقة الحوض منعته من ارتياد الحمامات العمومية. بات علاجه هذه الطنجرة، في غرفة الخلاء، وراء البيت. لا يرتاح إلاّ حين يُسقط كيلة الماء أسفل بطنه ولا يرتاح إلاّ بينما يخطط: عليه أن يغادر هذا المكان، عليه اللحاق بابن عمته. لكن أين شاهين الآن؟ في استامبول أم أنقرة أم حوران أم...

شاهين البارودي كان يحيا على دروب الأناضول في ذلك الربيع البعيد. نستطيع أن نتخيله على حصانه الذهبي يقود قافلة بواريد وذخائر. ثلوج الشتاء لم تذب بعد. والرياح باردة. يسعل سعالاً جافاً. سعالاً يفزع الحصان التركماني. يتعب من الركوب فيترجل. ويشعل ناراً. القافلة تسبقه أو لعلها تتخلف عنه وهو يسبقها ويترجل هنا ليرتاح وينتظرها. يشعل ناراً إذاً وينظر إلى الجبال والوديان والغيوم السابحة فوق السهول. قطيع ذئاب يعبر عند حافة غابة ويترك آثاره في الوحول السوداء. أشجار تميل في الريح. تتباعد الغيوم وتظهر قطع داكنة من سماء زرقاء. يحلق نسرٌ في الأعالي. ثم يتبعه نسرٌ آخر. نسور ضخمة تقطع الفضاء. وشاهين البارودي يجمع مع صديقه القديم سليمان منذر عشباً للأحصنة، وحين يرجعان إلى حيث تتجمع القافلة يجدان معز الدين الطويل ابن حاصبيا يضع طنجرة على النار ويذيب فيها ثلجاً ليصنع حساء.

عبد الجواد أحمد البارودي تناول في تلك اللحظة كوب يانسونٍ

من يد جاريته. كان يسأل نفسه ماذا يفعل شاهين الآن. رشف جرعة حارقة أولى وفكر أنه لن ينام هذه الليلة أيضاً. ذابت الثلوج وقلّ تساقط المطر، وها هو الربيع يأتي مع السنونوات، لكن الصقيع لا يفارق ثيابه. بينما يرشف جرعة ثانية سمع الأمطار تهطل من جديد. كلفدان كانت عارية الذراعين تتنقل غير شاعرةٍ بالبرد وتجانب الاقتراب من زاويته الساخنة. رشف جرعة ثالثة فسمع قرعاً على الباب.

عمر البارودي دخل إلى الغرفة البيضاء العالية ضاحكاً بقميص قطنٍ سماوي بقّعه المطر. عبد الجواد أحمد البارودي سأله بنبرة غاضبة كيف يخرج في هذا المطر؟ ثم ابتسم وأفسح له مكاناً جنبه، على صوف الخروف، أمام جمار المنقل الأسطمبولي النحاس.

في آذار (مارس) ظهرت سفنٌ مصرية قبالة الشاطئ. كانت تعج بالعساكر. في نيسان (أبريل) سمع عبد الجواد أحمد البارودي أن الثورة اندلعت في حوران من جديد. في أيار (مايو) انتفخ بطن جاريته انتفاخاً خفيفاً. كانت البراعم تخضر على الأغصان. كثرت أسراب السنونو في سماء بيروت. واتسعت أقواس تحليق الحمام. قبل ذوبان الثلوج عند سفوح صنين نادى المنادي في أزقة البلد أن كل السلاح في بيوت الأهالي يُحمل إلى السراي ويُسلم إلى العساكر.

أبناء بيروت ما كانوا يدرون في ذلك الربيع البعيد أن المصريين لن يقضوا في هذه البلاد ربيعاً آخر. ولا العساكر المصرية كانت تدري. لا يعلم أحد ماذا يخفي المستقبل. في ربيع 1840 قرر إبراهيم باشا أن يصادر كل سلاح النصارى في جبل لبنان، بعد أن صادر في السنوات السابقة كل سلاح الدروز. أمر الأمير محمود نامي أن يجمع سلاح الأهالي في بيروت أيضاً: نصارى ومسلمين

معاً. الناس خافوا لأن جمع السلاح كان الخطوة الأولى على درب التجنيد الإجباري. حين عُرِف أن السفينة «علياء» رست قبالة الشط محملة بالبزات النظامية عمّ الذعر الأسواق.

المنادي نادى في الأسواق نداءه المشؤوم صباح يوم اثنين. ظهيرة الثلثاء، بينما الأسواق تضطرب بالإشاعات وبحركة أبناء البلد والغرباء معاً، أقفل جنود إبراهيم باشا جميع بوابات بيروت وألقوا القبض على جميع التجار والمكارين الآتين من الجبل اللبناني ومن الداخل السوري، واقتادوهم إلى زرائب السراي.

صادروا كل ما يحملونه من بضاعة ومال ومتاع، حلقوا شعر رؤوسهم، وألبسوهم الزي النظامي. الجيش يحتاج إلى الجنود. حروب الأناضول وثورات حوران واللجاة ووادي التيم حصدت الرؤوس حصداً. محمد علي باشا أرسل إلى ابنه من مصر أمراً بتجنيد كل شامي قادرٍ على حمل السلاح. الحرب الكبرى آتية. السلطان عبد المجيد ينظم جيشاً حديثاً، ووزير الخارجية البريطانية اللورد بالمرستون اللعين مُصرٌ على طرد عزيز مصر من بلاد الشام.

اضطربت البلد وماجت. الجنود طاردوا شباناً بيروتيين في سوق الفشخة يرتدون عباءات دمشقية مزركشة بالقصب. الشباب هربوا إلى البازركان ليضيعوا هناك في الزحمة. لكن الجنود قوّصوا في الفضاء وفرّقوا الشارين والبائعين والعابرين وقبضوا على ولدين وأشبعوهما ضرباً. عبد الجواد أحمد البارودي لم يكن في متجره.

نزلة صدرية أخرى ردّته من البازركان إلى الغرفة البيضاء العالية. لكنه لن يبقى هنا طويلاً. تغير مزاجه فأرسل عبده سنان إلى البيت في نهاية «الطريق البيضاء» ليُعلم زوجته سعدية أنه نائم عندها هذه الليلة. يوم الخميس كان يتناول فطوره والطفلة ورد في حضنه، والأخرى هند إلى جنبه، حين سُمعت فرقعة بواريد مرة أخرى في

المدينة المسالمة. الجنود يجمعون المزيد من الفتية والشباب للخدمة الإلزامية.

هذه المرة (كما سيعرف أبو شاهين بعد الظهر من ابنه عبد الرحيم) اعتدى الجنود على تجارٍ بيروتيين أيضاً. وكسروا خوابي زيت في مخازن الخواجا نقولا بسترس مقابل معصرة دندن. اقتحموا بيوتاً في طلعة الدركاه، وفي باب إدريس، وعاثوا فساداً في عمارات الميناء الجديدة. نصر اللّه وبطرس الصايغ هُددا بالضرب حين اعترضا درب الجنود. عبد الرحيم فرّ مع الفارين من سوق القطن إلى الفشخة إلى الحدادين. وجد الجنود قاعدين في متجر الخضر يقشرون الفواكه ويرمون القشور على المصطبة وفي الطريق.

استدار وأخفى نفسه وراء امرأة عجوز خرجت من حارة اليهود، ورجع إلى الحدادين قبل أن يبصره الجنود، ثم انعطف يساراً وعَبَر سوق الأساكفة وخرج إلى العطارين. وجد أكياس التوابل مطروحة على الأرض، والناس يتراكضون، وسمع صراخاً. أسرع صاعداً الطلعة نحو قناطر دندن وفي نيته أن ينزل إلى أقبية العقد المهجورة ويخرج من الجانب الآخر ثم ينحدر إلى البازركان. باله مشغول على متجر أبيه، وعلى أبيه معاً (لم يكن يعلم أن الأب لم يغادر بيته هذا اليوم أيضاً).

قبل أن يبلغ القناطر انتبه إلى فرقة جنود آتية من تلك الجهة. رجع إلى «العطارين» ووقف عند زاوية الجامع العمري الكبير ينتظر عبور الجنود. كان في مقدوره أن يركض ويعبر الطريق ويحاول الإفلات إلى البازركان عبر الطلعة المقابلة (حيث مطعم بارلمانتو اليوم). لكنه وجد ساقيه تصطكان. لم يجرؤ على الدخول إلى الجامع لأن الجنود أقدموا في الأمس على اقتياد اللاجئين إلى الجامع مخفورين بالحديد عبر أسواق البلد إلى الثكنات الجديدة خارج باب

يعقوب. هناك هددوهم بالجلد إن لم يرتدوا الزي النظامي.

عبد الرحيم البارودي رأى فرقة تقترب من تلك الجهة، وأخرى تدنو من هذه الجهة، وخاف. خاف وأحسّ الأنفاس تتدافع في زلعومه. أين يفرّ؟ في تلك اللحظة سقطت يد قاسية على كتفه. استدار فرأى ابن خاله محمد الفاخوري.

سحبه محمد الفاخوري من ذراعه ودلّه إلى شجرة التين. تسلقا الشجرة إلى السطوح. ثم قفزا فوق القبب والدهاليز إلى أن بلغا «دار البرتقال» عند باب يعقوب. وجدا الدار تعجّ بالمشايخ وبوجهاء البلد. عمر بيهم كان هنا. أبو عبد اللّه قليلات كان هنا أيضاً. والخواجة ديمتري فياض كذلك. اجتمعوا وحرّروا رسالة إلى الأمير محمود نامي:

«سيدي الأفخم، لا يخفاكم عما حصل بهذا النهار من تفتيش البيوت. وقد حصل لنا ثقلة زايدة، وطلعنا من محل لمحل إلى أن توصلنا لبيت مصطفى غندور الفاخوري، وترونا في قلق وغم زايد، ولا نقدر نشرح لكم... فالمرجو تطمنونا وهل علينا خوف؟ وإن كان تروا محل مناسب لنتوجه له أفيدونا بالجواب مع حامل هذه الورقة.

ودمتم
لخادمكم ناظر شواري بيروت
السيد عمر بيهم.»

يوم الجمعة هدأت البلد. الأمير نامي دعا وجهاء بيروت إليه وطمأنهم مسلمين ونصارى: لن تُفتش البيوت بعد الآن ولن يدخل

الجنود المتاجر والمخازن. الهدوء رجع إلى بيروت. لكن القوافل لم ترجع.

قُطّاع الطرق انتشروا بين بيروت والجبل، بين الجبل وسهل البقاع، وبين البقاع وحوران. السفن قلّ ظهورها قبالة الشط. والفضاء نفسه بدا عابقاً برائحة فاسدة. كلمات الأمير نامي لا تكفي للرجوع إلى أيام الهناء وازدهار التجارة والأمن المستتب. الهواء يتغير. وحال الدنيا إلى اضطراب.

قبل نهاية أيار (مايو) 1840 اندلعت الثورة في دير القمر. الدروز والموارنة والروم والكاثوليك اجتمعوا معاً، ورفضوا تسليم سلاحهم إلى الأمير بشير وحليفه المصري. الأمير خليل شهاب قال لأبيه إنه لا يعرف كيف يتصرف الآن. جنوده لن يحاربوا أخوتهم الديريين. العائلة الواحدة نصفها في جيشه ونصفها مع الثوار. ماذا يعمل؟

محمد الفاخوري شُفي بينما البلد كلّه ينقلب رأساً على عقب. شُفي بقدرة قادر واستعاد روحه المرحة. في مطلع حزيران (يونيو) ركب حصاناً وفرّ إلى البراري. لن يرجع قبل نهاية الشهر. وعند رجوعه سيذهب مباشرة إلى متجر أبي شاهين في سوق البازركان ويخبره أن شاهين في بعقلين، ينام في بيت الشيخ رامز العيد، ويحارب مع الثوار.

في تموز (يوليو) قمعت العساكر المصرية ـ بمساعدة جيش الأمير بشير ـ الثورة في الجبل اللبناني. إبراهيم باشا نفى زعماء الثورة إلى صعيد مصر وإلى سنار في السودان. السفن التي جاءت من الإسكندرية محملة بالجنود (وبمزيدٍ من «العوالم» العاملات في خدمة أشهر قوادٍ عرفته بلاد الشام: حبيب بوغوص الأرمني) رجعت من بيروت إلى الساحل المصري محملةً بالزعماء المخفورين

وبأكياس الحنطة وبراميل الزيت. في هذه الأثناء اجتمعت خمس دول أوروبية في لندن وأصدرت تحذيراً إلى محمد علي باشا: ينسحب خلال عشرة أيام من بلاد الشام أو تتدخل البوارج الحربية.

المؤذن العجوز لطف اللّه قدورة كان أول من شاهد ظهور البوارج البريطانية والنمساوية قبالة الميناء في السبت الأول من آب (أغسطس) 1840. روى فيما بعد أنه استيقظ في ذلك الفجر من حلم غريب: رأى في المنام أن العمارات الجديدة عند المرفأ تنفصل بكلِّ أساساتها عن اليابسة ثم تتحرك وتنزل في الماء كالمراكب فيأخذها الجزر إلى عرض البحر ولا يردها المدّ إلى البرّ. في منامه رأى المؤذن لطف اللّه قدورة ـ الذي بدأ الوهن يدبّ في ساقيه ويتعبه في صعوده السلالم إلى أعلى المئذنة ـ رأى أن العمارات ذات الطبقات الثلاث تبحر في البحر، تُرفرف في أعلاها أعلام القناصل الأجنبية الملونة، إلى أن تختفي في الضباب الناصع البياض.

في ذلك الفجر ذاته غسل وجهه ثم توضأ وصعد إلى أعلى المئذنة حاملاً سراجاً. وقف على الشرفة ونظر إلى حيث اعتاد أن ينظر كل هذه السنين. النظرة الأولى نحو جبال صنين، والخط المنير الذي يتشكّل عند القمم. النظرة الثانية إلى البلد الذي ينام في الأسفل. النظرة الثالثة إلى «الطريق البيضاء» التي تمتد كاللسان من سوق الفشخة حتى البيت الأخير والجلول التي تفصل هذا الحيّ النامي عن العنابر وعن البحر. والنظرة الرابعة إلى البحر بصفحته المستوية صيفاً الصاخبة شتاء. هذه هي عادته.

لكنه في هذا الفجر غير المألوف وجد نظرته الأولى تقع على حافة جبال صنين. هناك حيث تبدو الجبال كأنها تتساقط في البحر عند صخور المدور، حيث لم تظهر سفنٌ منذ فترة، رأى سفناً ضخمة لم يرَ في مثل حجمها من قبل. للوهلة الأولى لم يكن متأكداً

أنها سفن. كانت الظلمة تسبح مثل ضبابٍ داكن على صفحة الماء، وظنّ للوهلة الأولى أنها أضغاث المنام. لم يفرك عينيه لكنه سعل وسمع خرير البلغم في صدره ثم استقام ونظر من جديد. لم يكن مناماً. ما هذا الذي يراه؟ بدت الأشكال الهائلة كأنها وحوش تخرج من المياه. ثم انتبه أنها سفن حين تلامعت أنوار تتحرك على ظهر سفينة منها. ظنَّ أن الظلام جعل عدداً من السفن يبدو متلاصقاً مثل سفينة واحدة ضخمة لم يُرَ في ضخامتها أمام هذا الساحل من قبل. لكن الظلمة تبدّدت رويداً رويداً. وما ظنّه قبل الآن عدداً من سفنٍ عادية متلاصقة، ظهر أنه سفينة ضخمة، وعلى مسافة منها، سفينة ضخمة أخرى، ثم ثالثة.

كانت أربع سفن لم يرَ في مثل ضخامتها أبداً وكانت محملة بجسور صنوبر أو سنديان. سفن تحمل حطباً! أخذ النور يطلع من وراء الجبال ورأى لطف اللّه قدورة أن السفن الضخمة لا تحمل حطباً. ليست هذه جسور صنوبر التي تبرز من جوانب السفن! ليست جذوع سنديانٍ وأرزٍ! كان ينظر إلى مدافع. نظر لطف اللّه قدورة إلى البوارج الحربية ذات المدافع المخيفة ونسي أن يرفع أذان الفجر.

ظهور البوارج الحربية الإنكليزية والنمساوية مقابل الساحل اللبناني بدّل حال البلد. فجأة خلت الأسواق من الجنود المصريين. حافظ باشا وسليمان باشا وضعا خطة الدفاع عن بيروت ـ والساحل ـ في «السراي». الأمير محمود نامي وقف إلى جانب الرجلين بنظرةٍ شاردة، يمسح بالمنديل قطرات العرق عن وجهه. نائبا إبراهيم باشا انشغلا بمناقشة شؤون عسكرية لا يفهم فيها، والأمير نامي تراجع ببدنه الثقيل إلى النافذة ذات الزجاج ونظر إلى البوارج في البحر ونظر إلى غربان تتطاير في رياح الخماسين فوق قناطر حارة الأمير

ناصر الدين التنوخي التي يسمّونها حارة الحاج عبد اللّه القوتلي اليوناني أيضاً.

جاءت هذه البوارج من أوروبا، وبدل أن تجلب معها هواءً عليلاً جلبت طقس الصحراء. حافظ باشا الذي قاتل الوهابيين في الجزيرة العربية لا يزعجه هذا الحرّ. لكن الأمير محمود نامي يزعجه. يزعجه الحرّ ويزعجه حدسٌ يقارب اليقين: لن تنفع هذه الخطط كلّها!

كانت سنة غريبة. بعد الثلوج التي سقطت في الشتاء وغطّت سطوح بيروت بقشرة بيضاء، انهمر مطرٌ غزيرٌ. ذاب الثلج سريعاً وجرت الأنهار في الأزقة. اختنقت المزاريب بالماء وطرطقت المجاري. البلد كلّه حال نهراً متشعباً يجري في الأزقة والعطفات، ويرتطم بالحيطان القديمة، ثم يواصل انحداره نحو البحر في مسالكٍ جديدة. حلّ الربيع وتباعدت الغيوم وانتهى البرد. حلّ الربيع معتدل الحرارة طيب الهواء. حتى أن الجميع قالوا إن الصيف هذه السنة سيكون مقبولاً. مثل هذا الربيع الحلو لا يتبعه صيفٌ لاهبٌ بل صيفٌ معتدلٌ مقبول. كان ربيعاً ممتازاً حتى أن موسم الحرير في الساحل بدأ مع موسم الحرير في الجبل وانتهى معه. بزر القزّ لم يفقس قبل مطلع نيسان (أبريل) وحين فقست البيوض الدقيقة الغبراء أخيراً خرج منها الدود مرحاً نشيطاً كأنه يرقص في الطقس المعتدل. لم تزعجه «شلهوبة» ولم يُذبله نسيمٌ حارٌ.

سهيلة النابلسي البارودي انتعشت في نسائم الربيع العليلة واستردت شهية عارمة إلى الطعام، حتى أن زوجها صاحب الذراع الواحدة جعل يسأل نفسه متى نام عندها آخر مرة؟ فقّس القزّ في أول نيسان ولم ينتظر حتى أواخر أيار(مايو) كي يتسلق شيح الوزال والغبري الذي ألقي إلى جانب الأطباق والإصقالات: شراهته في

التهام ورق التوت والعيدان (مفرومة وبلا فرم) كانت غير عادية. الريح الطيبة غيَّرت لونه. والطعام الطيب في نصف أيار أثقل حركته فزحف كالجيوش وتسلق عيدان الوزال. كل دودة بصقت خيطاً من حرير ورسمت صليباً ثم نامت على صليبها وبدأت تبرم رأسها وتلقي خيطها في دوائر حول جسمها. سهيلة النابلسي البارودي راقبت المشهد العجيب وهي تلعق دبس العنب عن أصابعها. كانت الدودة تختفي رويداً رويداً في الكفن الذهبي الذي تنسجه حولها. اكتمل شكل الكفن وظلّت الدودة مرئية عبر النسيج الشفاف. حركة الرأس ظلّت ظاهرة. لم تتوقف عن بصق الخيط. كانت تغزل شرنقتها من الخارج إلى الداخل. بعد الطبقة الخارجية نسجت طبقة داخلية. ثم أخرى تحتها. ثم أخرى. ثم أخرى... حتى اختفت الدودة عن نظر سهيلة النابلسي البارودي. كل بيت أم زهرة امتلأ بالوزال وبالشرانق البيضاوية ذات لون الذهب والغيوم. لم تُعطَ الغرفة البيضاء العالية ـ بعد رحيل ابنة الحصن ـ إلاّ زمناً قصيراً، ثم جلب أبو شاهين هذه الجارية الأربعينية التي تقضي نهارها وراء البيت تتفحص عشب الحقول، مثل بنتها المسكينة نرجس. لماذا أعطتها السماء في آخر العنقود بنتاً لا تبالي إلاّ بمعزاتها؟

كان ربيعاً ممتازاً حتى أن شرانق الحرير تصلي وسطها خلال سبعة أيام وليس في عشرة أيام كما هي العادة. كانت النسائم طيبة ولكن من دون رطوبة. انخفاض الرطوبة جعل الشرانق تنشف من البلل سريعاً، وتقسو. سهيلة النابلسي البارودي قشرت خيطان «الليسيني» التي تعلق الشرانق بالشيح، ثم فردتها شرنقة شرنقة على أطباق نظيفة باردة بانتظار حلّها. بينما تُرتب الشرانق هكذا في نور الأصيل البرتقالي أحسّتْ بموجة بكاء ترتفع من أعماقها: كانت تفكر في المرحومة أم شاهين، وفي بنتها زهرة التي لم ترَها منذ زمنٍ

بعيد، وفي تلك المرأة الحلبية البيضاء التي قضت نحبها قبل أن يغطي الشحم عمودها الفقري.

الربيع لم يُبشر إلاّ بصيفٍ معتدل. حين انقضى تموز (يوليو) من دون أن تغلي المياه في الكوز قالت الناس إن هذا الصيف فعلاً رحمة. ثم حلَّ آب. في السبت الأول منه ظهرت البوارج. ظهرت البوارج الأربع أمام الشط وقبل أن تغيب شمس ذلك السبت ظهرت خمس بوارج أخرى آتية من الأفق وحولها يتجمع ضوء أحمر. كان ذلك ضوء الغروب لكن البلد استيقظ صباح الأحد على ذلك اللون نفسه يغطي النوافذ والأبواب وشقوق الحيطان. عاصفة رملية وصلت في الليل وحاصرت بيروت وأسوارها. صار الجو بلون الرمل ودخل الغبار إلى البيوت وغطى الأرض والمناديل والشراشف والطاولات والمقاعد والأباريق وغطى «النمليات» حيث تُحفظ طاسات الزعتر الممزوج بالزيت، وغطى فخارات المربى والدبس، وغطى صحون اللبنة «السردالي».

آب اللّهاب أفرغ الأسواق من البشر. الحرّ أبعد الناس إلى جوف بيوتها أو متاجرها؛ والخوف أيضاً: كل تلك البوارج التي تتكاثر بمدافعها قبالة الميناء وقبالة الكرنتينا وقبالة عين المريسة! حافظ باشا وسليمان باشا وزعوا الجنود في ثلاث كتائب على بساتين رأس بيروت، وعلى سهلات البرج، وعلى سفح هضبة الأشرفية. توقعا أن تقوم البوارج الأوروبية ـ التي تجرّ خلفها سفناً عثمانية محملة بالجنود ـ بعمليات إنزال في نقطة من هذه النقاط الثلاث: محيط المرفأ؛ مصب نهر بيروت (الكرنتينا)؛ أو خليج عين المريسة (رأس بيروت).

حافظ باشا أرسل الطابور الثامن عشر والطابور الثلاثين إلى جلول رأس بيروت لأنه كان واثقاً أن الإنزال سيحدث في عين

المريسة. المرسى في تلك المنطقة سهل والأكواخ المنتشرة هناك يسكنها دروزٌ، وهؤلاء يتمنون هذا الغزو منذ تسع سنين. سليمان باشا رئيس أركان الجيش المصري أرسل كتيبة تتألف من ثلاثة طوابير إلى بساتين برج حمود (بين هضبة الأشرفية وخليج الكرنتينا حيث يرتفع الآن جبل النفايات الشهير) لكنه ترك القوة الأضخم من العساكر (خمسة آلاف جندي) هنا، إلى جنبه، في «سهلات البرج».

التهب الصيف ووجهت البوارج إنذارها الأول: قصفت الكرنتينا. لكن، قبل أن تزمجر مدافع البارجة «ليفربول»، كيف التهب المناخ هكذا؟ ارتفعت الحرارة إلى أن بلغت أربعين درجة مئوية في الظلّ! كأنك في قلب الصحراء! كان الحرّ شديداً حتى أن أكواز الذرة الصفراء فرقعت في الحقول. رؤوس الشمام الماوردي تفجرت على التراب. كثر ظهور الأفاعي، وزحفت في كل مكان. في ميناء البصل فاحت رائحة العطن من العنابر. البعوض أزَّ على شبك النوافذ وطنّ في الناموسيات الدجاج ما عاد يلقط الحبّ عن الأرض ولا عاد يبيض. العصافير سقطت من السماء ميتةً. سكت نباح الكلاب في سوق الدباغة. قرون الفلفل الحار ـ وأوراق الغار ـ لم تحمِ خوابي الزيت والزيتون في أقبية كنيسة مار الياس ولم تحمِ خوابي النبيذ. فقست الحشرات فوق سطح كل خابية وفسُد الزيتَ وفسُد النبيذ. الصمغ العربي سال في القوارير. العسل البلدي ذاب في الجرار. والليل تحول فضاء جهنمياً من التنهدات وبكاء الأطفال وأنين العجائز وطرطقة النوافذ والأبواب. لا أحد ينام في بيروت هذا الصيف. والناس تظهر في الصباح بوجوهٍ متوترة وعيونٍ غائمة. حين زمجرت المدافع أخيراً في تمام الساعة الثامنة من صبيحة يوم الخميس 10 أيلول (سبتمبر) 1840 مطلقةً قنابلها على الكرنتينا شمال شرقي بيروت، ضحك عمر بن عبد الجواد أحمد البارودي، ولم

يفزع، وصعد إلى سطح الغرفة البيضاء العالية ليرى ما الذي يحدث. لم ينهره أحدٌ. عبد الجواد أحمد البارودي ـ وللمرة الأولى منذ غادر دمشق ـ كان قاعداً في ظلال الجميزة عندئذٍ، يتصبب عرقاً في الحرّ الفظيع، ولا يشعر بالبرد أبداً.

بعد عشرين عاماً، بينما أعمدة الدخان ترتفع فوق جبال الشوف وقطعان الفارّين من المذابح تتدفق إلى بيروت، تذكر عبد الرحيم بن عبد الجواد أحمد البارودي ذلك الصباح الحار البعيد، حين لحق بأخيه عمر إلى السطح فرأى البوارج تقصف المحجر الصحّي. في رمشة عينٍ تحول الصباح الراكد النعسان إلى صباح صاخبٍ مجنون. ارتفع الصراخ. خرجت الرؤوس من النوافذ ونفخت العساكر أبواقها. وحدها السماء العالية لم تتغير. في الأعالي استمر الحرّ يُفتّت الغيوم النادرة ويبعثرها، إلى أن تتلاشى وتتبّدد وتضمحل تماماً.

القنبلة الأولى التي أطلقتها البارجة «ليفربول» في ذلك الصباح الهادئ البعيد من نهايات صيف 1840، سقطت في المياه أمام المحجر الصحّي. لم تسبب ضرراً (ربما قتلت بعض الأسماك)، لكنها أعلنت قُرب انتهاء الحقبة المصرية في تاريخ بلادنا. القنبلة الثانية أصابت المبنى الشرقي من المحجر. الثالثة سقطت في قلب المخزن الكبير، فتحت ثغرة في السقف ثم انغرزت في الطين المحدول حيث كسر شاهين البارودي قبل أعوام أصبعاً. بعد ذلك انهالت القنابل على الكرنتينا كلّها مثل وابلٍ من البرَدَ المدمر.

كانت القنابل الكرويّة السوداء تُرى وهي طائرة في الجو، ترسم قوساً فوق صفحة الماء الزرقاء ثم ترتطم ـ مثيرةً الغبار والدخان ـ

بحيطان المحجر العالية. عبد الرحيم البارودي لم يرَ هذه القنابل. رأى الدخان يتصاعد من جانب البارجة ورأى البارجة تهتز، ثم رأى النار تندلع في الكرنتينا. لكنه لم يرَ القوس الذي ترسمه القنبلة الطائرة. لم يرَ هذا القوس أحدٌ إلاّ عمر. عمر البارودي كان يضحك ويقفز ويقول: هناك، هناك! ويلاحقها بأصبع تميل في قوسٍ، القنبلة الطائرة نحو الهدف. عبد الرحيم البارودي قال لأخيه الصغير إن القنبلة سريعة كخردق البارودة وأنه لا يمكن أن يراها. لكن عمر البارودي ظلَّ ينطّ صارخاً:

ـ هذه أخرى، هناك، هناك قنبلة ثانية! أنظرْ! أنظرْ!

نساء العائلة تراكضن إلى تحت الجميزة يسألن المعلم عبد الجواد ما هذا الذي يحدث، اللّه يستر، ما هذه الأصوات؟ كل زوجات الرجل جئن راكضات. من البيت الأخير أتت سعدية الحصّ البارودي حاملة ابنتيها تحت إبطيها كأنها تحمل بطيختين. من البيت الذي قبله أتت سهيلة النابلسي البارودي بعينين متورمتين وأنفاس لاهثة تسأل الجميع هل سمعن الأصوات. خلفها جاءت نرجس والمعزاة. من الغرفة البيضاء العالية أطلّت الجارية الشركسية بملامح غاضبة (ماذا أغضبها؟ القنابل أم صعود الأولاد إلى السطح؟). كل زوجات الرجل أتين إليه. وخديجة قرنفل البارودي ـ التي قيل لها إن زوجها شاهين إما نُفي إلى الخرطوم في إفريقيا وإما فرّ إلى الأناضول من جديد ـ ظهرت متوردة الخدين من الحرّ ومن الحياء: هذه الانفجارات تجلب الأذى للبلد لكنها قد تردّ الرجل إليها.

كل نساء العائلة خرجن من البيوت يرتبن المناديل على وجوههن. سهيلة النابلسي البارودي بدت أشدهن جزعاً. كانت خائفة على ابنتيها سوسن وياسمينة لأن الاثنتين ركبتا البحر عصر الأمس مع زوجيهما والمرسلين الأميركان راحلين إلى يافا.

من الجانب الآخر للطريق البيضاء جاءت عائشة هانم الفاخوري تميل إلى هذا الجانب وذاك حاملة بين يديها الاثنتين بطناً تتكور كالهضبة قدامها. من الجانب الآخر أيضاً جاءت امرأة الصياد الدرزي، تتبعها زوجة جرجي تامر وبناتها الثلاث. كل نساء الحيّ اجتمعن في ظلال الجميزة يسألن الرجل صاحب الذراع الواحدة، ما هذه الزمجرة، يا ستنا مريم، اللّه يستر، ما هذا الذي يحدث، كأن القيامة قامت!

عبد الجواد أحمد البارودي شقّ طريقه خارج حلقة النساء، والعرق يتصبب من وجهه وعنقه ويسيل على ظهره وتحت إبطيه. خرج من ظلال الجميزة ووقف في الشمس على كلس الطريق الحامية ورفع صوته ينادي على عبد الرحيم، يسأله ماذا يرى من فوق؟

عبد الرحيم اقترب من الحافة وقال لأبيه إن الإنكليز يحرقون المحجر بالقنابل، وأن العساكر المصرية تقصفهم ولا تصيبهم.

عبد الرحيم البارودي كان مخطئاً. رأى الدخان يتصاعد عن جانبي البارجة، والمياه ترتفع كالموج مع الانفجارات، فحسب أن مدافع المصريين بدأت عملها. كان مخطئاً. لم يطلق الجيش المصري قذيفة واحدة أو رصاصة واحدة على بوارج الإنكليز وبوارج النمسا. خطة سليمان باشا كانت استدراج العدو إلى اليابسة ثم محاصرته والقضاء عليه.

كل نساء الحيّ هرعن إلى تحت الجميزة الضخمة، راكضات والذعر يشوه ملامح وجوهن. كانت العيون ترمش حين تدوي المدافع. الأكتاف ترتجف، والشفاه تدمدم الصلوات والأدعية. وحدها الجارية الشركسية كلفدان ظلّت منتصبة على السطيحة وراء

أصص الحبق الذابلة في الحرّ الشديد. وقفت أمام الغرفة البيضاء العالية، تحت فروع السنديانة، وحضنت بطنها الكبيرة.

كانت تدخل شهرها الثامن أو التاسع. ولم يكن حملها عادياً. أنجبت عدداً لا يحصى من الأولاد لكن بطنها لم تثقل إلى هذا الحد من قبل أبداً. تستيقظ في نصف الليل من لبطات الصبي في رحمها. تعرف أنه صبي من لبطاته، من صخبه ومن ضحكه ومن بكائه ومن لعبه الذي لا يتوقف. هذا الطفل يركلها في كل نقاط بطنها في اللحظة ذاتها! يركلها بقدميه ويدغدغها بأصابع يديه ويبرم نفسه في أحشائها كأن الحرّ يؤرقه هو أيضاً. ذات صباح خرجت إلى السطيحة ورفعت رأسها إلى السماء فرأت الهلال الأبيض الواهن النور يلوح بين أغصان السنديانة مثل وجه طفل باسم. فكرت عندئذٍ أنها ستطلب من المعلم أن يسمي الولد «قمر». حين بدأ قمر يركلها ويدغدغها جلست على دكة الخشب وأسندت ظهرها إلى الحائط وفكرت أنها حامل بأخطبوط وليس بصبي. لم يخطر في بالها أبداً أنها قد تكون حاملاً بتوأمين. الجارية كلفدان ما كانت تعاني وحدها في أيام ذلك الصيف البعيد وفي الليالي. المرأة التي تحيا في البيت تحتها كانت تعاني أكثر منها.

سهيلة النابلسي البارودي لم تمل إلى هذه الجارية الشركسية الأربعينية التي جاء بها المعلم عبد الجواد وأنزلها في غرفة القزّ، الغرفة البيضاء العالية. غرفة الحرير والغيوم والتوت والشرانق الذهب صارت غرفة أنين وآهات وعربدة وتنهدات. أم زهرة كانت تسمعها في نصف الليل وتسمع الأصوات. آهات الشركسية عديمة الحياء تخترق تراب السقف وتنزل كالرصاص المذاب في تجويف أذنها. كانت أم زهرة تستقيم قاعدة في فراشها، وتحدق عبر الظلام إلى الزاوية حيث ترقد نرجس والمعزاة. تجدها نائمة فتشكر ربّها: ماذا

تفعل (أين تهرب بنظراتها؟) إذا وجدتها ذات ليلة مفتوحة العينين تسمع مثلها هذه الأصوات! الشركسية عديمة الحياء، ذات فجر، أيقظتها بصراخٍ مكتوم كأنه مواء القطط في شباط (فبراير).

سهيلة النابلسي البارودي عانت في ذلك الصيف الأمرّين. لا تحب أن تنام مع معزاة تحت سقفٍ واحد. رائحة المعزاة تقتلها. لكن نرجس تخرج وتنام مع المعزاة في العراء إذا منعتها أمها عن تبييت المعزاة في البيت. فقط في الربيع ترضى نرجس أن تنام معزاتها خارج البيت. أم زهرة لن تقبل بأي حالٍ من الأحوال أن ترقد المعزاة تحت سقفها في فصل الربيع، لأنها تخاف على دود القزّ. الآن، في الصيف، وموسم الحرير انتهى، ترقد المعزاة إلى جنب نرجس وتمتزج أنفاسهما في الظلام.

سهيلة النابلسي البارودي لا تعرف كيف تتعامل مع هذه البنت. ليست مثل أخواتها. لعلها جميلة مثل أخواتها لكن من يتأكد من هذا والمشط لم يدخل شعرها منذ سنوات! تترك شعرها ساقطاً على وجهها طوال الوقت، وتلبس الأثواب فوق الأثواب، وتترك الندبات تغطي ساقيها، والجلد الخشن ينبت كنعلين في باطن قدميها. لم ترَها مرةً تنتعل كندرة أو مداساً. حافية دائماً. تركض على الشوك حافية. تركض على الحصى الساخن حافية. تقفز في الجلول حافية ولا تهتم. تأكل توت العليق. تأكل ورقاً من شجر العنّاب. وتأكل بلوطاً. تقرض رؤوس الأعشاب وزهور البابونج وزهور الربيع والاقحوان. تكوم سيقان الحميميضة في حضنها وتأكلها. تنتزع جبّ فرفحين من التراب وتأكله. تأكل مثل معزاتها ذات اللحية القانية ولا تبالي ولا تهتم.

أم زهرة لا تعرف كيف تتعامل مع هذه البنت. ذات ليلة أيقظها كابوس قبيل الفجر فنهضت بجسمها الثقيل وجلست في الفراش

ناعسة العينين. كانت نصف دائخة وأرادت أن تشرب ماء. استدارت بجذعها الضخم باحثة عن إبريق الفخار فرأت عينين صفراوين متسعتين تحدقان إليها من الزاوية المظلمة. اضطربت أم زهرة وأوشكت أن تلتقط القبقاب الخشب الثقيل وترمي به الحيوان الذي انسل إلى بيتها في جوف الظلام. امتدت يدها إلى القبقاب وكادت أن تخبط الحيوان به لولا أن الثقبين الفوسفوريين ومضا عندئذٍ في رمشات متتالية، فظهر أنها البنت نرجس تتثاءب، وظهر أنها البنت نرجس استيقظت لحظة من النوم ثم مدت يدها وسحبت إبريق الفخار ودلقته على فمها ثم وضعته ورجعت إلى النوم. . . وراء المعزاة. ليست إلاَّ البنت نرجس! لم يكن ذاك حيواناً زحف إلى البيت أو دخل طائراً عبر الكوة أعلى الجدار! لم يكن ذاك حيواناً! لكن القشعريرة تمكنت من ظهر أم زهرة! كل شعر بدنها وقف كأسنان المشط. لو حدق إليها بومٌ بعينيه الواسعتين ما أفزعها كما أفزعتها البنت نرجس!

ابنتاها ياسمينة وسوسن جاءتا تزورانها ذات صباح. كان ذلك في مطلع الصيف، وأطباق القزّ ما زالت مغسولة ومنشورة في أشعة الشمس، تلمع كالمرايا جنب قنّ الدجاج. ياسمينة حملت طنجرة مجدرة ونرجس حملت طنجرة محشي كوسى وورق عنب. جلسن تحت شجرة التوت وجاءت البنت نرجس مع معزاتها وابتسمت ـ على غير عادة ـ للأختين الكبيرتين المتزوجتين. بل أنها سمحت لياسمينة أن تلقي يدها على الشعر المتشابك الكثيف كجبوب الشوك. لكنها ابتعدت إلى خارج ظلال التوتة ما أن لمحت سوسن تخرج من طيّات ثوبها الكحلي مشطاً عاجياً بحجم الكفّ.

ياسمينة وسوسن أخبرتا أمهما عن خطط زوجيهما. بطرس ونصر اللّه الصايغ باتا يتاجران بالبنّ الأميركي وقوالب السكر.

ياسمينة وسوسن تساعدان المسز سميث في «مدرسة البنات» حيث تعلمتا طفلتين. بطرس عنده خطّة للاتجار بالفحم الحجري. يقول إن كل البواخر تتوقف في الميناء للتزود بالفحم وأن آل بسترس وآل تيان وآل فياض يجنون الثروات من هذه التجارة. نصر اللّه ـ في المقابل ـ يخطط لتوطيد علاقة العائلة بالمرسلين الأميركان: هكذا يصير قنصلاً لهم (هو الآن ترجمان، وعالي سميث لا يذهب إلى مكان من دونه، وكذلك القنصل شاسود) فيستورد كل بضائعهم من دون أن يدفع قرشاً واحداً للجمارك.

بطرس عنده خطط. ونصر اللّه عنده خطط. أم زهرة ذهبت ذات صباح وزارت الدار الكبيرة في حيّ الإفرنج وجلست مع ابنتيها في ظلال تعريشة العنب الأبيض المقساسي الصغير الحبّة. كان الوقت أول الصيف أيضاً، وعناقيد الحصرم تلمع بين الورق الأخضر الطرّي. البنتان جلبتا الصواني الفضة والصحون الخزف والملاعق الذهب وطرحتا كل ذلك على المقعد الملبّس بالمخمل لترى الأم بماذا تأكلان. في ذلك الصباح البعيد شربت أم زهرة شراباً أميركانياً ساخناً، يشبه الزهورات قليلاً، ويسمّى «الشاي». لم تحبّه. وجدته مرّاً. طلبت عسلاً لتحليته، فجلبوا لها سكراً أبيض بلون اللبن. لم تحبّ هذا السكر أيضاً. وجدته مرّاً!

حين زمجرت المدافع واهتزّ الصباح الوديع فزعت أم زهرة وهرعت إلى خارج البيت. أمس أبحرت ابنتاها إلى يافا. ياسمينة وسوسن في البحر الآن (قالوا لها إن الرحلة تدوم خمسة أيام) وهذه البوارج التي تقصف البلد تبحر في البحر ذاته! ماذا لو قصفوا السفن أيضاً! عبد الجواد أحمد البارودي ضحك منها وأخبرها أن السفينة تكون بلغت شاطئ صيدا وصور الآن، ثم أن البوارج لا تقصف البلد، وإنما تقصف المحجر الصحي ليس أكثر.

عبد الرحيم البارودي نادى عندئذٍ من فوق رؤوس الأشجار أن قنبلة أصابت للتو صارية العلم الأسود وأن الصارية سقطت والراية سقطت أيضاً. كان ذلك علم المستشفى العسكري الخافق فوق الكرنتينا منذ خمسة أعوام.

هزّت زمجرة المدافع البلد. بعد البارجة «ليفربول» أطلقت البارجة «وستفاليا» قنابلها. ثم تحركت البارجة «فيينا» مبحرةً باتجاه البرّ تجرّ خلفها سفينة تركية. عمر البارودي علا صراخه مبتهجاً على السطح. عبد الرحيم نهره. عبد الجواد أحمد البارودي مسح العرق عن وجهه وانتبه أن جاريته كلفدان تراجعت وقفلت عائدة إلى داخل الغرفة البيضاء.

هزّت القنابل البلد. حبّات التراب تساقطت من السقوف. جسور الصنوبر المسودة ارتجفت. المحادل الحجر ارتجفت. الحيطان ارتجفت وسقطت عنها قشور. درفات النوافذ طرطقت، وارتعش شبك الحديد. اهتزت الأواني الزجاج على الطاولات في البيوت الجديدة واهتزت المصابيح واهتزت ثريات الشموع. كل بيروت ارتجفت في ذلك الصباح البعيد. المدينة ارتجفت والـ 15 ألف نسمة الذين يحيون بين أسوارها ارتجفوا. الماشية ارتجفت في الزرائب. الأرواح ارتجفت في المقابر. والشجر ارتجف. ارتجفت بيروت كما لم ترتجف في عواصف شتاء سنة 1809، وارتجفت كما لم ترتجف قبل سبعين عاماً حين أنزل الأسطول الروسي عشرة مدافع في «سهلات البرج» وقصف السور وفتح في السور ثغرة بين بابي الدباغة والسراي. في ذلك الزمن البعيد، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أثناء الحرب العثمانية ـ الروسية، قُصف سور بيروت بالمدافع للمرة الأولى. الآن في صيف 1840، تُقصف الكرنتينا. فهل تتحرك البوارج في هذا الاتجاه وتقصف البلد أيضاً؟

هزّت الانفجارات البلد. العجائز الذين يذكرون سنة المدافع الروسية رفعوا رؤوسهم إلى السماء وراقبوا الغيوم القليلة المتباعدة. الغيوم تشبه ذكريات بعيدة. اهتزت الحيطان واهتزت الأسوار واهتزت الأرض. ارتعشت مياه الآبار. وحدها السماء بقيت ثابتة. كل شيء يتبدل والسماء تظلّ على حالها. البرّ يتغير والبحر يتغير. والسماء هي هي. منذ قرون بعيدة والسماء هي هي. ننظر إليها اليوم كما نظر إليها الأسلاف كما نظر إليها جدّنا آدم.

عبد الجواد أحمد البارودي رأى باب الغرفة البيضاء العالية يُرد ثم اختفت الجارية عن بصره. لم يكن في مقدوره بعدئذٍ رؤيتها. الشركسية كلفدان أوصدت على نفسها باب الغرفة وجلست تنتحب بين الحيطان الراجفة. هذا الثقل في بطنها يتعبها. في الليل تسيل قطرة عرق على جبينها ثم تقع في عينها وتوقظها. هذا الثقل يتعبها... ثم جاءت هذه البوارج. مع كل انفجار كانت نوبة البكاء الصامت تقوى. اهتز كل بدنها مثل شجرة في العاصفة. صار صوت البكاء يهدر في ثقبي أذنيها، يهدر في أعماق رأسها، ولا أحد يسمعه وراء الحيطان والباب، ولا أحد يسمعه على السطح.

عمر البارودي نادى من فوق قمم الأشجار أن أسراباً كثيفة من الطيور تغادر الغابات في برج حمود والأشرفية والصيفي والرميلة وتطير نحو الجبال. صراخه امتزج بصراخ جاء من جهة سوق الفشخة. ثم علا صوت آخر من جهة باب الدباغة. عبد الرحيم البارودي رأى عندئذٍ أن سطوح البيوت كلّها باتت أبراج مراقبة.

الأهالي صعدوا إلى السطوح، بعضهم ينادي على بعض، والكلّ ينظر إلى النيران ترتفع من مخزن الكرنتينا. إمام جامع السراي تسلق المئذنة. منظره واقفاً في الأعالي أثار ضحكات البلد. الرجل كان ضريراً.

في تمام الساعة الحادية عشرة، بعد ساعتين كاملتين من القصف المركز على المحجر الصحي، سكتت كل مدافع البوارج دفعةً واحدة. الصمت الذي حلّ على العالم عندئذٍ كان كاملاً. الأهالي سكتوا على السطوح. الأطفال كفّوا بغتة عن البكاء. حتى كلفدان صمتت، رغم ركلات الأخطبوط الهائج في رحمها. حلّ السكون على البرّ وعلى البحر وعلى السماء. الثيران التي خارت طوال ساعتين سكنت أخيراً. والقطط قطعت مواء حزيناً مسترسلاً كعصف الريح في غابات الليل. هدأ العالم كأن جميع مخلوقاته زالت من الوجود في اللحظة نفسها. الناس سمعوا نبضة الدم في أجسامهم، وغير ذلك لم يسمعوا إلاّ الصمت الكبير الذي لم يسمعوا مثله من قبل. دام الصمت دقيقة، أو ربما دام دقيقتين، ثم صاح صوتٌ:

ـ هناك! هناك!

كانت سبع بوارج تنفصل عن الأسطول المكون من أربعين سفينة، تنفصل عن الأسطول وتبتعد إلى عرض البحر. بدا أنها عائدة إلى أوروبا.

وهتف صوت من الجانب الآخر لسوق القطن:

ـ إنهم يهربون! إنهم يهربون!

لكن عبد الرحيم البارودي رأى أن البوارج لم تكن عائدة إلى أوروبا. ابتعدت البوارج السبع عن الأسطول ثم انحرفت واتجهت نحو رأس بيروت. وانفصلت خمس بوارج أخرى عن جسم الأسطول وأبحرت في الاتجاه المعاكس، بعيداً نحو جونيه.

الأهالي المتحلقون على السطوح داخل باب إدريس أبصروا البوارج السبع تُبحر لامعة تحت نور الشمس العمودي ثم تتوقف قبالة رأس بيروت. في الوقت ذاته بانت طوابير العساكر المصرية

عائدة من البساتين هناك، باتجاه البلد. كانت العساكر آتية في قافلةٍ طويلة على الدرب التراب الضيقة المتعرجة بين جلول التوت وكروم العنب والتين، حين زمجرت المدافع من جديد.

محمد الفاخوري الذي جاء إلى باب إدريس قافزاً فوق السطوح من باب يعقوب، وقف يتأمل المنظر مع الحاج محمد قرنفل. منذ فترة يخرج محمد الفاخوري من بيته باكراً. تكون النجوم ما زالت ظاهرة في السماء الشاحبة النور. يمشي تحت النجوم التي تفقد بريقها إلى أن يبلغ «دار البرتقال». لا يرى إلاّ «فرن داوود» مفتوحاً في أعلى البازركان. والنساء متحومات بوجوه ناعسة في مدخله. وعلى الرؤوس صواني العجين. في «دار البرتقال» يتناول فطوره مع أبيه وأمه وأخوته قبل النزول إلى السوق. يأكل لبنة خضراء تقطعها أمه في كيسٍ تعلقه من أغصان الشجرة الكبيرة جنب البئر، ويشرب كوباً من النعناع المغلي. هذا كل طعامه. أخوته يقبلون بشهية مفتوحة على البيض المسلوق، وعلى البيض المقلي في زيت الزيتون أو السمن الحموي أو القورمة. يأكلون كل صباح بيضاً أو كشكاً أو فولاً مدمساً. ويتحلون بالمربيات أو الدبس أو الحلاوة الطحينية أو راحة الحلقوم أو الكنافة بالجبن. هو لا يستطيع. في الصباح يأكل لبنة مع بضع حبات من الزيتون الأخضر، وفي المساء يكرر ذلك. ظهراً أيضاً لا يأكل كثيراً. معدته تنتفخ بسرعة ولا يشعر بحاجة إلى طعام. لا رغبة فيه. منذ انقضّت زوجته على الطعام بعد حملها، تلاشت رغبته في الأكل. لكنه على السطح عند باب إدريس، بينما ينظر إلى القنابل تتساقط على جلول رأس بيروت وتبعثر طوابير العساكر بين رباعات الصبير والمقسيس أحسّ محمد الفاخوري برغبة عارمة في الطعام. أحسّ بجوعٍ فظيعٍ.

هذه الجولة الثانية من القصف دامت وقتاً أقل. قبل أن تتوسط

الشمس كبد السماء حلّ السكون على البرّ والبحر من جديد. ثم تعالت صرخات متقطعة من جهة رأس بيروت. عند الأصيل ابتعدت ثلاث بوارج أخرى مبحرةً باتجاه جونيه. سليمان باشا أيقن عندئذٍ أنه قد خُدِع: اجتمعت البوارج قبالة ميناء بيروت فجمع كل مدافعه هنا، وجمع نخبة عساكره هنا. لكن الملاعين لن يُنزلوا قواتهم على هذا الشط. كانت خدعة. سيُنزلون الجنود في جونيه. ولن يستطيع أن يسبقهم بالمدافع إلى هناك. البحر أسرع منه. والبحر ممنوع على سفن مصر. كل أسطول محمد علي يرسو الآن في دمياط والإسكندرية. اللورد بالمرستون هدّد بإحراقه كاملاً إذا ظهرت سفينة واحدة في عرض البحر الأبيض المتوسط.

قبيل المساء اقترب مركبٌ صغير من الميناء. المركب الذي أُنزل عن ظهر البارجة «ليفربول» حمل راية بيضاء. كان يحمل إلى قائد الجيش المصري رسالة أيضاً. حول شراعه المثلث تطايرات النوارس. غمر اللون البرتقالي شراعه وغمر النوارس وغمر البحر. لم يكن يسمع في البلد صوت. من السراي ارتفع أنين الجرحى. الأنين امتزج بصراخ النوارس. عند حلول المساء ارتفع نقيق الضفادع وغناء حشرات الليل. كل البلد خيم عليه السكون. في البحر تلامعت الأنوار على ظهور البوارج الباقية. في الأعالي برق عددٌ لا يحصى من النجوم. بدت السماء على وشك السقوط تحت ثقل النجوم الكثيرة كرمل البحر.

عبد الجواد أحمد البارودي لم ينم تلك الليلة. ممدداً على فراشٍ في العراء نظر إلى النجوم وحاول أن يعدّها. داخ وأحسّ نفسه يتضاءل ويتحول إلى نملة تسعى على التراب بين النمل. اخترق مذنبٌ متوهجٌ قوس السماء ثم سقط بعيداً وراء البحر. عبد الجواد أحمد البارودي أحسّ بالنعاس وهو ينظر إلى النجوم المشعة. لكنه

لم ينم. قبل أن يشقشق ضوء الفجر من وراء صنين أحسّ بحركة في الدغل وراء البيت. رفع رأسه وأصاخ السمع. ورق الجوز خشخش فوقه. أزعجته الحركة في الدغل لأن الثعابين يكثر ظهورها في هذه الجهة منذ أيام. الكلس لم يعد يبعدها. الحرّ يغير طباعها. أصاخ السمع لكن الصوت تلاشى. وحده النسيم يرسل موسيقى الحفيف في شجرة الجوز. بين الأوارق ظهرت النجوم. تذكر عبد الجواد أحمد البارودي عندئذٍ المرحومة هيلانة. تذكر تلك الليلة البعيدة حين خرج إلى هنا وأهرق جرة العرق الزحلاوي الثمين على الأرض وأقسم ألاّ يذوق خمراً بعد ذلك أبداً. لم يحنث بالقسم. جلس عبد الجواد أحمد البارودي متربعاً على فراشه وأعد لفافة تبغٍ. ضوء النجوم لمع على العشب وعلى الحصى الأبيض المفلطَح وعلى «الطريق البيضاء». قبل أن يشعل لفافته بان شبحٌ قادمٌ من الزاروب، من سوق الفشخة.

عبد الجواد أحمد البارودي انقبض قلبه. من هذا الآتي إليه قبل طلوع الفجر؟ كان يفكر في ابنه شاهين عندئذٍ. هذا ليس ابنه، هذا الشبح الذي يقترب ليس ضخماً مثل ابنه، وليس في عزّ الشباب. هل يكون آتياً إلى بيت ابن النجّار؟ لعله صياد مثله. هؤلاء يستيقظون قبل الديوك للخروج إلى البحر. لكن من يخرج إلى البحر وهذه البوارج تنتشر كالحيتان مقابل الشط؟ ثم أن الشبح جاوز البيت الأول ثم البيت الثاني، جاوز التوتة ويتابع الاقتراب. عبد الجواد أحمد البارودي خاف على شاهين. اعتقد للحظة أنه فقد ابنه. حين رأى وجه الرجل الآتي إليه في ضوء النجوم انبسطت أساريره. لا علاقة للأمر بشاهين. هذا الصديق القديم لا يحمل خبراً مشؤوماً.

جلسا على الفراش. بيده الضخمة أعدّ عبد الجواد أحمد البارودي لفافة تبغٍ لصديقه العائد من الموت. موسى يعقوب

مزراحي راقب صديقه يفرد الورقة البيضاء على فخذه ثم يصفّ فيها التبغ ثم يلفّها. وراء أسوار البلد ارتفع عواء الذئاب. في هذه الليلة، بعد النهار المضطرب الصاخب، لم يبدُ العواء قوياً أو حاداً كالعادة. بدا الصوت لطيفاً. بدا شبيهاً بحفيف أغصان الجوزة على حائط البيت.

قال عبد الجواد أحمد البارودي هو يشعل اللفافتين:

ـ أفزعوا النسوان اليوم.

العجوز مزراحي هزّ رأسه، أخذ اللفافة من اليد الكبيرة، ثم شمّ رائحة التبغ. لم يضع اللفافة بين شفتيه المسودتين من مرور السنين. أخذ نفساً عميقاً محدقاً إلى جمرتها ثم أغمض عينيه. كان يتنشق الرائحة. ثم فتح عينيه. قال وهو يجذب نفساً من السيجارة:

ـ غداً ستقع قنابل على المقابر.

عبد الجواد أحمد البارودي سأله لماذا يقول هذا. العجوز مزراحي ظلّ صامتاً. صاحب الذراع الواحدة نفخ الدخان من أنفه وقال:

ـ إنهم يتفاوضون. لعل القصف انتهى.

العجوز مزراحي نفض رماد السيجارة على العشب وقال:

ـ لا. غداً يقصفون أيضاً. ثم يترك المصريون البلد. هذا ما سيحدث.

عبد الجواد أحمد البارودي سأله كيف يعلم ذلك.

ابتسم العجوز مزراحي وقال إنهم هناك، في الجانب الآخر من العالم، يستطيعون السير عبر الأيام إلى الأمام وإلى الوراء، فهو يتذكر الآن مثلاً الأماكن التي سيقصدها بعد شتاء أو شتاءين.

عبد الجواد لم يفهم كلمات صديقه العجوز. ابتسم ابتسامة حزينة ونظر إلى البيوت المرتبة في الظلام عند حافة «الطريق البيضاء».

أخذ العجوز مزراحي نفساً أخيراً من السيجارة وسعل بشدة. أطفأها غارزاً الجمرة في التراب وشكر صديقه. عبد الجواد أخبره عندئذٍ إنه يشعر في الليل بالوحدة. العجوز مزراحي بدّل الحديث:

ـ هذا التبغ لاذقاني، صحيح؟

عبد الجواد هزّ رأسه:

ـ يحملونه إلى هنا لنقله بالبحر إلى مصر. يخزنونه هناك لأن هواء النيل يلائمه. ثم يصدرونه إلى أوروبا.

نهض العجوز مزراحي، صافح صديقه ثم مشى مبتعداً على «الطريق البيضاء». كان شعاع الشمس يتسرب إلى الفضاء. ورأى عبد الجواد أحمد البارودي سرباً من طيور الوروار يحلق وراء مئذنة السراي.

كان نور صباح 11 أيلول (سبتمبر) 1840 يطلع على بيروت. لم ينم عبد الجواد أحمد البارودي تلك الليلة. لم يكن وحده الساهر تحت السماء الزاخرة بالنجوم. على سطح السراي وقف قائد العساكر المصرية سليمان باشا ينظر إلى السهلات في الأسفل، إلى المدينة النائمة داخل الأسوار، وإلى البحر بالبوارج التي تعجّ فيه: عليه أن يكتب ردّاً على الرسالة الأوروبية قبل طلوع الشمس. الرسالة الأوروبية التي وصلت بالمركب عند الأصيل كانت رقّاً أصفر ملفوفاً بخيط حرير. كُتبت بالإنكليزية وهذه ترجمتها إلى العربية:

«إلى حاكم بيروت سليمان باشا

يا صاحب السعادة.

نحن قائدا الأسطول الإنكليزي ـ النمساوي، عملاً بتعاليم جلالة السلطان، نرى واجباً علينا أن نبلغ سعادتكم عزمنا الوطيد على وقف هرق الدماء، داعين سعادتكم سحب جنودكم من بيروت وتسليم المدينة لقواتنا المشتركة لتحرسها وتردّها إلى جلالة السلطان. ان النار التي أضرمتها بوارجنا في الكرنتينا ليست سوى تجربة لما قد نضطر إلى إجرائه.

لم نتابع إطلاق النار هذا الصباح لكي تستفيد سعادتكم، وبعد التفكير الضروري تقررون وفقاً لنيّاتنا الطيبة تجنيب السكان الأبرياء نتيجة لا بدًّ منها للأعمال التي سنرغم على استعمالها. نرجو سعادتكم إرسال الجواب قبل شروق الشمس وعلى جوابكم يعتمد قرارنا.

خادماكم الكلّيا التواضع والكلّيا الطاعة

روبرت ستوبفورد	ليو بانديرا
أدميرال رئيس	أدميرال»

قبل أن يطلع الفجر من وراء جبال صنين نزل سليمان باشا إلى جوف السراي، ودبّج رسالة من سبع صفحات، في نور الشموع. لم يكن بحاجة إلى سبع صفحات. كانت تكفيه عبارة واحدة.

خرج مركبٌ من الميناء بعد الشروق بساعةٍ كاملة. حمل إلى البارجة «ليفربول» ردّ القائد المصري: لن يُسلِّم المدينة.

كانت أسراب وروارٍ تظهر في سماء البلد عندئذٍ (عيد الصليب يقترب، وهذه الطيور تزحم الفضاء في الوقت ذاته من كل عام).

كان الحرّ يبدو أقل وطأة من البارحة. وفكر عبد الجواد أحمد الباردي أنهم لن يقصفوا مجدداً. لكن عند الثامنة تماماً زمجرت المدافع.

الجنود المصريون كانوا يرابطون في ثلاثة مواقع: الثكنات الجديدة على الهضبة إلى الغرب من الأسوار (حيث «السراي الحكومي» اليوم)؛ حول السراي في «سهلات البرج»؛ وفي جوار الكرنتينا. البوارج الأوروبية أطلقت قنابلها هذه المرة على المواقع الثلاثة معاً. لكنها ركّزت القصف الشديد على موقعين فقط: منطقة الكرنتينا و «سهلات البرج». تجنبت قصف الثكنات الجديدة غرب أسوار بيروت بالعنف ذاته لئلا تلحق الضرر بأبنية المبشرين البروتستانت عند «طلعة الأميركان». (ظهر لاحقاً أن القنصل شاسود زوّد الإنكليز بخرائطٍ مفصلة للبلد. لكن مدفعجية البارجة «فيينا» لم يلبثوا عند التاسعة والنصف تقريباً أن أصابوا مباني الأميركان المقابلة للثكنات. لم يكن ذلك خطأً في التصويب. بل كان خطأً ـ وسوء فهم ـ في قراءة العلامات على الخريطة. مهندس المدفعية حَسِب أن عليّه التصويب إلى العلامات الخضر أيضاً وليس إلى العلامات الحمراء وحدها).

استمر القصف نحو خمس ساعات. سليمان باشا لم يرد بقصف البوارج لأن مدافعه كانت قصيرة المدى. ثم أنه كان عارفاً حيل هذه البوارج. هذا كله تمويه. يقصفون هنا بينما الإنزال يحدث في جونيه. حرّك سليمان باشا قواته بعيداً عن بيروت باتجاه جونيه. كان يسابق الوقت. لكن المدافع قطعت عليه الطريق. أصيب الطابور السادس عشر بخسائرٍ فظيعة بينما يقطع منطقة الصيفي. احترقت أحراج السرو وتطاير الشرر في الفضاء. (لن ينبت السرو في هذه المنطقة بعد ذلك الصيف. كل هذه الأراضي رملية التربة قليلة

الخصب. لا ينبت هنا إلاّ التوت والمقسيس والصبير. السرو الباقي من أيام فخر الدين الثاني احترق بقنابل البوارج الإنكليزية النمساوية. بعد فترة صار حطباً. لن يزرع في محله إلاّ التوت).

سليمان باشا رأى الجيش يتشرذم ولم يعرف ماذا يفعل. لماذا يرسلهم صوب جونية أصلاً؟ لن يصلوا قبل البوارج. كان واقفاً عند النافذة المطلّة على البحر، وخلفه بعض ضباطه. في غرفة مجاورة اجتمع بعض أعيان بيروت. عمر بيهُم كان هنا. عبد الفتاح آغا حمادة أيضاً. وكذلك الشيخ مصطفى الفاخوري. الأعيان أرادوا مقابلة سليمان باشا. قائد العساكر المصرية كان يعرف ماذا يطلبون. رفض مقابلتهم.

عند العاشرة تساقطت القنابل على السور بين بابي الدباغة والسراي فقتلت خمسة جنود. عند العاشرة والربع اندلع حريق في عنابر المرفأ. بعد دقائق سقطت القذائف على جانب السراي وعلى مقبرة الخارجة. عند الظهيرة بدأت القنابل تقع داخل الأسوار. سقطت ثلاث قنابل في سوق الفشخة. سقطت قنبلة في حارة اليهود وحطمت تعريشة عنب حيفاوي. سقطت قنبلة على كنيسة مار الياس المجاورة. سقطت قنبلة فوق قبب دهليز الحدادين وتطايرت الحجارة حتى «ساحة العصافير» القديمة. سقطت قنبلة أخرى أمام دكان الخضر ذاته: دكان البارودي صاحب الذراع الواحدة. تطايرت الأتربة على المصطبة الحجر وسقطت درف النوافذ في الطبقة الثانية. ظهرت فئران من الأرض ثم اختفت في الثقوب قرب البئر عند مدخل سوق الأساكفة. وقعت قذيفة ثالثة أيضاً في البقعة ذاتها: وقعت عند فم دهليز الحدادين (حيث «مطعم البلد» اليوم) وقذفت حجارة عبر الدهليز الطويل إلى الجانب الآخر. الحجارة تساقطت أمام محل الخياط حمادة وتحت جدار جامع السراي وفي بركة

الماء. كانت حجارة حمراء اللون بلّط بها المصريون مدخل سوق الأساكفة. سقطت قنابل على باب إدريس. سقطت قنبلة في قلب البئر في «دار البرتقال». سقطت قنابل في «طلعة الدركاه». وسقطت قنبلة على «مقهى النوفرة».

سقطت قنابل في باحة كنيسة الموسكوب وأحرقت شجرة دفلى. لم تسقط قنبلة واحدة على حيّ الإفرنج بين باب إدريس وباب السنطية، حتى توسطت الشمس كبد السماء وسقطت ظلال الأشجار عمودية على الأرض. في تلك الحظة وقعت ثلاث قنابل على شرفة بيت القنصل الفرنساوي هنري غيز فهدمتها. القنصل كان خارج بيروت عندئذٍ. كان نهار 11 أيلول (سبتمبر) 1840 ينتصف، وهوت القنابل في سوق القطن. اهتزت الأبواب الخشب المقفلة وتصاعدت الأغبرة ثم زمجرت المدافع مرة أخيرة: انغرزت القنابل في الأسوار الشرقية وفي الزوايا البحرية للسور ثم سكت القصف. كل البوارج توقفت عن إطلاق النار في لحظة واحدة. عند تمام الساعة الواحدة ظهراً انتهى قصف بيروت.

هذا القصف الذي دام خمس ساعات لم يهدم أسوار بيروت وبواباتها كما سيذكر بعض المؤرخين من أبناء القرن العشرين. القنابل آنذاك لم تكن تملك القوة التدميرية الكافية لإنجاز هكذا مهمة. ثم أن القصف دام خمس ساعات فقط. في هذه المدة الوجيزة حزم سليمان باشا أمره واستسلم لرأي المشايخ والوجهاء، فرفع الرايات البيضاء على مئذنة جامع السراي، وعلى سطح السراي، وفوق الثكنات الجديدة غرب الأسوار. خفقت الرايات بين أعمدة الدخان المتصاعدة. في ذلك الأصيل ذاته بدأت العساكر المصرية تنسحب من بيروت متجهةً نحو التلال والجبال.

القنابل لم تتساقط في الدروب والباحات فقط. سقطت قنبلة في

بيت سليم دبّاس، الأخ الأكبر للشماس الياس دبّاس، فقتلت ابنه. سقطت قنبلة على بيتٍ طينٍ وراء «حمام الدركاه» فقتلت عجوزاً تعيش هناك مع دجاجاتها. القنبلة التي وقعت في «مقهى النوفرة» جرحت صاحبه الإسكندراني وتركته مشوه الوجه ما بقي من حياته. (هذا مصريٌ لن يترك بيروت. بقي هناك مع أخيه وصار بيروتياً. أحفاد أحفاده يحيون في بيروت إلى يومنا هذا؛ أحدهم يملك متجراً للسمانة وراء «حديقة الصنائع»، قرب «حلويات زينة»). النار التي اشتعلت في بساتين ربيز في رأس بيروت حاصرت كوخاً خشبياً وأحرقته. احترق، في قلب الكوخ، فلاح يدعى جرجي ربيز، ومات بعد سبعة أيام، ممدداً على فراشٍ داخل الأسوار بين أولاده.

لم يكن الوحيد الذي مات متأثراً بجراحه. الإيطالي ماريو فابري الذي دخل بيروت مع الجنود الإنكليز بعد خمسة أيام على خروج المصريين منها، يذكر 25 رجلاً وطفلاً وشيخاً وامرأة قضوا نحبهم في المستشفى الذي أنشأه الإنجيليون على عجلٍ خارج باب يعقوب. فابري لا يقدم رقماً محدداً شاملاً لضحايا قصف بيروت. ولا لعدد القنابل التي سقطت على البلد في يومي 10 و11 أيلول. لكنه يخبرنا أن الناس ظلّوا مذعورين، وعيونهم زائغة، طيلة أيامٍ بعد انتهاء القصف، خصوصاً النساء، وخصوصاً الأمهات بينهن.

كرنيليوس فانديك لم يكن في بيروت بينما تُقصف. بل في القدس. وسوف يرجع إلى بيروت مع المرسلين الأميركان يصحبهم بطرس الصايغ. (نصر الله الصايغ قرّر أن يبقى - مع الزوجتين الأختين ومع الأولاد - في «الأراضي المقدسة»، حتى أواخر الخريف).

فابري يصف زرائب السراي المحترقة واللون الأسود الذي غطى عنابر المرفأ وغطى الأرصفة. فانديك، في المقابل، يصف

القرى المهجورة التي أحرقها الجيش المصري في خط انسحابه جنوباً، ويذكر أن مباني المرسلين في بيروت لم تصب بضررٍ كبير، ولكنهم «وجدوا في حديقة المدرسة نحو 40 قنبلة ظلّت زماناً طويلاً مصفوفة هناك يراها الناس». (بعض هذه القنابل ما زال محفوظاً إلى هذا اليوم في الجامعة الأميركية في بيروت).

المدرسة التي يذكرها فاندايك، «مدرسة المسز سميث»، تحولت بعد زمنٍ إلى كنيسة. هذه الكنيسة يستطيع القارئ أن يزورها اليوم (مقابل «السراي الحكومي» تماماً) وأن يقرأ الكلمات المنقوشة على البلاطة الحجر في باحتها، بالإنكليزية في الجهة المقابلة للطريق، وبالعربية في الجانب المخفي بدرج الكنيسة:

عمود تذكار نُصِبَ هذا العمود سنة 1894 في الموضع الذي بنت فيه السيدة طود الإنكليزية الإسكندرانية المدرسة الأولى للبنات في سورية سنة 1835 للسيدة سارة سميث الأميركانية المعلمة الأولى في هذه المدرسة والمؤسسة مدرسة الأحد الأولى في المملكة العثمانية فأُقيم تذكاراً لكلّ ذلك

غادر الجيش المصري بيروت فبدت فجأة فارغة. (12 ألف جندي ليس رقماً صغيراً. سكان بيروت كانوا لا يتجاوزون 16 ألف نسمة عندئذٍ). عبد الجواد أحمد البارودي مشى مع ابنه عبد الرحيم في الأسواق ورأى الدمار والدخان والأبواب المخلعة. أحسّ المدينة مهجورة. طوال ثلاثة أيام تحولت بيروت بلدة منكوبة. لم تدخل

المراكب الأوروبية المرفأ إلاّ في صباح اليوم الرابع. لكن في تلك الأيام الثلاثة الفاصلة بين خروج المصريين ودخول الإنكليز عاشت بيروت معزولة عن البحر وعن الجبل القريب معاً. طوال ثلاثة أيام مشى الأهالي في الأسواق والجلول والأحياء يتفقدون الأضرار، يدفنون موتاهم، ويعالجون الجرحى. طوال ثلاثة أيام كنس العبيد والأولاد والرجال أسواق البازركان والقطن والفشخة والدركاه والحدادين والبوابجية والعطارين والنجارين والمنجدين. أصلحوا القبور التي بعثر القصف شواهدها. لم يجربوا ترميم السور الذي تهدم جزء منه بين بابي السراي ويعقوب. تركوه كما هو. بل أن البعض أخذ الحجارة المتساقطة ليصلح حائط بيته. لم يمنعه أحد. لا أحد يمنع أحداً في مدينةٍ بلا جنود وبلا شرطة.

في هذه الأثناء أخذت الأخبار ترد البلد تباعاً. المصريون اجتمعت عساكرهم عند تلال الحدث جنوبي بيروت. الإنكليز أنزلوا جيشاً نصفه أتراك في جونيه شمال بيروت. الثوار الذين شتَت الأمير بشير صفوفهم قبل شهور ظهروا في الجبال من جديد. هذه المرة لن يشنوا غارات على الطواحين على نهر بيروت ليخربوها بغية تجويع الجيش المصري. انتهت تلك الأيام. الثوار يلتحقون فرادى وجماعات بالجيش العثماني الأوروبي المرابط في سهل جونيه، استعداداً للمعركة الكبرى الحاسمة ضد إبراهيم باشا.

بعد أيام من دخول الإنكليز والعثمانيين إلى بيروت تشكلت فرقة عسكرية من أبناء البلد. الفرقة لم تلبث أن التحقت بالجيش المرابط في جونيه. محمد الفاخوري كان واحداً من 37 رجلاً غادروا بيروت من باب السراي المتصدع في صباح 29 أيلول (سبتمبر) 1840.

كانت السماء تمتد زرقاء حتى الأفق. والبحر ساكن كصحن زجاج. الغيوم البيضاء السابحة في الأعالي ألقت بقعاً من الظلّ على

«السهلات». كانت أمطرت قبل يوم. ورائحة البلل تفوح من الشجر وتفوح من التراب وتفوح من الهواءِ. قبل أن تغيب شمس ذلك النهار اجتمع محمد الفاخوري بابن عمته صفية: شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي.

اجتمعوا بعد طول فراقٍ في معسكر مضروبٍ وسط كروم عنب على هضبة تشرف على أكواخ الصيادين في قرية جونيه، وتشرف على البوارج الراسية في البحر. في نور الغروب البرتقالي شربا القهوة المرّة، دخّنا لفائف التبغ، وتبادلا الأخبار. كانت نسائم الخريف تخشخش في الكروم، والفراشات الملونة تطير بين الخيم وبين القدور المعلقة فوق النيران. ضجة المعسكر وصهيل الأحصنة والصرخات المتباعدة، كل هذا رسم ابتسامة على وجه محمد الفاخوري. نسي زوجته ونسي بيروت. بعد ساعات، بينما يرقد على الأرض القاسية، والبرغش يطنّ في أذنيه، انقلب مزاجه: أحس بالحنين إلى فراشه الأليف. أحسّ بالحنين إلى رائحة عائشة هانم: الحنّة في شعرها، وماء الورد على العنق والكتفين (منذ انتفخ بطنها صارت رائحتها حليباً).

قرقعة الطناجر ثم طرطقة السلاح أيقظته عند الفجر. سمع رجلاً يرفع الأذان عند طرف المعسكر ورأى شاهين آتياً إليه. محمد الفاخوري قال لابن عمته إنه راجع بعد لحظة ثم ذهب إلى حرج البطم عند حافة المعسكر وبوّل واقفاً بين الأشجار. قطرات الندى تساقطت على رأسه وكتفيه. التبول طويلاً أزال الألم من عضوه وجعل البرد أخف. نفض الندى عن شعره فسمع النحل يئز في قفير قاتم يتدلى بين الأغصان. كانت السماء رمادية كثيفة الغيوم. وشمّ رائحة مطر يقترب.

حين انضم إلى ابن عمته في قلب المعسكر وجده محاطاً برفاقٍ

سبعة يتشابهون كأنهم أخوة. شاهين تكلم عندئذٍ:

ـ ابن خالي محمد الفاخوري.

محمد اقترب يصافح الرجال السبعة بينما ابن عمته يتابع التعريف:

ـ أولاد الشيخ إبراهيم جابر: يوسف، خير الله، حسن، عمر، بشير، أحمد، وخاطر.

من وراء الخيم جاء معز الدين الطويل، ثم ظهر سليمان منذر مقبلاً مع طنجرة يرتفع منها البخار. كان الزيت يطفو على الفول المسلوق، وقال سليمان منذر باسماً إن المصريين نفعوا البلد على الأقل بهذا الفول الطيب. فاحت الرائحة الساخنة ووزع معز الدين الطويل أرغفة الخبز. يوسف جابر، كبير الأخوة السبعة، أخرج بصلاً أبيض من ثوبه. بانت الشمس مطفأة القرص، بيضاء، أعلى الجبال.

بعد الفطور تفرقوا. محمد الفاخوري مضى مع ابن عمته شاهين البارودي يتنزهان في الكروم المجاورة. ابتعدا عن المعسكر وأصوات المعسكر. قطعا نبع ماء ثم حرجاً من الملّول فبلغا حافة تهوي بعدها الأرض إلى وادٍ عميق. جلسا عند الحافة وتأملا سرب وروار يعبر سماء الظهيرة. كانت الشمس لطيفة. وغيوم بيضاء تتباعد في السماء.

حين تكلم محمد الفاخوري ضحك شاهين البارودي ونهض من مكانه. دار حول ابن خاله وجلس في الجانب الآخر. قال:

ـ هكذا أسمعك أحسن.

محمد الفاخوري كان يتحدث عن الأحوال في بيروت بعد القصف وهروب المصريين. شاهين وجد نفسه يسأل مرة أخرى عن

أخبار العائلة. سأل عن أخيه عبد الرحيم.

قال محمد:

ـ أخوك عبد الرحيم خواجة. يتاجر كالطليان. والنحاس يصير بين أصابعه ذهباً.

سأله شاهين:

ـ وعمر الصغير؟

قال محمد:

ـ عمر شيطان أرض. شيطان أرض وشيطان بحر. لا يهدأ ولا يستكين لحظة. مثل الحليب على النار.

التقط شاهين عوداً يابساً. نكش التراب بين الحجارة. نكش جذراً بان بين عشبٍ أحرقته الشمس. نظر إلى الوادي مرة أخرى ثم سأل عن أبيه.

قال محمد:

ـ أبو شاهين ليس على بعضه. يمرض كثيراً منذ فترة. والدكان تظل موصدة نصف الأيام. أنا بزوجة واحدة ظهري مقطوع. أبوك لا يشبع من...

قطع شاهين جملة ابن خاله في نصفها، قال:

ـ هذا أبي يا محمد.

سكت محمد الفاخوري. أخذ العود الجاف من يد ابن عمته وجعل ينقر الأرض صامتاً.

خرج الهواء من الوادي وفاحت رائحة الوزّال البري. كانت الأشجار تتلون بألوان الخريف. ظهر قطيع غزلان يعبر الهضبة المقابلة. ثم اختفى بين أخضر الأشجار حيث تنتشر بقعة ظلّ فسيحة داكنة. كانت الغيوم تتجمع هناك، فوق الأحراج الصفراء ـ البرتقالية.

وحلّق سرب غربان في الأعالي. وتردد صدى ندائه في البطاح:

ـ قعق... قعق... قعق...

رفع محمد الفاخوري رأسه يبحث عن مصدر الصوت. شاهين البارودي تكلم عندئذٍ:

ـ هذه المعركة ستكون الأخيرة.

البارودة كانت تتمدد على الأرض إلى جنبه. بوزها ملقى على صخرة بلون الرماد. نظر إلى خيوط الشمس ترتجف في فضاء الوادي مثل بخارٍ ينفخه الهواء. قال:

ـ آخر معركة.

محمد الفاخوري ردَّ أن إبراهيم باشا لن يترك البلاد بمعركة واحدة. قال محمد إن معارك أخرى لا بد أن تتبع هذه المعركة الآتية.

أجابه شاهين:

ـ ليس هذا قصدي. هذه معركتي أنا الأخيرة. سأرجع إلى بيروت. سأرجع إلى البيت. عندي زوجة الآن. بعد هذه المعركة أرجع إلى البيت.

محمد الفاخوري التفت إلى ابن عمته:

ـ ولماذا لا ترجع الآن؟ نرجع الآن معاً. البرغش يقتلني في الليل. هذه حياة حيوانات.

ضحك شاهين البارودي. ابن خاله لفظ الكلمات وهو يخمش عنقه المتورمة من عقصات البعوض بأظافر قاسية. محمد الفاخوري لم يضحك. قطب حاجبيه وحدّق إلى الوجه الباسم الأليف: تغيّر ابن عمته، لكنه لم يتغيّر. هل تغيّر؟ ظلّ محمد مقطب الحاجبين يخمش عضّات البرغش ـ التي حالت حبوباً بلوم الدم ـ إلى أن دفعه

شاهين في صدره. دفعه في صدره وقام واقفاً. محمد الفاخوري انكسرت تكشيرته عندئذٍ وضحك هو أيضاً.

قال شاهين وهو يلتقط البارودة:

ـ كلّها معركة وننتهي. عيب أن نترك الآن. بعد المعركة نترك. اتفقنا؟

قال محمد:

ـ اتفقنا.

بينما يسيران عائدين إلى المعسكر، شاهدا أرنباً برّياً ناصع البياض يفرّ هارباً إلى أدغال قصبٍ. ثم ظهر أرنبٌ آخر يتبعه، أصغر حجماً. وغابا عن البصر.

قال شاهين:

ـ الواحد لا يقدر أن يعيش بلا أهله.

دخلا الأحراج الكثيرة الظلال. فاحت رائحة التراب الطريّ والورق المتعفن وقاذورات البزّاق. تابع شاهين:

ـ لا أعرف كيف استطاع أبي أن يحيا كل هذه السنين من دون أن يذهب إلى الشام مرة واحدة.

حين خرجا إلى نور السهل سمعا صيحة الغراب من جديد.

ـ قعق. قعق. قعق.

لوح محمد الفاخوري ببارودته. قال:

ـ تعرف علي الاسكندراني؟ أخوه محمد الاسكندراني. تعرفهما؟

قال شاهين:

ـ أصحاب «مقهى النوفرة».

هزّ محمد رأسه. قال:

ـ يأكلان لحم «القعق». يصيدان هذا الطير اللعين ويأكلان لحمه. تسلقه على النار نهاراً كاملاً ويظلّ قاسياً كالجلد. لكنهما يأكلانه.

قطعا نبع الماء. امتدت كروم العنب خضراء وصفراء تتدرج أمامهما حتى الخيم والأحصنة والرجال. بعيداً بعيداً لمع الشعاع كالذهب على صفحة البحر المستوية. هنا وهناك تباعدت البوارج والسفن. نُفخ البوق في المعسكر. كان وقت الطعام. ماج المعسكر بالحركة. في السماء تابعت الغربان الصياح.

أسراب الطيور السوداء الناعقة لم تلبث أن ابتعدت بعد خمسة أيام. لكن طوال تلك الأيام الخمسة الأولى من تشرين الأول (أكتوبر) 1840 كان نعيق الغربان سيد السموات فوق السواحل السورية. صباح اليوم السادس من ذلك الشهر هبّت ريحٌ صفراء على البلاد. كانت ريحاً اعتاد الأهالي هبوبها في عزّ الصيف. لكنها جاءت في الخريف. جاءت محملة بالغبار وحين سكنت وماتت عند الأصيل خلّفت رملاً على الأغطية المغسولة وحشرات جرادٍ مبعثرة على ورق التين العريض.

عند المساء هبّ الهواء الغربي العليل من جديد. الضباط الإنكليز لم يسعدوا كثيراً بالهواء الرطب. كانوا منذ أيام يشكون إسهالاً فظيعاً. عنب جبيل ـ الذي لا تتركه الحموضة حتى ولو نضج في الشمس كل الصيف ـ فتك بهم فتكاً. الشوام في المعسكر المضروب عند تلال جونيه كانوا يفطسون ضحكاً لمنظر الضباط الإنكليز في البزات المكوية راكضين إلى الأحراج بوجوهٍ أسقمها المرض. الضباط الأتراك في المقابل لم يعمل بهم العنب شيئاً. لكن

الضيق ظهر على الوجوه كلّها في اليوم السابع من ذلك الشهر: عند الفجر أيقظ هديرٌ غامضٌ المعسكر. حين أضاءت الشمس السماء ظهر أن أسراب القعق قد عادت. عادت بأعداد مضاعفة. كانت تحوم في الأعالي، بلا توقف، وصياحها الرتيب يتقطع فوق الرؤوس وبين الخيم والأشجار:

ـ قعق. قعق. قعق.

عند الظهيرة وصلت قافلة بغال محملة بأكياس الحنطة. كانت آتية من بيروت. عبد المجيد الفاخوري ظهر فجأة أمام شاهين البارودي وعانقه. كان عائداً إلى البلد بعد ساعة. قال له شاهين:

ـ سلِّم على أبي. وقلْ له إن شاء اللّه أيام وأرجع.

أجابه عبد المجيد:

ـ إن شاء اللّه. خبر طيب. إن شاء اللّه.

غادر عبد المجيد الفاخوري المعسكر قبيل المغيب. شاهين البارودي ومحمد الفاخوري راقباه يبتعد تحت سماءٍ بلون البرتقال. أسراب الغربان كانت تحلق فوق البوارج أيضاً. كأنها نوارس سوداء!

في صباح اليوم الثامن وصلت الأنباء أن العساكر المصرية تحتشد في سهل بحرصاف، قرب قرية بكفيا، في جبال المتن. نُفخت أبواق الرحيل. صهلت الأحصنة. طرطقت الطناجر. تعالت النداءات. بينما الخيم تتساقط ثم تُطوى بدا أن الغربان كفَّت عن إطلاق صيحاتها. كان ذلك وهماً. ضجة الرجال الذين يتحضرون للمسير، حجبت نعيقها. حين انتظمت صفوف الخيالة والمشاة وظهر الضباط على الأحصنة المطهمة، ساد السكون لحظة، فارتفع الصياح من جديد:

ـ قعق. قعق. قعق.

صيادو السمك الذين يفردون الشباك على شاطئ جونيه (تحتاج أن تُصلح هذه الشباك؛ قد مزقتها مراكب الجنود!) رأوا الصف الطويل يبتعد متسلقاً التلال، ورأوا أسراب الغربان ترافقه في الأعالي. كان صوتها يبتعد، يبتعد، يبتعد، إلى حيث تنتشر غابات الصنوبر الشاهقة، إلى حيث تتكدس الغيوم فوق القمم. في المعسكر المهجور تصاعد دخانٌ من نارٍ مطفأة. الضباع جاءت تنكش القاذورات. قبل أن تغيب الشمس، اختفت صفوف الجنود المبتعدة. دروب الجبال الوعرة المتعرجة أخفت الجيش العثماني ـ الأوروبي عن عيون الصيادين. بانت نجمة المساء. ثم ظهرت نجومٌ أخرى. كانت ليلة صافية. شعّت النجوم كثيرة، فضيّة. وسُمِع حفيف النسائم في الكروم.

النجوم البيضاء ذاتها رصّعت قماشة السماء فوق بيوت بيروت. كانت نجوماً شديدة الألق، حادة الضوء، لم يرَ عبد الجواد أحمد البارودي مثلها منذ أسابيع. بعد المطر الرملي الغريب الذي تساقط على بيروت هبّت رياح البحر وقذفت الغبار والجراد بعيداً. في الليل ظهر الندى على الأعشاب وبقّع الملابس التي نشرتها كلفدان على أغصان السنديانة. عبد الجواد أحمد البارودي رآها تنشر الثياب وعجب كيف تحافظ على جسمها منتصباً بهذه البطن الهائلة المرتفعة قدامها. لم يرَ بطناً تنتفخ هكذا من قبل. جاء عند المساء يزورها حاملاً أوجاعه معه. معدته تقتله كأنها مجروحة بالموس. عند الظهيرة أكل تبولة في بيت آل الفاخوري فأحسّ بالنار في بطنه. توقف عن تناول الطعام، والحاج مصطفى ظنّه حزيناً متعباً وأصرّ عليه قبيل العصر أن يذهبا إلى الصلاة معاً.

قال له عبد الجواد:

ـ هذه معدتي.

ولم يصحبه إلى الجامع. أراد أن يبقى وحده. ترك «دار البرتقال» وانحدر في نزلة يعقوب وبدل أن يتابع طريقه إلى البازركان انعطف يميناً وقطع دهليز منيمنة إلى نزلة الدركاه. مرّ على دكان الخضر لكنه لم يقعد على الكرسي الذي أخرجه الصبية من أجله إلى المصطبة. شعر بالبرد واقفاً هكذا بين صناديق الخضر التي يبرق على ورقها الأخضر ماء. كان برداً قديماً غامضاً نزل في عموده الفقري مثل قطع الجليد، حتى أنه أحسّ بالخدر أسفل ظهره ثم في فخذيه. ترك الصبي يشعل فحمةً للأرجيلة وغادر المكان وانحدر في الدرب التي بُلِطت حجراً أحمر ثم غطّت الرمال حجارتها، ودخل دهليز الحدادين. نصف أهل الحدادة تركوا هذا الدهليز وانتقلوا إلى سوقٍ جديد ينمو بين سوق الفشخة والبحر، في الجانب المطلّ على باب إدريس. حين يقف على السطيحة فوق بيت أم زهرة يقدر أن يرى لمعة الشمس على آلات الحدادة بعيداً وراء مخزن الفيالج ووراء بيت خليل الفاخوري الذي تسكنه عائشة هانم التركية.

قطع دهليز الحدادين وعادت إليه ذكريات غائمة بينما يرى سقّاءً أبيض الشعر يرفع دلو ماء من البئر في مدخل الأساكفة. تابع طريقه عابراً أمام رجال يدخلون جامع السراي في عجلة وقطع سوق الفشخة ملقياً التحية من بعيد على الخواجة إسحاق طرازي وانحدر في سوق القطن. كان ضوء الشمس يتضاعف بين الحيطان وأزعجه الخدر في ساقيه. هرب من الظلال الباردة باحثاً عن بقع ضوء تبين بين البيوت والدكاكين لعل الشعاع الأصفر الواهن يبعث حرارة في أوصاله لكن بقع الشمس ظلّت تهرب منه. كلما وصل إلى بقعة انطفأت. الدفء يهرب كأنه الظلّ الذي لا يقدر الواحد أن يقبض عليه. عجّل عبد الجواد.أحمد البارودي خطوته محدثاً نفسه أنه سيعثر على بعض الدفء بين المناقل في حانوت الشواء. لكنه حين

بلغ «محطة الشام» وجد ابنه عبد الرحيم يقفل المحل. كانت المناقل كلّها قد أطفئت بالماء على عجل وأدخلت إلى جوف الحانوت.

عبد الجواد سأل ابنه لماذا يُقفل باكراً.

عبد الرحيم أجابه بينما يقفز من المصطبة:

ـ كنا نفتش عنك. نرجس عقصتها حيّة.

عضّ ثعبانٌ نرجس بينما تجمع بعض الحطب وراء البيت. لكنها لم تمت. اللّه سبحانه ستّر. أم زهرة رأت البنت تسقط على الأرض صارخة فأسرعت إليها وأبصرت ذيل الثعبان يختفي في الدغل الذي يفصل الجنينة عن سوق القطن. عضّت مكان البقعة الحمراء ومصّت السم وبصقت على الأرض. كررت فعل ذلك ونرجس تصيح وتشمط شعرها وتحاول التملص من ذراعها. أم زهرة لفّت البنت العفرية بجسمها البدين الضخم، التفت على الجسم الصغير كأنها الأخطبوط، ثم عضّت البقعة الحمراء عند أعلى الذراع من جديد، وامتصّت السم اللاذع الطعم وبصقته.

لم تمت نرجس. لكن أمها سهيلة النابلسي البارودي شحب اللون في وجهها بعد قليل وقالت إن أشياشاً كالحديد المحمى تنزل في زلعومها وبطنها. كل نساء الحيّ اجتمعن في بيتها. كلفدان كانت عاجزة عن نزول الدرج لكنها حضّرت ترياقاً للبنت وأم البنت في الغرفة البيضاء العالية، وعبد الرحيم حمل الترياق الشافي ونزل الدرج بينما المساء يقبل على البلد.

تلك الليلة نامت نرجس نوماً عميقاً. ومثلها أمها سهيلة. كلفدان طمأنت أبا شاهين أن المصيبة عبرت وانتهت. في الصباح تكون نرجس نسيت كل شيء. والبقعة على كتفها تكون زالت أو تكاد. عبد الجواد أحمد البارودي اطمأن قلبه وذهب إلى البيت

الأخير وجلس قليلاً مع زوجته الرابعة وأكل صحناً من الرز بالحليب. الحليب يخفّف ألم معدته. اللبن بالعكس، يزيد لهيبها. أكل رزّاً بالحليب ومشى. كانت النجوم بدأت تتكاثر في السماء. سار على الطريق البيضاء إلى أن بلغ شجرة التوت. وقف هنا لحظة، لكنه أحسّ البرد يقوى. وأحسّ كأن النمل يرجع إلى ساقيه. لم يسمع صوتاً وراء الدُرف المظلمة. وقال إن البنت غارقة في النوم حقاً، وكذلك أم زهرة. الغرفة البيضاء العالية كانت مظلمة أيضاً. تابع طريقه إلى أن بلغ الجميزة.

كان باب البيت مفتوحاً ورأى عبد الرحيم آتياً من وراء البيت وهو يحمل شيئاً ثقيلاً. لم ينتبه جيداً لأنه كان آتياً في ظل الحائط. لكنه عرفه من قامته. ثم رأى أنه ليس وحده. كان عمر يتبعه في نور النجوم ورأى أنهما يحملان حجارة. عبد الجواد أحمد البارودي لم يكن يعلم أنه يشهد في تلك اللحظة الولادة الحقيقية لـ «حارة البارودي». وقف ناظراً إلى ابنيه يضعان الحجارة على الأرض ثم سألهما:

ـ ما هذا؟

عمر ابتسم قائلاً:

ـ صخور.

عبد الرحيم البارودي شرح فكرته:

ـ كل الناس يأخذون حجارة من السور. فكرت أن نُعمر حائطاً وراء البيوت للحماية من الحيّات. ولفصل أرضنا عن السوق.

عبد الجواد أحمد البارودي اقترب خطوة. كان البيت القريب (بيت شاهين) غارقاً في السكون. اقترب حتى صار وجهه يبعد شبراً عن وجه ابنه عبد الرحيم ثم أمره بصوتٍ صارم:

ـ لا تأخذ حجارة من سور البلد. لا تُنزل حجراً واحداً. هذه ليست ملكنا. هذه سرقة.

عمر أطلّ من وراء عبد الرحيم وقال:

ـ لكن الكلّ يأخذون من السور. ليست سرقة.

عبد الجواد أحمد البارودي حدّجه بنظرة غاضبة ثم تكلم بصوتٍ حاول أن يكتم حدّته:

ـ إذا كانت ليس سرقة فلماذا تفعلون ذلك في الظلام؟

عبد الرحيم البارودي الذي يعرف أباه، طأطأ رأسه وقال:

ـ ما تريده نعمله يا أبي.

عمر أراد أن يقول شيئاً، لكنه تلعثم بالكلمات، وسكت. عبد الجواد تركهما واقفين هكذا ينتظران أمره ورفع رأسه ونظر إلى السماء. كانت تعجّ بالنجوم وبدا أن الضوء الأبيض يقوى أكثر فأكثر. قال لإبنيه تصبحان على خير، ثم جاوزهما ووقف ناظراً إلى الحجارة المكومة جنب قنّ الدجاج. بينما يتأمل الحجارة تغيرت ملامح وجهه. استدار قبل أن يتحركا وقال لهما:

ـ أخوكم شاهين عائد بعد أيام. حين يرجع نبدأ ببناء الحائط. والحجارة نجلبها من المصيطبة. من المقالع نجلبها وليس من سور البلد. هذه الحجارة الآن تحملونها وتردّونها إلى مكانها. لن يقول أحد إن أولاد عبد الجواد البارودي حرامية. تحركوا! الآن تردّونها إلى محلها!

طيلة الليل المضاء بنور النجوم الحليبي نقل عبد الرحيم، وعمر، الحجارة، عائدين بها إلى الثغرة بين بابي السراي والدباغة: يعبران سياج الصبير إلى سوق القطن ثم يقطعان السوق ويتسلقان

حائط الجلّ المزروع تيناً (جلّ عيسى ساسين) ويخرجان من ظلال التينات في الجانب الآخر. حين بلغا السور للمرة الأولى، وكل منهما يحمل صخرة، التفت إليهما الرجال الذين يأخذون من السور حجارة، ثم وقفوا بلا حراك.

أحد هؤلاء سأل العائدَيْن بوجهين أخرسين ماذا يفعلان؟

عمر أراد أن يتكلم. عبد الرحيم نهرَّه:

ـ اسكتْ!

وضعا الصخرتين أرضاً ثم قفلا عائدين. خلفهما ارتفعت ضحكات الرجال في صمت المدينة النائمة.

عَمِلا طيلة الليل. قبيل الفجر نقلا الصخرتين الأخيرتين. عمر اقترح على أخيه عبد الرحيم أن يتركا الحجرين في جلّ التين، من سيعلم؟

عبد الرحيم ابتسم رغم ألم يديه وذراعيه وقال:

ـ ضعْ الصخرة هنا. سآخذ هذه ثم أعود وأحمل صخرتك عنك.

عمر لم يعجبه الجواب. رفع الصخرة أعلى حتى غطّت وجهه وعجّل خطوته وسابق أخاه إلى السور. مرة أخرى استقبلهما الرجال بالضحكات. كانوا ينقبون السور بالمعاول، ولمع النور في عيونهم.

عند الفجر أخذ لون النجوم يتبدل. وراء صنّين اختلف لون السماء. كانت القمم تأخذ لوناً جديداً. عبد الجواد أحمد البارودي كان غارقاً في النوم عندئذٍ. بعد أذان الفجر بساعة، بينما نور النهار يملأ السماء، ارتفع صراخ كلفدان في الغرفة البيضاء العالية. حلّت ساعة الولادة.

عند الظهيرة تبين أنه كان انذاراً كاذباً. لكن طيلة ذلك النهار

استمرت الجلبة فوق بيت أم زهرة. أم زهرة نفسها، سهيلة النابلسي البارودي، ارتقت الدرج الحجر إلى بيت الجارية الشركسية لترى كيف حالها. ألم تُركب كلفدان لها ـ وللبنت نرجس ـ دواءً في الأمس فقط؟

عبد الجواد أحمد البارودي هرب من الجلبة والزعيق إلى متجره في البازركان. العبدان مونس وسنان باتا ـ منذ حين ـ يناماِن في العلية الخشب هنا. حدثت سرقات أثناء الفوضى التي سادت عند خروج المصريين. وحدثت سرقات بعد ذلك. الآن هدأت الأحوال. لكن الحذر واجب. هدأت الأحوال والحركة ترجع رويداً رويداً إلى الأسواق. الميناء ما زال شبه مقفل في وجه السفن. الكلّ ينتظر ما سيحدث بعد المعركة الكبيرة الآتية. الجيشان يحتشدان في منطقة بكفيا في جبال المتن. والسيد فتيحة قال قبل ليلتين في مجلس خاصٍ في «دار البرتقال» إن الدولاب دار دورته وزمن إبراهيم باشا انتهى والأمير بشير لن يبقى في الجبل طويلاً.

محي الدين الفاخوري أرسل إلى أهله خبراً أنه راجع من اسلامبول. طوال تسعة أعوام والرجل يعيش في عاصمة السلطنة. وها هو يرسل الأخبار أنه عائد إلى أهله. وشاهين أيضاً أرسل خبراً مع عبد المجيد الفاخوري. بعد هذه المعركة يعود شاهين، وحين يعود يخفّ هذا البرد في القلب قليلاً. بلى، يخفّ قليلاً.

عبد الجواد أحمد البارودي وضع يداً حزينة على صدره ونظر سارحاً إلى صبية «القهوة» ينظفون الصواني والأكواب عند حافة المصطبة ويفركونها بالرمل. كانت الشمس عليلة. والغيوم تتباعد في السماء ثم تتكاثف. تساقط ورقٌ من الأشجار وطار مع الأغبرة ومع القاذورات في الفناء وسط السوق. الصوت نزل في أذني عبد الجواد كالحفيف.

تصاعد أذان الظهيرة لكنه لم يتحرك من مركزه. بعد وقتٍ أرسل سنان إلى «قهوة النوفرة» ليأتي له بلقمة. أكل حمصاً مسلوقاً مطحوناً ومتبلاً بالطحينة وزيت الزيتون مع حص ثوم ورشة ملح وعصرة حامض. أكل الصحن بنصف رغيف خبز وأكل معه بصلة بيضاء وورقة نعناع أخضر. ثم أرسل مونس ليجلب قهوة سادة. لكن الألم في معدته رجع من جديد قبل أن يرجع مونس بالقهوة. عبد الجواد أحمد البارودي استنتج عندئذٍ أنه أخطأ: لا يستطيع أن يأكل متبّلاً بعد اليوم. لا بدَّ أنه الحامض. الليمون الحامض يُهيج هذا الجرح في جوفه. مثله مثل اللبن. شرب عبد الجواد ماء لعل برودة الماء تطفىء الحريق في معدته، وبينما المياه تكرّ في زلعومه رأى أسراب القعق تحوم عالية في السماء وسمع صوتها:

ـ قعق.. قعق... قعق.

وضع إبريق الفخار على الأرض وقال:

ـ اللّه يستر. اللّه يستر ويردّك يا ابني يا شاهين. زوجتك في انتظارك. وأخوتك في انتظارك.

كان يدمدم والكلمات تخرج بصعوبة من بين شفتيه. العبدان مونس وسنان سمعاه ولم يفهما ماذا يقول. ثم حسبا أنه يصلّي. سكبا القهوة في الفناجين الثلاثة وانتظراه. حين رشف من فنجانه رشفة أولى ثم وضعه على الصينية النحاس، امتدت يد سنان السوداء إلى فنجانٍ، ثم امتدت يد مونس الشبيهة بها، كأنها أختها، إلى الفنجان الثالث.

العبدان لم ينتبها إلى أسراب القعق في السماء. عبد الجواد أحمد البارودي انتبه للغربان مرة أخرى عند العصر، بينما العبدان يدخلان البضاعة المعروضة على المصطبة إلى جوف المتجر.

(معظم المتاجر تعلو عن أرض الزقاق قليلاً. على المصاطب تعرض الأقمشة والأثواب والسجاجيد والحصر. القناديل والأساور والعقود تتدلى في الفضاء معلقة والهواء يُحركها ويرسل صوتاً كالموسيقى بين الحيطان.) عبد الجواد انتبه للغربان مرة أخرى بينما أحد العبدين يلتقط أطراً خشبية مذهبة معلقة من العتبة فوق الباب. انتبه أن الغربان تتحرك في دوائر ثابتة، هناك، في الأعالي. وانتبه أن عددها كبير. حاول أن يحصيها ثم فكر أن ذلك يشبه إحصاء النجوم ولكنه أصعب لأن النجوم ثابتة أمّا الغربان فتتحرك من دون لحظة راحة.

كانت الشمس تغيب. وأنفاس الخريف عطرة في الهواء. سال الشعاع البرتقالي في أزقة البلد وغطّى بقشرة رقيقة كالشمع الأبواب والحيطان والنوافذ والوجوه. انعكس النور على زجاج في العمارات عند الميناء فبدت العمارات كأنها تشتعل بالنار. عبد الجواد أحمد البارودي ترك البازركان ونزل إلى «محطة الشام» وجلس يدخن أرجيلة مع ابنه ويتأمل توهج الغروب في الأفق. كان قلبه يثقل بمرور كل لحظة. وفكر في رحلة قديمة. لم يفكر. تدفقت الذكريات في رأسه وجسمه. ذراعه كلّها ارتعشت ونربيش الأرجيلة كاد أن يسقط من بين أصابعه.

عادت إليه ذكرى نهارٍ شتوي بعيدٍ وخيّل إليه أنه ما زال يركض تحت ذلك المطر. كان مطراً رمادياً، لم يلبث أن صار أسود، وكان ينهمر بلا توقف. سال العالم. سالت السماء وسالت الأرض وسال جسم عبد الجواد أحمد البارودي. عادت إليه الذكريات فرأى نفسه يسيل راكضاً من الشام، من الدكان الصغير حيث سال دم أخيه على الأرض. . . كان يركض ولون الخوخ في عينيه. انتشرت بقعة الدم على وجه الشمس. انطفأ نور الكون وحلّ ظلام. ذراعه كلّها ارتجفت وخيل إليه أن السكّينة تسقط من بين أصابعه الآن فقط. كأن

هذا العمر كلّه لم يعبر. أعطى الإبزيم إلى ابنه عبد الرحيم ونظر بعيداً. سمع صوت المياه تقرقر في زجاجة الأرجيلة وخيّل إليه أنها الأمطار. كانت الأمطار تبقبق على الأرض، على صفحة الوحل، بين السور وسهلات البرج. كان قاعداً في «توتة شاكر» يرتجف بالبرد والصواعق تحرق العالم. عادت السويداء إليه وغلبت على مخّه. كانت الشمس تنزل حامية في البحر والبخار يخرج بلون الخوخ المضروب عند الأفق ويغطي البوارج ويغطي أشرعة سفنٍ ويغطي غيمة بلون الدراق أو التفاح الفاسد. أحسّ عبد الجواد بالعرق يكرج على ظهره. ابنه عبد الرحيم كان يُحدث أحدهم عندئذٍ، ولم يسمع عبد الجواد ماذا يقول ابنه، لكنه رفع يده بالتحية حين ألقى أحدهم عليه السلام. رأى طربوشاً ورأى عباءة مزركشة بالقصب، ثم رأى بذلة افرنجية، وبعد ذلك توقف عن النظر إلى العابرين تحت المصطبة. التفت وعاد يُحدق إلى الأفق. كان عبد الرحيم يغير جمرة الأرجيلة وفاحت رائحة التنباك قوية وسمع ذلك الصوت من جديد:

ـ قعق. قعق. قعق.

لكنه هذه المرة لم يرفع رأسه. عبد الجواد نظر إلى الغروب القاتم ولم يرفع رأسه إلى السماء. كان تائهاً في ظلمات تتمدد في أعماقه. كأنه يسقط في بئرٍ بلا قعر. استمر ذلك زمناً طويلاً ثم سمع ابنه عبد الرحيم يقول شيئاً. استيقظ من شروده (من هبوطه) ورأى أنهم أدخلوا المناقل والطاولات والكراسي ورأى أن المساء قد حلّ. تلك الليلة نام نوماً عميقاً لم ينم مثله منذ سنين. شرب كوباً من الحليب البارد وهوى إلى نومٍ عميق.

في الصباح أيقظته هندُ. اندسّت في فراشه وقبّلته على أنفه وعلى عينيه. فتح عينيه باسماً وقال إن كل شيء سيكون على أحسن حال. رأى في المنام أنه قاعدٌ مع شاهين تحت الجميزة وأن عمر

يسكب في الأقداح شراب التوت وأن عبد الرحيم يلفّ لفافات تبغ جالساً جنب صندوقٍ مملوءٍ بثلج الجبال. كانوا قاعدين في هناءٍ تحت أغصان الجميزة. ورأى نرجس آتية مع معزاتها ورأى زوجة شاهين تخرج من البيت ضاحكة والفراشات الملونة تتطاير حولها. سمع صوت أم زهرة في الجانب الآخر وأدرك أنها تعدّ للجميع كنافةً بالجبن. كانت رائحة القطر والسكر المحروق تملأ منامه وسمع ضحكات أولاده في أذنيه ثم أيقن أنه سيصير جداً. رأى زوجة شاهين تقترب منه وتقعد على الحصير إلى يمينه وانتبه إلى التورد في وجهها. كانت تضحك ضحكة امرأة في بطنها ولد. وفي تلك اللحظة أحسّ بالبنت الصغيرة هند تُقبله على رموشه. فتح عينيه وابتسم.

جلس بين بناته وأفطر بيضاً مسلوقاً وعسلاً وخبزاً. كانت غيوم قليلة تعبر الفضاء. رمى جبّة على كتفيه وخرج. وجد أم زهرة تحت التوتة تشرب قهوة الصباح. قالت له إن المرأة (وأشارت برأسها إلى الغرفة على السطح) قد تلدّ اليوم. سألها كيف أصبحت وأين البنت. قالت إن نرجس ما زالت نائمة ثم قالت إنها بخير والحمد للّه. سألت عن صحته، فقال إنه نام نوماً لم ينم مثله منذ سنين. شرب شفّة قهوة واقفاً لا يدري هل يصعد الدرج إلى الغرفة العالية أم يكمل دربه! ثم قرر أن يكمل دربه.

حين بلغ الجميزة شرب فنجاناً آخر من القهوة مع عمر وزوجة شاهين. عمر أخبره عندئذٍ أنه يفكر في اقتناء بعض رؤوس الغنم. لماذا لا يكون عندهم قطيع من الأغنام؟ عمر قال إنه اقترح ذلك على عبد الرحيم وأن عبد الرحيم وجد الفكرة جيدة. عبد الجواد أحمد البارودي ابتسم لابنه وقال في سرّه إن هذا الولد شيطان أرض. حين قام ليذهب سأله عمر ما قراره؟ عبد الجواد التفت إلى

الصبي وظلّ ساكتاً. كان يستعيد المنام الذي ردّ إليه الروح. ثم قال:

ـ تريد أن تكون راعياً؟ أين سترعى أغنامك؟

أجابه عمر:

ـ في رأس بيروت. مثل كل الرعاة.

هزّ عبد الجواد رأسه. فكر أن هذه خطة معقولة ثم قرّر أن يعطيها وقتاً ويفكر فيها. ترك عمر واقفاً ينتظر الجواب ومشى نحو سوق الفشخة. قبل أن يبلغ الزاروب كان عمر لحق به. ابتسم عبد الجواد: هكذا يضمن أن يبقى الولد معه في الدكان في البازركان طوال النهار. كان يحبّ أن يراه قربه. لكن عمر لا يبقى في جواره إلاّ إذا كان يطلب شيئاً. حين ينال طلباً أو ردّاً، يختفي فجأة، كأنه فص ملح وذاب.

في طريقه إلى البازركان أحسّ عبد الجواد أحمد البارودي احساساً غريباً: أحسّ أن أحدهم يراقبه. كان عمر يمشي إلى جانبه الآن. والتفت عبد الجواد ونظر إلى هذه الجهة وتلك ولم يعرف من أين يأتيه هذا الإحساس الغريب. كان السوق على حاله. متاجر مفتوحة وأخرى تفتح أبوابها للتو. حركة وناس وحمير وبضائع وأصوات. من أين يأتيه هذا الإحساس؟ وفكر عبد الجواد ـ لسببٍ غامض ـ أنه اخطأ حين لم يمر على كلفدان. كان عليه أن يمرّ لحظة فقط، يقف في باب الغرفة، ويلقي عليها السلام. عمر شدّه من ثوبه عندئذٍ. ابتسم الأب للإبن وعاد إلى السير. في «العطّارين» ألح عليه الإحساس الغريب من جديد: أحدهم يراقبه. هناك عيون ترصده. لكن من؟ ولماذا؟ ليس عنده عداوات. من يراقبه؟

وقف لحظة في قناطر الجامع العمري الكبير. ألقى التحية على الشيخ سليمان المغربي وتجاذبا أطراف الحديث ثم افترقا. الولد عمر

سبقه راكضاً في العطارين ثم انعطف يميناً صاعداً في الزقاق إلى البازركان. كانت روائح التوابل تتضوع في الفضاء الخريفي الرطب. والصباح يملأ الوجوه بالنشاط. عبد الجواد استعاد مرة أخرى المنام الحلو، وأبعد عن ذهنه صورة العيون التي ترصده من حيث لا يدري. لم يدرك سرّ الإحساس الغريب إلاّ عندما بلغ متجره. العبدان مونس وسنان كانا يعلقان سرجاً مزركشة على أغصان اللوزة. بينما يتأمل السرج المعلقة على الأغصان رأى عبد الجواد أحمد البارودي أسراب الغربان المعلقة في السماء. كأنها لم تتحرك من مكانها طوال الليل. وفكر أنها تبعته إلى الحارة ثم عادت معه. كان وسواساً غامضاً لكنه لبسه تماماً مثل قميص فصّله الخياط حمادة على قياسه. لبسته الخاطرة القاتمة ولم يستطع إزالتها عن مخّه لا بالتبغ ولا بالقهوة ولا بالتنباك. كلما رفع إبريق الفخار ليجرع ماء كانت الغربان تقع في عينيه من جديد. وصياحها الذي لا يسمعه أحد في ضجيج الأسواق، يتكرر بعيداً خافتاً في أذنيه.

ـ قعق. قعق. قعق.

شمس ذلك النهار لن تغيب على خير. عبد الجواد أحمد البارودي ما كان يعلم في ذلك الصباح الخريفي أن الغربان التي تحوم في سماء المدينة التي صارت مدينته كانت تحوم أيضاً فوق جبال المتن. حامت الغربان في سموات البلاد كلّها في ذلك الخريف البعيد. لم يكن سبب ذلك الحرب فقط. ولكن انتشار الكوليرا والتيفوئيد أيضاً. الوباء لم يضرب بيروت. لكنه ضرب مدناً أخرى. حامت الغربان في السماء ونزلت على الجيف حيث تكومت الجيف، وحلقت في ثباتٍ غريبٍ فوق مواقع أخرى: حلقت في ثباتٍ فوق مرج بحرصاف. حلقت في ثباتٍ فوق سهلٍ تحاصره الجبال، وحلقت في ثبات فوق جيشين يتواجهان تحت سماء

الخريف استعداداً للحظة المعركة: كانت الغيوم تملأ السماء الآن، وأخذ رذاذٌ بارد خفيف يتساقط على العشب والشجر والجنود والأحصنة.

ـ قعق. قعق. قعق.

شاهين البارودي جلس بين أصحابه يدكّون البواريد ويتبادلون جملاً قصيرة. نظّف قسطل بارودته طويلاً بالأمس، تأكد من جفاف البارود، ووضع حجراً جديداً للقداحة، وتأكد من قساوة الفتيل. استخدم شيشاً ليضغط البارود عميقاً في قسطل البارودة. بينما يُخرج الشيش نظر إلى السماء الرمادية ورأى الأسراب السوداء. كانت تطاردهم منذ غادروا المعسكر عند الهضبة المطلّة على البحر. كل الطريق طاردتهم. غابت الشمس فحسب أن الطيور لا تلبث أن تفقد أثرهم في الظلام. لكن الطيور تعرف هذه السماء. ما أن بزغ الفجر حتى بانت تحوم فوق قمم الصنوبرات.

ـ قعق. قعق. قعق.

فتح كيس الخردق واستعمل المكيال الدقيق. عليه الحذر. إذا زاد البارود عن معدله انفجر قسطل البارودة. وإذا زاد الخردق عن معدله لم تصب طلقته الهدف. الخردق الكثير يضيع في الفضاء، لا يمضي في خطٍ مستقيم، يتشتت!

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. ترتفع الشمس مسافة ثلاثة رماح في السماء وتدوي المدافع. في هذا الجانب من السهل المستطيل الذي لا يتجاوز مساحة بيروت المسوّرة، يحتشد الجيش العثماني ـ الأوروبي: سبعة آلاف مقاتل نظامي من الجيش العثماني، وألف جندي غير نظامي معظمهم من الثوار الدروز، وثلاثمئة جندي إنكليزي، وخمسون جندياً نمساوياً. كلهم على بعضهم 8350 جندياً

يقودهم قدري باشا المنتصب أمام خيمة القيادة على التلّ المرتفع حاملاً المنظار الحربي الطويل المصنوع في مانشستر. إلى يمينه يقف ضابطٌ إنكليزيٌ عجوزٌ أشيب الشعر نحيلٌ كالغصن، وطويلٌ كأشجار الصنوبر التي تتعالى مثل أعمدةٍ بمظلات خضرٍ ـ وراء خيمة القيادة.

هذا الضابط المحدودب الظهر يبدو كأنه على وشك السقوط على وجهه، فوق الخطة المرسومة على التراب الأحمر. الخطوط المتشعبة بين ورق الصنوبر الأبري اليابس تبدو خربشة أطفالٍ أكثر منها خطة عسكرية. والعجوز الإنكليزي ـ المِثقل بالنجوم والأوسمة وبالنياشين التي تُزين صدر سترته العسكرية ذات الياقة المنشاة وأزرار الفضة اللامعة ـ يبدو مدركاً هذه الحقيقة. إنه ينظر إلى خربشة قدري باشا على التراب كمن ينظر إلى أثرٍ غير مفهوم تتركه بقعة حبر على بنطلونٍ فاتح اللون، أو كمن ينظر إلى الخطوط القاتمة في فنجان قهوة انقلب على صينية نحاس. هذا الضابط العجوز الذي أُرسل إلى هنا ليتأكد من هزيمة إبراهيم باشا يُدعى جوناثان ستيفنسون لكن كل لندن تعرفه بلقبه المفخم: دوق مارلبورو الثالث. جده الأكبر، أول من حمل هذا اللقب، لم يتخيل يوماً أن أحد أحفاده سيقاتل الأفارقة في جبل لبنان المذكور في التوراة. دوق مارلبورو القديم، باني القصر الشهير على ضفة التيمز صائد التماسيح في أدغال الأمازون صديق الملكة الأم، لم تطأ قدمه يوماً «الأراضي المقدسة» لكنه على سرير الموت وضع يمناه على الإنجيل وأغمض عينيه وقال إنه كان يتمنى لو أعطاه الربّ حفنة سنوات أخرى ليتسنى له رؤية الأرض حيث مشى يسوع المسيح. الحفيد الواقف الآن على التلّ المرتفع، تحت الرذاذ الخفيف، المرئي، لا تهمّه «الأراضي المقدسة». صحيح أنه يحمل ذلك الإنجيل القديم في صندوقه العسكري (طبعة قديمة نادرة سبقت ظهور «إنجيل الملك جيمس»)، لكن ما يهمّه في

كتابه المقدس ليست الكلمات المطبوعة بحرف درسدن الرفيع، بل الكلمات الأخرى المخطوطة بالحبر البنفسجي على الصفحات البيضاء الأخيرة. على هذه الصفحات سجل أسلافه تواريخ ميلادهم وبطولاتهم. هنا سجلوا أسماء أولادٍ وأحفاد. البنون سجلوا تواريخ وفاة الآباء. والآباء سجلوا تواريخ ولادة الأبناء. تواريخ المعارك مكتوبة بالحبر الأحمر. هو ـ دوق مارلبورو الثالث ـ رأى بعينيه الاثنتين هزيمة نابليون بونابرت في واترلو. رأى وجه الأمبراطور الفرنسي بعد الهزيمة. ورأى السيف الملقى على الطاولة. لكن كل هذه المناظر لم تؤثر في نفسه كما أثرت فيه الكلمات حين خطّها، بعد ليلةٍ، في «الكتاب المقدس»، بحبرٍ أحمر:

WATERLOO-15 JULY 1815

الآن ينظر دوق مارلبورو الثالث إلى الجيش المصري المحتشد وراء صفٍ من المدافع الفرنسية القديمة في الجانب الآخر من المرج وتدمع عيناه. هذه معركة لن يذكرها في إنجيله. يخجل أن يكتب عن هذه المعارك. هذا هو شعوره: الخجل. يكفيه أن يلقي نظرة واحدة على حفنة جنوده الإنكليز وقد أيبسهم الإسهال تماماً، لكي يشعر بالخجل. الياقة المنشاة الواقفة تجرح عنقه. وهذا الرذاذ يُسبب له حساسية في أنفه وفي زلعومه. لم يهتم يوماً بالربّ يسوع المسيح. ليس إنجيلياً، ليس مُكرزاً، طيلة عمره كان رجل حرب ولم يكن مبشراً. ليس مبشراً وليس فرنسياً، وكل ما في الأمر أنه وُلد في بيت تُزين حيطانه السيوف والبنادق ولوحات المعارك. الأمبراطورية لا تلد إلاّ التجار والمحاربين. الهند تبعد خطوة من هنا وهذه السواحل مهمة. البحر الأبيض المتوسط يكون إنكليزياً أو لا يكون. وأبناء الزانية الفرنسيين عليهم أن يزولوا عن هذا البحر هم

وتابعهم محمد علي باشا. وهذا المربوع المتكبر إبراهيم باشا عليه أيضاً أن يزول. دوق مارلبورو الثالث دمعت عيناه بسبب الرذاذ وأحسّ بحكاكٍ في زلعومه. التفت وطلب من مساعده حبّة «سكر نبات».

في تلك اللحظة أرسل قدري باشا جندياً إلى الميمنة حيث صُفّ القسم الأكبر من المدافع الأسطمبولية الثقيلة ذات العجلات. الجندي حمل إلى ضابط سلاح المدفعية أوامره. شاهين البارودي الواقف على بعد خطوات من المدافع، وجنبه محمد الفاخوري، سمع الكلمات التركية وشدّ قبضته على البارودة.

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. في الجانب الشمالي من المرج احتشد الجيش المصري - اللبناني: تسعة آلاف جندي نظامي يتنفسون حين يأمرهم إبراهيم باشا أن يتنفسوا، وستمئة جندي من جبل لبنان يقودهم الأمير خليل شهاب. جنود إبراهيم باشا التسعة آلاف ثلثهم من السود أبناء السودان. وجنود الأمير خليل الستمئة نصفهم يفكر - من قبل أن تبدأ المعركة - في الفرار. لا يُسمّون ذلك فراراً. يقولون إنهم يخططون للرجوع إلى البيوت.

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. بعد هذه المعركة بيومين يهرب الأمير بشير الشهابي من جبل لبنان. يركب البحر محمَّلاً بأكياس الذهب، ويفرّ مع العائلة والحاشية إلى مالطة. الرجل الذي حكم البلاد طوال 52 عاماً يجد نفسه في المنفى. بعد أن يموت وراء البحر يجيء المصوّرون إلى غرفته، وفي نور الشموع يرسمون جثته.

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. بعد هذه المعركة بيومٍ ترسو بارجة إنكليزية أمام ميناء بيروت مقبلةً من ساحل المتن، بالجَرحى ممددين في مؤخرتها وفي مقدمتها. أهالي بيروت والجوار

كانوا ينتظرون أولادهم ـ العائدين ـ على الأرصفة. عبد الجواد أحمد البارودي كان هنا. إلى يمينه وقف عبد الرحيم. وإلى يساره وقف خليل الفاخوري وجنب خليل وقف الصغير عمر يكبس شعره بيديه. على بعد خطوات وقف الحاج مصطفى غندور الفاخوري مستنداً إلى صهره سليم طرابلسي ابن كفرجوز. الحاج مصطفى أصيب بفالج نصفي قبل ثلاثة أسابيع. لكنه رفض أن يستقبل الجرحى قاعداً في الكرسي. وقف هنا بين الأعيان، ونظر ـ بعينين كليلتين ـ إلى المراكب تتهادى مع الموج الخفيف ذاهبة إلى البارجة لتحمل الجرحى إلى الميناء، إلى الأرصفة، إلى البرّ، إلى البلد. حين هبط الظلام أضاؤوا المشاعل والقناديل.

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. في وسط المرج ـ الأصفر العشب ـ تنخفض الأرض بعض الشيء وتتجمع بركة ماء لا تزيد عن مساحة بيتٍ صغيرٍ. في قلب البركة يستقر حصانٌ نافقٌ صخمٌ، والعقبان تجثم على جيفته. الغربان تحوم في الأعالي ولا تنزل على الجيفة. تخاف من الجيشين المتواجهين، أم من العقبان؟ الغربان تحوم وترسم دوائر وسط الشعاع الشمسي الضعيف. شاهين البارودي ينظر إلى العقبان الضخمة الشنيعة تقطع بمناقيرها المعقوفة جلد الجيفة ثم تنتزع شقفاً من اللحم، وتلتقط مصارين.

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. أولاد الشيخ إبراهيم خاطر جابر السبعة امتطوا الأحصنة الزحلاوية السبعة ومكثوا في ظلال غابة الصنوبر، في الميسرة، ينتظرون أمر الهجوم. قدري باشا قسم الثوار فرقتين: فرقة صغيرة في الميمنة نصفها من أبناء بيروت وصيدا وطرابلس وصور. وفرقة كبيرة في الميسرة، حيث غابة الصنوبر، معظمهم من أبناء الشوف. إلى جانب أبناء الشيخ إبراهيم خاطر جابر السبعة، كان معز الدين الطويل. وجنبه سليمان منذر.

هذا الأخير كان يحدق فوق الرؤوس بعيداً بعيداً باتجاه الميمنة، حيث المدافع الكثيرة. أصابعه كانت ترتعش من التوتر. من الترقب الفظيع الذي يعقد المصران ويوجع المعدة ويجعل الحلق جافاً واللسان خشناً كأنه مغطى بالرمل.

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. محمد الفاخوري ينظر إلى الرذاذ يهوي على السهل والجيفة والعقبان وبركة الوحل، ويفكر في زمنٍ قديمٍ مضى ولن يعود. الآن يشعر بالندم ويشتاق أن يقعد في البيتِ عندَ حافة «الطريق البيضاء» ويسمع نق عائشة هانم. بينما يفكر في بيروت يقطع حبل أفكاره صوتٌ خلفه. يستدير فيرى جنوداً يحملون القنابل، وآخرون يعدون المشاعل، بعيداً من أكياس البارود.

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. شاهين البارودي رأى الدخان يرتفع من المشاعل، ورأى آمر المدفعية يُكلم الجنود. لم يسمع الأوامر. شرد يتذكر الليلة الماضية. بينما ينظفون السلاح، بينما يغمس قماشة في الزيت ويمسح نصل السيف الذي أهداه إياه خاله محي الدين، جاء ابن خاله يخبره أن بين الثوار في الفرقة الصيداوية رجلاً يُدعى بلال أحمد نقوزي.

سأله محمد:

ـ وتعرف من يكون؟

قال شاهين:

ـ من يكون؟

أجابه محمد:

ـ هذا الأخ الأصغر لصهركم. أخوه، بائع اللحمة، زوج أختك زهرة.

بلال أحمد نقوزي وقف في الجانب الآخر من المدافع يربت على عنق الحصان. لن يمتطي حصانه إلاّ لحظة صدور الأمر بالهجوم. لا يريد أن يتعب الحصان. المعركة ستطول. وقف هكذا جنب الحصان في سرواله الأسود وقميصه الأبيض والبارودة ملقاة على كتفه. السيف كان مغمداً في البيت الجلد المعلق إلى سرج الحصان. من خاصرته تدلى خنجر معقوف. لم يكن يحمل غدارة ولا طبنجة. لكن نظرته بدت قاسية. شاهين البارودي راقبه من بعيد. وسأل نفسه هل يشبه هذا الرجل أخاه الجزّار («بائع اللحمة»، يسميه محمد) زوج أخته زهرة. الأخوة يتشابهون، فكر شاهين البارودي، وتمنى أن يرى عبد الرحيم وتمنى أن يرى عمر الصغير وتمنى أن يرى أباه عبد الجواد. أراد عندئذٍ أن ينسى زهرة. ليتها لم تُخلق قط!

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. المطر يتساقط في خيوطٍ رفيعة شبه خفية. الأحصنة ترسل صهيلاً خافتاً والبخار يرتفع من فتحات الرؤوس. الشمس غائبة وراء بطانية الغيوم. ونسائم الخريف تعبث في قمم الأشجار ذات الخضرة الدائمة. رائحة الصنوبر تملأ الفضاء. رائحة الصمغ ورائحة الورق العفن ورائحة التراب الأحمر. لكنها رائحة غير صافية. من الجنود تفوح رائحة عرق ومرض وبول. من قلب المرج تفوح رائحة الجيفة. ومن المدافع والبواريد تفوح رائحة زيت ورائحة صدأ ورائحة بارود.

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. الجيش في هذه الجهة أقل عدداً من الجيش في تلك الجهة. لكن المدافع هنا أكثر. وأحدث. مدافع إبراهيم باشا باتت قديمة. ومدافع الأمير خليل القليلة صبَّها أسلافه في فلورنسا وباتت قطعاً أثرية. على التلّ المرتفع يقف قدري باشا مقطب الحاجبين. حين تبزغ الشمس لحظةً من بين

الغيوم ويظهر قوس القزح فوق الغابة يرفع قدري باشا يمناه فتدوي المدافع.

ما هي إلاّ دقائق ثم تبدأ معركة بحرصاف. الجنود المصريون الذين يركضون في الجبال والأودية منذ ثلاثين يوماً يقفون الآن مستندين إلى بواريدهم وينتظرون لحظة الحقيقة. ثيابهم ممزقة. على وجوههم تراب.

مسح شاهين البارودي الماء عن شعره ووجهه. مسح الماء بكمّه عن البارودة، ومال على عنق الحصان. بعيداً بعيداً، في الجانب الآخر، خُيِّلَ إليه أنه يرى حصاناً أبيض ضخماً رآه قبل زمنٍ بعيدٍ ينحدر في نزلة الدركاه تحت وابلٍ من حبوب الرز. كان هذا حصان قائد العساكر المصرية إبراهيم باشا. التفت شاهين نحو ابن خاله، رآه يربت على عنق فرسه هو أيضاً. أشار بيده إلى الحصان الأبيض البعيد، وقال:

ـ إبراهيم باشا!

محمد الفاخوري رفع كفّاً فوق عينيه ـ كأن الشمس تبهره بنورها ـ ونظر عبر الرذاذ إلى الجانب الآخر.

قال بأنفاسٍ متقطعة:

ـ لا أرى شيئاً في هذا المطر اللعين!

شاهين البارودي تعرّف على الخوف في النبرة الغاضبة. مدّ يده، أمسك بذراع ابن خاله، ثم نظر في عينيه، وقال له:

ـ ابقَ جنبي! لا تدع الحصان يفلت منك حين يبدأ القصف! ابقَ جنبي! فهمت؟

هزّ محمد الفاخوري رأسه صاغراً. أراد أن يتكلم. لكن شيئاً غامضاً أعجزه عن الكلام. احتُجزت الكلمات في صدره أو زلعومه.

كأن يداً خفية سدّت فمه بحجرٍ. هزّ رأسه ثم نظر إلى الرجل الذي يقترب من فتيل المدفع حاملاً المشعل الملتهب.

شاهين البارودي صاح به عندئذٍ ألاّ ينظر إلى المدافع:

ـ أنظرْ هناك! إلى العدو! وابقَ قربي! فكرْ أننا نقفز فوق السطوح!

في تلك اللحظة بان قوس القزح فوق الغابة. اشتد نعيق الغربان ثم ساد السكون دفعة واحدة. سكون دام أقل من رمشة عين. ثم هدرت المدافع وتحركت موجة هائلة في الجانب الآخر. كأن مكنسة جبارة تكنس العساكر!

ارتفع الدخان والصراخ. العقبان طارت محلقة تاركةً الجيفة وسط السهل. القنابل الأولى سقطت في نصف المرج تماماً. ثم ارتفعت أعمدة الغبار في قلب العساكر المصرية. كان التراب يطير عالياً كالجبال ثم يتساقط كالمطر. بدا كأن القطرات النحيلة ضاعت في عاصفة التراب والبارود والنار والدم والدخان. محمد الفاخوري فقد منذ الثانية الأولى كل سيطرة على حصانه. المدافع أفزعت الحصان فانطلق جارياً نحو العدو. شاهين البارودي اندفع عندئذٍ يطارد ابن خاله نحو الموت.

الجيش المصري اندفع مع طلقات المدافع الأولى في هجوم خاطفٍ. من دون هجوم خاطف، هزيمته حتمية. إبراهيم باشا يدركَ أن المدافع العثمانية والإنكليزية ستذبح جيشه ذبحاً إذا لم يتمكن من الالتحام بالعدو بسرعة. هاجم المصريون السهل. بدا للضابط الإنكليزي العجوز ـ الواقف على التلّ المرتفع يلتهم حبّات السكر النبات ـ أنهم يهاجمون جيفة الحصان النافق وسط الوحول.

كانوا يصرخون ويركضون ويتعثرون بسيقانهم ويسقطون ثم

ينهضون من جديد. من أعلى رآهم يقتربون من شجرة جوز صغيرة تقع في نصف المسافة بين خط مدافعهم القديمة وبين جيفة الحصان. ابتسم بينما أسرعهم يبلغ ظل الجوزة. في اللحظة التالية اختفت الجوزة. تصاعد شلال تراب من الأرض وتطايرت الأشلاء في الفضاء. دوق مارلبورو الثالث رأى أذرعاً وأرجلاً تتطاير في الشلال وترتفع عالياً حتى تبلغ الرذاذ الصافي الهابط من السماء. القنابل صنعت خندقاً حيث كانت شجرة الجوز.

من الميسرة انطلق الأخوة السبعة على الأحصنة الزحلاوية السبعة يتبعهم معز الدين الطويل. كانوا منظراً بديعاً. بالطاقيات البيضاء على رؤوسهم، وبملابسهم السوداء كالليل، بدوا لدوق مارلبورو الثالث جنوداً في لوحةٍ زيتية معلقة في بهوٍ رخامٍ في قصرٍ إنكليزي. ارتفعوا فوق الغبار والدخان. ارتفعوا يعبرون صفْحة المطر الشفّافة وخُيِّل للدوق ـ المتعب النظر ـ أن حوافر جيادهم تطأ طرف قوس القزح الذي أخذ يتلاشى. طاروا كالصقور في وثبةٍ عالية وبدا أن الموت يعجز عن لمس شعرة في رؤوسهم. طاروا عالياً كالصقور ثم انكسروا في نصف الوثبة تحت وابل خردقٍ مزَّقهم ومزَّق الأحصنة.

من حافة الغابة في الميسرة خرجت فجأة كتيبة مصرية كاملة. كيف تسللوا إلى هناك؟ قدري باشا أصدر أوامره سريعاً، ونصف المدافع استدار بفوهاته إلى هناك. كانت المعركة تحمى. ورأى دوق مارلبورو بعض الجنود العثمانيين يركضون كالحمقى إلى قلب المرج. كانوا يركضون وراء اثنين من الخيّالة، وضرب الدوق رجله بالأرض. لم تصدر الأوامر بالهجوم، فما بال هذين الفارسين؟

لحق شاهين البارودي بابن خاله قبل أن يبلغ جيفة الحصان في قلب السهل. لحق بابن خاله ولجم الفرس الجامحة. شدّ الفرس

نحوه ونظر إلى محمد: قد تبدل لونه، صار وجهه ـ كاليقطينة ـ أصفر. العرق سال على وجهه، ورائحة غريبة فاحت منه. شاهين فتح فمه كي يقول شيئاً. لم يستطع. دوى انفجارٌ على بعد قدمين. طار مع حصانه ولم يعد يرى شيئاً.

حين فتح عينيه رأى أنه لم يُصبْ بأذى. لم يعرف كم من الوقت مضى وهو ملقى هكذا على الأرض. كان وجهه على العشب اليابس ورأى أن العشب ما عاد أصفر مبلّلاً بالرذاذ. رأى أن العشب صار قاتماً لزجاً. لم يكن هذا دمه. لكنه كان غاطساً في بركة دم. حاول النهوض فأدرك أن ثقلاً يغرزه في الأرض. في الأعالي كانت السماء بيضاء. ورأى أبر المطر تتساقط فضّية مشعة. رفع جذعه غارزاً يديه في العشب والوحل والدم فرأى حصانه مبقور البطن، ورأى أن ساقه اليمنى محتجزة تحت الحصان. في تلك اللحظة تذكر ابن خاله. رفع رأسه فرأى عدداً لا يحصى من البشر.

كانوا رجالاً كلّهم. وكانوا يزعقون. رأى سيوفاً ورأى بواريد ورأى انفجارات الدم. سقطت ذراعٌ أمامه. أزاحها بقدمه. رأى الشرايين الخضراء والزرقاء. ارتفع شلال تراب عن يمينه ثم سمع صياحٌ من الجانب الآخر. كان يسمع بأذنٍ واحدة فقط، من جانبٍ واحد فقط، لكن هذا الصياح ثقب رأسه من جهة إلى أخرى. التفت فرأى رجلاً يقترب منه محني الظهر. لم يكن رجلاً. كان فتى ضخم الجثة في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. عرف سنّه من وجهه اللطيف، من نظرته. كان يتقدمَ بخطى بطيئة، نظيف الوجه، وشعره ممشط، ومفروق. كان يقترب بلا سيفٍ وبلا خنجرٍ وبلا بارودة. وبدا كأنه يبتسم. لكنه لم يكن يبتسم. اقترب الفتى بخطى بليدة حاملاً في يديه المصارين الحارة التي اندلقت من ثقب في بطنه. كان البخار يتصاعد من جوفه ورأى شاهين البارودي إبر المطر تتساقط

على المصارين وتغسلها. أشاح بوجهه بعيداً ثم جعل يُخلص ساقه من تحت حصانه القتيل.

وجد بارودته. وخلَّص السيف من سرج الحصان. الفتى سقط جنبه. سمعه يقول شيئاً عن الماء. لم يفهم ماذا يقول. من يفهم شيئاً في هذا الهدير؟ لعله يطلب جرعة ماء. لكن لماذا؟ يكفيه أن ينقلب على ظهره وأن يفتح فمه. رذاذ المطر يقوى لحظة بعد لحظة. دار شاهين البارودي حول حصانه. ثم هوى على جنبه. لم يكن مصاباً. لكن قنبلة أخرى سقطت على بعد خطوات فأوقعته. مادت الأرض تحت قدميه وغطّت الأتربة رأسه وكتفيه. هذه المرة بقي قاعداً على الأرض. لا ضرورة للوقوف الآن. بحث بنظرات قلقة عن ابن خاله. أين ضاع في هذا الزحام؟ كانت الأجساد تتكاثر على الأرض. وكلّها تتلوى. ثم رأى أحدهم ينهض من وراء فرس تحول رأسها كتلة من اللحم المطحون والمعجون بالدم والوحل. كانت فرساً تشبه فرس ابن خاله. ثم رأى محمد. وقف محمد الفاخوري وسط الغبار، جامداً كالفزاعة. وقف منتصباً بين جرحى وقتلى، وبدا كأنه يُصلّي.

شاهين رآه من خلف. لم يكن قادراً على رؤية وجهه من هنا. لكنه عرفه من ثيابه ومن شكل رأسه. هتف به أن ينزل على الأرض. صاح باسمه. صاح مرة ثم أخرى، لكن مَنْ يسمع من في صخب هذه المذبحة! قفز شاهين فوق الجثث حتى بلغ ابن خاله. جذبه من كتفه وأسقطه في خندقٍ حفرته قذيفة. أمسك بالوجه المغطى بالدم بين كفّيه وطلب منه ألاّ يخاف.

ـ حبيبي يا محمد. حبيبي يا محمد.

حين مسح الدم عن الوجه رأى أن الرجل الذي يموت بين ذراعيه ليس هو ابن خاله. تركه في الخندق وقفز حاملاً سيفه. نسي

البارودة لا يدري أين. مشى حاملاً السيف وكل من اعترض دربه سقط على الأرض. لم يكن بحاجة لأن يطعن أحداً. كانوا يتساقطون وحدهم، كالذبان، عن جانبيه. انفجرت قنبلة على حصان ملقى بين الجرحى. انفجر اللحم. لطّخت الدماء والقاذورات ثيابه. ولطّخت سيفه. مسح ما علق بوجهه ثم رفع رأسه إلى السماء ليغتسل بالرذاذ. في تلك اللحظة سقطت يدٌ على كتفه.

استدار بسيفه ليضرب العدو فرأى ابن خاله باسم الوجه. الملعون كان يبتسم! ما زال العرق يتصبب من وجهه، وما زالت الرائحة القذرة تتصاعد من ثيابه، لكنه الآن يبتسم! ولم يكن جريحاً.

تعانقا بين الأجسام المتدافعة. كانا بخير. لم تقتلهما قذيفة بعد. لم يجرحهما الخردق ولم تهرق دمهما الشفرات. كانا بخير. ورأى شاهين ابن خاله ينحني ويلتقط بلطةً عن التراب. رآه بين أشباحٍ هائمة.

قال شاهين:

ـ ابقَ جنبي! أحمي ظهرك وتحمي ظهري! لن نُقتل هنا كالكلاب!

محمد استعاد شجاعته القديمة عندئذٍ، مسح العرق عن وجهه، وقال:

ـ كأننا نقفز على السطوح. أنا معك.

اقترب منهما سودانيٌ يحمل فأساً. تلقاه شاهين بضربة قصّت يده من المعصم. محمد أهوى على ظهره بضربة أخرى. تركاه يتخبط في موته واندفعا نحو حافة المرج. هناك كانت الزحمة أخف. هتف شاهين.

ـ السنديانة!

عند حافة المرج بانت سنديانة هائلة الجذع. قرّرا أن يشقا درباً إليها. الجيشان تلاحما تلاحم قطيعين من الثيران الهائجة. من التلّ المرتفع رأى القادة اشتباك الخيالة والمشاة في السهل. كان رذاذ المطر يقوى، والقنابل تزرع الموت في أمواج الجنود، والصراخ يرتفع حتى الغيوم. حين جاوز الوقت الظهيرة تحول الرذاذ إلى وابلٍ قوي. استمر ذلك دقائق. ثم توقف المطر عن الانهمار. لكن قبل أن تصحو، قال محمد:

ـ لعل المعركة تتوقف.

وردّ شاهين:

ـ فعلاً، المطر يعيق القتال.

تكلما وضحكا بينما يدفعان المهاجمين عنهما بالأيدي. كفّا منذ حينٍ عن الضرب والطعن. لا أحد هنا يقتل أحداً. القنابل تقتل الجميع. لا أحد يطعن أحداً هنا. الكلّ يهرب من الانفجارات. لا أحد يعرف عدواً من صديقٍ في هذا الغبار، في هذا التراب، في هذه الوحول، في هذا المطر.

لكن الحال تبدلت حين صحت السماء. صحت السماء وسكتت المدافع لحظة عن الزمجرة فانقشعت الرؤية. كانت لحظة يفحص فيها كل جانب ماذا جرى، ماذا ربح وماذا خَسِر، أين صار الهجوم وأين صار الدفاع، من تقدم ومن تراجع، وإلى أين من هنا؟ كانت لحظة وجيزة من صفاء الرؤية. قدري باشا رأى من مكانه المرتفع أن الهجوم المصري قد انكسر. الكتيبة التي خرجت من الغابة أبيدت عن بكرة أبيها. وقلب الجيش المصري تدبّ فيه الفوضى. القنابل حصدت الصفوف الأمامية حصداً. رفع قدري باشا يمناه فدوّت المدافع من جديد.

هذه المرة لم تتساقط القنابل في قلب المرج. الخطة التي رُسمت سلفاً على التراب كانت تُنفذ بدقة. هذه المرة، وبعد أن أُعطِب الهجوم المصري، جعلت القنابل تتساقط على الصفوف الخلفية للعساكر. في قلب السهل، حيث باتت الرؤية واضحة أخيراً، بدأ القتال الحقيقي، بالبواريد، بالغدّارت، بالبلطات، بالخناجر، بالسيوف، بالأيدي، وبالفؤوس.

شاهين ومحمد أوشكا أن يبلغا السنديانة. الضحكات تجمّدت على وجهيهما حين سكت القصف لحظة. الضحك زرع ذعراً في قلب شاهين، وجعل العرق يسيل على وجه محمد من جديد. هذا الضحك ليس ضحكاً! يمكن أن ينفجرا في البكاء الآن! ثم زمجرت المدافع مرة أخرى. شدّ شاهين ابن خاله من ذراعه وكرّر كلمته:

ـ السنديانة.

قطع عليهما الطريق فارسٌ مصري على حصان بلون الرماد. شاهين أخرج الغدّارة من حزامه الحرير العريض وسدّد إلى وجه الفارس. لكن، قبل أن يُطلق النار، صهل الحصان وارتفع على القائمتين الخلفيتين، فهوى الفارس أرضاً. حين وقف ظهر أنه عملاق، وظهر أنه ليس مصرياً. كان تركياً. وأخبراه أنهما يسعيان إلى السنديانة.

صاروا ثلاثة. على الطريق إلى السنديانة التحموا مع العدو أكثر من مرة. محمد وضع غدّارة في قذالِ سوداني يهاجم ابن عمته ثم أطلقها. انفجرت رقبة السوداني وغطّت شقفُ اللحم وجه شاهين. التركي العملاق التقط مصرياً كان يسدد البارودة إلى محمد وعصره عصراً ثم رماه جانباً. محمد سمع طقطقة العظام. شاهين لم يسمع شيئاً. بات الهدير طاغياً في جمجمته. كانوا على بعد عشرين متراً

من السنديانة الآن. لكن القنابل انفجرت في المسافة الفاصلة. دوَّت الانفجارات ونوفر التراب وشاهدوا شجيرات شوك ترتفع مع جذورها ثم تغيب عن أبصارهم. بعد ذلك رأى شاهين أحصنة تطير فوق نوافير التراب ورأى نوراً حاداً يلمع على النصال ورأى فرساناً يتشابكون بالسيوف معلقين في الفضاء.

كان يستلقي على التراب الآن. والدم يسيل من ساقه. أيقن أنه أصيب. تمزق بنطلونه وسال الدم تحت ركبته. لم يشعر بالألم. محمد كان منبطحاً جنبه، عيناه مفتوحتان، ويده ما زالت تقبض على البارودة. لكنه كان جامداً بلا حركة. لم يجرؤ شاهين على نطق اسمه. حين التفت محمد صوبه تنفس. قبل أن يتحرك محمد كان شاهين عاجزاً عن التنفس. ظنّ أنه قُتِل.

سأله محمد:

ـ وحين نبلغ السنديانة؟

في البدء لم يفهم شاهين سؤال ابن خاله. كان مضطرب البال. حين فهم أجابه:

ـ نتسلقها ونبقى فيها حتى تنتهي المعركة.

التركي العملاق زحف حتى بلغ الرجلين. سألهما لماذا يستلقيان على التراب؟ ثم أشار بيده إلى السنديانة. وقفوا وركضوا. هبطوا في الحفرة الكبيرة ثم صعدوا. صارت السنديانة على بعد عشرة أمتار. شاهين رأى الأغصان تتمدد في الفضاء، تطلب أن تعانقه. بقفزةٍ واحدة يبلغها. قبل زمنٍ بعيد وعد المرحومة أمه أنه لا يتسلق الأشجار ولا يتسلق الحيطان ولا يتسلق الأبراج. لكن الحال الآن تختلف. هذه حرب. ولا أحد يفكّر في مثل هذه الوعود الآن. شاهين بالتأكيد لم يتذكر شيئاً من ذلك في تلك اللحظة. كان يطلب

النجاة لنفسه، ولابن خاله أيضاً. لم يفكّر في التركي. لم يتساءل هل يستطيع هذا الرجل أن يتسلق السنديانة؟ من يفكّر بهذه الأمور في قلب معركة! ثم من هو هذا العملاق كي يفكّر فيه! كل واحد ينجو برأسه في هذا اليوم المنحوس. كل واحد ينجو برأسه. ثم لماذا يكون هذا العملاق عاجزاً عن تسلق الأشجار؟ شاهين ضخم مثله. ليس في طول قامته، لكنه ضخم مثله. ورغم ذلك لا يعجز عن تسلق شجرة.

صارت السنديانة على بعد سبعة أمتار. سمع شاهين صرخة ابن خاله. سقط ابن خاله في هذه الجهة، جهة الأذن التي تسمع. توقف شاهين عن الركض، وأنحنى على محمد. أراد أن يرى ماذا حدث له.

ما هي إلاّ دقائق ثم تنتهي معركة بحرصاف. يفرُّ إبراهيم باشا مع عساكره هارباً، ويحرق القرى في طريقه إلى غزة ومصر. يفرّ في سهول المتن الضيقة، والمتعرجة - في نومها الساكن الوديع - بين الجبال. تُظلّل فراره غابات صنوبر ومنحدرات قاحلة وغيوم جافة وأسراب من الغربان. يفرّ تاركاً بلاد الشام إلى الأبد. ولا يعلم أنه سيلقى حتفه بعد سنين ممدّداً في مياهٍ حارةٍ في بلاد الفرنسيس. يفرّ إبراهيم باشا من هذه البلاد وتنتهي حقبة في التاريخ.

ما هي إلاّ دقائق ثم تنتهي معركة بحرصاف. الإنكليز الذين هزموا نابليون يطردون محمد علي من سورية. بعد شهرٍ كاملٍ على قصف بيروت يسحقون بقية عساكره في بحرصاف. وبعد أيام يدكّون بالقنابل ما بقي من أسوار عكا. إبراهيم باشا يهرب إلى مصر. وبلاد الشام تعود جزءاً من السلطنة العثمانية. اللورد بالميرستون سعيد، ودوق مارلبورو الثالث يفكّر في تدوين اسم هذا السهل اللبناني الضيق في كتابه المقدس.

ما هي إلاّ دقائق ثم تنتهي معركة بحرصاف. بعد المعركة تنزل الجوارح على الجيف. تنزل على القتلى وتنزل على الجرحى. في الفوضى يحدث ما يحدث. وكل واحد ينجو برأسه. من لا تُكتب له الحياة يكتب له الموت. والغربان تصيح:

ـ قعق. قعق. قعق.

ما هي إلاّ دقائق ثم تنتهي معركة بحرصاف. تتباعد الغيوم وتميل الشمس في قوسها الأبدي وتلقي شعاعاً حاراً على المحتضرين. كل هؤلاء الذين استلقوا في الوحل لن ينهضوا من جديد. لكن بعضهم (بلى) قد ينهض. اللون البرتقالي يغمر السهل. شعاع الشمس الغاربة يمتزج بالدم والوحل وبالعشب الذي كان هذا الصباح أصفر. كان أصفر كالذهب. على رؤوسه الرفيعة تلمع قطرات المطر كحبات لؤلؤ وماس. كان عشب المرج أصفر هذا الصباح.

ما هي إلاّ دقائق ثم تنتهي معركة بحرصاف. الأحياء يبحثون عن معارفهم بين الموتى. والجرحى يُنقلون على الحمير والبغال. العربات يصعب أن تكرّ في هذه الأرض الوعرة. المدافع وصلت إلى هنا بمعجزات. لن تأتي الدرب إلى هذه الأرض إلاّ بعد عقود، بعد 1860، في زمن المتصرفية. الآن لا عربات هنا. الجرحى على الوحل. والصراخ يعلو إلى السماء. الكل يشكو العطش والكل يطلب شربة ماء. الجريح الذي ينزف يطول عليه الوقت قبل أن يلفظ الروح.

ما هي إلاّ دقائق ثم تنتهي معركة بحرصاف. في الليالي الآتية لن تنام بيروت. كل مساء تصل سفينة إلى الميناء مقبلة من ساحل المتن. السفن محملة بالجنود ومحملة بالجرحى. على السفينة الأولى يصل رجلٌ من صيدا، مجروح في فخذه. يبتسم للأهالي

ويخبرهم أن البيروتيين لم يسقط بينهم قتيلٌ واحدٌ. الكلّ نجّوا. بعضهم تلقى شظايا. بعضهم أصيب إصابات بالغة. لكن الكل نجوا. زوجة الحاج مصطفى غندور الفاخوري تعتني مع كنّاتها بالجرحى. إحدى بناتها تسأل الصيداوي الجريح هل رأى محمد الفاخوري، هل يعرف رجلاً من بيروت اسمه محمد الفاخوري؟ يقول الصيداوي إنه بالتأكيد يعرفه. يعرفه ويعرف شاهين البارودي. يقول إنه حارب معهما في بحرصاف وإنهما حاربا كالأبطال. ثم يقول إنهما بخير. لا، لم يُقتلا. لكن وجهه يسقط في الأرض. المرأة تسأله أن يقول كل شيء. إنه يُخفي شيئاً، ماذا يُخفي؟

يقول الصيداوي عندئذٍ إن أحدهما فقد ذراعه. قنبلة أصابته وقصّت الذراع من المرفق. الصراخ يعلو في البلد. الجرحى على الأرصفة وفي السراي. زعيق النساء يعلو. لكن الصيداوي لا يُحدد من الذي قُطعت ذراعه، محمد أم شاهين؟ يقول إنه غير متأكد. يقول إن المعركة ليست كـ. . . يقطع عبارته في نصفها. صوته يتهدج ثم ينخرط في نوبة بكاء. عبد الجواد أحمد البارودي يجيء راكضاً من الميناء. يجيء راكضاً إلى حيث الرجل الصيداوي الجريح. ينحني عليه ويهزّه كي يتكلم، لكن الصيداوي لا يعرف، ليس متأكداً. كل ما يعرفه أن الاثنين بخير. لم يُقتلا في المعركة. يقول أحدهما فقد ذراعه. يكرر الصيداوي كلماته، وذراع عبد الجواد أحمد البارودي تهزّه. حين ينتبه أن هذا الرجل أيضاً بذراعٍ واحدة يصاب بالخرس. الضوء ينطفئ في عينيه.

ما هي إلاّ دقائق ثم تنتهي معركة بحرصاف. في الأيام التالية لا تنام المدن على الساحل. كل المدن قفران نحل ودبابير. على الرصيف ينتظر عبد الجواد أحمد البارودي سفينة أخرى محملة بالجرحى، إنها السفينة الأخيرة، البارجة «ليفربول»: تحمل من بقي

حيّاً من الفرقة البيروتية. العائدون في الأمس قالوا إن الكلّ بخير. لم يمتْ أحد. في الأغلب الكلّ نجوا. ليسوا متأكدين. من يتأكد من أمرٍ كهذا! كانوا في معركة. وكلهم أصيبوا بالشظايا أو الطعنات أو كبسات الخردق! كان الخردق ينهمر كالبرَد عليهم. والقنابل تمزقهم شرّ تمزيق. من لم يكنْ في حربٍ لا يعرف ما هي الحرب. الدم، الدم، الدم. كل ذلك الدم الذي يتدفق من ثقوب الأجسام! لا أحد يصدق أن الواحد يتسع جسمه لكل ذلك الدم! فكيف يتأكد الإنسان مَنْ ظلّ حياً ومن نزف كل دمائه هناك، في بحرصاف! من يتأكد؟

ما هي إلاّ دقائق وتنتهي معركة بحرصاف. في الليالي الآتية لا يغمض جفنٌ لعبد الجواد أحمد البارودي. لكن اليقين يملأه: شاهين عائدٌ. عائدٌ بإذن اللّه. الآن يفهم ما رآه في المنام: كان عبد الرحيم يلفّ لفافات التبغ له ولشاهين معاً. شاهين صار مثله، صار بذراعٍ واحدة!

عبد الجواد أحمد البارودي رجع يصلّي الخمس صلوات ويطلب رحمة ربّه والسماح. كلّما رجع مركبٌ محمّلاً بالجرحى ارتجف قلبه وكفَّ عن الخفقان. شاهين عائد. يعلم أنه عائد. عائدٌ بإذن اللّه. الآن يفهم ما رآه في المنام: جنب عمر، أو جنب عبد الرحيم، رأى صندوقاً مملوءاً بثلج الجبال. بهذه الثلوج التي تُحفظ في المغاور الباردة طوال الصيف يستطيع أهل بيروت شرب التوت مثلجاً في عزّ تموز. بهذه الثلوج كانت أمه تصنع له «يَقْسَما» قبل زمنٍ بعيدٍ. في دمشق، قبل دهورٍ، كانت أمه تمزج الثلج - المجلوب إلى البلد من جبل الشيخ - بالسكر والحامض وماء الزهر. يذكر صندوق الثلج. لا ينسى ذلك الصندوق. لأنهم أرادوا في البدء أن يصنعوا من الصندوق تابوتاً لذراعه المقطوعة! ثم قالت أختٌ من أخواته إن هذا حرام.

عبد الجواد أحمد البارودي الذي سمع دائماً إن المنامات لا تُفسر إلاَّ بطرقٍ غريبة، أيقن أن شاهين عائدٌ: كان يقيناً غامضاً غير مفهوم. امتلأ عبد الجواد أحمد البارودي إيماناً وقال إن سبحانه رحمٰن رحيم، وقال إن السماء لا تتخلى عن المؤمنين. كان واقفاً على الرصيف ينتظر المركب الآتي من السفينة الراسية حين جاء أحدهم من الحارة وأخبره أن جاريته كلفدان تلد الآن. تذكر عندئذٍ أنه منذ أيام لم يمر عليها. كل يوم يقول الآن أمرّ. ويمضي الصباح ثم يمضي النهار كلّه ولا يمرّ. الآن، بينما ينظر إلى البحر واقفاً مع الواقفين، تذكر امرأة تعبر سوق الفشخة في عباءة ملونة، والأساور تخشخش في ذراعيها. كيف مضت السنون؟ والآن تلد له طفلاً: ذكراً أم أنثى؟ امنحْ عبدك ما تشاء يا ربّ!

فكّر عبد الجواد أحمد البارودي في المرأة الشركسية التي تلد الآن، وقال:

ـ بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. بسم اللّه الرحمٰن الرحيم.

قال في نفسه إن ما يريده سبحانه يكون. ولا يهمّ إذا وُلدت له ابنة. لا يُهم. كل هذا لا يُهم. المهم الآن أن يعود شاهين. نظر عبد الجواد أحمد البارودي إلى ابنه عبد الرحيم، ثم نظر إلى ابنه عمر، وقال:

ـ أخوكم شاهين راجع. راجعٌ بإذن اللّه.

كانت الغيوم تتباعد في سماء الخريف. ألقت بقعاً فسيحة من الظلال الداكنة على صفحة البحر. تطايرت النوارس بين الأشرعة. لكن السماء ظلّت خالية تماماً من الغربان. منذ يومين غادرت الطيور سماء بيروت. كلّها مضت نحو الشمال، نحو الجبال، نحو بحرصاف.

ما هي إلاّ دقائق ثم تنتهي معركة بحرصاف. تنتهي معركة بحرصاف وينتهي الجزء الأول من هذه الرواية. تركنا شاهين البارودي ينحني على ابن خاله ليرى ماذا حدث له، لماذا صرخ، ولماذا سقط؟ وها هو وجه محمد يرتفع. وها هو ينظر إلى أعلى. كان الدم يغطي وجهه، مثل ذلك الرجل، ذلك الرجل الذي حَسبه محمد عند بداية المعركة. متى بدأت المعركة؟ قبل ساعة؟ قبل ساعتين؟ الشمس راكزة في كبد السماء. كأنها عُلِّقت على سن رمح. ثابتة بين غيوم تتباعد ثم تتكاثف. الشمس في المركز. والغيوم الصفر حولها تتلاشى ثم تتشكل من جديد. كأن الزمن توقف. منذ دهورٍ يركضان ويقتلان. منذ دهورٍ يفرّان من الموت. يقفزان بين الحفر كما قفزا فوق سطوح بيروت قبل سنين. وها هو محمد على الأرض والدم على وجهه.

مسح شاهين الدم بيديه. انتبه أن يديه أيضاً يغطيهما الدم. الدماء التي تنزف تحت ركبته بلّلت قماشة بنطلونه الفضفاض ونزلت في جزمته. مسح شاهين الدم عن وجه ابن خاله فرآه يبكي.

ثم سمعه يقول:

- أمي! أمي!

كان ينادي أمه. شاهين تلمس جسم ابن خاله وتأكد أنه لم يصبْ بالأذى. التركي العملاق كان مطروحاً إلى جانبه والدم ينوفر من صدره. الدم على وجه محمد كان من التركي المنحوس. لم يكن دمه. محمد ظلّ ينده على أمه، وقبضته تشتد على البارودة. لم يترك البارودة ولم يتوقف عن ترداد النداء:

- «أمي! أمي! أمي!».

شاهين أيقن أن الرعب جمد أوصال ابن خاله. صار كالحطبة.

أدرك أن عليه أن يحمله. لكن قبل أن يفعل ذلك رأى ظلاً يعبر في البؤبؤ المذعور. رأى الظلّ لكنه لم يسمع الصوت الآتي من وراء رأسِهِ. أذنه الطرشاء منعت عنه سماع الصوت لكن الظل انعكس في البؤبؤ وشاهين استدار ورأى حصاناً ضخماً أبيض يخرج من غيمة التراب. على صهوة الحصان ظهر الرجل المربوع بالطربوش العسكري على رأسه والبارودة المذهبة المرصعة بالجواهر في يده. الرجل الذي رآه قبل تسعة أعوام داخلاً بيروت من باب الدركاه.

كان هذا إبراهيم باشا! ورآه شاهين البارودي يرفع البارودة إلى كتفه ورآه يُسدّد فوهتها المظلمة إليه. رأى كل ذلك وظلَّ جامداً. عبر غيوم الغبار رأى أن الرجل عنده عين خضراء وعين سوداء. ورأى أن الرجل حزين. كأنه على وشك البكاء. ثم غطَّت غيوم التراب، الفضاء، واختفى الرجل مع حصانه.

استيقظ شاهين البارودي من شروده. أحسّ كأنه نام قاعداً على الأرض هكذا، جنب ابن خاله، وجنب العملاق الذي تتدفق منه الدماء. كان محمد قد سكت أخيراً. لكن أصابعه ظلّت تقبض بقسوة على البارودة. كل أصابعه ازرقت. قرر شاهين أن عليه التصرف بسرعة. حمل ابن خاله على كتفيه وركض نحو السنديانة. لم يركض. مشى. مشى وعرج وكاد يسقط. ساقه مصابة. والمعركة هدّت جسمه هدّاً. البارودة في يد ابن خاله كانت تطرقه في ظهره. ثم سمع محمد يصرخ باسمه:

ـ شاهين! شاهين!

لم يفهم لماذا يصرخ ابن خاله هكذا. كان ينادي على أمه، فهمنا، لكن لماذا ينادي عليه الآن؟ ألا يعرف أنه يحمله؟ هل ينظر إلى العملاق الآخر (ذاك التركي) المطروح في الوحل ويحسب أنه هو؟ ألا يعرف أنه هو ـ ابن عمته ـ من يحمله؟

ـ شاهين! شاهين!

ـ قعق! قعق!

صراخ محمد اختلط بزعيق الغربان اختلط بهدير المعركة. ثم أخذ الرذاذ يهمي من جديد. كان ساخناً هذه المرة. ولم يفكر شاهين أنها أرض المعركة تجعل الفضاء ساخناً. ساخناً بالدم وساخناً بالبارود وساخناً بالنار وساخناً بالأنفاس وساخناً بالأجساد العرقانة. هطل الرذاذ خفيفاً على سهول المتن وهطل خفيفاً على شاهين البارودي.

كان يخطو في أرضٍ قاحلة، يخطو نحو سنديانة تبدو على بعد شبر. يخطو ولا يصل. تقدم ببطء. ساقه لا تكاد تحمله. ابن خاله ثقيل على ظهره. ثقيل، ثقيل، ثقيل. ومع كل شبرٍ، مع كل خطوة، يثقل أكثر. كأنه يتشبع بالدخان. كأنه يتشبع برذاذ المطر. انغرزت قدما شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي في الوحل. نظر إلى أسفل فرأى عبر المطر أنه يخطو في بركة بلون العنب المعصور. رفع رأسه من جديد ونظر إلى أغصان السنديانة. كانت تقترب. وقال إنه سينجو. سينجو ويرجع إلى بيته. يرجع إلى أهله ويعيش بين أهله.

ها هي السنديانة على بعد خطوة. إذا مدّ ذراعه يلمسها برؤوس الأصابع. ها هي السنديانة. رأى الورق بتعرجاته وأسنانه. رأى حبّات البلوط على التراب. ورأى حسّوناً على الغصن. أيبقى الطير الجميل الصغير على الشجرة في هذه العاصفة؟ كل هذه الانفجارات ولا يفرّ! لا يطير بعيداً!

شاهين البارودي تقدم وجسم ابن خاله يثقل على كتفيه والصوت يهدر في دماغه:

ـ شاهين! شاهين!

ـ قعق! قعق!

لكن لماذا يناديه هكذا؟ ماذا لو ألقاه على الأرض وجرّه جرّاً؟ السنديانة قريبة. ثم أنه يرى عندئذٍ لماذا يصرخ هكذا. لكنه تعبان. تعبان ويخاف إذا وضع محمد عن كتفيه أن يعجز عن الحركة من جديد. نزفت الدماء من ساقه، وها هو البرد يأتي. يحسّ قطعان النمل تسري في قدمه وتتسلق الربلة إلى الركبة. أغمض عينيه. للحظة سكنت الأصوات. ثم أدرك ما يفعله ابن خاله. فهم لماذا يصرخ هكذا، لماذا ينادي عليه، لماذا يزعق هاتفاً:

ـ شاهين! شاهين!

فهم حين سمع الحركة الغريبة خلفه. استدار فرأى سودانياً نحيلاً يطارده وهو يعرج أيضاً. كان مصاباً في ساقه، ربما في بطنه، ربما في ظهره. لكنه كان يرفع السيف الهلالي الشكل عالياً فوق رأسه ويقترب، أكثر فأكثر، بخطى ثابتة. شاهين أراد أن يرمي الثقل عن كتفيه، أن يتحرر، ثم أن يُخرج سلاحه من حزامه. لكنه لم يكن متأكداً هل ستجد يده سلاحاً في الحزام أم لا! ماذا يحمل بعد؟ غدارة؟ خنجراً؟ لم يعد متأكداً. سقط ألف مرة. ونهض ألف مرة. قتل عدداً من الرجال. وجرح عدداً. لكن بسلاح مَنْ وكيف، لا يدري! عليه أن يرمي الثقل عنه، أن يتحرر، ورغم النعاس الذي يهبط على دماغه، عليه أن يواجه هذا العبد الرفيع. عليه أن يرمي الثقل عنه.

لكن قبل أن يفعل ذلك لمع شعاع الشمس على الشفرة المقوسة وسمع الصرخة. أمام عينيه رأى ذراعاً تسقط على الأرض مقطوعة من كوعها.

لم يجد ذلك غريباً. منذ زمجرت المدافع قبل ساعة وهو يرى الأطراف تتطاير. الناس يتقطعون شقفاً، والدم يسيل، والأحصنة تصهل وترمي الفرسان في الفضاء ثم تسقط في الوحل. لم يجد سقوط الذراع على الأرض غريباً. استغرب فقط أن تظلّ الأصابع الزرق قابضة على البارودة. تحرر في تلك اللحظة من النعاس الذي يكبل دماغه فرمى ابن خاله على الأرض وقفز على السوداني. استعاد لوهلةٍ قصيرة قوةً أليفة: دبَّت القوة في يديه وأطبق على عنق السوداني الرفيع. كان رجلاً بلون الفحم، أسنانه بيضاء كالثلج، وبياض عينيه كالحليب. عصر العنق اللزجة بين أصابعه وأحسّ بالشفقة على الرجل. قطع ذراع محمد، بلى، ويريد أن يقتله، صحيح، لكنه أشفق عليه. أشفق عليه بسبب نحوله. يبدو مريضاً سقيماً. وها هي الشرايين تظهر حمراء في بياض عينيه، وها أنفاسه تتقطع! جحظت عينا السوداني لكنه لم يمتْ. شاهين أحسّ بالجسم الرفيع يتململ تحت جثته الضخمة، يتململ كأفعى الجوز. لم يتذكر عندئذٍ مشهداً من طفولةٍ بائدة ومفقودةٍ وضائعةٍ إلى الأبد. لكنه أحسّ بالرعب. فجأة أحسّ أن هذا العبد النحيل ليس ضعيفاً. لكن إحساسه جاء متأخراً. انغرز خنجرٌ معقوفٌ في بطنه. كان خنجراً مزدوج الرأس، شفرته مثلومة، إذا طعن جسماً مزّق اللحم تمزيقاً.

انغرز الحدّ في بطن شاهين البارودي. ثم تحرك في جوفه وقطَّع أمعاءه تقطيعاً.

أغمض شاهين عينيه. ثم وجد نفسه ينقلب عن الجسم الأسود النحيل اللزج ويستلقي على ظهره. حين فتح عينيه رأى صفّين من الأسنان اللامعة. كان الأسود يبتسم. وعيناه قد استعادتا البياض الحليبي الأول. ببطء رفع السوداني جسمه الصغير عن الأرض وركب على صدر العملاق الذي لا يعرف اسمه. ركب على صدر

العملاق الممزق البطن ونظر إليه. استغرب رؤية ابتسامة على وجهه. العملاق كان يبتسم.

شاهين البارودي ما كان يبتسم. هذا شكل وجهه. كان يبكي عندئذٍ. يبكي بلا صوتٍ. لكن البلّل ترقرق في عينيه. لم يكن يبكي خوفاً من الموت. كان يبكي ألماً. الألم فظيع في بطنه. ماذا فعل هذا السوداني ببطنه؟

السوداني الراكب على صدر شاهين البارودي وضع يديه الصغيرتين على الفم الباسم وعلى الأنف الكبير. أراد أن يخنق عدوه. شاهين البارودي ترك السوداني يخنقه. لكن السوداني لم يكمل مهمته. في نصف الطريق أوقف الضغط بيديه على أنف شاهين وفمه. تراخت أصابعه وسقط جانباً.

شاهين البارودي فتح عينيه ورأى ابن خاله محمد على بعد خطوتين ورأى دخاناً يتصاعد من غدّارةٍ في يده الباقية. فكّر شاهين عندئذٍ أن ابن خاله صار مثل المعلم عبد الجواد، صار بذراعٍ واحدة. الفرق أن أبا شاهين ذراعه مقطوعة من الكتف. ومحمدُ ذراعه مقطوعة من المرفق.

زحف محمد صوب ابن عمته. لم يصلْ إليه. كان جسمه مهدوداً من التعب. نظر إلى الدم يتدفق من كوعه. كانت الشرايين ظاهرة وقماشة القميص المقطوع تغطي بالخيوط المبلولة اللحم. لم يشعر بالألم. فكّر أن عليه العثور على ذراعه. عليه العثور على يده. كانت فكرة عجيبة. ثم أحسّ بضربة السيف على كوعه مرة ثانية وغاب عن الوعي. استيقظ بعد قليل. ثم فقد الرشد مرة أخرى.

ممدداً على ظهره، يحاول أن يرد أمعاءه إلى بطنه ولا ينجح، رأى شاهين بن عبد الجواد أحمد البارودي أبر المطر تتساقط من

الأعالي. عاد المطر يبرد. أو أنه البرد في جسمه. كان الرذاذ يهمي ناعماً طيب الطعم. فتح الرجل فمه وذاق الرذاذ. كان حلواً. لم يعد يسمع الهدير. لكن الألم الفظيع ظلّ يحرقه حرقاً. حاول أن يردّ مصرانه إلى جوفه بأصابعه لكن الأصابع انزلقت على الظروف اللزجة. كان الأمر أصعب من التقاط السمك في مياه النهر. شاهين البارودي لم يفكر في السمك عندئذٍ ولا في أنهارٍ كثيرة قطعها في حياته القصيرة الملعونة. كان الألم يمنعه عن التفكير. خيّم ظلٌ عليه وهوى رجلٌ فوقه. ثم سقط ثقلٌ آخر. وآخر. وآخر. وغطّاه التراب. سمع الضجيج مرة أخرى ثم غابت الأصوات.

حين فتح عينيه رأى جثثاً عن جانبيه. القنبلة التي سقطت بينه وبين ابن خاله غطّت السوداني بالتراب. لم يبقَ ظاهراً من العبد النحيل إلاّ وجهه. بقي مفتوح العينين. كان ميتاً. لكن أحداً لم يغمض عينيه. مَنْ يغمض عيني مَنْ في هذا السهل في هذه الساعة!

أراد شاهين أن يرفع رأسه ويرى ابن خاله. هل استطاع بلوغ السنديانة؟ لم يستطعْ أن يرفع رأسه. كان الألم ينتقل إلى أسنانه الآن ووجد ذلك فظيعاً وغريباً. قرّر أن يهتف لمحمد، ثم اكتشف أن فمه مملوء وحلاً. كان غاطساً على جنبه في بركة وحل، وكان التراب يذوب ويتدفق في فمه.

حاول أن يتحرك. لم يستطع. ملأ الوحل فمه. يريد أن ينادي على محمد. يريد أن ينادي على أمه. يريد أن ينادي على أبيه. يريد أن ينادي على أخوته. لكنه لا يقدر. الوحل في فمه يمنعه. حرّك ذراعه. أخيراً استطاع تحريك ذراعه. بصعوبة وصلت أصابعه إلى فمه. أخذ يخرج الوحل من بين أسنانه. هذا سبب الألم. كان يقضم حجارة. كل هذا الوحل! أراد أن يخرج التراب الذائب من فمه كي يتكلم. يريد أن ينادي على ابن خاله. لا يريد أن يبقى وحده. يريد

أن ينادي على محمد. لكن التراب يمنعه. كلّما فتح فمه كي ينادي دخل الوحل في فمه. بكل أصابعه جعل يُخرج التراب من فمه. كان فمه مملوءاً بالتراب. كأن التراب يخرج من جوفه. كأن التراب يدخل إلى جسمه من بطنه المفتوحة، يتدفق موحلاً إلى مصارينه، ثم يجري خارجاً من زلعومه، خارجاً من فمه!

شاهين البارودي أفلح أخيراً في بصق التراب من فمه. بصق مرة وأخرى وزاح جسمه قليلاً وأخرج رأسه من جورة الوحل والدم. عندئذٍ فقط رأى أن ابن خاله محمد لم يمت، ورأى أن ابن خاله كان يزحف صوب السنديانة.

انقلب شاهين على ظهره. مصارينه الحارة اندلقت على جنبه معفّرةً بالتراب. الرذاذ همى بارداً على وجهه. سال الماء في شعره. كان الوقت يمضي والهدير لا ينتهي. ثم سكن الكون.

سكن الكون وساد الظلام كل هذا العالم. رويداً رويداً تلاشت الخلايا الرمادية في دماغ شاهين البارودي. بطيئاً أتى الموت. مغمض العينين ظلّ شاهين يرى إبر المطر تنهمر فضيّةً في ظلمات رأسه. كان يقدر أن يعدّها كمن يعدّ النجوم.

حين فتح عينيه رأى الغربان تهبط زاعقة.

روايات للمؤلف:

1 ـ **سيد العتمة**، دار رياض الريس، جائزة الناقد للرواية، 1992.

2 ـ **شاي أسود**، دار الآداب، 1995.

3 ـ **البيت الأخير**، دار الآداب، 1996.

4 ـ **الفراشة الزرقاء** (نور خاطر)، المركز الثقافي العربي، 1996، طبعة ثانية عن الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة)، 2001.

5 ـ **رالف رزق الله في المرآة**، دار الآداب، 1997.

6 ـ **كنتُ أميراً**، المركز الثقافي العربي، 1997.

7 ـ **نظرة أخيرة على كين ساي**، المركز الثقافي العربي، 1998.

8 ـ **يوسف الإنجليزي**، المركز الثقافي العربي، 1999.

9 ـ **رحلة الغرناطي**، المركز الثقافي العربي، 2002.

ربيع جابر

بيروت مدينة العالم

هارباً من دمشق ذات شتاءٍ عاصفٍ يجيء عبد الجواد البارودي ابن الـ 25 عاماً إلى بيروت ملطخاً بدماء أخيه. كيف ستكون حياته في هذه البلدة ذات الأبواب الخمسة؟ وكيف ستكون حياة أولاده؟

الجيوش المصرية تجتاح بلاد الشام في 1831 فتتحول بيروت «دكاناً مفتوحةً على البحر». المدينة تكبر والبارودي يكبر معها: يتزوج مرات ويقتني عبيداً وجارية ثم تقع الكارثة...

رواية ملحمية تنطلق من ذكريات سليمان بسترس (1905 ـ 2003) لتكشف أمامنا عالماً كاملاً فقدناه ولم نفقده تماماً بعد.

من الحروب التي تجري في منطقتنا الآن، نعود إلى حقبة ولوج الشرق في العصر الحديث... ونرى نذر العواصف الآتية.

المركز الثقافي العربي
دار الآداب ـ بيروت